

دار الكتب والوثائق القومية
الإدارة المركزية للمراكز العلمية
مركز تحقيق التراث

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان

تأليف
بدر الدين محمود العينى
المتوفى سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م

العصر الأيوبى

الجزء الأول

٥٦٥ ـ ٥٧٨ هـ/ ١١٦٨ - ١١٨٢م

تحقيق ودراسة
دكتور/ محمود رزق محمود
جامعة المنيا

الطبعة الثانية

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م)

عقد الجمان
في تاريخ أهل الزمان

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة

أ . د . محمد صابر عرب

بدرالدين العينى، محمد بن أحمد بن موسى بن أحمد،
١٣٦١ - ١٤٥١.

عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان/ تأليف بدر الدين محمود العينى؛ تحقيق محمود رزق محمود . - القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، مركز تحقيق التراث، 2010-
مج 1 ؛ 29 سم.
المحتويات: العصر الأيوبى ٥٦٥ - ٥٧٨هـ/ ١١٦٨ - ١١٨٢م
تدمك 0 - 0708 - 18 - 977
١ - التاريخ
أ - محمود، محمود رزق (محقق) ب - العنوان.
٩٠٧,٢

إخراج وطباعة:
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

www.darelkotob.gov.eg

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١٠/٧٠٣٧

I.S.B.N. 977 - 18 - 0708 - 0

شكر وتقدير

يتقدم المحقق بالشكر للباحثات الفضليات بلجنة التاريخ بمركز تحقيق التراث اللاتى شاركن فى إنجاز هذا العمل بكل إخلاص وتفان .

وهن :

الدكتورة/ لبيبة إبراهيم مصطفى محمد | **نعمات عباس محمد**

تماضر زكريا غنام | **نفيسة محمد محمد صميدة**

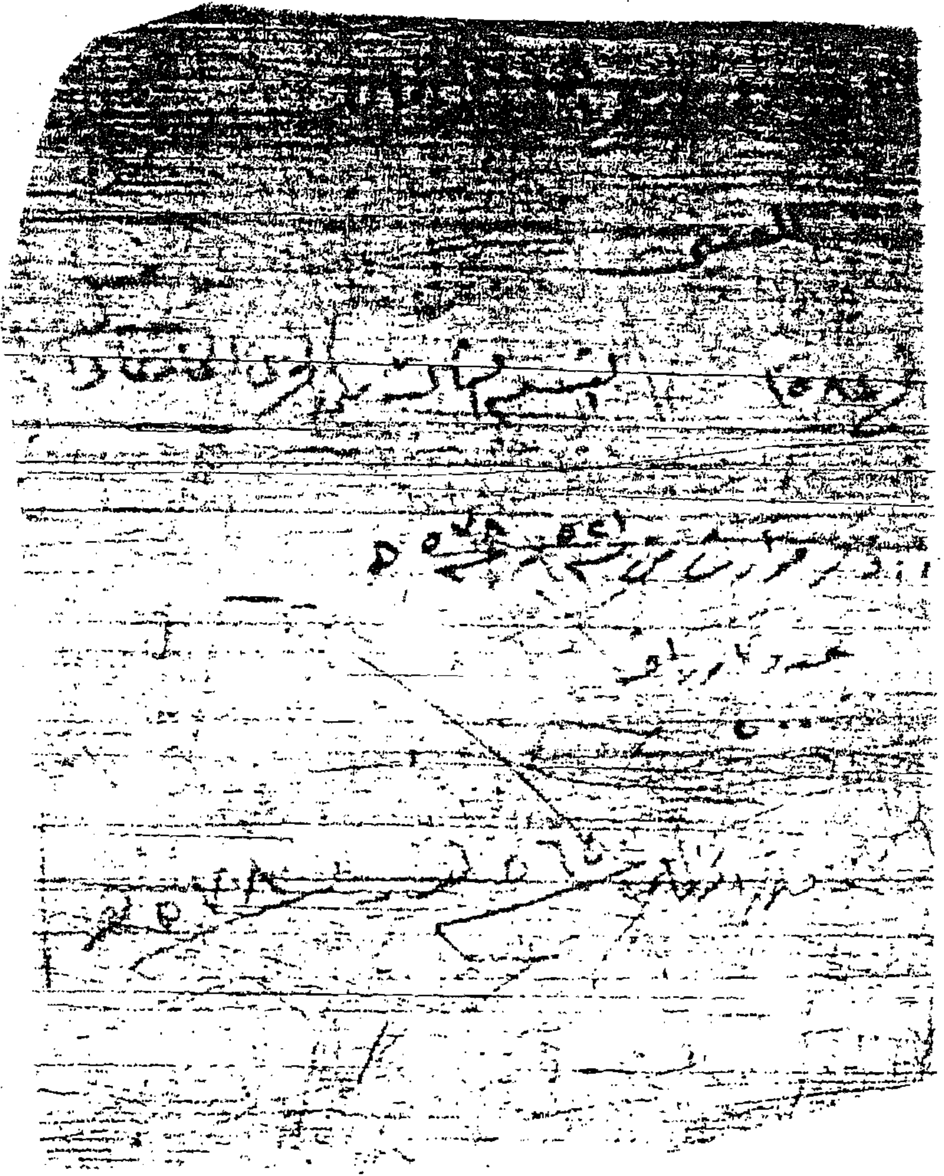
صور من المخطوطات

لوحة ١ من نسخة معهد المخطوطات العربية رقم ١٩/٢٩١١ المصورة
من مكتبة أحمد الثالث بتركيا . توضح بداية سنة ٥٦٥هـ.

لوحة ٢ من نسخة معهد المخطوطات العربية رقم ١٩/٢٩١١ المصورة
من مكتبة أحمد الثالث بتركيا.



لوحة ٣ من نسخة معهد المخطوطات العربية رقم ١٩/٢٩١١ المصورة
من مكتبة أحمد الثالث بتركيا .



لوحة ١ من نسخة دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ

لوحة ٢ من نسخة دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ

لوحة ٣ من نسخة معهد المخطوطات العربية رقم ١٩/٢٩١١
المصورة من مكتبة أحمد الثالث بتركيا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بعد دراستى لفترة العصر الأيوبى التى كتبها العينى فى سفره الكبير «عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان» شعرت بالمكانة الهامة له بين ثبت المصادر التى تناولت هذه الحقبة التاريخية ؛ إذ تضمن المزيد من المعلومات والإضافات الجديدة التى كنا نحتاج إليها ، فضلا عن ذلك استشفيت ملحوظتين ربما غابتا عنى قبل ذلك وهما :

أولاً : ظاهرة الفروسية التى تعنى تمسك الفارس بمبادئ أخلاقية نبيلة فى علاقته بخصمه ، أو بغير خصمه من شتى صنوف البشر حوله ، وهذه المبادئ فى كثير من جوانبها قد تفوق مايعرفه العالم المعاصر من مبادئ حقوق الإنسان . إذ كان الفارس العربى يغضب أمام أية محاولة لخرق عرف أو تقليد أخلاقى ، ويرق أمام أية عاطفة إنسانية نبيلة ، وكان هذا موروثًا عربيًا إسلاميًا ، انتقل إلى أوربا فى العصور الوسطى عبر الفاتحين المسلمين ، فى بلاد الأندلس وصقلية ، وعبر الاحتكاك العنيف بين فرسان المسلمين والغزاة الصليبيين ، إبان الحروب الصليبية ، وخاصة العصر الأيوبى .

ثانياً : ظاهرة الدوافع التى انطلقت منها أوربا لغزو المشرق الإسلامى ؛ وتجاهلها الكثرة من مؤرخى أوربا ، حيث صورت هذه الكثرة تلك الدوافع على أنها دينية أى بغرض استرداد بيت المقدس ـ مهد السيد المسيح عليه السلام ـ من أيدى المسلمين ، وقد كان هذا هو الزعم المعلن من قبل بابوات روما ، وأباطرة وأمراء أوربا ، وقد انطلى هذا الزعم على بعض الأتقياء .

أما الهدف الحقيقى ؛ فكان المغنم المادى ، وانتهاب ثروات بلاد الشرق ، وإيجاد مقاطعات للأمراء الأوربيين الذين كانوا مصدر قلاقل لأصحاب النفوذ هناك ، بالإضافة إلى طمع المدن التجارية فى إيطاليا وغيرها ، فى السيطرة على طرق التجارة التى تدر عليهم أرباحاً طائلة .

على أى حال كان العينى صاحب فضل فى جمع ونقل مادته العلمية عن العصر الأيوبى من مصادرها الأصلية ، التى كان أصحابها شهود عيان على الأحداث ، كابن الأثير ، والعماد الأصفهانى الكاتب ، وابن شداد ، وغيرهم ممن عاصروا الأحداث ، وأهلتهم مكانتهم فى الدولة للاطلاع على أدق الأسرار وأخطرها .

كذلك سجل العينى روايات كثيرة فُقدت مصادرها فلم تعد متداولة بين المؤرخين ، كنقله من الروضتين ماسجله أبوشامة عن ابن أبى طى ، وكتاب البرق الشامى للعماد الأصفهانى .

لذا جاءت كتابات العينى عن هذا العصر شبه كاملة ، فقد توافرت فيها المادة العلمية ، مما جعل لها السبق على سواها ، ومن هنا برزت قيمة المخطوط لدى الباحثين .

ولم تكن مصادفة أن أعمل على تحقيق هذا السفر العظيم ، خاصة وقد عرفت قيمته العلمية منذ أن سجلت لدرجة الماجستير ، فكان من بين المصادر المهمة التى اطلعت عليها ، وعرفت كنه مافيه من مادة علمية شائقة . لهذا شدنى هذا السفر العظيم ، وانتظرت فرصة سانحة من العمر أتفرغ فيها تماماً لإنجاز تحقيقه ، إلا أن ظروف العمل ، والشواغل ، كانت دائماً تحول دون تحقيق هذه الرغبة ، حتى شاءت إرادة الله أن يتحول الحلم إلى حقيقة واقعة . فبدأت متوكلاً على العلى القدير ، وألزمت نفسى ببرنامج عمل أسبوعى منتظم ، كنت أتوجه فيه إلى مركز تحقيق التراث ، أعمل فيه بهمة واستمتاع ، يساعدنى فى ذلك زميلات فاضلات وزملاء أعزاء ، خصصت صفحة لذكر أسمائهم وتقديم الشكر لهم .

ولقد أمضيت على هذا النحو أكثر من تسع سنوات ، أحقق كل جزئية من جزئيات المخطوط ، فكان يتزايد حماسى للعمل مع كل لوحة تنسخ ، وورقة تحقق ، وحاشية تكتب .

الكتاب ومنهج المؤلف :

لم يكن العينى مؤرخاً عادياً من المتخصصين فى عصر معين من العصور التاريخية ، وإنما كان موسوعياً وذلك شأن الكثرة الغالبة من المؤرخين المسلمين ، فقد انصب اهتمامه عند كتابته لمخطوط «عقد الجمان» على تتبع التاريخ منذ عهد آدم حتى سنة خمسين وثمانمائة . ومن ثم فإن ما قدمه فى كتابه يعد رؤية شاملة للتاريخ الإنسانى الذى جاء فى حلقات متتابعة . وكان من بين هذه الحلقات العصر الأيوبى الذى بين أيدينا . وقد بدأ حديثه عن هذا العصر بقيام الدولة الأيوبية واستمر معها حتى نهايتها .

ولم تكن كتابته عنها من النوع الإخبارى الذى يهتم بالحدث الفردى بعينه ، وإنما كانت كتابته عنها شاملة تتناول الصورة العامة دون النظر إلى الاختلافات الجزئية التى ربما تؤثر كثيراً على فهم المسار العام للأحداث .

فعند حديثه عن ملوكِ بنى أيوب وأمرائهم ؛ ذكر علاقاتهم الخاصة مع بعضهم البعض ، ومع غيرهم من شرائح المجتمع ، والدول المجاورة ، وأعدائهم من الصليبيين وغيرهم . وفى كل هذا كان موضوعيًا وأمينًا فى نقله ؛ إذ ذكر أسماء المصادر التى استقى منها مادته العلمية ، وأسماء مؤلفيها فى ترتيب وإيجاز ، باستثناء حالات قليلة . وقدم العينى ذكر حوادث كل سنة على وفيات أعيانها ، ورتب ما بعد الهجرة على السنين حتى انتهى إلى آخر سنة ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦م .

ومن ذلك أنه سجل أمر الحج منذ السنة التاسعة للهجرة فى نهاية أحداث كل سنة ، كما ضبط الأسماء المشتبهة سواء أكانت أسماء أعلام أم مدن أم بقاع .

كذلك نقل العينى العبارات المتداولة واللهجات السائدة ، والأقوال والحوارات ، كما جاءت فى مصادرها ، وهذا من غير أن يقدم لها تفسيرات مناسبة ؛ مما يترتب عليه بعض الغموض أحياناً فى كتابته لها .

ومما يؤخذ على العينى عدم اهتمامه بالأحوال الاقتصادية كزيادة النيل ونقصانه ، وغلة الأرض من حيث الوفرة والقلة ، والعمل والبطالة ، والأسعار غلاءً ورخصاً فى العصر الأيوبى ، مقارنة بما سجله عن هذه الأمور فى العصر المملوكى .

ويبدو أن السبب فى ذلك راجع إلى أن العينى كان شاهد عيان على العصر المملوكى ، بينما كان يكتب عن العصر الأيوبى نقلاً عن غيره . ومما يؤخذ أيضاً على العينى عدم دقته أحيانا فى ذكر أسماء المصادر التى ينقل عنها ؛ ففى بعض الأحيان يذكر أنه نقل عن ابن الأثير ، بينما يكون النقل من ابن كثير أو غيره .

السيرة الذاتية والتكوين العلمى للعينى :

العينى من رجالات القرن الثامن الهجرى ـ الرابع عشر الميلادى ـ وهو محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد ، أبو محمد ، بدر الدين العينى الحنفى العينتابى(١) نسبة إلى عينتاب ، إحدى قرى شمالى حلب ، وكانت قديما تسمى قلعة الفصوص .

وقد اختلفت الآراء حول تاريخ ميلاده ؛ فبعضها ذكر أنه ولد فى السادس والعشرين(٢) من رمضان سنة ٧٦٢ هـ / ١٣٦٠ م ، والبعض الآخر ذكر أنه ولد سابع عشرى رمضان(٣) ، مع أن والده سجل التاريخ الأول بخط يده(٤) ، وكانت ولادته فى درب كيكن(٥) فى قلعة عينتاب ، وهى إحدى قلاع بلاد الشام الحصينة . وقد تفتحت عيون أبناء هذه المنطقة على الجهاد ، وحب الفداء والتضحية بالنفس فى سبيل عزة الإسلام ، وكان العينى واحداً منهم .

وقد نشأ العينى فى أسرة تميز أهلها بحب العلم ، والعمل فى أشرف مهنة وهى القضاء . وكان والده حامل لواء العدل والعلم الدينى فى المنطقة(٦) ، وقد انعكس هذا بالتالى على أفراد أسرته ؛ إذ تلقى ابنه تعليماً جيداً بمقاييس ذلك العصر ، فلقنه والده مبادئ القراءة والكتابة وتعاليم الإسلام ، ثم أدخله الكُتاب فحفظ القرآن الكريم ، ولم يتجاوز عمره الثامنة ، مما يدل على ظهور ملامح الذكاء المبكر وقوة الذاكرة .

---

(١) الزركلى : الأعلام ، ج٨ ، ص٣٨ ، الطبعة الثانية ؛ جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج٣ ، ص٢١٠- ص٢١١ ، راجعها وعلق عليها شوقى ضيف ، دار الهلال .

(٢) ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ، ص٢٦٠ أ ؛ ابن تغرى بردى : الدليل الشافى على المنهل الصافى ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، ج٢ ، ص٧٢١-٧٢٢ ، ترجمة رقم ٢٤٦٥ ، الطبعة الثانية ، دار الكتب - القاهرة ١٩٩٨م .

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص١٣١ ؛ الشوكانى : البدر الطالع ، ص٢٩٤ ؛ على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج٦ ، ص٢٥ .

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص١٣١ .

(٥) ابن تغرى بردى : الدليل الشافى ، ج٢ ، ص٧٢٢ .

(٦) السخاوى : الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص١٣١ .

وبعدها بدأ العينى بدراسة القراءات السبع على يد الشيخ حسين العينتابى ، شيخ القراءات فى عصره .

أما الفقه فقد أخذه عن والده ، وقرأ عليه مقدمة أبى الليث السمرقندى فى الفقه الحنفى ، وساعده هذا على العمق فى دراسة المذهب ، حتى أن والده كان يستعين به فى منصب القضاء ، كما تولاه نيابة عنه ، فأحسن القيام بمهام منصبه .

على أية حال شكلت دراساته السابقة البنية العلمية والفكرية لحبه للعلم ، ومن ثم أخذ الرجل يبحث عن منابعه فى كل مكان ، فكانت رحلاته المتعددة بقصد التزود بالعلم والمعرفة ، وأولى رحلاته كانت إلى حلب سنة ٧٨٣ هـ / ١٣٨١م[1] ، فأخذ الفقه عن جمال الدين يوسف بن موسى الملطى ، وعلوم اللغة على الشيخ شمس الدين محمد الراعى بن الزاهد ، وغيرهم من العلماء . ثم عاد مرة ثانية إلى عينتاب ليفيض عطاؤه العلمى على أبناء بلده .

وكانت وفاة والده عارضاً أعاقه إلى حد ما عن تأدية عمله على الوجه الأكمل ، وبالرغم من هذا ارتفع على مستوى حزنه مبتعداً عن كل مايؤثر فى نفسه ونشاطه العلمى . لذا اتجه ناحية المدن الشمالية «بهسنا وسميساط» ؛ فنهل من علمائهما من أمثال الشيخ ولى الدين البهسنى ، ثم توجه إلى أملاك دولة ذى الغادر التركمانية ، فالتقى بالشيخ علاء الدين الكختاوى فأخذ عنه ، وكان محطه الأخير فى هذه الرحلة ملطية ، فالتقى بعلمائها ، فأخذ عن الشيخ بدر الدين الكشافى .

ومن الجدير بالملاحظة أن إنجازات العينى الهائلة خلال هذه الفترة كانت لاتتناسب مع صغر سنه ، الذى لم يكن يتجاوز الثانية والعشرين وهى سن لاتمكن صاحبها من تحصيل كل هذه العلوم والمعارف ، إلا أن الرجل استطاع أن يحقق أضعاف أضعاف ما حققه أقرانه ممن هم فى سنه .

---

(١) الخطط التوفيقية ، ج٦ ، ص٢٥ ، ط٢ ، بولاق ١٣٠٥ .

وقد ظل الظمأ العلمى يلاحق نفس العينى على الرغم من كل ما حققه . لذا قام برحلة جديدة إلى دمشق عام ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م ؛ فالتقى بعلمائها كالبحر أحمد بن إسماعيل بن الكشك ، وشرف الدين بن الكويك ، والعز بن الكويك ، فأخذ عنهم ، كما احتك بطلبة المدرسة النورية(١) .

وبعدها رجع مرة ثانية إلى حلب ، متحصناً برصيد علمى وافر ، جعله جديراً باحترام كوكبة من علماء حلب ؛ أمثال الشيخ زين الدين حيدر بن محمد الحنفى ، وجمال الدين يوسف الملطى ، وأبو الروح عيسى بن الخاص السرماوى ، فأجازوا له الإفتاء والتدريس بحلب ، ولم يكن عمره تجاوز الخامسة والعشرين .

وفى سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤م توجه إلى دمشق للتدريس بها ليثبت لعلمائها أنه قادر على العطاء المتجدد . وقد كان له ما أراد . ثم شد رحاله إلى مكة والمدينة لتأدية مناسك الحج والزيارة ، وليتزود من علمائهما ، وعاد بعد ذلك إلى مسقط رأسه عينتاب ، بعد أن أفاد واستفاد .

غير أن حنيناً دينياً وعلمياً شده لزيارة بيت المقدس فتوجه إليها ، فحقق بذلك هدفين : الزيارة ، والالتقاء بالشيخ علاء الدين أحمد بن محمد السيرامى الحنفى ، فلازمه حتى اقتنع خلالها السيرامى بإمكانيات العينى العلمية ، فدعاه للتوجه معه إلى القاهرة ، فلم يتردد العينى ولو لحظة واحدة فى اقتناص هذه الفرصة ، فحضر مع شيخه السيرامى إلى القاهرة سنة ٧٨٨ هـ /١٣٨٦م ، وانخرط فى سلك صوفية المدرسة الظاهرية برقوق ، فاستفاد من بقائه بها ،إذ كان قريباً من شيخه السيرامى ، فقرأ عليه مجموعة من الكتب القديمة فى الفقه والأصول والمعانى(٢) . كما أن وجود العينى بالقاهرة أتاح له فرصة اللقاء والأخذ عن بعض علمائها ، أمثال : زين الدين عبدالرحيم العراقى ، والشيخ عمر بن رسلان ، وسراج الدين عمر البلقينى ، وقطب الدين عبد الكريم ابن محمد ، وعلاء الدين الضوى ، وتغرى برمش بن يوسف الفقيه ، وغيرهم .

---

(١) عن المدرسة النورية انظر : النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٤٠٦ .
(٢) السخاوى : الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص١٣١ .

وقد أظهر العينى نبوغاً واضحاً فى القاهرة ، فكثر حساده الذين انتهزوا وفاة شيخه السيرامى سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م ، وقد كان سنده ، وأوقعوا بينه وبين الأمير جهاركس الخليلى أمير آخور ، الذى أمر بنفيه ، ولم يشفع له من النفى إلا شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى ، فبقى مدة فى القاهرة ، إلا أنه شعر بأن الأمور لاتسير حسبما يريد ، لهذا قرر العودة إلى مسقط رأسه عينتاب فى ربيع الآخر سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م .

كانت هذه المرحلة ضرورية فى حياة العينى ، إذ كانت مرحلة التجربة والاختبار ، والمعاناة والابتلاء ، فضلاً عن كونها مرحلة الاطلاع والتثقف ، إذ كوّنت شخصيته ، وعرّفت الناس قدره ، وحققت شهرته وفضله ، حتى كتب ابن تغرى بردى عنه « فريد عصره ووحيد دهره ، عمدة المؤرخين ومقصد الطالبين »[١] .

على أية حال اشتغل العينى بعد رجوعه إلى عينتاب بالتدريس والإفتاء والوعظ ، نائياً بنفسه عن شئون السياسة ، إلا أن حوادث الدهر لم تتركه يهنأ بحياته ، فقد حدث فى الدولة الجركسية صراع بين كل من يلبغا ومنطاش ضد السلطان برقوق ، فتصدى العينى بالكلمة للمعارضين لبرقوق حتى أباح للناس قتالهم ، مما أوغر صدر منطاش عليه ؛ فحاصر عينتاب سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٨٩م ، مما اضطر العينى للاحتماء بقلعة المدينة ، وظل بها حتى فك منطاش الحصار عنها .

ورحل العينى وأسرته إلى حلب سنة ٧٩٣هـ / ١٣٩٠ م ، إلا أنه لم يجد فيها ذاته ، فتوجه إلى القاهرة بعد أن عركته الحياة ، ورأى بثاقب بصره أنه لا مقام له بها إلا إذا كان قريباً من صانعى القرار ؛ لهذا اقترب من الأمراء والسلاطين وصادقهم ، أمثال الأمير جكم من عوض ، وتغرى بردى القردمى ، وقلمطاى العثمانى[٢] ، فقدموه للسلطان الظاهر برقوق ، فأعجب بعلمه ومنطقه ، فطلب منه تعليم المماليك الأتراك الفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة ، فأثبت قدرة فائقة . فلما تولى الناصر فرج بن برقوق أمر السلطنة ، عين العينى فى حسبة القاهرة وضواحيها ، فى مستهل ذى الحجة سنة ٨٠١هـ/١٣٩٩م ، بدلا من تقى الدين أحمد بن على المقريزى[٣] .

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٥ ، ورقة ٣٤٠ .(مخطوط بدار الكتب المصرية ، تاريخ تيمور ، رقم ١٢٠٩) [ميكروفيلم ٥٣٣٥٩] .

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٥ ، ص١٤١ ؛ السخاوى : الذيل على رفع الإصر ، ص٣٣٢ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص١٣٢ .

(٣) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٩٧٠ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ، ج٣ ، ص١٣٢ .

فكان هذا بداية الصراع بين العينى والمقريزى ، ذلك الصراع الذى استمر بينهما حتى توفى المقريزى ، غير أن العينى لم ينعم كثيراً بهذا المنصب ، إذ عزل سنة ٨٠٢ هـ/ ١٣٩٩م ؛ فخلفه جمال الدين الطنبدى عن طريق البذل ، إلا أنه لم يستمر فيه أكثر من ثلاثة أشهر ، ثم أعيدت الحسبة للعينى مرة ثانية ، ولكنه لم يستمر فيها طويلاً حيث صرف عنها بالشيخ تقى الدين المقريزى . وقد تكرر صرفه وإعادته لحسبة القاهرة أكثر من مرة خلال عصر سلاطين الجراكسة وحتى وفاته .

وقد عمل العينى فى عدة وظائف منها ؛ ناظر الأحباس ، وعمل بالوعظ والفتوى ، ودرس الفقه بالمدرسة المحمودية ، كما برع فى وظيفة القضاء .

وقد شغل نفسه بتأليف الكتب وتصنيفها ، من ذلك كتاب « معانى الأخبار فى رجال معانى الآثار» ، «المقاصد النحوية فى شرح شواهد شروح الألفية» .

ولم ينعم العينى كثيراً بالبعد عن الوظائف العامة والتفرغ للتأليف ؛ ففى سنة ٨١٩هـ/ ١٤١٦م كلفه سلطان مصر المؤيد شيخ بتولى الحسبة ، فكان همه الأول معالجة المشكلة الاقتصادية خاصة الخبز ، وقد نجح فى ذلك ، فازداد حنق حساده عليه ، خاصةً ابن البارزى الذى كان له ثقله السياسى لدى المؤيد شيخ ، فأوعز إليه بإقالة العينى وتولية ابن شعبان بدلاً منه ، فتم ذلك ، إلا أن السلطان خلع عليه بوظيفة نظر الأحباس فى السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ٨١٩هـ /١٤١٦م ، فكان هذا ترضية له .

وفى الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٨٢٤ هـ /١٤٢٠م ، كلف المؤيد شيخ العينى بالتوجه إلى بلاد ابن قرمان (قونية) ، لكشف أخبارها والحصول من نوابها على يمين الولاء ، فالتقى بأمير البلاد على باك بن قرمان ، ونجحت مهمته ، فأعجب المؤيد شيخ بالعينى ، وسمح له بالدخول إلى قصره أربعة أيام دون وساطة ، وكان ينوى تعيينه فى الحسبة ، لولا أن ابن البارزى وقف حجر عثرة فى ذلك ، فتم تعيين إبراهيم بن الحسام فيها[١] .

(١) الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، ج٢ ، ص٤٧٣ .

ولقد تبسم الحظ للعينى بعد تولى الظاهر ططر للسلطة سنة ٨٢٤ هـ /١٤٢٠م ، فقد كانت تربط بينهما علاقة حميمة ، فألف العينى له كتاب « الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر» ، و «القدورى» فى فقه الحنفية ، وترجمه للغة التركية بناء على أمر ططر[١] .

ولما تولى الأشرف برسباى حكم مصر فى ربيع الأول سنة ٨٢٥هـ / ١٤٢٢م ، قَرَّب العينى منه ، وأسند إليهِ حسبة القاهرة ومصر ، فضلاً عن النظر فى الأحكام الشرعية وبذلك اتسعت سلطات العينى ، إلا أنه واجه فى عام ٨٢٨ هـ /١٤٢٤م ثورة من العامة الجياع ؛ بسبب نقص الخبز فى الأسواق ، وقد شَهَّر المقريزى ، وابن حجر بهذا الأمر لمنافستهما للعينى[٢] ، ولكن العينى ظل فى الحسبة حتى المحرم سنة ٨٢٩ هـ /١٤٢٥م وتولاها بعده الأمير أينال الششمانى[٣] ، فانهارت الحياة الاقتصادية فى عهده[٤] .

وقد عرف السلطان قدرات العينى العلمية والإدارية والفقهية ، فأراد أن يستثمرها فى أفضل عمل ، ومن ثم أوكل إليه منصب قاضى القضاة ، وهو أرفع المناصب الدينية فى البلاد ، وكان العينى مثالاً للقاضى المؤمن برسالته ، لاتأخذه فى الحق لومة لائم ، يؤكد هذا قول الأشرف برسباى لأمرائه وأعوانه «لولا العينى ماكنا مسلمين» [٥] .

وبالرغم من معرفة الحكام لقدر العينى فإن بعضهم وقع تحت تأثير الحاقدين والحساد له ، فعزل العينى عن القضاء ، وتولى بدلاً منه عبد الرحمن التفهنى فى صفر سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م ، وكُلف العينى بتولى الحسبة إضافة لما بيده من الأحباس ، وكان ذلك فى الرابع من ربيع الآخر سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م [٦] .

وفضلاً عما سبق قام العينى بدور المستشار الخاص للشئون السياسية والثقافية والدينية والتعليمية للسلطان برسباى ؛ إذ كان يقوم نيابة عنه باستقبال بعض الوفود [٧] ، كما كان يقرأ الرسائل الواردة له من الدول والولايات المجاورة ، بالإضافة إلى قيامه بدور المترجم للسلطان ، من العربية إلى التركية وبالعكس .

(١) السخاوى : الذيل على رفع الإصر ، ص٤٣٤ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص١٣٢ - ١٣٣ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٤ ، ص٢٨٢ .
(٣) الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، ج٣ ، ص٩٩ .
(٤) المقريزى : الخطط ، ج٤ ، ص٧١٠ .
(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٥ ، ص٣٤٣ .
(٦) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٥ ، ص٣٤٣ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج٣ ، ص٤٣٥
(٧) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج٣ ، ص٤٦٠ .

وكان يقرأ له تاريخ الأمم السابقة ، ويبين له مايتخذ منها من عبر[١] ، كما يعلمه أمور الدين وقواعد العدل ، والبعد عن الظلم والقهر ، وحسن معاملة العلماء خاصة علماء الدين . ومما يرويه المقريزى فى هذ الشأن ؛ أن العينى طلب من السلطان أن يوسِّع على قراء البخارى بالقلعة فى شعبان ورمضان ، فخلع على أكثر من عشرين عالماً صوفاً مربعاً ، وسنجاباً طرياً[٢] .

وكانت شفاعة العينى لدى السلطان لاترد ، فيقال أن العينى عندما طلب من السلطان العفو عن الفقيه أحمد الكورانى ، الذى كان قد قرر التشهير به ، وضربه ونفيه خارج البلاد ، قبل السلطان شفاعته فيه .

على أية حال وصل العينى إلى قمة التألق الوظيفى فى عصر السلطان برسباى ، إذ عاد مرة ثانية إلى القضاء فى السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٨٣٥هـ/١٤٣١م ، بالإضافة إلى الحسبة ونظر الأحباس ، وهى أهم الوظائف فى الدولة . كذلك كان للعينى الفضل فى تشجيع السلطان برسباى على قيامه بالغزوات البحرية ضد جزيرة قبرص سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م التى انتصر فيها .

ولما مات برسباى وتولى جقمق ، عزل العينى عن القضاء ، وقد لزم العينى بيته إلى أن عينه الملك الظاهر جقمق فى حسبة القاهرة مرتين[٣] ؛ مرة فى ربيع الأول سنة ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م ، ومرة فى ٢٧ شوال سنة ٨٤٦ هـ / ١٤٤٢ م . ثم عزل فى صفر سنة ٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م ، وبعدها ظل بعيداً عن السلطة حتى توفى فى ذى الحجة سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م .

مكانة العينى العلمية :

تحدد المكانة العلمية لأى عالم من خلال شخصيته وإبداعاته وإنتاجه العلمى ، وآراء علماء عصره فيه .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج١٥ ، ص١١٠ - ١١١ .
(٢) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص٦٦٧ .
(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٥ ، ص٣٤٤ .

وإذا طبقنا هذه القواعد على العينى نجده كوكب عصره ، وشيخ معاصريه وإمامهم ، وهذا بشهادة هؤلاء المعاصرين وغيرهم . فالمؤرخ ابن تغرى بردى يصفه بقوله« فريد عصره وعمدة المؤرخين[١]» .

والسخاوى يقول فيه « كان إماماً عالماً علامة ، عارفاً بالتصريف والعربية وغيرها ، حافظاً للتاريخ واللغة ، كثير الاستعمال لها ، مشاركاً فى الفنون ، لايمل من المطالعة والكتابة »[٢] .

وقد ركز الشوكانى[٣] على عطاء العينى العلمى ، فقال : «وانتفع به الناس وأخذ عنه الطلبة من كل مذهب» . وابن العماد الحنبلى يقول عنه : «كان فصيحاً ، عارفاً للغتين العربية والتركية ، قرأ وسمع ما لا يحصى من الكتب والتفاسير ، وبرع فى الفقه والحديث والتفسير واللغة والنحو والتصريف والتاريخ ، وكان أحد أوعية العلم ، وأخذ عنه مالا يحصى»[٤] .

واللكنوى ، يصف العينى بأن له « سعة نظر فى الفنون كلها »[٥] .

ويستشف مما سبق أن العينى كان جهبذ عصره ، ولم يصل إلى هذه المرتبة إلا بعد أن قطع شوطاً طويلاً صنع من خلاله هذا النجاح ، ولعل من عوامل ذلك رحلاته العلمية وماشاهده من خلالها ، فضلاً عن التراكمات التراثية التى حصلها من شتى فنون المعرفة التى اطلع عليها ويأتى فى مقدمة هذه المصادر ، علوم القرآن الكريم والتفسير ، التى كانت المنهل الذى استقى منه العينى ثقافته ، وشكلت تكوينه العلمى والأدبى . وقد تفاعل العينى مع كل العلوم التى درسها ؛ وكان من نتيجة ذلك أن بدأ مشوار حياته مبكراً فى التأليف فى أغلب فنون عصره ، فكان من أهم المصنفات التاريخية التى كتبها : «عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان» ، «السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد أبى النصر شيخ» ، «سيرة الملك الأشرف» ، «الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ططر» ، «الجوهرة السنية فى تاريخ الدولة المؤيدية» ، وله بالتركية « تاريخ الأكاسرة»[٦] . كما كان له «تاريخ

(١) ابن تغرى بردى : الدليل الشافى ، ج٢ ، ص٧٢٢ ، ترجمة رقم ٢٤٦٥ .

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص١٣٣ .

(٣) الشوكانى : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ج٢ ، ص٢٩٤ ـ ٢٩٥ .

(٤) ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ج٧ ، ص٢٨٧ ـ ٢٨٨ .

(٥) اللكنوى : الفوائد البهية فى تراجم الحنفية ، ص٢٠٨ .

(٦) الزركلى : الأعلام ، ج٧ ، ص١٦٣ .

البدر فى أوصاف أهل العصر» وهو مختصر لعقد الجمان ، «مختصر المختصر» ، وهو «مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر» ، «التاريخ الكبير على السنين» فى عشرين مجلداً اختصره فى ثلاثة مجلدات ، وكتاب «التاريخ الصغير» فى ثلاثة مجلدات ، و«سيرة مغلطاى» [(١)] .

العينى وعلماء وعصره :

شهد القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى نهضة فكرية وثقافية فى مصر والشام ، ساعد على قيامها ما وفرته دولة المماليك من بعض الجوانب فى مجال الحرية الفكرية ، والإمكانات الاقتصادية ، إلى جانب هجرة كثير من علماء العصر إلى مصرأمام الزحف المغولى ، فتجمعت فى البلاد كوكبة من العلماء أثروا الحياة العلمية والثقافية ، وتركوا لنا ثروة علمية فى شتى فنون المعرفة الإنسانية ، وكان من قمم هذا العصر وشوامخه بدر الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١م ، وابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م ، والمقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م ، وناصر الدين بن البارزى وغيرهم .

وكان كل واحدمن هؤلاء العلماء يعرف قدر الآخر ويكن له غير قليل من الاحترام ، إلا أن الاختلاف فى وجهات النظر وارد عند كل منهم سواء أكان من الناحية المذهبية أو العلمية أو السياسية ، مما جعل حدة المنافسة بينهم شديدة ، فالعينى كان حنفياً ، وابن حجر العسقلانى كان شافعياً ، وكان الاختلاف المذهبى بينهما سبباً لقيام مناقشات فقهية ، تحولت فى النهاية إلى شبه صراع مذهبى ، تبين عندما عزل العينى عن القضاء ، فقام ابن حجر بقطع الخطبة عن مسجد القاضى بدر الدين حسن بن سويد ، بحجة أن المذهب الشافعى لايجيز تعدد خطبة الجمعة فى المصر الواحد[(٢)] .

كما اشتدت المنافسة أيضاً بين العينى والمقريزى ؛ إذ كان كل منهما يمثل قمة علمية شامخة فى شتى مجالات الحياة ، فعلى الصعيد العلمى حاول كل منهما أن

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن مؤلفات العينى . انظر : الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص١٣٣ - ١٣٥ .

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ، ص٩ - ١٠ .

يتصدر مقدمة مؤرخي عصره ، ليس هذا فحسب بل إن الصراع بينهما على وظيفة حسبة القاهرة وضواحيها تأجج بينهما ، خاصة بعد أن عزل السلطان الناصر فرج بن برقوق الشيخ المقريزى من الحسبة ، وولاها العينى سنة ٨٠١ هـ /١٣٩٩ م . فكان هذا الأمر بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير ، إذ أخذ المقريزى يكيل التهم للعينى ، ويصفه بممالأة الحكام ، وكان رد العينى عليه أن وصفه بالجهل وعدم المعرفة[١] .

ولم يسلم المقريزى من نقد العينى حتى بعد وفاته ؛ إذ ذكر عند ترجمته له أنه «كان مشتغلاً بكتابة التواريخ ، ويضرب الرمل»[٢] . وفى هذا تقليل من قيمة المقريزى العلمية ، إذ لا يجتمع العلم والدجل .

وقد شرب العينى من الكأس التى سقى منها المقريزى ؛ فلم يسلم من نكاية المنافسين له من أرباب الوظائف ، أمثال ناصر الدين بن البارزى - كاتب السر - الذى نجح فى إيغار صدر السلطان المؤيد شيخ ، فأبعده عن الحسبة . كما نجح ابن البارزى أيضاً فى الإيعاز إلى صهره السلطان جقمق ، فأبعد العينى عن القضاء عام ٨٤٢ هـ/ ١٤٤١م . ولا يعنى هذا أن العينى كان مضطهداً من كل معاصريه ، وإنما كانت الحرب بينه وبين المنافسين له بسبب نجاحه وتبوئه المناصب العليا التى كانوا يحلمون بتقلدها .

مصادر العصر الأيوبى التى اعتمد عليها العينى :

من أشهر من نقل عنهم العينى عند كتابته عن العصر الأيوبى القاضى الفاضل - (عبد الرحيم البيسانى المتوفى سنة ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠م) الذى كان من ألصق الناس بصلاح الدين . وقد عاصر فترة انتقال الحكم من الفاطميين إلى الأيوبيين . وعمل بمثابة مستشار خاص لصلاح الدين ، وقد بلغت ثقته به حداً كبيراً حتى أنابه فى إدارة شئون مصر فى الفترة من سنة ٥٨٥ - ٥٨٨ هـ / ١١٨٩ - ١١٩٢م إبان حربه ضد الحملة الصليبية الثالثة . واعترف صلاح الدين بفضله بقوله « ما فُتحت البلاد بالعساكر إنما فُتحت بكلام القاضى الفاضل» . وهذا يؤكد خصوصية دور القاضى الفاضل لدى صلاح الدين .

(١)انظر عقد الجمان ، ج٢٥ ، ورقة٥١ . مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٥٨٤ تاريخ .

(٢)عقد الجمان ، ج١٩ ، ورقة ٢٣٤ ؛ ج٢٥ ، ورقة ٧٢٥ .

كما نقل العينى أيضاً عن العماد الأصفهانى ؛ وهو عماد الدين أبو عبد الله بن صفى الدين أبو الفرج محمد بن نفيس الدين ، الملقب بالعماد الكاتب ، المتوفى سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠١م ، الذى يعد حجة فى فترة من فترات العصر الأيوبى ، بحكم عمله كاتباً فى ديوان الإنشاء بمصر فى عصر صلاح الدين ، ولازمه فى حله وترحاله ، حتى أصبح بمثابة سكرتير خاص .

وقد اقتبس العينى من كُتب العماد الأصفهانى الكثير ؛ خاصة «البرق الشامى» ، «الفتح القسى فى الفتح القدسى» ، «خريدة العصر وجريدة القصر» ، فضلاً عن بعض أشعار ديوانه . وهذه الكتب تناولت أحداثاً هامة وأخباراً قيمة ؛ فالبرق الشامى ذكر حياة العماد الأصفهانى فى العراق ، منذ كان فى خدمة السلاجقة وحتى وفاة صلاح الدين الأيوبى ، أى من سنة ٥٦٢ هـ - ٥٨٩ هـ /١١٦٧ - ١١٩٣م .وفى هذه الفترة اتصل بنور الدين محمود ومن بعده بصلاح الدين الأيوبى .

أما « الفتح القسى» فقد تناول تحرير فلسطين وبلاد الشام من يد الفرنجة فى الفترة من سنة ٥٨٣ هـ - ٥٨٩هـ / ١١٨٧م - ١١٩٣م .

أما الكتاب الثالث «الخريدة» فقد غلب عليه الطابع الأدبى . وهو مقسم إلى عدة أقسام ؛ قسم عن شعراء الشام ، قسم عن شعراء مصر ، قسم عن شعراء العراق ، وقسم خاص بشعراء اليمن والمغرب .

كذلك اعتمد العينى على كتابى ابن الأثير - (على بن أحمد بن أبى الكرم) - المتوفى سنة ٦٣٠ هـ /١٢٣٣ م ؛ فالأول كتاب «التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية» وهو يتناول تاريخ ملوك الموصل من الأتابكة فى الفترة من سنة ٤٧٧ - ٦٠٧هـ / ١٠٨٤ - ١٢١١ م .

والثانى كتاب «الكامل فى التاريخ» وهو موسوعة كبيرة فى التاريخ العام للعالم الإسلامى . ابتدأه بأول الزمان ، وأنهاه بعام ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م .

كذلك نقل العينى من كتاب «الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية» ، لأبى شامة - (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى) ، المتوفى سنة

٦٦٥هـ/١٢٦٧م . وهذا الكتاب سجل فيه أبو شامة أغلب ماكتبه ابن أبى طى ـ فتاريخ ابن أبى طى مصدر على جانب كبير من الأهمية ، لأنه تناول بعناية ودقة تاريخ العالم الإسلامى كله ، وأعطى مدينة حلب قدرًا ملحوظاً من اهتمامه ، وذكر حاجى خليفة أن ابن أبى طى رتب تاريخه على طريقة الحوليات [1] . وقد فُقدت كتب ابن أبى طى ، والفضل يرجع إلى أبى شامة فى معرفتنا بما كتبه ابن أبى طى . وقد تميز أسلوب ابن أبى طى بأنه مجرد من الزخرف ، واقعى ، مختصر ، مباشر فى معالجته للموضوعات .

وترجع أهمية كتاب «الروضتين» أيضا إلى أنه نقل لنا ماكتبه العماد الكاتب فى كتابه « البرق الشامى» ، وهذا الكتاب الأخير فقدت معظم مجلداته ، ولا يوجد منه سوى الجزء الثالث والجزء الخامس بمكتبة البودليان بجامعة أكسفورد .

كذلك أخذ العينى من كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » المعروف بسيرة صلاح الدين ، لابن شداد ـ(بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن شداد) المتوفى سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤م . وأهمية هذا الكتاب بالنسبة للعينى أن ابن شداد كان من بين معيَّة صلاح الدين ؛ التحق بخدمته سنة ٥٨٤ هـ /١١٨٨م ، ولم يفارقه فى سلم أو حرب منذ ذلك التاريخ وحتى وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م .

لذلك كان ابن شداد شاهد عيان على العصر ، وهو يوضح ذلك بقوله فى حوادث سنة ٥٨٤ هـ حيث قال : « منذ هذا التاريخ ماسطرت إلا ما شاهدته أو أخبرنى به من أثق به خبراً يقارب العيان » . وقد ولاه صلاح الدين قضاء العسكر وقضاء القدس بعد فتحها . ولما توفى صلاح الدين اتصل ابن شداد بالملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب .

نسخ المخطوطة :

للمخطوطة نسخ عديدة اعتمدنا على نسختين ؛ رمزنا للنسخة الأولى بالرمز (أ) ، وللنسخة الثانية بالرمز (ب) وهى النسخة المساعدة .

---

(١) حاجى خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص٢١٤ . ط . أولى .

النسخة الأولى : مصورة من معهد المخطوطات العربية عن مخطوطة مكتبة أحمد الثالث بتركيا رقم ١٩/٢٩١١ وقد عثرت عليها الباحثة الفاضلة/نعمات عباس ، فلها الشكر ، وهى تقع فى تسعة عشر جزءاً ، يهمنا منها الجزءين الآتيين :

الجزء الثانى عشر : من سنة ٥٢١ هـ إلى سنة ٥٧٨هـ . وهو مكون من ٢٢٧ ورقة مكتوبة بخط المؤلف سنة ٨٣١ هـ ، ومسطرتها ٣١ سطراً .

الجزء الثالث عشر : مأخوذ عن مكتبة ولى الدين بتركيا ، تحت رقم ٢٣٩٠ . وتبدأ حوادثه من سنة ٥٧٩ هـ إلى سنة ٦٢٠ هـ . وهذه النسخة بخط المؤلف أيضاً ، كتبها سنة ٨٣٢ هـ . وعدد أوراقها ٢٢١ ورقة ، ومسطرتها ٣١ سطراً .

أما النسخة الثانية : فقد رمزنا لها بالرمز ب ، وهى نسخة ملفقة تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ ، بدار الكتب المصرية ، وتتكون من ستة وثلاثين جزءاً . اعتمدنا فيها على الأجزاء الآتية :

القسم الثالث من الجزء الحادي والعشرين [ميكروفيلم ٣٥٧٥٥] ويشتمل على السنوات : من ٥٢١ هـ ـ ٥٧٨ هـ .

القسم الأول من الجزء الأول [ميكروفيلم ٣٥٥٧١] ويشتمل على السنوات : من ٥٧٩ هـ ـ ٥٩٢ هـ .

القسم الثانى من الجزء السابع عشر (ميكروفيلم ٣٧٦٦٦) ويشتمل على السنوات : من ٥٩٢هـ / ٦٢٠ هـ .

القسم الأول من الجزء الثامن عشر (ميكروفيلم ٣٥٧٥٦) ويشتمل على السنوات : من ٦٢١ هـ ـ ٦٣٥هـ .

القسم الثانى من الجزء الثامن عشر (ميكروفيلم ٣٦٣٩٥) ويشتمل على السنوات : من ٦٣٥هـ ـ ٦٥٦ هـ .

وقد اعتمدنا على هذه النسخة كنسخة مساعدة حتى سنة ٦٢٠ هـ . ثم اعتمدناها أصلاً بعد ذلك لاستكمال السنوات من ٦٢١ هـ إلى ٦٤٧ هـ ، لعدم وجود هذه السنوات فى نسخة معهد المخطوطات التى بين أيدينا .

منهج التحقيق :

حرصنا فى عملنا على الالتزام بالنص الأصلى الذى جاء بالنسخة الرئيسة من المخطوط ، لكن الأمر فى بعض الأحيان كان يتطلب التدخل من أجل تقويم النص ، نتيجة لتصحيف أو تحريف وقع فى بعض الكلمات ، ربما يكون من الناسخ . بالإضافة إلى تكملة بعض الكلمات أو العبارات التى سقطت من المؤلف أو الناسخ بعد الرجوع إلى النصوص التى نقل عنها من المصادر . وحينئذ كنا نضع ما سقط بين حاصرتين .

كما قمنا بتقسيم الصفحات إلى فقرات مع مراعاة وضع علامات الترقيم ، حتى يسهل على القارئ متابعه النص وتحصل الاستفادة الكاملة من التحقيق .

ثم قمنا بتحقيق أسماء الأعلام والأماكن والبقاع . كما استخرجنا التعريفات الخاصة بالمصطلحات الواردة فى النص .

وبعد ، ،

الحمد لله الذى وفقنا لهذا العمل بفضله ومنه ، وأول ما يعن لنا هنا بعد شكر الله تعالى ، التقدم بالشكر والعرفان للسيد/ **سمير غريب** رئيس مجلس إدارة الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية ، والأستاذ/ **السيد حسن عرب** مدير عام مركز تحقيق التراث ، كما أتقدم بشكرى وتقديرى للزميلة الفاضلة الدكتورة/ **لبيبة إبراهيم مصطفى محمد** على الجهد الكبير الذى بذلته فى جميع مراحل تحقيق هذا الكتاب ، ولمراجعتها الدقيقة للتجربة الأخيرة للكتاب قبل اعتماده للطبع ، وللباحثات الفضليات اللاتى ساهمن معنا فى بدايات هذ العمل ثم حالت ظروف عملهن من الاستمرار ، وهن :

السيدة/ نجوى مصطفى كامل ، السيدة /**نفيسة محمد رشاد** ، السيدة/ **قدرية إبراهيم** ، السيدة/ **خلود مصطفى** . كما نشكر السيدة/ **إيزيس سامح زكى** التى قامت بنسخ الجزء الأكبر من هذا السفر .

كذا نتقدم بالشكر للسيد المهندس/ مدير مطبعة دار الكتب وللسادة العاملين معه .

والله من وراء القصد .

دكتور/ محمود رزق محمود

تحريرًا فى : ٢٠٠١/٩/١٥م الهرم ــ الأريزونا

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الخامسة والستين بعد الخمسمائة★

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستنجد[١] بالله ، وصاحب مصر العاضد[٢] ، والوزير بها صلاح الدين يوسف بن أيوب[٣] ، وقد كتب إلى نور الدين محمود[٤] بن زنكى يستنجده على الفرنج ؛ لأنهم حاصروا مدينة دمياط[٥] فى صفر من هذه السنة «خمسين يوما» ، بحيث ضيقوا على أهلها ، وقتلوا منهم خلقا لا يحصون ، وهم فى أمم لا يحصون كثرة ، قد اجتمعوا من البرّ والبحر ؛ رجاء أن يملكوا الديار المصرية ، وخوفا من استيلاء المسلمين على القدس الشريف[٦] .

وكتب صلاح الدين إلى نور الدين يطلب منه أن يرسل إليه بأمداد من الجيوش ؛ فإنه إن خرج من مصر خلفه أهلها بسوء ، وإن غفل عن الفرنج أخذوا دمياط وجعلوها معقلا لهم ، يتقوون به على[٧] أخذ مصر ، فأرسل إليه ببعوث كثيرة يتلو بعضها بعضًا .

(★) يوافق أولها ٢٥ سبتمبر ١١٦٩ م .

(١) هو أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفى ، الخليفة العباسى . تولى الحكم من سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠م إلى وفاته سنة ٥٦٦ هـ/١٧١١م . انظر : ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص١٥٠- ١٥٥ ، القاهرة ١٩٦٣م ؛ الكامل فى التاريخ ، ج١٠ ، ص٢٨- ٢٩ ، بيروت ١٩٨٧م ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص ١٧٧ - ١٧٨ ، شيكاغو ١٩٠٧ م ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١ ، ص١٩٥- ١٩٦ ، القاهرة ١٩٥٣م ؛ السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٤٤٢ - ٤٤٤ ، مصر ١٩٥٩م .

(٢) هو أبو محمد عبد الله الملقب بالعاضد بن يوسف بن الحافظ محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم ، العبيدى الفاطمى ، آخر ملوك العبيديين ، توفى بمصر سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص١٠٩ - ١١٢ ، بيروت ، دار صادر ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ج١ ، ص٢٦٧- ٢٦٩ ، بيروت ١٩٨٥م ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٣٢٨- ٣٢٩ ، القاهرة ١٩٦٧م (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) . وستأتى ترجمته فى هذا الجزء فى وفيات سنة ٥٦٧هـ .

(٣) هو أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذى ، الملك الناصر صلاح الدين ، صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية ، توفى بدمشق سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٤م انظر : العماد الكاتب : الفتح القسى ، ص٦٢٧ - ٦٢٩ ؛ وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٣٩ - ٢١٨ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص ٢٧٢ - ٢٧٩ .

(٤) هو الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكى بن قسيم الدولة آق سنقر التركى ، سلطان الدولة النورية ، توفى بدمشق سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٣م . انظر تفصيل ترجمته فيما سيأتى من هذا الجزء ؛ الباهر ، ص ١٦١- ١٦٥ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩١- ٢٠٥ ؛ وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٤٨- ١٥١ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٧٧- ٥٨٥ ، القاهرة ١٩٦٢م .

(٥) عن تفاصيل حصار الفرنج لدمياط ، انظر : البندارى : سنا البرق الشامى ، ص ٨٦- ٨٧ ، تحقيق فتحية النبراوى ، مصر ١٩٧٩م ؛ الباهر ، ص١٤٤ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٥٦- ٤٥٧ ؛ مفرج الكروب ، ج١ ، ص١٧٩ .

(٦) «وخوفًا من المسلمين أن يملكوا القدس الشريف» .فى نسخة ب .

(٧) «إلى» فى نسخة ب .

واغتنم نور الدين غيبة الفرنج عن بلادهم فصمد إليها فى جيشه فجاس خلال الديار لهم «وقتل من رجالهم»[١] وسبى من نسائهم وأطفالهم شيئًا كثيرًا .

وأجلت الفرنج عن دمياط ؛ لأنه بلغهم أن نور الدين (رحمه الله) قد حصر بلادهم ، وقتل خلقًا من رجالهم ، وسبى كثيرًا من نسائهم ، وغنم مالاً جزيلاً من أموالهم . ولما أجلت الفرنج عن دمياط ؛ فرح المسلمون ونور الدين وصلاح الدين على ذلك فرحًا شديدًا ، وأنشد الشعراء فى ذلك كل منهم قصيدًا[٢] .

وفى تاريخ[٣] بيبرس : وفيها قدم الفرنج دمياط وحاصروها ، وذلك أن أسد الدين [شيركوه][٤] لما ملك مصر خاف الفرنج الذين بالساحل فكاتبوا أهل صقلية والأندلس ؛ يستمدونهم ويعلمونهم أنهم خائفون على بيت المقدس ، فأمدوهم بالمال والسلاح والعدد والرجال ، فنزلوا دمياط ظنًا أنهم يملكونها . فأرسل صلاح الدين إليها العساكر برًا وبحرًا ، وأمدهم بالأموال والأسلحة والأقوات ، وسير إلى نور الدين يعلمه بذلك ويشكو إليه ، أنه إن خرج من القاهرة ما يأمن أن تنقض الشيعة أمرنا . فسير إليه نور الدين عسكرًا نجدة ، وسار بنفسه لقصد الفرنج ، فصعد إلى الكرك[٥] وحاصرها . وجاءت الفرنج إلى بيسان[٦] ، فرحل نور الدين عن الكرك للقائهم ، فرجعوا إلى عكا[٧] ، فعاد نور الدين إلى دمشق .

ولما سمع فرنج الشام بنزول الفرنج على دمياط طمعوا ، واشتد أمرهم ، فسرقوا حصن عكار من المسلمين ، وأسروا صاحبها وكان مملوكًا لنور الدين يسمى[١٥٨و] ختلخ[٨] العلم دار وأولاده .

---

(١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٢) ذكر أبو شامة بعضًا من هذه الأشعار فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٦٠ - ٤٦٢ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج١ ، ص٨٢ - ٨٧ .

(٣) يقصد كتاب زبدة الفكرة ، وهو غير موجود بين أيدينا . وانظر الكلام عن هذه الحادثة بالتفصيل فى المصادر المشار إليها سابقًا .

(٤) مابين الحاصرتين إضافة من نسخة ب ، و هو أبو الحارث شيركوه بن شاذى بن مروان الملقب الملك المنصور أسد الدين عم السلطان صلاح الدين ، توفى سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٩م .انظر : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٤٧٩- ٤٨١ .

(٥) الكرك : اسم لقلعة حصينة جدًا فى أطراف الشام من نواحى البلقاء . ياقوت : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٥١- ٢٥٢ .

(٦) بيسان : مدينة بالأردن بالغور الشامى ، وهى بين حوران وفلسطين . معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٨٨ ، ٧٨٩ .

(٧) عكا : بلد على ساحل بحر الشام من عمل الأردن . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٧٠٧ .

(٨) ختلخ العلم دار : فى الروضتين «خطلخ» ، ج١ ق٢ ، ص٤٥٨ . كان مملوكًا لنور الدين . وكان على حصن عكار لما هاجمه فرنج الشام . انظر : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٥٢ .

وفى المرآة[١] : وفيها نزلت الفرنج على دمياط يوم الجمعة ثالث صفر ، وجدّوا فى القتال ، وأقاموا عليها ثلاثة وخمسين يوما يضربونها بالمجانيق[٢] ، ويزحفون إليها ليلاً ونهارًا .

ووجه إليها صلاح الدين العساكر مع شهاب الدين[٣] خاله «وتقى الدين»[٤] وطلب من العاضد مالاً فبعث إليه بشىء كثير . فكان صلاح الدين يقول : مارأيت أكرم من العاضد ؛ جهز إلىّ فى حصار الفرنج ألف ألف دينار ، سوى الثياب وغيرها .

واشتغل نور الدين ببلاد الفرنج بالغارات ، ووقع فيهم الفناء . فرحلوا بعد أن مات منهم خلق كثير ، وكان رحيلهم فى ربيع الآخر . وفى شعبان سار نور الدين إلى الكرك ، فنازله وضربه بالمجانيق ، واجتمع ملوك الساحل وجاؤوه فتأخر إلى البلقاء[٥] .

وقال القاضى ابن شداد[٦] : لما رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط ، قصد شغل قلوبهم ، فنزل على الكرك محاصرًا لها فى شعبان ، وقصده فرنج الساحل ، فرحل عنها ، وقصد لقاءهم ، فلم يقفوا له . ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية[٧] بحلب فى رمضان ، فاشتغل قلبه ، لأنه كان صاحب أمره ، فعاد يطلب الشام ، فبلغه خبر الزلزلة[٨] بحلب التى خرَّبت كثيرًا من البلاد . وسار يطلب حلب ، فبلغه موت أخيه قطب

---

(١) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٧٤ حيث ينقل العينى عنه بتصرف . ويذكر صاحب المرآة فقط أن مدة إقامة الفرنج على دمياط ثلاثة وخمسين يومًا ، انظر ما سبق .

(٢)«المناجنيق» فى المرآة وهى آلة من خشب لقذف الحجر على العدو إلى مسافات بعيدة . القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٢ ، ص ١٣٦- ١٣٧ .

(٣) شهاب الدين محمود الحارمى ، خال صلاح الدين الأيوبى ، توفى سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٢٢ ؛ وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٥٤ ، ص١٦٣ .

(٤) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب . وهو الملك المظفر تقى الدين أبو سعيد عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن أخى السلطان صلاح الدين صاحب الديار المصرية ، توفى سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٥٦ - ٤٥٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٦٩- ٣٧٠ (ط . دار الكتب العلمية بيروت) .

(٥) البلقاء : كورة من أعمال دمشق ، بين الشام ووادى القرى قصبتها عمان ، انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٧٣٨ .

(٦) انظر قول ابن شداد فى : النوادر السلطانية ، ص ٤٢- ٤٣ حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(٧) هو مجد الدين أبو بكر بن الداية وسيأتى فى وفيات هذه السنة ، وعن أولاد ابن الداية انظر ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٢٤ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٧٥- ١٧٦ ؛ النعيمى : الدارس ، جـ٢ ، ص٢٥٩ ، القاهرة ١٩٨٨م .

(٨) انظر تفصيل خبر الزلزلة بالشام فيما سيأتى ص٤١-٤٤ .

الدين[١] بالموصل ، وبلغه الخبر وهو بتل باشر[٢] ، فسار من ليلته طالبًا بلاد الموصل . ولما علم صلاح الدين شدة قصد العدو دمياط ، أنفذ إلى البلد ، وأودعه من الرجال ، والأبطال والفرسان ، والميرة ، والآلات ، والسلاح ، ما أمن معه عليه ، ووعد المقيمين فيه بإمدادهم بالعساكر ، والآلات ، وإزعاج العدو عنهم إن نزل عليهم . وبالغ فى العطايا والهبات ، وكان وزيرًا متحكمًا لا يُرد أمره فى شىء . ولما رأى الفرنج عجزهم عن المسلمين ؛ رحلوا خائبين خاسرين ، فأحرقت مجانيقهم ، ونهبت آلاتهم ، وقتل منهم خلق كثير ، وسلم البلد بحمد الله تعالى .

وقال العماد[٣] : أقام صلاح الدين بالقاهرة فى دار ملكه ، ومدار فلكه ، يُنهض إليها المدد بعد المدد ، ويُرسل إليها العُدد بعد العُدد ، وسبق تقى الدين ، ابن أخى السلطان ، إلى دمياط فدخلها ، وكذا شهاب الدين محمود خاله فنزلها . واتَّصل الحصار ، وتواصلت الأنصار ، ودب فى الفرنج الفناء ، وَهبَّ عليهم البلاء ، فرحلوا عنها فى الحادى والعشرين من ربيع الأول .

قال صاحب تاريخ الدولتين[٤] : وبلغنى من شدة اهتمام نور الدين (رحمه الله) بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط ، أنه قرىء عليه جزء من حديث كان له به رواية ، فجاء فى جملة الأحاديث حديث مسلسل بالتبسُّم ، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يَتَبَسَّمَ لتتم السلسلة ، على ما عُرف من عادة أهل الحديث ، فغضب من ذلك وقال : إنى لأستحى من الله تعالى أن يرانى متبسمًا والمسلمون محاصرون بالفرنج . وبلغنى أن إمامًا لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط فى منامه النبى ﷺ وقال له : أَعْلِم نور الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط فى هذه الليلة ، فقال : يا رسول الله ربما لا يصدقنى ، فاذكر لى علامة يعرفها ، فقال : قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم[٥] وقلت : يا رب انصر

(١) هو الأتابك قطب الدين مودود بن الشهيد زنكى بن آقسنقر ، صاحب الموصل . تولى السلطنة بعد أخيه سيف الدين غازى سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩م . وتوفى قطب الدين فى شوال ٥٦٥ هـ/ يونية ١١٧٠م . انظر ترجمته فى التاريخ الباهر ، ص ٩٢ـ ٩٤ ، ص١٩٦ ؛ وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٣٨٧ـ ٣٨٨ .

(٢) تل باشر : قلعة حصينة وكورة واسعة فى شمالى حلب . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٨٦٤ .

(٣) انظر قول العماد فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٥٩ حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(٤) الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٥٩ ـ ٤٦١ ؛ وانظر أيضًا : مفرج الكروب ، ج١ ، ص١٨٢ .

(٥) تل حارم : حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ١٨٤ . وعن الواقعة التى جرت فى قلعة حارم ، انظر : التاريخ الباهر ، ص١٢٥ـ ١٢٦ .

دينك ولا تنصر محمودًا . من هو [١٥٨ظ] محمود الكلب حتى «تنصره»[١] !! قال : فانتبهت [٢] ونزلت إلى المسجد ، وكان من عادة نور الدين أن ينزل إليه بغَلَس[٣] ، ولا يزال يتركع فيه حتى يصلى الصبح .

قال : فتعرضت له ، فسألنى عن أمرى ، فأخبرته بالمنام ، وذكرت له العلامة ، إلا أننى لم أذكر لفظة الكلب . فقال نور الدين : اذكر العلامة كلها ؛ وألح علىّ فى ذلك ، فقلتها ؛ فبكى (رحمه الله) وصدّق الرؤيا . وأرّخت تلك الليلة ، فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك فى تلك الليلة .

وأرسل نور الدين إلى العاضد كتابًا ، يهنئه برحيل الفرنج عن ثغر دمياط ، وكان قد ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الأتراك فى مصر[خوفًا منهم][٤] ، والاقتصار على[صلاح الدين][٥] وألزامه[٦] وخواصه . فكتب إليه نور الدين يمدح الأتراك ، ويعلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات[٧] الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك ، فإن الفرنج لا يرعبون إلا منهم ، ولولاهم لزاد طمعهم فى الديار المصرية ، ولحصلوا منها على الأمنية ، فلعل الله أن ييسر فتح المسجد الأقصى مضافًا إلى[نعمه][٨] التى لاتحصى . ولعمارة[٩] التميمى قصيدة منها قوله :

---

(١) «يُنصر» فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٥٩ .

(٢)«فانتهيت» فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٥٩ .

(٣) الغلس : ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح . المعجم الوسيط . مادة غلس .

(٤) ما بين الحاصرتين مثبت من الروضتين حيث ينقل العينى عنه ، وهو لازم لإيضاح المعنى . الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٦٠ .

(٥) « أسد الدين» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٦٠ حيث ينقل العينى عنه .

(٦) الألزام هم الأتباع .

(٧) القنطاريات ، مفردها قنطارية : وهى نوع من الرماح يصنع من خشب يعرف باليونانية بهذا الاسم . انظر ماير : الملابس المملوكية ، ص٦٧ـ ٨٣ ، القاهرة ١٩٧٢ ؛ مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٨٣ ، حاشية (٢) ؛ راجع أيضًا :
Dozy: Supp. Dict. Ar., T.II, pp.412-413.

(٨)«نعمته» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٦٠ حيث ينقل العينى عنه .

(٩) عمارة اليمنى التميمى سيأتى ذكره بالتفصيل فى وفيات سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٨٣م .

مِنْ شَاكِرٍ ، واللهُ أعْظَمُ شَاكِرٍ ... مَا كَانَ مِنْ نُعْمَى بَنِى أَيُّوبِ
طَلَبَ الْهُدى نَصْرَاً ، فَقَالَ وَقَدْ أَتَوْا ... حَسْبِى ، فَأَنْتُم غَايَة الْمَطْلُوبِ
جَلَبُوا إلى دِمْيَاطِ عِنْدَ حِصَارِهَا ... عِزَّ الْقَوِىِّ وَذِلَّةَ الْمَغْلُوبِ
وَجَلُوا عَنِ الإسْلام فِيهَا كُرْبَةً ... لَوْ لَمْ يُجَلُّوها أتَتْ بِكُرُوبِ
فَالنَّاسُ فِى أَعْمَالِ مِصْر كُلِّهَا ... عُتَقَاؤهم مِنْ نَازِحٍ وقَرِيبِ
إنْ لَمْ تَظُنْ النَّاس قِشْرًا فَارِغاً ... وهُمُ اللُّبَابُ فأنتَ غَيرُ لَبِيبِ

وللشهاب فتيان[1] الشاغورى من قصيدة :

وَلا غَرْوَ أَنْ عَادَ هَزِيمَةً ... وَلَو لَمْ[2] تعُد لَمْ يَبْقَ لِلْشِرْكِ سَاحِلُ
فَقَدْ أَيْقَنَتْ أَعْدَاؤُهُ أَنَّ حَظَّهُم ... لَدَيْهِ رِماحٌ أُشْرِعَتْ أوْ سَلاسِلُ
وَلَمَّا أَتَوْا دِمْيَاط كَالْبَحْرِ طَامِياً ... وَلَيْسَ لَهُ مِنْ كَثْرَةِ «الْقَوْمِ»[3] سَاحِلُ
يَزِيدُ عَنِ الإحْصَاءِ وَ الْعَدِّ جَمْعُهم ... أُلُوفُ أُلُوفٌ خَيْلُهم وَ الرَّوَاحِلُ
رَأَوا[دونهم][4] أُسْداً ، بِأَيْدِيهم الْقَنَا ... وَبِيضاً رِقَاقاً أَحْكَمَتْها الصَّيَاقِلُ
وَدَارُوا بِها فِى الْبَحْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ... وَمِنْ دُونِها سَدٌّ مِنَ الْمَوْتِ حَائِلُ
رَجَا الْكَلْبُ ، مَلِكُ الرُّومِ إذْ ذَاكَ ، فَتْحَهَا ... فَخَافَ ، فَأمَّ الْمُلْكَ هَائِلُ[5]
فَعَادُوا عَلَى الأَعْقَابِ مِنْها هَزِيمَةً ... كَأَنَّهُم ـ ذلاًّ ـ نعَامٌ جوَافِلُ
وَمَا أَمَّلُوا أَنْ يَلْحَقُوا بِبِلادِهِم ... لَتَعْصِمَهُم مِمَّا [رأوْه][6] المعَاقِلُ

وللعماد الأصبهانى[7] :

(١) هو الشاعر الأديب المعلم ، شهاب الدين فتيان بن على بن فتيان بن ثمال الأسدى الخزيمى الدمشقى الشاغورى ، توفى سنة سنة ٦١٥ هـ/ ١٢١٨م . له ديوان شعر . انظر ترجمته فى العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء الشام ، جـ١ ، ص٢٤٧ـ ٢٥٩ ؛ وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٢٤ـ ٢٦ .
(٢) «تعد» فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٦١ .
(٣) «العوم» فى نسخة ب .
(٤) «فيها» فى نسختى المخطوطة أ ، ب والمثبت من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٤٦١ .
(٥) «هابل» فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٦١ .
(٦) «زواه» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٤٦١ .
(٧) انظر قول العماد فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٥٩ـ ٤٦١ .

يا يوسف الحُسْنِ وَالإحسَانِ ، يَا ملكاً	بجِـدِّه صَـاعِـدًا أَعْـداؤهُ هَبَطُوا
حلَلْتَ مِنْ وَسطِ الْعَلْيَاءِ فِى شَرَفٍ	وَمَرْكَزُ الشَّمْسِ مِنْ أَفْلاكِها الْوسَطُ
هُنِّيت صَوْنَكَ دِمْيَاطَ الَّتِى اجْتَمَعَتْ	لَهَا الْفِرنْجُ فَلا[1] حَلُّوا وَلا رَبَطُوا
مِصْرٌ بِيُوسُفِها أَضْحَتْ مَشَرَّفَةً	وَكُلُّ أَمْرٍ لَهَا بِالْعَدْلِ مُنْضَبِطُ
وَحِينَ وَافَى صَلاحُ الدِّينِ أَصْلَحَهَا	فَلِلْمَصَالِحِ مِنْ أَيَّامِهِ نَمَطُ

ذكر بقية الحوادث

منها أنه أبطل من الآذان بمصر «حى على خير العمل»[2] . وأمر صلاح الدين أن يذكر فى الخطبة أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلىّ (رضى الله عنهم) .

ومنها أن شهاب الدين[محمود بن إلياس][3] بن إيلغازى بن أرتق ، صاحب قلعة البيرة[4] ، سار فى عسكره ـ وهو مائتا فارس ـ إلى نور الدين وهو بعشترا[5] . فلما وصل إلى قلعة اللبؤة[6] من عمل بعلبك[7] ، ركب متصيدًا فصادف ثلاثمائة فارس من الفرنج ، قد شنوا الإغارة على بلاد الإسلام ، فاتقعوا ، واقتتلوا ، فانهزم الفرنج . وأكثر شهاب الدين فيهم القتل والأسر ، فلم يفلت منهم إلا من لا يُعتد به ، وسار شهاب الدين برؤوس القتلى إلى نور الدين ، فركب نور الدين والعسكر للقائه ، وكان فى جملة تلك الرؤوس رأس مقدم الإستبار[8] ، صاحب حصن الأكراد[9] ، وكان من الشجاعة بمحلٍّ كبير ، ولأنه

---

(١) «فما» فى الروضتين ، جـ١ ، ق٢ ، ص٤٦١ .

(٢) انظر تفصيل ذلك فى ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص٦٧٢ـ ٦٧٥ ، دمشق ١٩٥٤م ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٧٨ .

(٣) فى الأصل محمد بن أيلغازى ؛ وفى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٧١ «محمد بن إلياس» ، والمثبت بين الحاصرتين من الباهر ، ص١٤٥ ؛ وانظر : زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ج٢ ، ص٣٤٦-٣٤٧ ، القاهرة ١٩٥١م .

(٤) قلعة البيرة : هى قلعة حصينة لها رستاق واسع وهى بين بيت المقدس ونابلس . انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٧٨٧ .

(٥) عشترا : موضع بحوران من أعمال دمشق . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٧٩ .

(٦) «قرية اللبوة» فى الباهر ، ص١٤٥ ؛ انظر أيضًا ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٣٥ ، حيث تكلم عن حصن اللبؤة والرأس بالتفصيل ، وذكر أنهما من أعمال بعلبك .

(٧) بعلبك : مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة ، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام .انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٦٧٣ .

(٨) الإسبتار ـ الإستبار : أطلق المؤرخون المسلمون هذا اللفظ على فرسان جمعية الهسبتاليين Hospitaliers وقد تأسست هذه الجمعية سنة ١٠٩٩م بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس . عن هذه الجمعية انظر : المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ ، ص٦٨ . القاهرة ١٩٣٤م .

(٩) حصن الأكراد : حصن منيع حصين على الجبل الذى مقابل حمص من جهة الغرب وهو جبل الجليل ، وهو بين بعلبك وحمص . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٣٧٦ .

كان شجًا[١] فى حلوق المسلمين ، وكذلك أيضًا كان فيها رأس غيره من مشهورى الفرنج ، فازدادوا سرورًا . وكان ذلك فى سابع عشر شوال من هذه السنة .

ومنها أنه وقعت الحرب بين عبد المؤمن وبين ابن مردنيش[٢] محمد بن سعد ، ملك شرق الأندلس ، وكان اتفق هو والفرنج على عبد المؤمن وابنه بعده ، فاستفحل أمره بعد وفاة عبد المؤمن ، فلما كانت هذه السنة جهز إليه يوسف[٣] بن عبد المؤمن العساكر الكثيرة مع أخيه عمر[٤] بن عبد المؤمن ، فجاسوا بلاده ، وخربوها ، وأخذ مدينتين من بلاده ، وأخافوا عسكره وجنوده ، وأقاموا ببلاده مدة ينتقلون فيها ، ويجبون أموالها .

ومنها أنه كثرت الأذية من عبد الملك[٥] بن محمد بن عطاء ، وتطرق إلى بلاد حلوان[٦] ، وأفسد ، ونهب ، وأخذ الحاج ، فأُنفذ إليه من بغداد عسكر ، فنازله فى قلاعه ، وضايقوه ، ونهبوا أمواله وأموال أهله ، حتى أذعن بالطاعة ، وأنه لا يعود إلى أذى الحاج ولا غيرهم ، فعاد عنهم العسكر .

ومنها أن فى ليلة عيد الفطر رزق السلطان صلاح الدين ولده الملك الأفضل[٧]نور الدين على ، وفرح به فرحًا عظيمًا ، وخلع ، وأعطى ، وتصدق بما بهر به العقول .

ومنها أن نجم الدين أيوب[٨] ـ والد صلاح الدين ـ كان مسيره من دمشق إلى ولده صلاح الدين بمصر فى هذه السنة ، وقد ذكرناه فى السنة الماضية .

---

(١) الشجا : هو ما اعترض ونشب فى الحلق من عظم أو نحوه . انظر : المعجم الوجيز ، ص٣٣٦ .

(٢) هو : محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مردنيش ، أبو عبد الله . وقد ورد فى الكامل ، ج١٠ ، ص٢٦ «محمد بن سعيد بن مردنيش» جـ١٠ ، ص٢٦ .

(٣) هو : أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن على القيسى الكومى ، صاحب المغرب . توفى سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م انظر : الكامل ، جـ ١٠ ، ص١٢٦ـ ١٢٧ ؛ ومعجم الأسرات ، جـ١ ، ص١١٣ .

(٤) عمر بن عبد المؤمن بن على بن علوى الكومى ، أبو حفص ، بايع لأخيه أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وصار وزيره أيامًا يسيرة . ثم ولاه أخوه جزيرة الأندلس . انظر أخبار أولاد عبد المؤمن فى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ص١٨٧ـ ٢٤٧ .وقد ذُكر فى ترجمة أخيه فى وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص١٣٠ .

(٥) انظر : الكامل ، جـ١٠ ، ص١٢٧ .

(٦) بلاد حلوان : مدينة عامرة فى آخر حدود السواد مما يلى الجبال من بغداد . انظر : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٣١٦ـ ٣١٧ .

(٧) الملك الأفضل نور الدين على بن يوسف بن أيوب . كان أكبر أولاد السلطان صلاح الدين . توفى بسميساط سنة٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م . انظر : وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص ٤١٩ـ ٤٢١ .

(٨) نجم الدين أيوب بن شاذى بن مروان ، الملك الأفضل ، والد السلطان صلاح الدين . انظر : وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٢٥٥ـ ٢٦١ .

ومن قصيدة الحكيم عبد المنعم[١] فى ذلك قوله :

فى مَشْرِقِ المجْدِ نَجْمُ الدِّينِ مَطْلَعُه ... وَكُلُّ أبنائه شُـهُبٌ ، فَـلا أَفَلُوا

جَاؤُا لِيَعْقُوبَ[٢] والأَسْبَاطِ ، إذْ وَرَدُوا ... عَلَى العَزِيزِ من ارْضِ الشام واشْتَملوُا

لَكِنَّ يُوسفَ هَذَا جَـاءَ إخْـوَتُه ... ولـم يَكُـن بيْنَهُـم نَـزْغٌ ولا زَلَـلُ

و مُلِّكوا مُلْكَ مِصْرٍ فى شَمَاخَتِه ... ومِـثْلُهَـا لِرِجَـالٍ مِـثْلُهم نُزُلُ

ومنها أن نور الدين (رحمه الله) خرج فى هذه السنة إلى داريا[٣] ، فأعاد عمارة جامعها ، ومشهد أبى سليمان الدارانى[٤] ، وشتى بدمشق .

قال فى المرآة[٥] : وفى هذه السنة أمر نور الدين بعمارة جامع داريا القائم الآن ، وكان قديمًا عند قبة أبى سليمان الدارانى ، فأحرقه الإفرنج لما نزلوا على داريا فى أيام مجير الدين أبق[٦] ، فعمَّر نور الدين ـ فى هذه السنة ـ هذا الجامع الذى فى وسط[١٥٩ظ] القرية .

ذكر الأمور المزعجة

منها الزلزلة الكبرى :

قال ابن الأثير[٧] : وفى ثانى عشر شوال من هذه السنة كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها ، عمت أكثر البلاد من الشام ، ومصر ، والجزيرة ، والموصل ، والعراق ،

---

(١) الحكيم عبد المنعم : هو عمر بن عبد الله الجلياني الغساني الأندلسى أبو الفضل «حكيم الزمان» من أهل جليانة وهى حصن من أعمال وادى آش بالأندلس ، انتقل إلى دمشق وأقام فيها أيام صلاح الدين ، فأكرمه وأجلَّه ، فكتب فيه أشعارًا كثيرة ، توفى سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م . انظر : المقرى : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص٦٣٥ـ ٦٣٧ ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٨ ؛ ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، ج٢ ، ص٣٥ـ ٣٧ ؛ معجم البلدان ، جـ٢ ، ص١٠٩ .

(٢) «كيعقوب» فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٦٧ .

(٣) داريا : قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة . وعن الجامع ومشهد أبى سليمان الدارانى . انظر نفس المادة . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٥٣٦ .

(٤) أبو سليمان الدارانى هو عبد الرحمن بن أحمد الدارانى الصوفى المشهور ، المتوفى سنة ٢٣٥هـ/٨٤٩م . انظر : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٥٣٦ .

(٥) انظر : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص١٧٥ .

(٦) هو : مجير الدين أبق بن جمال الدين محمد بن تاج الملوك بورى بن ظهير الدين طغتكين . وهو سادس وآخر من حكم دمشق من بنى بورى ، توفى سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٩م . انظر : معجم الأنساب ، جـ٢ ، ص٣٤٠ ؛ وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ١٨٨ـ ١٨٩ .

(٧) انظر قول ابن الأثير فى الباهر ، ص١٤٥ حيث ينقل العينى عنه بتصرف ؛ وانظر أيضًا : سنا البرق الشامى ، ص٩١ ؛ المرآة ، جـ٨ ، ص١٧٤ـ ١٧٥ ؛ زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص٣٣٠ .

وغيرها . إلا أن أشدها وأعظمها كان بالشام ، فخربت بعلبك ، وحمص ، وحماة ، وشيزر[١] ، وبعرين[٢] ، وغيرها ، وتهدمت أسوارها وقلاعها ، وسقطت الدور على أهلها ، وهلك من الناس ما يخرج عن العد والإحصاء . فلما أتى نور الدين خبرها ، سار إلى بعلبك ، ليعمر ما انهدم من أسوارها وقلعتها ، وكان لم يبلغه خبر غيرها . فلما وصلها أتاه خبر باقى البلاد بخراب أسوارها ، وخلوها من أهلها ، فرتب ببعلبك من يحميها ويعمرها ، وسار إلى حمص ، ففعل مثل ذلك ، ثم إلى حماة ، ثم إلى بارين . وكان شديد الحذر على البلاد من الفرنج لاسيما بارين ؛ فإنها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء ألبتة ، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير ، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلاً ونهارًا .

ثم أتى مدينة حلب ، فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد ؛ فإنها قد أتت عليها ، وكانوا لا يقدرون يأوون إلى بيوتهم السالمة من الخراب خوفًا من الزلزلة ، فإنها عاودتهم غير مرة ، وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب خوفًا من الفرنج ، فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبأهلها أقام فيها ، وباشر عمارتها بنفسه ، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين . ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوارها ، وجميع البلاد ، وجوامعها ، وأخرج من الأموال ما لا يقدَّر قدره .

وأما بلاد الفرنج ـ خذلهم الله ـ فإنها أيضًا فعلت فيها الزلزلة قريبًا من هذا ، وهم أيضًا يخافون نور الدين على بلادهم ، فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده عن قصد الآخر .

قال العماد[٣] : وكانت قلاع الإفرنج المجاورة لبعرين كحصن الأكراد[٤] ، وصافيثا[٥] ، والعُرَيْمة[٦] وعرقا[٧] . وقد وافقت الزلزلة الفرنج يوم عيدهم وهم فى

---

(١) شيزر : قلعة تشتمل على كورة بالشام ، قرب المعرة بينها وبين حماة يوم ، ملوكها بنى منقذ . انظر : معجم البلدان ، جـ٣ ، ص ٣٤٨ .

(٢) بعرين (بارين) : بليدة بين حمص والساحل . معجم البلدان ، جـ١ ، ص٦٧٢ .

(٣) انظر قول العماد فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص ٤٦٨ـ ٤٧٠ ، حيث ينقل عنه العينى بتصرف .

(٤) «ولحصن الأكراد» فى الروضتين ، وهو خطأ . حيث أن حصن الأكراد كان يتبع الفرنج فى ذلك الوقت . ويؤيد ذلك ما ورد فى المرآة ، جـ٨ ، ص١٧٤ ؛ معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٧٦ .

(٥) صافيثا : قلعة تقع إلى الشمال من عرقة من أعمال حلب . انظر العماد : الفتح القسى ، ص٢٢٧ حاشية (١) . وذُكرت من الحصون القريبة من طرابلس مع العُريمة وعرقا فى خطط الشام ، لكرد على ، جـ٥ ، ص٢٩٣ .

(٦) العُريمة : موضع بين أجا وسلمى . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٦٣ .

(٧) عرقا : بلدة فى شرقى طرابلس . وهى فى سفح جبل ، وعلى جبلها قلعة . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٥٣ ؛ انظر أيضًا عن القلاع والحصون بالشام ، خطط الشام ، ج٥ ، ص ٢٩١ ـ ٢٩٤ .

الكنائس ، ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴾[١] .

وذكر العماد قصيدة[٢] فى مدح نور الدين ووصف الزلزلة :

هل لِعانى الْهَوَى مِنَ الأَسْرِ فَادِى　　وَلِسَارِى لَيْلِ الصَّبَابَةِ هادِى

جَنِّبُونِى خَطْبَ البعادِ ، فَسَهْلٌ　　كُلُّ خَطْبٍ سِوَى النَّوَى وَالْبعادِ

كُنْتُ فِى غَفْلَةٍ مِنَ الْبَيْنِ حَتَّى　　صَبَاحَ يَوْمِ الأثيلِ بِالْبَينِ حَادِى

قَدْ حَلَلْتُم مِنْ مُهْجَتِى فِى السُوَيْدَا　　ءِ ، وَمِنْ قَلْبِى[٣] مَحَلَّ السَّوَادِ

إلى أن قال :

أَتَمَنَّى بِالشَّامِ أَهْلِى بِبَغْدَا　　دَ ، وَأَيْنَ الشَامُ مِنْ بَغْدَادِ

مَا اعْتِيَاضِى عَنْ حُبِّهِم يَعْلَمُ اللَّـ　　ـهُ تَعَالَى إلا بِحُبِّ الجِهَادِ

وَاشْتِغَالِى بِخِدْمَةِ الْمَلِكِ الْعَا　　دِلِ محمود ، الْكَرِيمِ ، الجَوَادِ

أَنَا مِنْه عَلَى سَرِيرِ سُرُورِى　　رَاتِعُ الْعَيْشِ فِى مَرادِ مُرَادِى/ [١٦٠و]

إلى أن قال :

[هُوَ][٤]نِعْمَ الْمَلاذُ مِنْ نَائِبِ الدَّهْـ　　ـرِ ونعْمَ الْمَعَاذُ عِنْدَ الْمَعَادِ

جَلَّ رُزْءُ الْفِرِنْجِ فَاسْتَبْدَلُوا منـ　　ـه بِلُبْسِ الْحَدِيدِ لُبْسَ الْحِدَادِ

فَرَّقَ الرُّعْبُ مِنْهُ فِى أَنْفُسِ الْكُفَّـ　　ـارِ بَيْنَ الأَرْوَاحِ وَالأَجْسَادِ

سَطْوَةٌ زَلْزَلَتْ بِسُكَّانِهَا الأَرْ　　ضَ وَهَدَّتْ قَوَاعِدَ الأَطْوَادِ

---

(١) سورة النحل : آية (٢٦) .

(٢) لم يذكر العينى كل الأبيات التى أوردها أبو شامة نقلاً عن العماد الأصفهانى . انظر : الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٦٨- ٤٧٠ .

(٣)«مقلتى» فى الروضتين عن العماد ، جـ١ ق٢ ، ص٤٦٨ .

(٤)«هم» فى الأصل ، والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين نقلاً عن العماد ، جـ١ ق٢ ، ص٤٦٩ .

أَخَــذَتْهُم بِالْحَقِ رَجْــفَــةُ بَأْسٍ تَرَكَتْهُم صَرْعَى صُرُوف الْعَوَادِي

خَـفَّضَتْ مِنْ قِـلاعِـها كُلَّ عَـالٍ وَ أَعَـادَتْ قِــلاعَــهَـا كَــالْوِهَادِ

أَنْفَـذَ اللهُ حُكْمَـهُ فَــهْـوَ مَـاضٍ «مُظْهِرًا سِرَّ»[1] غَيْبِه فَهْوَ بَادِي

وفى المرآة[2] : وكانت هذه الزلزلة عامة فى الدنيا ، أخربت قلاع المسلمين وبلادهم بالشام ، وحلب ، والعواصم ، وأنطاكية[3] ، ونزلت إلى اللاذقية ، وجبلة[4] ، وجميع بلاد الساحل إلى الداروم[5] .

ويقال : إنه لم يمت من دمشق إلا رجل واحد ، أصابه حجر وهو على دَرج جَيْرون[6] ؛ لأن أهلها خرجوا إلى الصحراء . ثم امتدت الزلزلة ، وقطعت الفرات ، فوصلت إلى الموصل ، وسنجار[7] ، ونصيبين[8] ، والرها[9] ، وحران[10] ، والرقة[11] ، وماردين[12] ، وغيرها ، وامتدت إلى بغداد ، وواسط[13] ، والبصرة ، وجميع بلاد العراق ، ولم ير الناس زلزلة من أول الإسلام مثلها ؛ أفنت العالم .

---

(١) «مظهر سر» فى الروضتين ، انظر باقى القصيدة فى الروضتين عن العماد ، جـ١ ق٢ ، ص٤٦٩- ٤٧٠ .

(٢) انظر : مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص١٧٥ .

(٣) أنطاكية : قصبة العواصم من الثغور الشامية ، بينها وبين حلب يوم وليلة . وهى من بلاد الروم القديمة ، انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٣٨٢ ؛ زبدة الحلب ، جـ١ ، ص١٥ .

(٤) اللاذقية : مدينة فى ساحل بحر الشام ، تعد من أعمال حمص ، وهى غربى جبلة ، انظر : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٣٣٨- ٣٤٠ . أما جبلة : فهى قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٤-٢٧ .

(٥) الداروم : بليدة بينها وبين غزة أربعة فراسخ . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٥٢٥ .

(٦) جيرون : باب وحصن بدمشق . معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٧٥- ١٧٦ .

(٧) سنجار : مدينة مشهورة من نواحى الجزيرة ، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام . معجم البلدان ، جـ٣ ، ص١٥٨-١٦٠ .

(٨) نصيبين : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة ، على جادة القوافل من الموصل إلى الشام . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٧٨٧ .

(٩) الرها : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام . معجم البلدان ، ج٢ ،ص٨٧٦ .

(١٠) حران : مدينة عظيمة مشهورة على طريق الموصل والشام . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٣٣٢ - ٣٣٣ .

(١١) الرقة : مدينة مشهورة على الفرات ، وهى فى بلاد الجزيرة بالعراق . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٨٠٢- ٨٠٤ .

(١٢) ماردين : قلعة مشهورة على قنة جبل الجزيرة . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٣٩٠ .

(١٣) واسط : بلدة ببلاد العراق ، متوسطة بين البصرة والكوفة . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٨٨١ -٨٨٢ .

ومنها : نزول الإفرنج على دمياط ، وقد ذكرناه[١] مفصلاً .

وفيها[٢] : . . . .

وفيها : حج بالناس الأمير برْغش الكبير .

(١) انظر ما سبق ص٣٣ وما بعدها .

(٢) فى نسختى المخطوطة أ ، ب بياض بمقدار سطر وكلمة .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أحمد بن صالح بن شافع أبو الفضل الجيلى[١] ؛ سمع الحديث من الأرموى وغيره ، وتوفى فى شعبان منها ، ودفن على أبيه فى دكة الإمام أحمد (رحمه الله) .

أحمد بن عمر بن محمد بن لبيدة أبو العباس الأزجى ؛ سمع من ابن جيرون وغيره ، وكان فيه خير ، خرج إلى مكة ، فتوفى فى الطريق ، ودفن بزبالة[٢] .

هبة الله بن محمد بن أحمد بن أبى البركات بن البخارى ؛ الفقيه الشافعى ، تفقه ببغداد على أسعد الميهنى[٣] ، وسمع أباه ، وولى القضاء بقونية[٤] من بلد الروم ، وابنه على ولى القضاء ببغداد ، وكنيته أبو طالب ، وناب فى الوزارة ، ومات ابنه على ببغداد فى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وعقبه اليوم ببغداد قضاة يقال لهم بيت البخارى .

الملك طُغرل[٥] بن قاوَرْت صاحب كرمان[٦] ؛ توفى فى هذه السنة ، واختلف أولاده بهرام شاه ، وأرسلان شاه ـ وهو الأكبر ـ فجرى بينهما قتال ، انهزم منه بهرام شاه إلى خراسان[٧] ، فدخل على المؤيد[٨] صاحب نيسابور[٩] ، واستنجده ، فأنجده بعساكر سار

---

(١) انظر : الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٧ ؛ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص١٢ .

(٢) زَبالة : منزل معروف بطريق مكة من الكوفة . وهى قرية عامرة لها أسواق . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٩١٢ـ ٩١٣ .

(٣) «المهنى» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص ١٧٥ .

(٤) قونية : أعظم مدن الإسلام بالروم ، وهى سكنى ملوكهم . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٢٠٤ـ ٢٠٥ .

(٥) انظر : معجم الأنساب ، جـ٢ ، ص٣٣٥ حيث ذكر أنه محيى الدين طغرلشاه بن ملكشاه ، من سلاجقة كرمان ، تولى السلطنة سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م . وهو والد بهرام شاه وأرسلان شاه . وفى الكامل ، ج١ ، ص٢٦ طغرل بن قاروت .

(٦) كرمان : هى ولاية مشهورة . وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٣٦٣ـ ٣٦٧ .

(٧)خراسان : هى إقليم من أقاليم بلاد فارس . وتشتمل على أمهات من البلاد التى دون نهر جيحون . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٠٩ .

(٨) المؤيد صاحب نيسابور : هو «أى أبه» . كان مملوكًا للسلطان سنجر . ولما انهزم سنجر سنة ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣م ، تقدم المؤيد وعلا شأنه فاستولى على نيسابور . واستقرت البلاد له ودانت له الرعية .وقتل المؤيد سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م . انظر : الكامل ،ج٩ ، ص٨٩ ،ج١٠ ، ص٣٦ .

(٩) نيسابور : هى أعظم مدن إقليم خراسان . انظر : الإصطخرى : المسالك والممالك ، ص١٤٥ـ ١٤٧ ؛ معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٨٥٧ .

بها إلى كرمان ، فجرت بين الأخوين حرب ، ظفر فيها بهرام شاه ، وهرب أرسلان شاه ، وقصد أصفهان[١] مستجيرًا بأيلدكز[٢] ، فأنفذ معه عسكرًا ، فاستنقذوا البلاد من بهرام شاه وسلموها إلى أرسلان شاه ، فعاد بهرام شاه إلى نيسابور مستنجدًا[١٦٠ظ] بالمؤيد صاحبها ، فأقام عنده . فاتفق أن أخاه أرسلان شاه مات ، فسار إلى كرمان فملكها وأقام بها بغير منازع .

قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى بن آقسنقر ؛ المعروف بالأعرج ، صاحب الموصل ، وهو أخو نور الدين محمود بن زنكى . وكان قطب الدين مودود تولى السلطنة بالموصل وتلك البلاد ، عقيب موت أخيه سيف الدين غازى[٣] ، وكان حسن السيرة عادلاً فى حكمه ، محببًا إلى الرعية ، محسنًا إليهم ، حسن الشكل . وفى دولته عظم جمال الدين محمد الأصفهانى[٤] ، كما ذكرنا فى ترجمته . وكان مدبر دولته ، وصاحب رأيه الأمير زين الدين على كوجك[٥] ، والد مظفر الدين صاحب إربل[٦] . وكان نعم المدبر ، مع شجاعته وفروسيته . ولم يزل قطب الدين على سلطنته ونفاذ كلمته ، إلى أن توفى فى شوال من هذه السنة . وقيل فى الثانى والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة . وقيل توفى فى ربيع الآخر من سنة ست وستين وخمسمائة .

وقال ابن خلكان[٧] : هذا ليس بصحيح ، فإن أخاه[نور الدين][٨]كان بالموصل فى شهر ربيع الآخر ، وجاءت رسل الخليفة ، وهو مخيم على وفاة أخيه قطب الدين . وكانت

---

(١) أصفهان : هى أصبهان ، وهى مدينة بأرض فارس . معجم البلدان ، جـ١ ، ص ٢٩٢ .

(٢) هو : «أيلدكز» شمس الدين ، توفى سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م . حكم بين سنوات ٥٣١هـ - ٥٦٨هـ/١١٣٧-١١٧٣م ببلاد أذربيجان . وعن بنى أيلدكز أتابكة أذربيجان . انظر : معجم الأنساب ، جـ٢ ، ص٣٤٩ ؛ الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٧٦ ؛ وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٢٠٨ .

(٣) هو سيف الدين غازى بن أتابك عماد الدين زنكى . توفى سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م . انظر : الباهر ، ص٨٤- ٩٢ .

(٤) «محمود» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت هو الصحيح . وهو جمال الدين محمد بن على بن أبى منصور ، الوزير ، المعروف بالجواد ، توفى سنة ٥٥٩ هـ/١١٦٤م . انظر : وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص١٤٣ ؛ وقد ذكره ابن العماد الحنبلى فى الشذرات فى وفيات سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م .

(٥) زين الدين على كوجك بن بكتكين . نائب قطب الدين بالموصل . وكانت بيده إربل . توفى سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م . انظر : النوادر السلطانية ، ص٣٩ ؛ وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص١١٤ ؛ الكامل ، جـ١٠ ، ص٨ .

(٦) إربل : قلعة حصينة ومدينة كبيرة من أعمال الموصل . وأكثر أهلها أكراد وقد استعربوا . انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص١٨٩ .

(٧) انظر : وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٣٠٣ فى ترجمة قطب الدين مودود .

(٨) ما بين الحاصرتين مثبت من وفيات الأعيان للتوضيح .

وفاته بالموصل ، ومدة عمره أكثر من أربعين سنة ، وخلَّف عدة أولاد ، أكثرهم ملوك ، منهم : سيف الدين غازى تولى السلطنة بعده ، وعز الدين مسعود ، وعماد الدين زنكى صاحب سنجار .

وقال ابن كثير(١) : وتملك من بعد قطب الدين ولده سيف الدين غازى ، ابن الست خاتون بنت تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق ، أصحاب ماردين . وكان مدبر مملكته ، والمتحكم فيهم ، فخر الدين عبد المسيح(٢) ، وكان ظالمًا غاشمًا .

وفى تاريخ الدولتين(٣) : لما اشتد مرض قطب الدين ، أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زنكى ، وهو أكبر أولاده ، وأعزهم[عليه](٤) وأحبهم إليه . وكان النائب عن قطب الدين حينئذ والقائم بأمر دولته فخر الدين عبد المسيح ، وكان يكره عماد الدين زنكى ؛ لأنه قد كان أكثر المقام عند عمه الملك العادل نور الدين وخدمه ، وتزوج ابنته ، وكان عزيزه وحبيبه . وكان نور الدين يبغض عبد المسيح لظلم كان فيه ، ويذمه ويلوم أخاه قطب الدين على توليته الأمور . فخاف عبد المسيح أن يتصرف عماد الدين فى أموره عن أمر عمه فيعزله ويبعده ، فاتفق هو والخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش ، زوجة قطب الدين ، فردُّوه عن هذا الرأى . فلما كان الغد أحضر الأمراء ، واستحلفهم لولده سيف الدين غازى . وتوفى وقد جاوز عمره أربعين سنة .

وكان تام القامة ، كبير الوجه ، أسمر اللون ، واسع الجبهة ، جهورى الصوت . وكانت ولايته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصف شهر .

ولما توفى استقر سيف الدين فى الملك ، ورحل عماد الدين إلى عمه نور الدين شاكيًا ومستنصرًا . وكان عبد المسيح هو[متولى](٥) أمر سيف الدين وتحكم فى مملكته ، وليس لسيف الدين من الأمر إلا اسمه ؛ لأنه فى عنفوان شبابه وعزة حداثته .

---

(١) انظر : البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢١٠ .

(٢) فخر الدين عبد المسيح : نائب قطب الدين مودود على الموصل . ثم مدبر مملكته من بعده . كان نصرانيًا فأظهر الإسلام . كان سيئ السيرة خبيثًا فى حق العلماء والمسلمين خاصة . أطلق عليه نور الدين : عبد الله ، وأقطعه إقطاعًا حسنًا . انظر : البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٨٠ .

(٣) انظر : الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٧٢ . وانظر أيضًا الباهر ، ص١٤٦ .

(٤) «فيه» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٤٧٢ ، حيث ينقل العينى عنه .

(٥) «يتولى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٧٣ .

وقال ابن الأثير[١] : وكان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين ، كثير المساعدة له والإنجاد بنفسه وعسكره وأمواله ؛ حضر معه المصاف بحارم وفتحها وفتح بانياس[٢] . وكان يخطب له فى بلاده باختياره [١٦١و] من غير خوف . وكان إحسانه إلى أصحابه متتابعًا ، من غير طلب منهم ولا تعريض . وكان يبغض الظلم وأهله ، ويعاقب من يفعله .

مجد الدين أبو بكر بن الداية ؛ رضيع نور الدين محمود ، مات فى هذه السنة . وكانت حلب ، وقلعة جعبر[٣] ، وحارم إقطاعه ، فأقر نور الدين أخاه عليًّ بن [الداية][٤] على إقطاعه ، وكان موته بحلب فى شهر رمضان . وكان نور الدين حينئذ محاصرًا الكرك ، وبلغه قصد الفرنج من الساحل ، فرحل عنها ، وقصد لقاءهم ، فلم يقفوا له . ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية ، فاشتغل قلبه به ؛ لأنه كان صاحب أمره . ودفن مجد الدين بحلب ، وكان من أكابر أمراء نور الدين ، وكان شجاعًا دينًا ، بنى بحلب خانكاه[٥] ، وهى باقية إلى هلم جرا . ولما مات مجد الدين ، قدّم نور الدين على العساكر سابق الدين عثمان بن الداية أخا مجد الدين ، وأعطى أولاده بعلبك .

أمير حاجب[٦] العمادى ؛ مات فى هذه السنة ، وكان إقطاعه تدمر[٧] وبعلبك .

---

(١) نقل العينى هذا النص بتصرف من الباهر ، ص١٤٩ .

(٢) بانياس : اسم لبلدة صغيرة من أعمال دمشق ، وهى على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب بميلة إلى الجنوب . انظر : تقويم البلدان ، ص٣٤٩ ؛ وصبح الأعشى ، جـ٤ ، ص١٠٤ .

(٣) قلعة جعبر : على الفرات بين بالس والرقة ، قرب صفين . انظر : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٨٤ .

(٤) «على بن مجد الدين» فى نسختى المخطوطة أ ، ب وهو خطأ . وأولاد الداية خمسة هم : سابق الدين عثمان ، شمس الدين على ، بدر الدين حسن ، بهاء الدين عمر ، أبو بكر وهو أكبرهم واسمه محمد . انظر : الروضتين جـ١ ق٢ ، ص٣٨٧ـ ٣٨٩ حيث أورد أبو شامة شعرًا فى أولاد ابن الداية عن العماد الكاتب ؛ وانظر أيضًا : النعيمى : الدارس ، جـ٢ ، ص٢٩٥ .

(٥) خانكاه حلب : ذكر كرد على فى خطط الشام أن مجد الدين أنشأ خانقاتين إحداهما بعرصة الفراتى ، والثانية بمقام إبراهيم . انظر : خطط الشام ، جـ ٦ ، ص١٤٥ .

(٦) لم ترد وظيفة أمير حاجب فى المصادر المتخصصة كصبح الأعشى ، ونهاية الأرب فى فنون الأدب ، وإنما وردت وظيفة حاجب الحجاب على وزن أمير جاندار وأمير سلاح . انظر : صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص١٩ ، جـ ٥ ، ص٤٤٩ .

(٧) تدمر : مدينة قديمة مشهورة فى برية الشام . انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٨٢٨ .

وفى المرآة[١] : ودفن العمادى بقاسيون[٢] ، فى تربة قريبة من تربة شركس[٣] ، شماليها ، وهى أول تربة بنيت فى الجبل ، واسمه مكتوب على بابها .

قال السبط :[٤] ووقفت على باب التربة ، وعليها مكتوب : «هذه تربة العمادى محمد عامل قومسان»[٥] .

الحسين بن محمد أبو المظفر بن الشيبى ؛ حبس مديدة ، ثم قطعت يده ورجله ، وحمل إلى المارستان ، فتوفى فى محرم هذه السنة . وكان أديبًا لطيفًا ، له شعر حسن . ومما قال من الشعر يتشوق أهله :

سَلامٌ عَلَى أَهْلِى وَصَحْبِى وَجُلاَّسِى ... وَمَنْ فِى فُؤادِى ذِكْرُهُم رَاسِبٌ رَاسِى
أَحِبَّةَ قَلْبِى قَلَّ صَبْرِى عَنْكُمُ ... وَزَادَ بِكُم وَجْدِى وَحُزْنِى وَوَسْوَاسِى
أُعَالِجُ فِيكُم كُلَّ هَمٍّ وَلا أَرَى ... لِدَاءِ هُمُومِى غَيْرَ رُؤْيَتِكُم آسِى
خُذُوا الْوَاكِفَ الْمِدْرَارَ مِنْ فَيْضِ أَدْمُعِى ... وَحَرَّ لَهِيبِ النَّارِ مِنْ كَرْبِ أَنْفَاسِى
لَقَدْ أَبْدَتْ الأَيَّامُ لِى كُلَّ شِدَّةٍ ... تَشِيبُ لَهَا الأَكْبَادُ فَضْلاً عَنِ الرَّاسِ
أَقُولُ لِقَلْبِى وَالْهُمُوم تَنُوشُهُ ... وَ قَدْ حَدَّثَتْهُ النَّفْسُ بِالصَّبْرِ والْيَاسِ
وَكَيْفَ اصْطِبَارِى عَنْكُمُ وَتَجَلُّدِى ... عَلَى فَقْدِكُمُ ، وَيْلِى عَلَى قَلْبِى الْقَاسِى
وَمَنْ لِى بِطَيْفٍ مِنْكُم أَنْ يَزُورَنِى ... عَلَى اللَّيْلَةِ اللَّيْلاءِ فِى جُنْحِ دَيْمَاسِ[٦]

طاوس أم المستنجد بالله ؛ توفيت يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان من هذه السنة ، وحملت إلى الترب بالرصافة[٧] .

---

(١) انظر : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص١٧٥ـ ١٧٦ .

(٢) قاسيون : هو الجبل المشرف على مدينة دمشق . انظر : معجم البلدان . جـ٤ ، ص١٣ .

(٣) تربة شركس : هى تربة جهاركس بن عبد الله الأنصارى الأمير فخر الدين من أكابر الأمراء الصلاحية . وهى بقاسيون . انظر : الدارس ، جـ١ ، ص٤٩٧ .

(٤) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص١٧٥ ـ ١٧٦ .

(٥) قومسان : قرية من قرى اغلم ، واعلم ناحية بين همذان وزنجان . انظر : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٢٠٢ .

(٦) «وتماس» كذا فى الأصل ، والمثبت من ب .

(٧) الرصافة : بالجانب الشرقى من بغداد . بناها المهدى وعمل له جامعًا . وبها مقابر الخلفاء من بنى العباس . انظر : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٧٨٣ .

فصل فيما وقع من الحوادث
فى السنة السادسة والستين بعد الخمسمائة*

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستنجد بالله ، ولكنه مات فى هذه السنة . والكلام فيه على أنواع :

الأول فى ترجمته[١] : هو أمير المؤمنين ، المستنجد بالله ، أبو المظفر يوسف بن - أمير المؤمنين - المقتفى لأمر الله ، أبى عبد الله محمد بن - أمير المؤمنين - المستظهر بالله أبى العباس أحمد بن - أمير المؤمنين - المقتدى بأمر الله ، عبد الله بن - الأمير - ذخيرة الدين ولى العهد ، أبى العباس أحمد ، القادر بأمر الله بن إسحاق بن المقتدر بالله ابن المعتضد بالله بن - الأمير - أبى أحمد الموفق بن المتوكل على الله بن المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن المهدى بن المنصور أبى جعفر . وأمه أم ولد ، يقال لها طاوس[٢] ، وكانت رومية ، توفيت فى السنة الماضية كما ذكرنا .

وكان مولده فى ربيع الأول سنة ثمانى عشرة وخمسمائة ، وبويع له بالخلافة[فى][٣] صبيحة يوم الأحد ، ثانى ربيع الأول ، من سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وعمره يومئذ سبع[١٦١ظ] وعشرون سنة ، وكان ولى عهد أبيه من مدة متطاولة .

الثانى فى صفته : كان أسمر ، طويل اللحية ، تام القامة .

الثالث فى سيرته : كان من خيار الخلفاء ، وأعدلهم ، وأرفقهم بالرعايا ، وضع عنهم المكوس والضرائب ، ولم يترك بالعراق مكسًا ، وكان أمارًا بالمعروف ، نهاءً عن المنكر . وقد رأى رسول الله ﷺ فى المنام غير مرة ؛ وكانت آخرهن قبل أن يلى بأربعة أيام وهو يقول له : قل : اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت ، دعاء القنوت بتمامه .

(*) يوافق أولها ١٤ سبتمبر١١٧٠م .

(١) انظر ترجمته فى المنتظم ، جـ ١٨ ، ص١٩٠ - ١٩١ ؛ الكامل ، جـ ١٠ ، ص٢٨ - ٢٩ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٢٤١ ؛ تاريخ الخلفاء ، ص٤٤٢ - ٤٤٤ .

(٢) طاوس ، وقيل نرجس ، وهى أم المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفى لأمر الله . انظر : الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٨ .

(٣) ما بين الحاصرتين مثبت من نسخة ب .

وفى تاريخ بيبرس : وكان حسن السيرة ، عادلاً فى الرعية ، رفيقًا بهم ، شديدًا على أهل العبث والفساد والسعاية بالناس ، جاهدًا فى دفع المضار عنهم ، وكفٍّ أكُفِّ العدوان الممتدة إليهم ، وكان فاضلاً ، محبًا للعلم ، أديبًا .

وله شعر ، منه قوله فى الشمعة :

وَصَفْراءُ مِثْلِى فى الْقِياسِ وَدَمْعُهَا سجامٌ عَلَى الخَدَّين مِثل دُمُوعى

تَذُوبُ كَمَا فِى الْحُبِّ ذُبْتُ صَبَابَةً وتَحْوِى حَشَاهَا ما حَوته ضُلُوعى

وفي تاريخ ابن العميد : كان منكرًا للظلم مؤثرًا للعدل ، كثير الصدقات مهيبًا مخوفًا ، ذا سطوة وعزيمة وبأس شديد . وله شعر جيد .

وفى المرآة :[١] كان شجاعًا مهيبًا عادلاً ، أزال المظالم والمكوس ، ذكيًا فطنًا فصيحًا ، له واقعات عجيبة . شكى إليه رجل من القاضى فوقَّع[٢] على الرقعة إلى القاضى : «تجنب الآثام ، وانصف الأنام ، وخف سطوات حاكم الحكام» .

وقبض على إنسان يسعى بالناس ، فشفع فيه بعض أصحاب الخليفة ، وبذل عشرة آلاف دينار ، فقال له الخليفة : أنا أعطيك عشرة آلاف دينار ، وأحضر لى إنسانًا مثله يؤذى الناس بالسعايات ؛ لأحبسه وأكف شره عن الناس . ومن شعره :

عَيَّرَتْنِى بِالشَّيبِ وَهْوَ وَقَارُ لَيْتَهَا عَيَّرَتْ بِمَا هُوَ عَارُ

إنْ تَكُنْ شَابَتْ الذَّوَائِبُ مِنِّى فَاللَّيَالِى[تُزِيْنُها][٣] الأقْمَارُ

الرابع فى وفاته :

قال ابن كثير[٤] : وكان المستنجد قد مرض فى أول هذه السنة ، ثم عوفى فيما يبدو للناس ، وعمل ضيافة عظيمة بسبب ذلك ، وفرح الناس بذلك . ثم أدخله الحكيم إلى

---

(١) انظر : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص١٧٧ حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(٢)«فرفع» فى المرآة ج٨ ، ص١٧٧ .

(٣) «تزينهن» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من نسخة ب . وهو الصحيح .

(٤) انظر : البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٨١ ، حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

الحمام وعنده ضعف شديد ، فمات فى الحمام يوم السبت بعد الظهر ثامن[(١)] ربيع الآخر . ويقال إن ذلك بإشارة بعض أهل الدولة على الطبيب ؛ استعجالاً لموته .

وفى عيون المعارف[(٢)] : أن الأمير يَزْدَن[(٣)] دخل الحمام وداس على بطنه فمات .

وفى المرآة[(٤)] : وكان مرض ، فلما اشتد مرضه اتفق بعض الأمراء الأكابر وأستاداره[(٥)] مع طبيبه أنه يصف له صفة يكون فيها حتفه ، فوصف له دخول الحمام ، فدخل ، وأغلق عليه بابها ، فمات ، وأظهروا وفاته للناس .

وفى المرآة[(٦)] مرض فى ربيع الآخر أيامًا ، فاحمر الأفق ، وما زالت الحمرة على الحيطان ، وشعاعها متصل بالسماء حتى مات .

وكان قد فوض أمور العساكر إلى قطب الدين قيماز مملوكه ، فأظهر الاستبداد بالأمر ، وبلغه أن قيماز يجتمع بالأمير أبى محمد الحسن بن المستنجد ، المستضىء ، وأن بينهما مراسلات ، فتغير على قيماز .

ومرض المستنجد ، وكان وزيره ابن البلدى[(٧)] قد اطلع على الحال ، فأخبر المستنجد ، فأمره بالقبض عليهما ، وخاف قيماز وكان [١٦٢و] له طبيب يقال له ابن صفية ، فخلا به قيماز ، فقال : خلصنا منه وإلا قتلتك . فقال : به حمى محرقة ، وليس عليه أضر من الحمام ، فدخل عليه قيماز وهو فى فراشه ، فقال : قد وصف لك ابن صفية

---

(١) ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٨١ أن الوفاة كانت فى «ثانى ربيع الآخر» ؛ أما ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٨ فذكر أن وفاته فى تاسع ربيع الآخر ، وقد وافقه أبو شامة فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٨٤ ؛ أما السيوطى فقد اتفق مع العينى ، انظر : تاريخ الخلفاء ، ص٤٤٣ .

(٢) عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف ؛ جمعه القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة بن خضر «جعفر» القضاعى المتوفى سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢م . جمع فيه أنباء الأنبياء وتواريخ الخلفاء وولايات الملوك والأمراء ، انتهى فيه إلى الخلافة الفاطمية . انظر : حاجى خليفة : كشف الظنون ، جـ٢ ، ص١١٨٨ .

(٣) يزدن : الحسن بن صافى بن يزدن التركى . من أكابر أمراء بغداد المتحكمين فى الدولة . كان رافضيًا خبيثًا . توفى سنة ٥٦٨هـ/١١٧٣م . انظر : البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٩٢ ؛ الباهر ، ص١٥١ .

(٤) لم نعثر على هذه الفقرة فى ذكر وفاة المستنجد بالمرآة وأقرب نص لهذا المعنى موجود بالكامل ، جـ١٠ ، ص٢٨ .

(٥) أستاداره أبو الفرج عضد الدين ابن رئيس الرؤساء ، وطبيبه ابن صفية .

(٦) انظر : مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص١٧٧-١٧٨ حيث ينقل العينى عن السبط ؛ وانظر أيضًا : تاريخ الخلفاء ، ص٤٤٤ .

(٧) هو الوزير شرف الدين أبو جعفر أحمد بن محمد بن سعيد بن إبراهيم التميمى ، وزير الإمام المستنجد بالله ، المعروف بابن البلدى . لمزيد من التفاصيل عن هذا الوزير انظر : الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٨-٢٩ ؛ الباهر ، ص١٥١ ؛ وفيات الأعيان ؛ جـ٤ ، ص٤٦٩ .

الحمام ، فقال : لا حاجة لى فيه ، وقيماز يقول : لابد لك منه ، فحمله كرهًا وهو يقول : بلى ينفعك ، فأدخله الحمام وأغلق عليه الباب ، وقطع عنه الماء البارد ، فمات يوم السبت ثامن ربيع الآخر ودفن بالدار .

وفى تاريخ المؤيد(١) : ولما مرض واشتد مرضه ، كان قد خاف منه أستاداره عضد[الدين](٢) أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء ، وقطب الدين قيماز المقتفوى ، وهو حينئذ أكبر أمراء بغداد ، فاتفقا مع الطبيب على أن يصف له ما يهلكه ، فوصف له دخول الحمام ، فامتنع منه لضعفه فأدخلوه ، وغلقوا عليه الباب ، فمات .

الخامس فى أشياء تتعلق به :

ولما مات المستنجد كان عمره ثمانيًا وأربعين سنة ، وكانت مد ة خلافته إحدى عشرة سنة وشهرًا . قاله فى تاريخ ابن كثير(٣) . وفى تاريخ بيبرس : وكان عمره ستًا وخمسين سنة ، وخلافته إحدى عشرة سنة وشهرًا وسبعة أيام .

وفى المرآة(٤) : وقد بلغ من العمر [ثمانيًا] (٥) وأربعين سنة ، وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وشهرًا ، وعمل العزاء ثمانية أيام .

وقال ابن الجوزى(٦) : وتكلمت فيه وخلع علىَّ . وقال : وحضرت الصلاة عليه يوم الأحد قبل الظهر فى التاج(٧) ، ودفن فى الدار ، أعنى دار الخلافة ، ثم نقل إلى الترب بالرصافة .

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص٤٩ حيث ينقل عنه العينى بتصرف .

(٢) «الدولة» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين مما سيأتى ص٥٨ . وهو عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء ، المعروف بابن المسلمة . انظر : وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص٢٤١ فى ترجمة الوزير ابن هبيرة ؛ الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٩ .

(٣) انظر : البداية والنهاية : جـ١٢ ، ص٢٨١ .

(٤) انظر : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص١٧٨ .

(٥) «ثمانية» فى الأصل والصحيح ما أثبتناه .

(٦) انظر : المنتظم ، جـ ١٨ ، ص١٩١ حيث ينقل عنه العينى بتصرف .

(٧) التاج : دار مشهورة جليلة ببغداد ، من دور الخلافة . كان أول من وضع أساسه وسماه بهذه التسمية أمير المؤمنين المعتضد ، وأتمه ابنه المكتفى . ياقوت ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص٨٠٦ .

وفى تاريخ ابن العميد[١] : مدة خلافته إحدى عشرة سنة وسبعة وعشرون يومًا ، أولها يوم الأحد ، وآخرها يوم الخميس ، لتتمة خمسمائة وخمس وستين سنة وثمانية وثمانين يومًا للهجرة ، ولتمام ست آلاف سنة وستمائة و[اثنتين][٢] وستين سنة ، ومائة وأربعة أيام للعالم شمسية .

ذكر خلافة المستضىء بأمر الله[٣]

هو أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد بن المقتفى ، وهو الثالث والثلاثون من خلفاء بنى العباس ، بويع له بالخلافة يوم مات أبوه ، وجلس بكرة الأحد تاسع ربيع الآخر ، وبايعه الناس . ولم يل الخلافة أحد اسمه الحسن بعد الحسن بن على بن أبى طالب (رضى الله عنهم) غير هذا ، ووافقه فى الكنية أيضًا ، وخلع على الناس يومئذ أكثر من ألف خلعة . وكان يومًا مشهودًا .

ولما بويع أظهر العدل والإحسان ، وأمر بإطلاق المسجونين ، وكانوا نحوًا من سبعمائة ، أكثرهم بغير جرم ، فأطلقوا . وسار سيرة حسنة ، ورد المظالم ، وفرق مالاً جزيلاً على الشرفاء والفقهاء والقراء وذوى الأقدار . وأمر بإسقاط الضرائب والمكوس التى كانت أحدثت ، وإسقاط الخراج المجدد على الناس ، وأمر بإعادة أملاك مغصوبة على[٤] أربابها ، وعاد إلى البلاد كثير ممن كان نأى عنها وبَعُدَ منها . ويوم مبايعته قتل الوزير شرف الدين أبو جعفر أحمد بن البلدى ، أعان على قتله أبو الفرج أستاذ الدار ، وقتل الوزير يحيى بن محمد بن هبيرة[٥] ، ووزر أبو الفرج أستاذ الدار للمستضىء من يومه ذلك .

---

(١) الجزء الخاص بهذه الفترة لم يقع بين أيدينا ويبدو أنه مفقود .

(٢) «اثنين» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت هو الصحيح .

(٣) انظر : الكامل ، جـ ١٠ ، ص٢٩ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٢٨١ ؛ تاريخ الخلفاء ، ص٤٤٤ـ ٤٤٨ .

(٤) «إلى» فى نسخة ب .

(٥) يحيى بن محمد بن هبيرة ، أبو المظفر عون الدين . من كبار وزراء الدولة العباسية . وزر للمقتفى ثم لابنه المستنجد ومات فى جمادى الأولى سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م . قيل أن طبيبه سقاه سمًا ودفن فى مدرسته بباب البصرة . أجمعت المصادر كلها على سنة وفاته وهى سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م ، وانفرد العينى بذكر وفاته فى سنة ٥٦٦ هـ/ ١١٧٠م يوم مبايعة المستضىء . انظر : المنتظم ، جـ ١٨ ، ص١٦٦ ؛ وفيات الأعيان ، جـ ٦ ، ص٢٣٠ـ ٢٤٤ ؛ الخريدة ، قسم شعراء الشام ، جـ٢ ، ص٣٦٦ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ص٢٥٠ـ ٢٥١ .

وقال ابن التعاويذى[1] ، يمدح المستضىء ، ويهنئه بما أتاه الله وأباحه له ، قصيدة مطلعها :

لَكَ النَّهْىُ بَعْدَ اللَّه فِى الخَلْقِ وَ الأَمْرُ ... وَ فِى يَدِكَ المَبْسُوطَةِ النَّفْعُ والضَّرُّ

[١٦٢ظ] وَطَاعَتُكَ الإيمَانُ بِاللَّهِ وَ الْهُدَى ... وَعِصْيَانُكَ الإلْحَادُ بِاللَّه والْكُفْرُ

وَلَوْلاكَ مَا صَحَّتْ عَقِيدَةُ مُؤمِنٍ ... تَقِىٍّ وَ لَمْ يُقْبَلْ دُعَاءٌ وَلا نَذْرُ

مُرِ الدَّهْرَ يَفْعَلْ مَا تَشَاءُ فَإِنَّهُ ... بِأَمْرِكَ يجْرِى فِى تَقَلُّبِهِ الدَّهْرُ

إِمَامُ هُدًى عَمَّتْ سِيَاسَةُ عَدْلِهِ ... فَأوَّلُ مَقْتُولٍ بإحْسَانِه الْفَقْرُ

يُقَصِّرُ بَاعُ المدْحِ دُونَ صِفَاتِهِ ... وَيَصْغُرُ أن يُهْدِى الثَّنَاء لَهُ الشِّعْرُ

وكَيْفَ يُقَاسُ الْبَحْرُ جُودًا بِكَفِّهِ ... وَمِنْ بَعْضِ مَا تَحْوِيه قَبْضَتُه الْبَحْرُ

وَهَلْ لِضِيَاءِ الْبَدْرِ إِشْرَاقُ وَجْهِهِ ... وَأَنَّى وَ مِنْ أَنْوَارِهِ خُلِقَ الْبَدْرُ

وَ مَنْ يُسْتَهَلُّ الْقَطْرُ مِنْ بَرَكَاتِه ... عَلَى النَّاسِ ظُلْمٌ أَنْ يُقَاسَ بِهِ القَطْرُ

وَكَيْفَ يُهَنَّى بِالزَّمَانِ وَ إِنَّمَا ... تُهَنَّى بِهِ الأَيَّامُ وَ العَامُ والْعَصْرُ

وَلَوْلا الإمَامُ الْمُسْتَضِيءُ وَرَأْيُهُ ... تَدَاعَتْ قوَى الإِسْلامِ وَ انْثَغَرَ الثَّغْرُ

بِهِ أَيَّدَ اللَّهُ الْخِلافَةَ بَعْدَمَا ... تَفَاقَمَ دَاءُ الْبَغْىِ وَاسْتَفْحَلَ الشَّرُّ

فَمَنْ مُبْلِغٌ تَحْتَ التُّرابِ ابْنَ هَانِىءٍ ... وَقَبْرَ المُعِزِّ إنْ أَصَاخَ لَهُ الْقَبْرُ

بَأَنَّ الحُقُوقَ اسْتُرْجِعَتْ فِى زَمَانِه ... على رغْمِ مَنْ نَاوَاهُ وافْتُتِحَتْ مِصْرُ

وَ أَنَّ اللَّيَالِى الدُّهمَ بالجَوْرِ أَشْرَقَتْ ... عَلَى إثْرِهَا بِالعَدْلِ أَيَّامُهُ الغُرُّ

شَكَرْنَاهُ مَا أولاه لا[2] إنّ وسْعنا ... بنا بالغٌ ما يَقْتَضِيه لَهُ الشُّكْرُ

وَلَكِنَّنا نُثْنِى عَلَيْهِ تَعَبُّدًا ... وَ إِنْ كَانَ عَنَّا ذَا غِنًى فَبِنَا فَقْرُ

فَما نَبْتَغِى فِى لَيْلِنَا وَ نَهَارِنَا ... مِنَ اللَّهِ إِلاَّ أَنْ يُمَدَّ لَهُ العُمْرُ

---

(١) ابن التعاويذى : هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله الكاتب المعروف والشاعر المشهور . وهو سبط أبى محمد المبارك بن المبارك بن على بن نصر السراج الجوهرى الزاهد المعروف بابن التعاويذى . وقد نسب إلى جده لأمه لأنه كفله صغيرًا ونشأ فى حجره فنسب إليه . توفى فى ثانى شوال سنة أربع وقيل ثلاث وثمانين وخمسمائة ببغداد . انظر وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٤٦٦ ؛ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص٢٧٩ .

(٢) «ما» فى نسخة ب .

وله فيه من قصيدة :

الْمُسْتَضِيءُ الْمُسْتَضَاءُ بِهَدْيِهِ		السَّاجِدُ الْمُتَبَتِّلُ
سُسْتَ الأَنَامَ بِسِيرَةٍ مَا سَارَهَا		فِى النَّاسِ إلاَّ جَدُّكَ الْمُتَوَكِّلُ

ومدحه الحيص بيص[1] بقوله :

أَقُولُ وَقَدْ تَوَلَّى الأَمْرَ حَبْرٌ		وَلِىٌّ لَمْ يَزَلْ بَرًا تَقِيًّا
وَقَدْ كَشَفَ الظَّلامُ بِمُسْتَضِيءٍ		غَدَا بِالْخَلْقِ كُلِّهِمُ حَفِيًّا
وَفَاضَ الْجُودُ وَالْمَعْرُوفُ حَتَّى		حَسِبْنَاهُ عُبَابًا أَوْ أَتِيًّا
بَلَغْنَا فَوْقَ مَا كُنَّا نُرَجِّى		هَنِيئًا يَا بَنِى الدُّنْيَا هَنِيًّا
سَأَلْنَا اللَّهَ يَرْزُقَنا إِمَامًا		نُسَرُّ بِهِ فَأَعْطَانَا نَبِيًّا/ [١٦٣و]

ومدحه العماد[2] الكاتب الأصفهانى (رحمه الله) بقوله :

قَدْ أَضَاءَ الزَّمَانُ بِالْمُسْتَضِيءِ		وَارِثُ الْبُرْدِ وَ ابْنُ عَمِّ النَّبِىءِ
جَاءَ بِالْحَقِّ والشَّرِيعَةِ والْـ		ـعَدْلِ فَيَا مَرْحَبًا بِهَذَا الْمَجِىءِ
فَهَنِيئًا لأَهْلِ بَغْدَادَ فَازُوا		بَعْدَ بُؤْسٍ بِكُلِّ عَيْشٍ هَنِىءِ

وله أيضًا من قصيدة أخرى :

لَهْفِى عَلَى زَمَنِ الشَّبَابِ فَإِنَّنِى		بِسِوَى التَّأَسُّفِ عَنْهُ لَمْ أَتَعَوَّضِ
نُقِضَتْ عُهُودُ الغَانِيَاتِ وَإِنَّهَا		لَوْلا انْقِضَاءُ شَبِيبَتِى لَمْ تُنْقَضِ
يَا حُسْنَ أَيَّامِ الصِّبَا وَ كَأَنَّهَا		أَيَّامُ مَوْلانَا الإِمَامِ الْمُسْتَضِى
ذُو الْبَهْجَةِ الزَّهْرَاءِ يُشْرِقُ نُورُهَا		وَ الطَّلْعَةِ الغَرَّاءِ وَ الْوَجْهِ الوَضِى
قَسَمَ السَّعَادَةَ وَ الشَّقَاوَةَ رَبُّنَا		فِى الْخَلْقِ بَيْنَ مُحِبِّهِ وَ الْمُبْغِضِ

---

(١) الحيص بيص : هو شهاب الدين أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن صيفى التميمى ، المعروف بحيص بيص . شاعر مشهور توفى فى بغداد سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص٣٦٢ .

(٢) انظر قول العماد فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٨٥ .

فَضَلَ الخَلائِفَ والْخَلائِقَ بِالتُّقَى وَ الفَضْلِ [وَ الإِحْسَانِ][١] والْخُلُقِ الرضى

فَـانْعَمْ أَمِـيـرَ المُـؤْمِنِين بِدَوْلَةٍ مَا تَنْتَـهِى وَسَعَـادَةٍ مَـا تَنْقَـضِى

ثم إن الخليفة ولّى قضاء قضاة بغداد لروح بن الحديثى يوم الجمعة الحادى والعشرين من ربيع الآخر، وخلع على الوزير خلعة عظيمة، وهو عضد الدين الأستادار، وضربت[٢] على بابه ثلاث نوب[٣] فى ثلاثة أوقات: الفجر، والمغرب، والعشاء. وأمّر سبعة عشر من المماليك، وأذن للوعاظ فتكلموا، بعدما كانوا قد منعوا مدة طويلة، ثم كثر احتجابه[٤] بعد هذا.

ذكر ماجريات نور الدين محمود

وهى أنه سار إلى الرقة فأخذها، وكذلك نصيبين والخابور وسنجار، وسلمها إلى زوج ابنته، ابن أخيه عماد الدين زنكى[٥] بن مودود بن زنكى، ثم سار إلى الموصل، فأقام بها أربعة وعشرين يومًا، وأقرها لابن أخيه سيف الدين غازى[٦] بن مودود مع الجزيرة، وزوجه ابنته الأخرى، وأمر بعمارة جامعها[٧] وتوسعته، ووقف على تأسيسه بنفسه، وجعل له خطيبًا ودرسًا للفقه، وولى التدريس للفقيه أبى بكر البرقانى[٨]، تلميذ محمد بن يحيى، تلميذ الغزالى، وكتب له منشورًا بذلك، ووقف على الجامع قرية من

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من نسخة أ والمثبت من ب.

(٢) «ضرب» فى نسخة ب.

(٣) نوبة ـ نوب: لفظ النوبة يطلق على فرق الجند التى تتناوب الوقوف لحراسة شخص أو سلطان، وهى خمس نوبات ويكون تغييرها فى الظهر والعصر والعشاء ونصف الليل وعند الصباح. انظر: السلوك، جـ١ ق٢، ص٤٦١، حاشية(٢).

(٤) «احتجاجه» فى نسخة ب.

(٥) هو: أبو الفتح وأبو الجود عماد الدين زنكى بن قطب الدين مودود صاحب سنجار. توفى سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م. انظر: الباهر، ص١٩١؛ الكامل، جـ١٠، ص٢٥٠؛ وفيات الأعيان، جـ٢، ص٣٣٠ـ ٣٣١.

(٦) هو الملك سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد زنكى. ملك البلاد الجزرية. توفى فى صفر سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م. انظر: الباهر، ص١٧٥ـ ١٨٠؛ وفيات الأعيان، جـ٤، ص٤ـ ٥.

(٧) جامع الموصل: هو جامع كبير تقام فيه الجمعة ـ بناه نور الدين محمود وسط السوق. وعن قصة بناء الجامع انظر: الباهر، ص١٧٠؛ مرآة الزمان، جـ ٨، ص١٩٥؛ الروضتين، جـ١ ق١، ص٢٠ـ ٢١، جـ ١ ق٢، ص٤٨٠؛ معجم البلدان، جـ ٤، ص٦٨٤. وانظر ما يلى ص٦١.

(٨) «النوقانى» فى الروضتين، ج١ق٢، ص٤٨٠.

قرى الموصل ، وذلك كله بإشارة الشيخ الصالح العابد عمر[١] المُلا ، وكانت له زاوية يقصد فيها ، وله فى كل سنة دعوة فى شهر المولد ، يحضر عنده الملوك والأمراء والعلماء ، ويحتفل بذلك . وقد كان الملك نور الدين صاحبه ، ويستشيره فى أموره وما يعتمده من المهمات ، وهو الذى أشار عليه فى مدة مقامه بالموصل بجميع ما فعله من الخيرات ، وأسقط عنهم المكوسات والضرائب ، وأخرج من بين أهلها الظالم الغاشم[١٦٣ظ] فخر الدين عبد المسيح ، وسماه عبد الله ، وأخذه معه إلى دمشق ، فأقطعه إقطاعًا حسنًا . وكان عبد المسيح هذا نصرانيًا ، فأظهر الإسلام ، وكان يقال : إن له كنيسة فى جوف داره ، وكان سيئ السيرة فى حق العلماء وخاصة المسلمين ، وكان نور الدين لم يدخل الموصل حتى قوى الشتاء ، فأقام بها كما ذكرنا أربعة وعشرين يومًا ، فلما كان آخر ليلة أقام بها ، رأى رسول الله ﷺ فى المنام ، وهو يقول له : «طابت لك بلدك ، وتركت الجهاد وقتال أعداء الله» ، فنهض من فوره إلى السفر ، وما أصبح إلا وهو سائر إلى الشام . واستقضى الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون[٢] ، وكان على سنجار ، ونصيبين ، والخابور ، فاستناب فيها ابن أبى عصرون نوابًا من أصحابه .

وفى تاريخ بيبرس : وفى هذه السنة اتصل بنور الدين بن زنكى أن [سيف الدين[٣]] غازى ، ابن أخيه صاحب الموصل ، قد فوض أموره إلى فخر الدين عبد المسيح ، وأنه استولى وقام بالأمر وتحكم ، فأنف لذلك وكرهه وعظم عليه ؛ لأنه كان يبغض فخر الدين المذكور ، لما بلغه من خشونة سياسته . وقال : أنا أولى بتدبير أولاد أخى . وسار عند انقضاء الغزاة جريدة فى قلة من العسكر ، وعبر الفرات عند قلعة جعبر ، وملك نصيبين ، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود ـ صاحب حصن كيفا[٤] ـ وكثر جمعه ، وكان قد ترك عساكره بالشام ؛ لحفظ ثغوره . فلما اجتمعت العساكر ، سار إلى سنجار فحصرها ، ونصب عليها المناجيق ، وملكها ، وسلمها إلى عماد الدين ابن أخيه قطب

---

(١) هو : عمر بن محمد بن خضر الإربلى الموصلى ، أبو حفص معين الدين ، المعروف بالمُلا . شيخ الموصل من العلماء الزاهدين . انظر : الباهر ، ص١٢٩ ، ١٧٠ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٣١٠ ؛ الروضتين ، جـ١ ق١ ، ص٢٠-٢١ ، جـ١ ق٢ ، ص٣٥٢-٣٥٣ ، ص٤٨٠-٤٨٣ .

(٢) هو : أبو سعد عبد الله بن أبى السرى محمد بن هبة الله بن مطهر بن على . الفقيه الشافعى ، شرف الدين . من أعيان الفقهاء وفضلاء عصره . توفى فى رمضان سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م . انظر : وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٥٣ .

(٣) «شهاب الدين» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والتصحيح مما يلى .

(٤) حصن كيفا : ويقال كيبا ، وهى بلدة وقلعة عظيمة ، مشرفة على دجلة ، بين آمد وجزيرة ابن عمر . انظر : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٢٧٧ .

الدين ، وكان قد جاءته كتب الأمراء الذين بالموصل سرًا ، يبذلون له الطاعة ، ويحثونه على الوصول إليهم . فسار إلى الموصل ، فأتى مدينة بلد[(١)] ، وعبر الدجلة ، وسار فنزل شرق الموصل على حصن نينوى[(٢)] ، ويوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة . وكان سيف الدين غازى بن أخيه قد أرسل عز الدين[(٣)] مسعود بن قطب الدين أخيه إلى أتابك شمس الدين[(٤)] ألدكز ، صاحب همذان[(٥)] وأذربيجان[(٦)] ، وبلد الجبل[(٧)] ، وأصفهان ، والرّى[(٨)] ، وتلك الأعمال ، يستنجده على عمه نور الدين . فأرسل أيلدكز رسولاً إلى نور الدين ؛ ينهاه عن التعرض للموصل ، ويقول له : إن هذه البلاد للسلطان ، فلا تقصدها ، فلم يلتفت إليه ، وقال للرسول : قل لصاحبك أنا أصلح لأولاد أخى منك ، فلِمَ تُدخل نفسك بيننا ؟ وعند الفراغ من إصلاح بلادهم يكون الحديث معك على باب همدان ، فإنك قد ملكت هذه المملكة العظيمة ، وأهملت الثغور حتى غلب الكُرج[(٩)] عليها ، وقد بليت أنا بالفرنج ، وهم أشجع العالم ، ولى مثل ربع بلادك ، فأخذت معظم بلادهم ، وأسرت ملوكهم ، ولا يحل لى السكوت عنك ؛ فإنه يجب علينا حفظ ما أهملت ، وإزالة الظلم عن المسلمين .

---

(١) مدينة بَلَدَ : هى مدينة قديمة على دجلة ، فوق الموصل ، بينهما سبعة فراسخ . انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٧١٥ .

(٢) حصن نِيْنَوَى : قرية يونس بن متى بالموصل . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٨٧٠ .

(٣) هو المولى السعيد عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى أتابك صاحب الموصل . كان مقدم الجيوش فى أيام أخيه غازى . ولما توفى أخوه سيف الدين استقل عز الدين بالملك من بعده . توفى فى شعبان سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م . انظر : الباهر ، ص١٨١- ١٨٩ ؛ وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٢٠٣ .

(٤) انظر ترجمته فيما سيأتى ص١٢١ فى وفيات سنة ٥٦٨هـ .

(٥) همذان : مدينة عتيقة بالجبال بأرض فارس بجوار أذربيجان والموصل والرى . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٩٨١ .

(٦) أذربيجان : إقليم واسع من برذعة مشرقًا إلى أرزنجان مغربًا ويحدها من الشمال بلاد الديلم والجيل والطَّرْم . وعاصمته تبريز . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص١٧١- ١٧٤ .

(٧) بلد الجبل : وهى البلاد المعروفة عند العامة بعراق العجم . وهى ما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والرى وما بين ذلك من البلاد الجليلة والكور العظيمة . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٢ ؛ تقويم البلدان ، ص٤٠٨ .

(٨) الرَّىُّ : مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن . وهى مَحَطُّ الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٨٩٢ .

(٩) الكُرج : أمة من المسيحيين كانت مساكنها بجبال القوقاز المجاورة لتفليس ، ثم استولوا على تفليس من المسلمين سنة ٥١٥هـ/١١٢١م . ولم يزالوا متملكين لها حتى أغار عليهم جلال الدين خوارزمشاه سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م . انظر : مفرج الكروب ، ج١ ، ص١٩٢ ؛ معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٥١-٢٥٢ .

فأقام نور الدين على الموصل ، وعزم من بها من الأمراء على مجاهرة عبد المسيح بالعصيان ، وتسليم البلد لنور الدين ، فعلم ذلك ، فأرسل إلى نور الدين فى تسليم البلد إليه ، على أن يقره بيد سيف الدين غازى ، ويطلب لنفسه الأمان ، فأجابه إلى ذلك ، وشرط[١٦٤و] أن يأخذ فخر الدين معه إلى الشام ، ويعطيه عنده إقطاعًا يرضيه . فسلم البلد فى جمادى الأولى من هذه السنة ، ودخل القلعة من باب السر ، ثم وهب الموصل لسيف الدين غازى ابن أخيه ، وأمر بعمارة جامعها ، ورتب فيها خصيًا له ، يقال له كمشتكين[١] ، وأمره بأن لا ينفرد عن سيف الدين غازى بقليل من الأمور ولا بكثير ، وكان مقامه بالموصل أربعة وعشرين يومًا ، وعاد إلى الشام .

وفى تاريخ الدولتين[٢] : وجعل نور الدين سعد الدين كمشتكين دُزْداراً[٣] فى قلعة الموصل[٤] ، ثم قسم جميع ما خلفه أخوه قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة .

ولما كان يحاصر الموصل ، جاءته خلعة من الخليفة ، فلبسها ، فلما دخلها ، خلعها على سيف الدين . وقال العماد : استدعانى نور الدين ونحن بظاهر الرقة ، وقال : أنست بك ، وأمنت إليك ، وأنا غير مختار[للفرقة][٥] . وأمره أن يروح فى الرسلية إلى الخليفة ، فمضى وسار على البرية بخفير من بنى خفاجة[٦] ، فوصل إلى الخليفة ، وقضى حاجته ، ثم رجع إلى نور الدين وهو يحاصر سنجار ، فأخذها وسلمها إلى ختنه[٧] ، ابن أخيه عماد

---

(١) وعن دور سعد الدين كمشتكين فى علاقة مصر بالشام بعد وفاة نور الدين محمود ، انظر تفصيل ذلك فى حوادث سنة ٥٦٩هـ فيما سيأتى .

(٢) انظر الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٧٧ ، حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(٣) دزدار : كلمة فارسية مكونة من لفظين ، «دز» أى قلعة ، و«دار» أى الحافظ أو الممسك ، فكان معناها صاحب القلعة أو متوليها أو حارس القلعة . انظر : المعرب للجواليقى ، ص٣١٥ ؛ قاموس الفارسية فارسى - عربى .

(٤) قلعة الموصل : سكنها نور الدين بعد فتحه الموصل وتسلمها ، ووليها سعد الدين كمشتكين من قبل نور الدين بعد تسلمه الموصل من فخر الدين عبد المسيح سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م . الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٧٧- ٤٧٩ .

(٥)«تفرقة» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين وهو يتفق مع سياق الكلام وانظر باقى خطاب نور الدين للعماد فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٧٨ .

(٦) بنو خفاجة : بطن من بنى عقيل بن كعب بن عامر بن صعصعة من العدنانية . وهم أمراء العراق من قديم الزمان . القلقشندى : نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، ص٢٤٦-٢٤٧ .

(٧) الخَتَنُ : كل من كان من قبل المرأة كأبيها وأخيها ، وكذلك زوج البنت أو زوج الأخت . انظر : المعجم الوسيط ، ج١ ، مادة ختن .

الدين زنكى بن مودود بن زنكى . قال[١] : وحضر مجاهد الدين قيماز[٢] صاحب إربل إلى خدمة نور الدين بالموصل .

ذكر ماجريات صلاح الدين يوسف بن أيوب

منها أن صلاح الدين عزل قضاة مصر ؛ لأنهم كانوا شيعة ، وولى قضاء القضاة بها لصدر الدين عبد الملك بن درباس المارانى الشافعى ، واستناب فى سائر الأعمال شافعية .

وفى تاريخ قضاة مصر : ولى القضاء صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس بن مبشر بن عبدوس الهمدانى المارانى الكردى الموصلى ، وكان قاضى[الغربية][٣] ، قدم من المشرق إلى مصر ، فولاه صلاح الدين (رحمه الله) وكان عنده بمكانة .

وفى تاريخ[٤] الدولتين : ولى صدر الدين عبد الملك المذكور القضاء والحكم بمصر والقاهرة وأعمالهما ، فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة .

ومنها أن صلاح الدين خرج إلى الغزاة ، وأغار على الرملة[٥] وعسقلان[٦] ، وهجم ربض غزة ، ثم رجع إلى القاهرة .

وفى تاريخ بيبرس[٧] : وفى هذه السنة تجهز صلاح الدين للمسير إلى الساحل غازيًا ، فمضى وأغار على عسقلان والرملة ، فأتاه ملك الفرنج[٨] فقاتله ، وهزمه ، ونجا بنفسه ، ثم رجع إلى القاهرة .

---

(١) القول لأبى شامة فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص ٤٨٠ نقلاً عن العماد .

(٢) مجاهد الدين قيماز : أبو منصور ، قايماز بن عبد الله الزينى ، الملقب مجاهد الدين الخادم . كان نائب سيف الدين غازى بن مودود صاحب الموصل فى الحكم وهو السلطان فى الحقيقة . توفى سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م بقلعة الموصل . انظر : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٨٢ـ ٨٤ .

(٣) «الغرية» كذا فى الأصل ، والمثبت بين الحاصرتين من نسخة ب .

(٤) انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٨٦ .

(٥) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين . وكانت رباطًا للمسلمين . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٨١٧ .

(٦) عسقلان : مدينة بالشام من أعمال فلسطين ، على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٧٣ .

(٧) انظر هذه الأحداث فى الكامل ، ج١٠ ، ص٣١ .

(٨) ملك الفرنج : يقصد «عمورى الأول» ملك مملكة بيت المقدس الصليبية . انظر تفصيل هذه الحادثة فى مفرج الكروب ، ج١ ، ص١٩٨ .

ومنها أنه لما عاد من هذه الغزوة وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق ، فيها أهله ، فأشفق عليها ، وأحب أن يجتمع بها شمله ،فخرج فى النصف من ربيع الأول . وكانت بأيلة[١] قلعة فى البحر ، قد حصنها أهل الكفر ، فعمر لها مراكب ، وحملها إلى ساحلها على الجمال ، وركَّبها الصناع هناك ، وشحنها بالرجال ، وفتح القلعة فى العشر الأول من ربيع الآخر ، واستحلها ، واستباح بالأسر والقتل أهلها ، وملأها بالعَددِ والعُدَد ، وحصنها بأهل الجلاد والجلد ، واجتمع بأهله عليها ، وسار بهم على سمت القاهرة ، ودخلوا فى السادس والعشرين من جمادى الأولى .

ومنها أنه سار إلى الإسكندرية فى الثالث والعشرين من شعبان ليشاهدها ، ويرتب قواعدها ، وهى أول دفعة سار إليها فى أيام سلطانه ، [١٦٤ظ] وعم أهلها بإحسانه ، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها .

ومنها أنه كان بمصر سجن تعرف بدار المعونة[٢] ، فهدها صلاح الدين ، وبناها مدرسة للشافعية ، وبنى بها أيضًا مدرسة للمالكية ، وكانت دار العدل ، وكان ذلك فى النصف من محرم هذه السنة .

واشترى ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب دارًا ، كانت تعرف بمنازل العز[٣] ، فجعلها مدرسة للشافعية ، وأوقف عليها الروضة[٤] ، وحمام الذهب[٥] ، وغيرهما ، وكان ذلك فى النصف من شعبان .

وفى النصف من جمادى الآخرة أغار شمس الدولة[٦] ـ أخو السلطان ـ على العربان بالصعيد ، ثم دخل القاهرة فى عاشر شهر رمضان .

---

(١) أيلة : مدينة على رأس خليج العقبة على ساحل البحر الأحمر ، وهى آخر الحجاز وأول الشام . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٢٩٢ـ٢٩٣ .

(٢) سجن دار المعونة : يقال له أيضًا «حبس المعونة» . كانت بالفسطاط . وسميت كذلك لأنها بنيت بمعونة المسلمين ينزلها ولاتهم . وعن تطورها إلى أن حولها صلاح الدين إلى مدرسة للشافعية وما حدث لها بعد ذلك . انظر المقريزى : الخطط ، ج١ ، ص٤٦٣ ؛ ابن دقماق : الانتصار ، ج٤ ، ص٩٣ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص٣٨٥ .

(٣) منازل العز : بنتها السيدة تغريد أم العزيز بالله بن المعز . وكانت مطلة على النيل . انظر : الخطط ، ج١ ، ص٤٨٤ـ٤٨٥ .

(٤) هى جزيرة الروضة التى تقع بين مصر القديمة والجيزة . الخطط ، ج٢ ، ص١٧٧ـ ١٨٢ .

(٥) حمام الذهب : هذه الحمام كانت بدار الذهب أحد مناظر الخلفاء الفاطميين . انظر : الخطط ، ج٢ ، ص٨٠ .

(٦) شمس الدولة : تورانشاه بن أيوب بن شاذى فخر الدين ، الملك المعظم ، توفى سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م . انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٣٠٦ـ ٣٠٩ .

ومنها أن صلاح الدين شرع فى هذه السنة فى عمارة سور القاهرة[١] ؛ لأنه كان قد تهدم أكثره ، وصار طريقًا لا يَرُدُّ داخلاً ولا خارجًا ، وولى أمره لقراقوش[٢] الخادم ، وقبض على القصور ، وسلمها إليه .

وأمر بتغيير شعار الإسماعيلية ، وقطع من الآذان «حى على خير العمل» ، وشرع فى تمهيد أسباب الخطبة لبنى العباس . كذا ذكره ابن أبى طى[٣] .

ومنها أن شمس الدولة طلب من أخيه السلطان رَبْع الكامل[٤] بالقاهرة ، وزاد على إقطاعه بوش[٥] ، وأعمال الجيزة ، وسمنود[٦] ، وغيرها .

ومن جملة الحوادث فى هذه السنة : أن فى نصف رمضان هبت ريح شديدة عظيمة ، ورعدت السماء بقعقعة لم يسمع بمثلها ، فخر الناس على وجوههم .

وفيها[٧] : . . . .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أبو طاهر البرقى الواعظ ؛ تعلم الوعظ من أبى الحسن الزَّاغونى - شيخ ابن الجوزى - وسمع الحديث ، وكان يعظ ، توفى فى محرم هذه السنة ، ودفن بمقبرة أحمد (رحمه الله) .

---

(١) سور القاهرة : عُمل السور ثلاث مرات . الأول وضعه جوهر القائد ، الثانى بناه أمير الجيوش بدرر الجمالى ، الثالث بدأه السلطان صلاح الدين وأكمله بهاء الدين قراقوش بتكليف من صلاح الدين . انظر : المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص٢٠٤ - ٢٠٩ (طبعة مكتبة الآداب ، القاهرة د . ت)

(٢) بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الأسدى ، أبو سعيد . جعله صلاح الدين زمام القصر ، واعتمد عليه فى تدبير الديار المصرية لما استقل بها ، توفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م . انظر وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٩١ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٣٣١- ٣٣٢ .

(٣) انظر قول ابن أبى طى فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٨٨ .

(٤) ربع الكامل : أنشأه الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، وكان موضعه من جملة القصر الغربى وهو على باب الخرنشف ويمتد إلى الدرب المقابل للجامع الأقمر . انظر : الخطط ، ج٢ ، ص٣٧٥ .

(٥) بوش : كورة ومدينة بمصر من نواحى الصعيد الأدنى فى غربى النيل . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٥٨ . وهى تقع الآن ضمن محافظة بنى سويف . رمزى : القاموس الجغرافى ، ق٢ ج٣ ، ص١٥٨ .

(٦) سمنود : بلد من نواحى مصر جهة دمياط على ضفة النيل . معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٤٥ .

(٧) بياض في نسختي المخطوطة أ ، ب بمقدار سطر .

النفيس بن صَعْوَة[١] ؛ قرأ القرآن ، وناظر ، ووعظ ، ومات فى شبابه يوم الثلاثاء التاسع من شوال منها . ودفن عند أحمد (رحمه الله) .

أبو نصر بن المستظهر[٢] ؛ عم المستنجد ، مات فى هذه السنة ، وكان يذكر عنه الخير ، وحمل إلى التُرَبِ ، ودفن بها ، ولم يبق من أولاد المستظهر غيره ، وكان المستنجد تزوج بابنته .

طاهر بن محمد بن طاهر أبو زرعة ؛ المقدسى[٣] الأصل ، الرازى المولد ، الهمدانى الدار ، ولد سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، وأسمعه والده الحافظ محمد بن طاهر الكثير ، ومما كان يَرويه مسند الشافعى ، وتوفى بهمذان ، يوم الأربعاء سابع ربيع الآخر ، وقد قارب التسعين .

أبو الحجاج يوسف بن محمد ، المعروف بابن الخلال[٤] ؛ الملقب الموفق ، صاحب ديوان الإنشاء بمصر ، فى دولة الحافظ أبى الميمون عبد المجيد[٥] العُبيدى ، ومَنْ بعده .

وقال العماد فى الخريدة[٦] : هو ناظر [ديوان][٧] مصر ، وإنسان ناظره ، وجامع مفاخره ، وكان إليه الإنشاء ، وله قوة على الترسل ، يكتب كما يشاء ، عاش كثيرًا ، وعُطِّل فى آخر عمره ، وأضرّ ، ولزم بيته إلى أن تعوض منه القبر ، وتوفى بعد مُلك[٨] الملك الناصر صلاح الدين يوسف مصر بثلاث أو أربع سنين .

---

(١) النفيس بن صعوة : هو ابن مسعود بن أبى الفتح بن سعيد بن على المعروف بابن صعوة السلامى الفقيه الحنبلى ، أبو محمد . انظر : شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص٢١٧ .

(٢) انظر ترجمته فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص٣٢ وفيها ذكره ابن الأثير «نصر بن المستظهر» .

(٣) هو أبو زرعة طاهر بن الحافظ محمد بن طاهر المقدسى ثم الهمذانى ، انظر : شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٢١٧ .

(٤) «ابن الحلال» فى ب وهو خطأ . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ ٧ ، ص٢١٩ . انظر أيضًا : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، جـ١ ، ص٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٥) هو الإمام أبو الميمون عبد المجيد بن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز العبيدى . هو الحافظ لدين الله - ولى مملكة الديار المصرية سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م . توفى سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م فكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة شهور . وكان وزيرة أبو على بن الأفضل أمير الجيوش هو المتحدث وليس للحافظ معه إلا الاسم . انظر : الجوهر الثمين ، جـ ١ ، ص٢٦١- ٢٦٢ ؛ وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص٢٣٥- ٢٣٧ ؛ اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص١٣٧- ١٩٢ .

(٦) انظر : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، جـ ١ ، ص٢٣٥- ٢٣٦ . حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من الخريدة للتوضيح .

(٨) «تملك» فى الخريدة حيث ينقل عنه العينى . انظر : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، جـ ١ ، ص٢٣٥ .

وقال ابن خلكان : إن القاضى الفاضل[١] كان يرعى له حق الصحبة والتعلم ، وكان يُجرى عليه ما يحتاج إليه إلى أن مات فى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة [١٦٥و] من سنة ست وستين وخمسمائة .

ومن شعره :

يَا أَخَا الغِرَّةِ حَسْبُ الدَّهرِ مِنْ عِظَةِ المَغْرُور مَا أَصْبَحَ يُبْدِى
تُوْثِرُ الدُّنْيَا فَهَلْ نلْتَ بِهَا لَحْظَةً تَخْلُصُ مِنْ هَمٍّ وَكَدٍّ !![٢]

وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد ، المعروف بابن الأثير الجزرى[٣] فى أول كتابه المسمى بـ «الوَشْى المرقوم فى حل المنظوم»[٤] قال : حدثنى عبد الرحيم بن على البيسانى[٥] بمدينة دمشق ، فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، قال : كان فن[٦] الكتابة بمصر «فى زمن بنى عبيد»[٧] غضًا طريا ، ولا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكانًا وبيانا ، ويقيم [السلطانه بقلمه][٨] سلطانا . وكان من العادة أن كلا من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد ، وحصّل شيئًا من علم الأدب ، أحضره إلى ديوان المكاتبات ؛ ليتعلم فن الكتابة ، ويتدرب ، ويرى ، ويسمع . قال : فأرسلنى والدى ـ وكان إذ ذاك قاضيًا بثغر عسقلان ـ إلى الديار المصرية فى أيام الحافظ ـ وهو أحد خلفائها ـ وأمرنى بالمصير إلى ديوان المكاتبات ، وكان الذى يرأس به فى تلك الأيام رجلٌ يقال له : ابن الخلال . فلما حضرت الديوان ، ومثلت بين يديه ، وعرفته من أنا ، وما طلبى ، رَحّبَ بى وسهّل ،

---

(١) هو القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على بن الحسن بن الحسن بن أحمد اللخمى العسقلانى البيسانى . وزير صلاح الدين ، فاق المتقدمين فى صناعة الإنشاء ، توفى سنة ٥٩٦هـ/١٢٠٠م بالقاهرة . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص١٥٨-١٦٣ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ، ص١٣-١٨ .

(٢) انظر : الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٤٨٧ .

(٣) وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص٣٨٩-٣٩٧ .

(٤) ورد اسم هذا الكتاب فى ترجمة الموفق بن الخلال الكاتب ، انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٧ ، ص٢١٩ .

(٥) انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٧ ، ص٢١٩ .

(٦) «فى» فى نسخة ب وهو خطأ .

(٧) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٨) «لسلطانيه قلمه» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين تصحيح من وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص٢٢٠ .

ثم قال : ما أعددت لفن الكتابة من الآلات؟ فقلت : ليس عندى شىء «سوى»[١] إننى أحفظ القرآن العزيز وكتاب «الحماسة»[٢] ، فقال : فى هذا بَلاغ ، ثم أمرنى بملازمته . فلما ترددت إليه ، وتدربت بين يديه ، أمرنى بعد ذلك أن أحُل شعر الحماسة ، فحللته من أوله إلى آخره ، ثم أمرنى أن أحُله مرة ثانية فحللته .

(١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٢) كتاب الحماسة : لأبى تمام حبيب بن أوس الطائى المتوفى سنة ٢٣١هـ/٨٤٦م . جمع فيه ما اختاره من أشعار العرب العرباء ورتب أبوابه عشرة . انظر : كشف الظنون ، جـ ١ ، ص٦٩١ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة السابعة والستين بعد الخمسمائة *

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضىء[١] بأمر الله ، والخليفة فى[٢] مصر العاضد ، والوزير بها الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، ولكنه فى الحقيقة سلطانها ، وليس لأحد معه كلام ، لا من أمرائها ، ولا من أعيانها ، والعاضد تحت حكمه وقهره ، ومع هذا قطعت الخطبة باسمه ، وخطب باسم المستضىء الخليفة . وعقيب ذلك مات العاضد ، والكلام فيه مفصل على أنواع :

الأول : فى قطع خطبته :

قُطعت خطبته من ديار مصر فى محرم هذه السنة ، وسبب ذلك أن صلاح الدين لما ثبت ملكه فى البلاد ، وأمِن السودان والأجناد ، وضعف أمر العاضد ، وصار قراقوش[٣] حاكما فى قصره ، كتب نور الدين إلى صلاح الدين ؛ يأمره بالقبض على العاضد وأقاربه ، وقطع خطبته ، وإقامة الخطبة للمستضىء بأمر الله ، وكان المستضىء قد راسله فى ذلك .

ولما وصل رسول الخليفة إلى نور الدين بذلك ، سير نور الدين كتاب الخليفة ، وكتابه إلى صلاح الدين ؛ يأمره بالقبض على العاضد وأهله ، والخطبة للإمام المستضىء .

فجمع صلاح الدين الأمراء ، وشاورهم فى ذلك ، فمنهم من خوفه ، ومنهم من هون عليه ، فحضر الفقيه أبو يحيى بن اليسع الجامع يوم الجمعة سابع المحرم ، وصعد المنبر قبل [١٦٥ظ] طلوع الخطيب ، ودعا للإمام المستضىء ، فلم ينكر أحد عليه . فلما كانت الجمعة الثانية ، أمر صلاح الدين جميع الخطباء أن يخطبوا للمستضىء .

★ يوافق أولها : ٤سبتمبر ١١٧١م .

(١) هو الحسن ـ أبو محمد ـ بن المستنجد بالله يوسف بن المقتفى ، ولد سنة ٥٣٦هـ/١١٤٢م ، بويع له بالخلافة يوم موت أبيه ، أى فى ثمانى ربيع الآخر سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م . وتوفى سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م . وفى خلافته انقضت دولة بنى عُبيد وخطب له فى مصر . انظر : تاريخ الخلفاء ، ص٤٤٤- ٤٤٨ .

(٢)«بمصر» فى نسخة ب .

(٣) قراقوش : هو أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدى الملقب بهاء الدين ، خدم صلاح الدين وتوفى ٥٩٧هـ/١٢٠١م بالقاهرة . انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص٩١- ٩٢ .

وفى تاريخ الدولتين[(١)] : استفتح صلاح الدين سنة سبع وستين وخمسمائة بإقامة الخطبة فى الجمعة الأولى منها بمصر لبنى العباس ، وفى الجمعة الثانية خطب لهم بالقاهرة ، وانقطع ذكر خلفاء مصر[(٢)] منها .

وقال فيه أيضا[(٣)] : إن صلاح الدين لما تمكن فى الديار المصرية ، وضعف أمر العاضد ، كتب إليه نور الدين ؛ يأمره بقطع الخطبة العاضدية ، وإقامة الخطبة العباسية . فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر ، وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك ؛ لميلهم إلى العلويين . فلم يصغ نور الدين إلى قوله ، وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزامًا لا فسحة فيه . واتفق أن العاضد مرض ، واستشار صلاح الدين الأمراء ، فاختلفوا فيه كما ذكرنا ، وكان قد دخل فى مصر إنسان أعجمى ، يعرف بالأمير العالم .

قال ابن الأثير[(٤)] : وقد رأيناه بالموصل كثيرًا ، فلما رأى ما هم فيه من الإحجام ، قال : أنا أبتدىء بها ، فلما كان أول جمعة من المحرم ، صعد المنبر قبل الخطيب ، ودعا للمستضىء بأمر الله ، فلم ينكر أحد عليه ذلك . فلما كانت الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد ، وإقامة الخطبة للمستضىء بأمر الله ، ففعلوا ذلك ، ولم ينتطح فيها عنزان ، وكتب بذلك إلى سائر الديار المصرية . وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك ، وقالوا : إن سَلِمَ فهو يعلم ، وإن توفى فلا ينبغى أن نغُصَّ عليه هذه الأيام التى قد بقيت من أجله ، فتوفى يوم عاشوراء ، ولم يعلم بذلك على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ولما انتهى الخبر إلى نور الدين بالشام ، أرسل إلى الخليفة ببغداد يعلمه بذلك مع شهاب الدين أبى المعالى بن أبى عصرون ، فزينت بغداد ، وغلقت الأسواق ، وعملت القباب ، وفرح المسلمون فرحًا شديدًا .

---

(١) انظر : الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٩٢ .

(٢) يقصد بذلك الخلفاء الفاطميين .

(٣) انظر : الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٤٩٢- ٤٩٣ .

(٤) كذا فى الأصل ، أما نص قول ابن الأثير فى الكامل فهو : «رأيته أنا بالموصل» . انظر : الكامل ، جـ ١٠ ، ص٣٤ . ط . بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧ .

وكانت الخطبة لبنى العباس قد قُطعت من ديار مصر من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ، فى خلافة المطيع[١] العباسى ، حين تغلب الفاطميون عليها أيام المعز[٢] الفاطمى ، بانى القاهرة ، إلى هذا الأوان ، وذلك مائتا سنة وثمانى سنين .

وقال ابن الجوزى[٣] : ووصل يوم السبت ثانى عشرين المحرم ابن أبى عصرون ، رسولاً يبشر بأن الخليفة خطب له بمصر ، وضُربت السِّكَّةُ باسمه ، وخُلع على الرسول ، وانكمدت الروافض[٤] . وقد صنفتُ فى هذا كتابا سميته «النصر ، على مصر»[٥] ، وعرضته على الإمام المستضىء بأمر الله ، أمير المؤمنين .

وقال العماد[٦] : شيع نور الدين شهاب الدين أبا المعالى المطهر ، ابن الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون بهذه البشارة ، وأمرنى بإنشاء بشارة عليه ، تقرأ فى سائر بلاد الإسلام ، وبشارة خاصة للديوان العزيز بحضرة الإمام فى مدينة السلام[٧] . قال[٨] : ونظمت قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر أولها :

قَدْ خَطَبْنَا لِلْمُسْتَضِى بِمِصْرٍ　　نَائِبُ الْمُصْطَفَى إِمَامُ الْعَصْرِ
وَخَذَلْنَا لِنَصْرِهِ[٩] العَضُدَ العا　　ضِدَ والقَاصِرَ الَّذِى بِالْقَصْرِ

وأراد بالعضد وزير بغداد ، عضد الدين بن رئيس الرؤساء .

---

(١) الخليفة المطيع العباسى : هو أبو القاسم الفضل بن المقتدر بن المعتضد ، ولد سنة ٣٠١هـ/٩١٤م ، وبويع له بالخلافة عند خلع المستكفى فى جمادى الآخرة سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م ، توفى سنة ٣٦٤هـ/٩٧٥م . انظر : تاريخ الخلفاء ، ص٣٩٨ـ ٤٠٥ .

(٢) الخليفة المعز الفاطمى : أبو تميم معد الملقب المعز لدين الله بن المنصور بن القائم بن المهدى عبيد الله ، وكانت مدة مملكته ثلاثا وعشرين سنة ، وتوفى فى ربيع الآخر سنة ٣٦٥هـ/٩٧٦م . انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص٢٢٤ـ ٢٢٨ ؛ الجوهر الثمين ، ج١ ، ص٢٤٧ـ ٢٤٩ .

(٣) انظر : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٣٧ حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(٤) الروافض : تطلق على الغلاة فى حب عَلِىّ وسموا كذلك لأنهم رفضوا رأى الصحابة حيث بايعوا أبا بكر وعمر . انظر : عبد القادر الرسعنى : مختصر كتاب الفرق بين الفرق . نشر فيليب حِتّى ، ج١ ، ص٣٠ ، مصر ١٩٢٤ .

(٥) «النصر على . . . مصر» فى الأصل : وبالرجوع إلى المصنفات التى وردت فى ترجمة ابن الجوزى فى المرآة ، جـ ٨ ، ص٣١٥ ذكر السبط اسم الكتاب كما أثبتناه ؛ انظر أيضا : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٢٦٤ حيث ورد الاسم «النصر على مصر» .

(٦) «فسير» فى الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٥٠٣ عن العماد .

(٧) مدينة السلام : هى بغداد . انظر : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص٤٥٣ .

(٨) القول للعماد فى الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٥٠٣ .

(٩) «كنصره» فى نسخة ب .

وقال العماد فى الخريدة : قصدت بالعضد والعاضد المجانسة ، ونصرة وزير الخليفة كنصرته . ثم قال [١٦٦و] :

وَأَشَعْنَا بِهَا شِعَارَ بَنِى الْعَبْـ ـبَاسِ فَاسْتَبْشرت وُجُوه النَّصْرِ
وَتَرَكْنَا [الدَّعِىَّ][١] يَدْعُو ثُبُورًا وَهُوَ بِالذُّلِّ تَحْتَ حَجْرٍ وحَصْرِ
وتباهت منابر الدين بالخط ـبة [للهاشمى][٢] فى أرض مصر
ولدينا تضَاعَفَتْ نِعَمُ اللـ ـه ، وَجَلَّت عَنْ كُلِّ عَدٍّ وَحَصْرِ

وهى قصيدة طويلة[٣] :

قال العماد[٤] : ووصل من دار الخلافة فى جواب هذه البشارة عماد الدين صندل ، وهو من أكابر الخدم المقتفوى[٥] ، ومعه التشريف لنور الدين ، والكتاب من الخليفة . وناول نور الدين الكتاب للعماد ؛ ليقرأه ، فتناوله منه الموفق بن القيسرانى[٦] ، وكان عنده فى مقام الوزير ، فقرأه .

وذكر فى «عِبرة أولى الأبصار» أن الخليفة سَيَّر إلى نور الدين الخلع ومعها سيفان ؛ إشارة إلى تقليد مصر والشام ، وسير معها طوقًا زنته ألف دينار ، وبعث أيضًا إلى صلاح الدين تشريفًا أقل من تشريف نور الدين ، فلبس صلاح الدين ذلك التشريف ، فركب به فى الديار المصرية ، وهى أول أهبة عباسية دخلت الديار المصرية بعد استيلاء بنى عُبيد عليها . وأما نور الدين ؛ فكذلك لما لبس التشريف خرج إلى ظاهر دمشق حتى انتهى إلى الميدان الأخضر ، ثم عاد .

---

(١) «المدعى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢١٦ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٠٣ .

(٢) «الهاشمى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين تصحيح من الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٥٠٣ .

(٣) أورد أبو شامة القصيدة كاملة فى الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٥٠٣ ـ ٥٠٤ .

(٤) ينقل أبو شامة هذا القول للعماد من كتاب البرق الشامى . انظر الروضتين ، جـ ١ق٢ ، ص٥٠٥ حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(٥) نسبة إلى الخليفة العباسى أبو عبد الله محمد المقتفى لأمر الله بن المستظهر ، المتوفى سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠م . انظر ترجمته فى تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣٧ـ ٤٤٢ .

(٦) هو موفق الدين أبو البقاء خالد بن محمد بن نصر بن صغير بن داغر المخزومى الخالدى ، المعروف بابن القيسرانى . انظر : سنا البرق الشامى ، ص٦٨ـ ٦٩ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص٧٣ ، ط . الثانية .

الثانى فى كتاب صلاح الدين إلى الخليفة المستضىء بخط القاضى الفاضل ؛ يهنئه بفتح مصر :

أوله[١] : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾[٢] يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ، وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، وصلواته التى تنزل بها الروح الأمين ، وتشيعها الملائكة بالتأمين ، على مولى الأمة ومولى النعمة ، ووالى الأمر المصون بقاؤه فى عقبه ، وولى الله الذى لاخوف عليه ، ولا خوف به الخليفة على الخليقة[٣] ، والإمام الذى يحمى من دون الله الحقيقة على الحقيقة ، ووارث السقايتين زمزم والكوثر ، والولايتين السرير والمنبر ، والدعاءين اليوم وفى المحشر ، والشرفين المشعر والمعشر ، والطرفين المشهد الأول والمشهد الأكبر ، والمقامين مقام إبراهيم ومقام محمد ﷺ أبدًا سرمدًا ، والشعارين الأبيض فى القلب والأسود فى اليد ، والخالدين فى دار السلام ودار السلامة ، والموطنين مقام الإمامة ودار المقامة ، والشفاعتين سالفًا فى أهل العمام وآنفًا فى أهل النار ، والسلامين سلام لكم من ألسنة الأبرار ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾[٤] ، على الخليفة ابن الخلائف على رغم من رضى أن يكون مع الخوالف ، وابن الأئمة المشهورين فى المناظر والمواقف ، مولينا ومولانا الإمام المستضىء بالله ـ أمير المؤمنين ـ صلوات الله على تلك الأنوار القدسية ، يتضوع عن نسيم الأنفاس الفردوسية . والحمد لله الذى وفى الدين دينه المسئول ، وأغمد عن أهله سيف الفتنة المسلول ، فأورث أمير المؤمنين حقًا كان به ممطولاً ، وأطال يده إلى استيفاء طائلة كان دم الحق بها مطلولاً[٥] ، وكتاب [١٦٦ط] المملوك صادر إلى المقر الشريف الأشرف الأصيل ، وَمَنْ شرفُهُ لشرف الرسول رسيل ، والاسم الشريف المستضىء به قد صدحت منابره وعروشه ، وطرزت المدائن والملابس والدنانير والدراهم رقومه[٦] ورقوشه[٧] ، وجهزت إلى بلاد الكفار فى

---

(١) بالرجوع إلى الروضتين وهو المرجع المتاح بين أيدينا لرسائل القاضى الفاضل ، لم نعثر على نص هذه الرسالة .
(٢) سورة يس : آية (٥٨) .
(٣) «الحقيقة» فى نسخة ب .
(٤) سورة الرعد : الآية (٢٤) .
(٥) «ممطولاً» فى نسخة ب . ومطلولاً أى مهدرًا . انظر : المنجد ، ص٤٨٥ ، مادة «طل» .
(٦) الرقوم : مفردها رقم . ذكر ماير أن اسم السلطان أو الأمير كان يسجل بالتطريز بالذهب على النسيج وكانوا يسمون هذا رقمًا . انظر : الملابس المملوكية ، ص٦١ ، ص١٠٦ .
(٧) الرقوش : مفردها رقش ؛ وهى النقوش والزخارف . انظر : المعجم الوسيط ، مادة «رقش» جـ١ ، ص٣٦٥ .

العام مرة أو مرتين بعوث نصره وجيوشه ، والزمن قد وقرتهُ السكينة لا الوجوم ، والكواكب قد همت بأن تتساقط إيثار الطرب لا إيثار الرجوم ، ونشأة الدعوة المنيعة قد أشبهت ولاية النبوة الشريفة ، وقد طالع وزير أمير المؤمنين بتفصيل ما أجمله ، وتحصيل ما منعته الجلالة أن يستوفيه ويستكمله ، راجيا أن يناله من الملاحظات النبوية ما يجعل له سلطاناً ، ويمكن له فى قلوب الأعداء والأولياء مكاناً ؛ حتى يحفظ على الخلافة من لا يعنيه إلا إياها ، وينفذ على الثقلين فى الخافقين أوامرها وقضاياها ، ويستضيف لها نصرًا إلى نصرٍ ، ويستنجز لها ما كتب فى الزبور من بعد الذكر ، نَوَّه الله باسم أمير المؤمنين فى الملأ الأعلى ، وطبق بدعوته المعمورة حتى لا يستثنى مكان بإلا ، وقلص به عن الأمة ضلالة ، ومد عليه ظلاً إن شاء الله تعالى .

الثالث : فى أمر[1] نور الدين بالقبض على العاضد :

قد ذكرنا أن نور الدين كتب إلى صلاح الدين ، يأمره بالقبض على العاضد وأقاربه وقطع خطبته ، وعزم صلاح الدين على ذلك ، واستفتى الفقهاء ، فأفتوه بجواز ذلك ، لما كان عليه العاضد وأشياعه من انحلال العقيدة ، وفساد الاعتقاد ، وكثرة الوقوع فى الصحابة (رضى الله عنهم) ، والاستهتار بذلك . وكان أكثرهم مبالغة فى الفتيا الشيخ نجم الدين الخبوشانى[2] ، فإنه عدد مساوىء هؤلاء القوم ، وسلب عنهم الإيمان ، وأطال الكلام فى ذلك .

وكان العاضد رأى ـ فى آخر دولته ـ فى منامه وهو بمدينة مصر وقد خرجت إليه عقرب من مسجد هو معروف بها ، فلدغته ، فلما استيقظ ارتاع لذلك ، فقصَّ على بعض المعبّرين المنام ، فقال له : ينالك مكروه من شخص هو مقيم فى هذا المسجد ، فأمر والى مصر أن يكشف عمن هو مقيم فى المسجد الفلانى ، وأنه إذا رأى به أحدًا يحضره عنده . فمضى الوالى إلى المسجد ، فرأى فيه رجلاً صوفيًا فأخذه ودخل به على العاضد ،

(١) تكرار فى نسخة ب .

(٢) نجم الدين الخبوشانى : أبو البركات محمد بن الموفق بن سعيد بن على بن الحسن بن عبد الله الخبوشانى ، الملقب نجم الدين الفقيه الشافعى ، توفى يوم الأربعاء ثانى عشر ذى القعدة سنة٥٨٧هـ/١١٩١م . انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص٢٣٩ ـ ٢٤٠ .

فلما رآه سأله : من أين هو ؟ ومتى قدم البلاد؟ وفى أى شىء قدم؟ وهو يجاوبه عن كل سؤال ، فلما ظهر له [منه][١] ضعف الحال والصدق والعجز عن إيصال المكروه إليه ، أعطاه شيئًا وقال له : يا شيخ ادْعُ لنا ، وأطلق سبيله ، وعاد إلى مسجده . فلما استفتى صلاح الدين فى أمر العاضد والقبض عليه ، وأفتاه الفقهاء ، كان هذا الصوفى هو المبالغ فى فتواه ، وهو الشيخ نجم الدين كما ذكرنا ، فصحَّت بذلك رؤيا العاضد[٢] .

الرابع فى وفاة العاضد :

قال بيبرس : جلس الخليفة فى قصرة بعد الإرجاف بقطع خطبته ، فظهر عليه ضعف القوى ، وتخاذل الأعضاء ، وأثر الحمى . ولما اشتد مرضه ، تخاذل عنه حتى طبيبه الذى يعوده ، وانقطع عن عيادته[٣] .

وما أحسن قول الشاعر :

جَرَّبْتُ فِى شِدَّتِى أَنْ لاَ صَدِيق لِمَنْ ... أضْحَى كعْصفٍ عليه الدهرُ قد عصفا/ [١٦٧و]

خُلْقُ الصَّدِيقِ لِخُلْقِ الدَّهْر مُتَّبعٌ ... فإن صفا[٤] لك صَافَى أو جفاك جَفَا

ثم توفى يوم عاشوراء من هذه السنة ، فلم يكن بين قطع خطبته ووفاته إلا أيام يسيرة . وقال القاضى الفاضل : كان[٥] بين وضع اسمه من على أعواد المنابر ووضع جثته على أعواد النعش ثلاثة أيام . فأقام له صلاح الدين الجنازة ، وواصل العزاء به شهرًا كاملاً .

وفى المرآة[٦] : واختلفوا فى سبب وفاته على أقوال ؛ أحدها : أنه تفكر فى أموره فرآها فى إدبار ، فأصابه ذرب[٧] عظيم ، فمات منه .

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة لازمة من وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص١١١ .

(٢) نقل العينى هذا النص بتصرف من وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص١١١ .

(٣) «يعوذه وانقطع عن عياذته» كذا فى نسخة ب .

(٤) «صفى» كذا فى نسخة أ والمثبت من نسخة ب ، وهو الصحيح .

(٥) «وكان» فى نسخة ب .

(٦)مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص١٨١ .

(٧) كذا فى الأصل ، وفى المرآة «كرب» ، جـ ٨ ، ص١٨١ ، حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

والثانى : أنه لما خطب لبنى العباس بلغه ، فاغتم ، فمات . وقيل : إن أهله أخفوا عنه ذلك على ما ذكرناه .

والثالث : أنه لما أيقن بزوال دولته ، كان فى يده خاتم له فص مسموم ، فمصه فمات . وجلس صلاح الدين فى عزائه ، ومشى بين يدى جنازته ، وتولى غسله وتكفينه ودفنه عند أهله .

وقال ابن الأثير[١] : ولما اشتد مرض العاضد أرسل يستدعى صلاح الدين ، فظن أن ذلك خديعة ، فلم يمض إليه ، فلما توفى علم صدقه ، فندم على تخلفه عنه . وكان صلاح الدين يقول : لو علمت أنه يموت من هذا المرض ما قطعت خطبته إلى أن يموت .

وقال ابن خلكان[٢] قيل : إنه حصل له غيظ من شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين ، فسمّ نفسه فمات ، والله أعلم .

قال العماد[٣] : ولما وصل الخبر بموت العاضد ، فى ليلة عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة ، بعد الخطبة بمصر للمستضىء بأمر الله أمير المؤمنين ، عملتُ هذه الأبيات . فذكر قصيدة منها :

تُوُفِّىَ العَاضِدُ الدَّعِىُّ ، فَمَا ... يَفْتَحُ ذُو بِدْعَةٍ بِمِصْرَ فَمَا
وَعَصْرُ فِرْعَوْنِهَا انْقَضَى ، وَغَدا ... يُوسُفُهَا فِى الأُمُورِ مُحْتَكِمَا
وَانْطَفَأَتْ جَمْرَةُ الْغُوَاةِ ، وَقَدْ ... بَاخَ مِنَ الشِّرْكِ كُلُّ مَا اضْطَرَمَا
وصَارَ شَمْلُ الصَّلاحِ مُلْتَئِمًا ... بِهَا ، وَعَقْدُ السَّدَادِ مُنْتَظِمَا
لَمَّا غَدَا مُعْلِنًا شِعَارَ بَنِى الْـ ... ـعَبّاسِ حَقًّا ، وَالْبَاطِلَ اكْتَتَمَا
وَبَاتَ دَاعِىَ التَّوحِيدِ مُنْتَصِرًا ... وَمِنْ دُعَاةِ الإِشْرَاكِ مُنْتَقِمَا
وَظَلَّ أَهْلُ الضَّلالِ فى ظُلَلٍ ... دَاجِيَةٍ مِنْ غَيَابَةٍ وَعَمَى[٤]

(١) انظر : الكامل ، جـ ١٠ ، ص٣٣ - ٣٤ حيث ينقل العينى عنه بتصرف .
(٢) انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص١١٢ .
(٣) انظر : الروضين ، جـ ١ ق٢ ، ص٤٩٥ - ٤٩٦ .
(٤) «وعما» فى نسخة ب .

الخامس فى سيرته :

كان شيعيًا خبيثًا ، لو أمكنه قَتَلَ كل من قدر عليه من أهل السنة ، وكان كريمًا جوادًا ممدحًا .

وقال ابن خلكان : كان العاضد شديد التشيع ، متغاليًا(١) فى سب الصحابة رضى الله عنهم ، وإذا رأى سُنِّيًا استحل دمه ، وسار وزيره(٢) الصالح بن رزيك فى أيامه سيرة مذمومة فإنه احتكر الغلات فارتفع سعرها ، وقتل أمراء الدولة خشية منهم ، وأضعف أحوال الدولة المصرية فقتل مقاتلتها ، وأفنى ذوى الآراء والحزم منها .

وفى تاريخ ابن العميد : وكان مذهبهم مذهب أهل التناسخ(٣) ، واعتقاد الجزء الإلهى فى أشياخهم . وقد ذكرنا أن الحاكم(٤) قال لداعيه : كم فى جريدتك؟ قال : ستة عشر ألفا ، يعتقدون أنك إله .

وقال فيه بعض الشعراء :

مَا شِئْتَ لاَ مَاشَاءتْ الأقْدَارُ ... فَاحْكُمْ فَأنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

وهذا كفر محض ، وليس مثله إلا قول فرعون : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾(٥) ، وقال بعض شعرائهم [١٦٧ظ] يذكر ظهور مهديهم فيما يزعمون برقادة(٦) من عمل القيروان :

حَلَّ بِرُقَّادَةَ الْمَسِيح ... «و»(٧)حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنُوحُ
حَلَّ بِهَا اللَّهُ فى عُلاَهُ ... وَمَا سِوَى اللهِ فَهْوَ رِيحُ

---

(١) «غاليا» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص١١٠ .

(٢) الصالح بن رزيك ، هو أبو الغارات طلائع بن رزيك ، توفى سنة ٥٥٦ هـ/١١٦١م . انظر وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ص٥٢٦ - ٥٣٠ .

(٣) أهل التناسخ : قالوا بتناسخ الأرواح فى الأجساد والانتقال من شخص إلى شخص . الشهرستانى : الملل والنحل ، جـ ١ ، ص٢٥٣ ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، القاهرة١٩٦١م .

(٤) هو الحاكم بأمر الله الفاطمى ، المنصور أبو على بن العزيز بالله نزار بن المعز ، وكانت مدة خلافته خمسًا وعشرين سنة وشهرًا . تولى سنة ٣٨٦هـ /٩٩٦م وقتل سنة ٤١١ هـ /١٠٢٠م . انظر : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق جمال الدين الشيال ، جـ٢ ، ص٣-١٢٣ ؛ نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ص ١٦٧ - ٢٠٢ .

(٥) سورة النازعات : آية (٢٤) .

(٦) رقَّادَة : بلدة بتونس بينها وبين القيروان أربعة أميال . انظر : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص٧٩٧ - ٧٩٨ .

(٧) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

وهذا أعظم من اعتقاد النصارى فى المسيح ؛ لأنهم يزعمون أن فيض الإله حل على المسيح ، وهؤلاء يعتقدون حلول البارىء تعالى فى جسد آدم ونوح وسائر الأنبياء وجميع خلفائهم وأئمتهم ، نعوذ بالله من ذلك ، وتعالى الله عن ذلك .

السادس فى ترجمته :

هو أبو محمد عبد الله ، الملقب العاضد بن يوسف ، ابن الحافظ لدين الله أبى الميمون ، عبد المجيد بن أبى القاسم محمد ـ ولم يل الخلافة[١] ـ ابن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدى . آخر ملوك مصر من العبيديين .

والعاضد فى اللغة القاطع[٢] ، ومنه الحديث : «لا يعضد شجرها»[٣] . وبه قطعت دولتهم وعُضِدَت .

ولى المملكة بعد عمه الفائز ، وكان أبوه يوسف أحد الأخوين اللذين قتلهما عباس[٤] بعد الظافر . واستقر الأمر للعاضد اسمًا ، وللصالح طلائع بن رزيك جسمًا ، وكان مولده فى سنة ست وأربعين وخمسمائة ، فعاش إحدى وعشرين سنة .

وفى المرآة[٥] : توفى يوم عاشوراء وعمره ثلاث وعشرون سنة ، وكانت أيامه إحدى[٦] عشرة سنة وشهورًا ، وكان العاضد مولده سنة أربع وأربعين وخمسمائة[٧] . وبويع له فى

---

(١) يقصد هنا أن أبا القاسم محمد لم يخطب له بالخلافة ـ وقد ذكر ذلك ابن الأثير فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص٣٤ . كما ذكر أن والد العاضد يوسف بن الحافظ لم يخطب له بالخلافة أيضا .

(٢) وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص ١٠٩ ـ ١١٢ .

(٣) نص الحديث : «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا ولا يعضد بها شجرة . . . البخارى ، جـ١ ، ص٣٦ ـ ٣٧ .

(٤) هو : أبو الفضل عباس بن أبى الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى . تولى الوزارة للخليفة الفاطمى الظافر سنة ٥٤٨ هـ/١١٥٣م . توفى ٥٤٩ هـ/١١٥٤م . وعن قتله للظافر انظر : وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٢٣٧ ؛ اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٢٠٨-٢٠٩ .

(٥) انظر : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص١٨١ . حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(٦) «أحد عشر» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب و الصحيح ما أثبتناه .

(٧) انفرد سبط ابن الجوزى فى المرآة بذكر مولد العاضد فى سنة أربع وأربعين وخمسمائة . فى حين أن المصادر الأخرى أجمعت على أن مولده كان سنة ست وأربعين وخمسمائة . انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص١١١ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٢٦٤ ؛ اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٢٤٣ ؛ الشذرات ، جـ ٤ ، ص٢٢٣ .

رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وهو ابن إحدى عشرة سنة[١] . ولم يل أبوه الخلافة ، وأمه أم ولد ، يقال لها ست المُنى . وكانت الخطبة لبنى العباس قد قطعت من ديار مصر من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ، فى خلافة المطيع العباسى ، حين تغلب الفاطميون عليها أيام المعز الفاطمى - بانى القاهرة - [و][٢] إلى هذا الأوان ، وذلك مائتا سنة وثمانى سنين .

وقال النويرى[٣] فى تاريخه : وجميع من خطب [له من الفاطميين][٤] بالخلافة أربعة عشر خليفة ، بمصر أحد عشر خليفة ، وبالمغرب ثلاثة - عدد خلفاء بنى أمية[٥] - وهم : المهدى ، والقائم والمنصور ، والمعز ، والعزيز ، والحاكم ، والظاهر ، والمستنصر ، والمستعلى ، والآمر ، والحافظ ، والظافر ، والفائز ، والعاضد[٦] .

وجميع مدة خلافتهم من حين ظهر المهدى بسجلماسة[٧] فى ذى الحجة من سنة ست وتسعين ومائتين إلى أن توفى العاضد فى هذه السنة - أعنى سنة سبع وستين[٨] وخمسمائة - مائتان واثنان وسبعون سنة .

وقال ابن كثير[٩] : كان أول من ملك منهم المهدى ، وكان من أهل سلمية[١٠] حداد اسمه سعيد ، وكان يهوديًا ، فدخل بلاد المغرب ، وتسمى بعبيد الله ، وادعى أنه شريف علوى فاطمى ، وقال : إنه المهدى . وقد ذكر هذا غير واحد من سادات العلماء الكبراء ؛ كالقاضى أبى بكر الباقلانى ، والشيخ أبى حامد الإسفراييني ، كما ذكرنا ذلك مفصلاً . والمقصود أن هذا الكذاب راج له ما افتراه فى تلك البلاد ، ووازره جهلة من العباد ،

---

(١) إلى هنا توقف العينى عن النقل من سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص١٨١ .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل ومثبت فى ب .

(٣) نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ص٣٤٧ حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(٤) «للفاطميين» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين لإيضاح المعنى .

(٥) عن خلفاء بنى أمية فى المشرق انظر : معجم الأنساب ، جـ ١ ، ص١ .

(٦) انظر : معجم الأنساب ، جـ ١ ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٧) سجلماسة : مدينة فى جنوب المغرب بينها وبين فاس عشرة أيام . انظر : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص٤٥ - ٤٦ .

(٨) ذكر المقريزى أن دولة الفاطميين اتصلت نحوًا من مائتين وسبعين سنة . انظر : اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٣٣١ .

(٩) انظر البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٨٦ حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(١٠) سَلَمْية : بفتح أوله وثانيه وسكون الميم . بليدة من أعمال حماه . انظر : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص١٢٣ .

وصارت له دولة وصولة وجولة ، فتمكن إلى أن بنى مدينة سماها المهدية[١] ، نسبة إليه . وصار ملكًا مطاعًا أظهر الرفض وانطوى على الكفر المحض ، ثم كان من بعده أولاده[٢] كما ذكرنا .

وقد كانوا من أنجس الملوك سيرة ، وأخبثهم سريرة ، ظهرت فى دولتهم البدع والمنكرات ، وكثر أهل الفساد ، وقل عندهم الصالحون من العباد ، وكثر بأرض الشام [١٦٨و] النصيرية[٣] والدرزية[٤] والحشيشية[٥] .

وتغلب الإفرنج على سواحل الشام بكماله ، حتى أخذوا القدس الشريف ، ونابلس ، والغور ، وبلاد غزة ، وعسقلان ، والكرك ، والشوبك ، وطبرية ، وبانياس ، وصُور ، وعثليث[٦] ، وصيدا ، وبيروت ، وعكا ، وصفد ، وطرابلس ، وأنطاكية ، وجميع ما والى ذلك إلى بلاد إياس وسيس . واستحوذوا على بلاد آمد والرها [ورأس العين][٧] وبلاد شتى ، وقتلوا خلقًا لا يعلمهم إلا الله ، وسبوا من الذرارى المسلمين من النساء والولدان ما لا يحد ولا يوصف[٨] .

وفى أيام العاضد وصل[٩] أسطول الفرنج إلى الإسكندرية ، وكان معهم من الخيل ألف وخمسمائة فرس ، وفى الأسطول ثلاثون ألف مقاتل فى مائتى شين ، ومعهم آلات الحرب والحصار ، ومعهم أربعون مركبًا أخرى تحمل الأزواد ، وفيها من الرجال والغلمان تتمة خمسين ألف رجل ، وكشفوا المسلمين عن البر ، وطلعوا فضربوا خيامهم ، وكانت

---

(١) المهدية : موضع بتونس قرب سلا ، معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٦٩٣ - ٦٩٧ .

(٢) فى البداية والنهاية تفصيل لأولاده : «ابنه القائم محمد ، ثم ابنه المنصور إسماعيل ، ثم ابنه المعز معد» . جـ١٢ ، ص٢٨٦ .

(٣) النصيرية أو العلوية : «قال القدماء : هم أتباع نصير غلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب . وهم يدعون ألوهية على ﷺ مغالاة فيه» . انظر : خطط الشام ، جـ ٦ ، ص٢٦٥ .

(٤) هم من الباطنية ينسبون إلى محمد بن إسماعيل الدرزى المعروف بنشتكين . وعنهم انظر : خطط الشام ، جـ ٦ ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٥) الحشيشية : أطلق هذا اللفظ على فرقة الإسماعيلية مع بداية دخول الصليبيين إلى الشام . وسموا بذلك لأن رؤساءهم كانوا يعطون الحشيشة لمن يكلفونه منهم على قتل أحد خصومهم السياسيين . انظر : خطط الشام ، جـ ٦ ، ص٢٦٥ .

(٦) عَثْلِيثُ : اسم حصن بسواحل الشام يعرف بالحصن الأحمر ، كان فيما فتحه الملك الناصر يوسف بن أيوب سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧م . معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٦١٦ .

(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من البداية والنهاية حيث ينقل العينى عنه ، جـ ١٢ ، ص٢٨٧ .

(٨) إلى هنا توقف العينى عن النقل من : البداية والنهاية جـ ١٢ ، ص٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٩) «وصلت» فى نسختى المخطوطة أ ، ب والمثبت هو الصحيح .

ثلاثمائة خيمة ، وحاصروا الإسكندرية أيامًا . ففتح المسلمون أبواب المدينة بالليل ، وكبسوا الفرنج على غفلة ، فأفنوهم قتلاً وأسرًا[١] ، وغنموا جميع ما أحضروه ، وغنموا بعض المراكب ، وأقلعوا بعض المراكب الباقية . وحين زالت أيام الفاطميين أعاد الله هذه البلاد إلى أهلها من السادة المسلمين .

وقد قال حسان[٢] الشاعر المدعو عرقلة :

أَصْبَحَ الْمُلْكُ بَعْدَ آلِ عَلِيٍّ ... مُشْرِقًا بِالْمُلُوكِ مِنْ آلِ شَاذِى

وَغَدا الشَّرْقُ يَحْسُدُ الْغَرْبَ لِلْقَوْ ... م وَمِصْرُ تَزْهُو عَلَى بَغْدَاذِ

مَا حَوَوْها[٣] إلاَّ بِعَزْمٍ وَحَزْمٍ[٤] ... وَصَلِيلِ الْفُؤادِ مِنْ فُولاَذِ[٥]

[لا][٦]كَفِرْعَوْنَ وَ الْعَزِيزِ وَمَنْ كَا ... نَ بِهَا كَالْخَصَيبِ[٧] وَالأُسْتَاذِ

وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة[٨] : يعنى بالأستاذ كافور الإخشيدى . وقوله : آل علىٍّ يعنى الفاطميين على زعمهم ؛ لأنهم ما كانوا فاطميين ، وإنما كانوا أدعياء .

وقال أبو شامة[٩] : وقد أفردت كتابًا سميّته «كشف ما كان عليه بنو عُبيد من الكفر والكذب والكيد»[١٠] . وكذا صنف العلماء فى الرد عليهم كتبًا كثيرة . ومن أَجَلِّ ما وضع فى ذلك[١١] : كتاب القاضى أبى بكر الباقلانى الذى سماه كتاب «كشف الأسرار وهتك الأستار» .

---

(١) «وأسروا» فى نسخة ب .

(٢) هو : أبو الندى حسان بن نُمير الكلبى المعروف بعرقله الكلبى . كان شاعرًا خصيصًا بالأمراء السادة بنى أيوب . ولد سنة ٤٨٦ هـ/١٠٩٣م ، وتوفى سنة ٥٦٧ هـ/١١٧٢م . انظر ترجمته فى الخريدة . قسم شعراء الشام ، جـ ١ ، ص١٧٨ وما بعدها . وانظر هذه الأبيات ص٢٠٣ ـ ٢٠٤ فى الجزء نفسه .

(٣) «حواها» فى الخريدة ، قسم شعراء الشام ، جـ١ ، ص٢٠٣ .

(٤) «بحزم وعزم» انظر الخريدة ، قسم شعراء الشام ، جـ١ ، ص٢٠٣ ؛ الروضتين جـ١ ق٢ ، ص٥٠٩ .

(٥) «وصليل الفولاذ فى الفولاذ» كذا فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٥٠٩ ؛ الخريدة : قسم شعراء الشام ، جـ١ ، ص٢٠٣ـ ٢٠٤ .

(٦) «بها» فى الأصل . والمثبت من الخريدة ؛ والروضتين جـ١ ق٢ ، ص ٥٠٩ .

(٧) الخصيب : هو الخصيب بن عبد الحميد ، والى خراج مصر زمن الرشيد . وإليه تنسب منية ابن خصيب . انظر : الخريدة ، قسم شعراء الشام ، جـ١ ، ص ١٧٩ ، حاشية ٦ .

(٨) انظر : الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص ٥٠٩ . حيث ينقل العينى عنه .

(٩) انظر الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٥١٤ ـ ٥١٥ . حيث ينقل العينى عنه باختصار شديد .

(١٠) لم نعثر على هذا الكتاب فى المصادر التى بين أيدينا .

(١١) عن هذه القضية وصحة نسب الفاطميين انظر : اتعاظ الحنفا ، ج١ ، ص٢٢ وما بعدها .

وما أحسن ما قال بعض الشعراء فى بنى أيوب ، يمدحهم على ما فعلوه بديار مصر :

أَلَسْتُمْ مُزِيلِى دَوْلَةَ الكُفْرِ مِنْ بَنِى عُبَيـد بِمِصْرَ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ

زَنَادِقَـةٌ شِيـعِـيَّـةٌ بَاطِنِيَّـةٌ مَجُوسٌ مَعًا فِى الصَّالِحِين لَهُمْ أَصْلُ

يُسِرُّون كُفْراً ، يُظْهِرُون تَشَيُّعـا لِيَسْتَتِروا شَيْئًا وَعَمَّهُم الْجَهْلُ

السابع فى قصيدة يرثيهم بها عمارة اليمنى وهى هذه :

رَمَيْتَ يَا دَهْرُ كَفَّ الْمَجْدِ بِالشَّلَلِ وَجِيدَهُ بَعْدَ «حُسْنِ الحَلْىِ بِالْعَطَلِ»[1]

سَعَيْتَ فِى مَنْهَجِ الرَّأىِ العَثُورِ فَإِنْ قَدَرْتَ مِنْ عَثَرَاتِ «الدَّهرِ فَاسْتَقِلِ»[2]

[١٦٨ظ] جَدَعْتَ مارِنَك الأقْنى ، [فَأَنْفُكَ][3] لا يَنْفَكُّ مَا بَيْن نَقْصِ[4] الشَّين والخَجَلِ/

هَدَمْتَ قَاعِدَةَ الْمَعْرُوفِ عَنْ عَجَلٍ سُقِيتَ مُهْلاً ، أَمَا تَمْشِى عَلَى مَهَلِ

لَهْفِى وَلَهْف بَنِى الآمَالِ قَاطِبَةً عَلَى فَجِيعَتِنَا[5] فِى أَكْرَمِ الدُّوَلِ

قَدِمْتُ مِصْرَ فَأَوْلَتْنِى خَلاَئِفُهَا مِنَ الْمَكَارِمِ مَا أَرْبَى عَلَى الأمَلِ

قَوْمٌ عَرَفْتُ بِهِمْ كَسْبَ الألُوفِ ، وَمِنْ كَمَالِهَا أَنَّها جَاءَتْ وَلَمْ أَسَلِ

وَكُنْتُ مِنْ وُزَرَاءِ الدَّسْتِ حَيْثُ سَمَا رَأْسُ الْحِصَانِ بِهَادِيه عَلَى الكَفَلِ

وَنِلْتُ مِنْ عُظَمَاءِ الْجَيْشِ تَكْرِمَةً وَخُلَّةً حُرِسَتْ مِنْ عَارِضِ الْخَلَلِ

يَا عَاذِلِى فِى هَوَى أَبْنَاءِ فَاطِمَةٍ لَكَ الْمَلاَمَةُ إِنْ قَصَّرْتَ فِى عَذَلِى

بِاللّهِ زُرْ سَاحَةَ الْقَصْرَيْن ، وَابْكِ مَعِى عَلَيْهِمَا ، لا عَلَى صِفِّين والْجَمَلِ

وَقُلْ لأَهْلِهِمَا[6] : وَاللّهِ مَا الْتَحَمَتْ فِيكُمْ جُرُوحِى ، وَلاَ قَرْحِى بِمُنْدَمِلِ[7]

(١) «حلى الحسن بالعطل» فى الروضتين ، وقد ذكر أبو شامة القصيدة فى حديثه عن مقتل عماره اليمنى سنة ٥٦٩هـ/١١٧٠م . جـ١ ق٢ ، ص٥٧٠ ـ ٥٧١ ؛ أيضا وردت القصيدة فى مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ٢١٢ ـ ٢١٦ ؛ تاريخ ابن الفرات ، جـ١ م٤ ، ص١٦٩ـ ١٧٢ .

(٢) «البغى فاستقل» كذا فى الروضتين .

(٣) «فوجهك» فى الأصل . والمثبت من الروضتين ومفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات وهو الأولى للمعنى .

(٤) «أمر» فى مفرج الكروب .

(٥) «فجيعتها» فى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات .

(٦) «لأهلهما» فى الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٥٧٠ .

(٧) «وقل لأهلهما . . . فيكم قروحى ولاجُرحى . . .» . فى الروضتين .

مَـاذَا تُرىَ كَـانَت الإفْـرِنْجُ فَـاعِلَةً ... فِى نَسْلِ آلِ أَمِـيـرِ الْمُـؤْمِنِينَ عَلِي

هَلْ كَانَ فِى الأَمْرِ شَىءٌ غَيْرُ قِسْمَةِ مَا ... مُلِّكْتُمُ[١] بَيْنَ حُكْمِ السَّـبْىِ والنَّفَلِ

وَقَـدْ حَـصَلْتُم عَلَيْـهَـا وَاسْمُ جَـدّكم ... مُحَـمَّد ، [وأبوكم][٢] ، خَيـرُ مُنْتَعِلِ[٣]

مـررتُ بالقـصـرِ والأركـانُ خـاليـةٌ ... من «الأنيس»[٤] وكـانتْ قِبلَةَ القِـبَلِ

فملتُ عنها بوجْهِى[٥] خوفَ مُنْتَقِدٍ ... مِنَ الأَعــادى ووجْــهُ الودِّ لـم يَمِلِ

أَسْبَلتُ مِن أسَفٍ[٦] دمْعى غداةَ خلتْ ... رحـابُكم وغَـدَتْ مَـهْجـورةَ السُّـبُلِ

أبكى على [مأثرات][٧] مِنْ مَكارِمكُم ... حَـالَ الزمـانُ عليـهـا وهى لم تَحُلِ

دَارُ الضـيـافـة كـانت أُنْسَ وافـدِكم ... واليــومَ أَوْحَشُ من رسْمٍ ومنْ طَلَلِ

وفطرةُ الصَّومِ إنْ أصْغَتْ[٨] مَكَارِمُكم ... [تَشكُو][٩]من الدهرِ حَيفًا غيرَ مُحْتَمِلِ

وكُسْوةُ النّاسِ فى الفصْلين قد دَرَسَت ... ورث فـيـهـا جـديدٌ عندكم[١٠] وَبَلى

وموسِمٌ كـان فى كَسْرِ الخليجِ[١١] لكُم ... يأتى تَجَـمُّلكم فـيـه على الجُـمَلِ

وأولُ العامِ و[العيدان][١٢] [كان][١٣] لكم ... فـيـهـن من وَبْلِ جُـودٍ ليس بالْوَشَلِ

والأرضُ تهتزُّ فى «عيد الغدير»[١٤] كما[١٥] ... يَهْـتَـزُّ مـا بَيْن قـصْـرَيْكم من الأَسَلِ

والخيلُ تُعْرضُ «فى» وشْيٍ وفى[١٦] شِية ... مـثلُ العـرائِس فى حَلْى وفى حُلَلِ

---

(١)«ملكتمو» : فى مفرج الكروب .

(٢)«أبيكم» فى الأصل والروضتين . والمثبت ما بين الحاصرتين من مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات وهو الأصح .

(٣) «غير منتقل» فى الروضتين ؛ «خير منتحل» فى تاريخ ابن الفرات .

(٤) «الوقود» فى الروضتين ومفرج الكروب وابن الفرات .

(٥) «بوجه» فى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات .

(٦) «من أسفى» فى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات .

(٧) «ما تراءت» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، جـ ١ق٢ ، ص٥٧٠ .

(٨) «أضفت» فى تاريخ ابن الفرات .

(٩) «فشكوا» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من نسخة ب ، ومن الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٧٠ .

(١٠)«عنهم» فى الروضتين ومفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات .

(١١) «يوم الخليج» فى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات .

(١٢)«العيدين» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، جـ ١ق٢ ، ص٥٧١ .

(١٣)«كنز» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين وتاريخ ابن الفرات . وفى مفرج الكروب «كم لكم» .

(١٤)«يوم الغدير» فى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات .

(١٥) «لما» فى الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٥٧١ .

(١٦) «من» فى الروضتين وتاريخ ابن الفرات . وقد أورد ابن الفرات البيت التالى قبل هذا البيت .

وما[١] حَمَلْتُم[٢] قِرى الأضْياف مِن سِعَةِ الْـ … أطْباقِ إلاَّ علَى الأعناقِ[٣] والعَجَلِ

وما خَصَصْتم ببِرٍّ أهلَ مِلّتِكُم … حتى عَمَمْتُم به الأقْصى مِن المِلَلِ

كانت رَوَاتِبُكُم لِلذمتين[٤] وللضَّـ … ـيفِ المقيم وللطَّارِى من الرُّسُلِ

[١٦٩و] وللجوامع[٥] مِنْ أحَباسِكُم نِعَمٌ … لمنْ تَصَدَّرَ فى عِلْمٍ وفى عَمَلِ/

ورُبَّما عادَت الدُّنْيا لِمَعْقِلِها[٦] … مِنكُم ، وأضحَتْ بكُم محلُولة الْعُقَلِ[٧]

والله لا فازَ يومَ الحشْرِ ظالِمُكُم[٨] … ولا [نَجا][٩] من عذابِ النارِ غيرُ وَلِى

ولا[١٠] رأى جَنّةَ «الخُلد» التى «وُعِدَتْ» … مَنْ خَانَ عهدَ الإمَامِ العَاضِد بن علي

ولا سُقِى الماءُ مِن «حَرٍّ»[١١] ومنْ ظمأٍ … مِن كفٍّ خيرِ البَرايا خَاتَمِ الرُّسُلِ

أئمتى وهُدَاتى والذخيرةُ لى … إذا ارْتَهنْتُ بمَا قَدّمْتُ مِن [عَمَلِ][١٢]

«بِالله»[١٣] لم أُوفِهِمْ فى المدْحِ حَقَّهُمُ … لأنَّ فَضْلَهُمُ كالوابِلِ الهَطِلِ

وإنْ[١٤] تَضَاعَفَت الأقْوالُ واسْتَبَقَتْ … ما كنتُ فيهم بحمدِ الله بالْخَجِلِ

بابُ النجاةِ فَهُمْ دُنيا وآخرةً … وحُبُّهم فهو أصلُ الدِّين والعَملِ

---

(١) «ولا» فى الروضتين .

(٢) «جلتم» كذا فى نسخة ب .

(٣) «الأكتاف» فى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات .

(٤) «للوافدين» فى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات .

(٥) فى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات بيت زائد عن الأصل نصه :

«ثم الطراز بتنيس الذى عظمت … منه الصلات لأهل الأرض والدول» .

(٦) كذا فى الأصل والروضتين . وفى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات : «فمعقلها» .

(٧) إلى هنا انتهت القصيدة فى الروضتين .

(٨) «مبغضكم» فى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات .

(٩) «نجى» فى الأصل والمثبت من نسخة ب .

(١٠) فى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات هذا البيت والذى يليه فيهما تقديم وتأخير عن الأصل المثبت . وفى الشطر الأول من البيت الأول اختلاف نصه : «ولا رأى جنة الله التى خلقت» .

(١١) «خير» كذا فى نسخة ب .

(١٢) «عملى» فى الأصل . والمثبت من مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات .

(١٣) «تالله» فى مفرج الكروب فقط .

(١٤) «ولو» فى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات .

نُورُ الهُدَى و مَصَابيحُ الدُّجَى ومَحَـ		ـلُّ الغَيْثِ إن وَنَت الأنواءُ فى المحَلِ
أئمـــــةٌ خُلِقُـــوا نورًا فنورهـم		مِنْ نور خَالصِ نُورِ اللَّهِ لَمْ يَفلِ[١]
واللهِ لا زُلْتُ عن حُـبِّى لهُم أبدًا		ما أخَّـرَ اللهُ لى فى مُـدةِ الأَجَلِ[٢]

الثامن فيما جرى بعد موته .

قال ابن كثير[٣] (رحمه الله) : لما مات العاضد استحوذ الملك الناصر صلاح الدين يوسف على القصر بما فيه ، وأخرج منه أهل العاضد إلى دار أفردها لهم ، وأجرى عليهم الأرزاق والنفقات الهنيئة ؛ عوضًا عما فاتهم من الخلافة[٤] .

واستعرض حواصل القصرين ، فوجد فيهما من الحواصل والأمتعة والآلات والثياب والملابس شيئًا كثيرًا باهرًا ، وأمرًا هائلاً ، فمن ذلك : سبعمائة يتيمة من الجوهر ، وقضيب زمرد[٥] طوله أكثر من شبر وسُمْكُهُ نحو الإبهام ، وحبل من ياقوت ، وَوُجِدَ فيه إبريق عظيم من الحجر المانع ، وطبل للقولنج[٦] . فاتفق أن بعض أمراء الأكراد أخذه فى يده ، ولم يدر ما شأنه ، فلما ضرب عليه حبق[٧] فألقاه من يده فكسره فبطل أمره ، وأما القضيب الزمرد فإن السلطان كسره ثلاث فلق ، فقسَّمه بين نسائه ، وقسَّم بين الأمراء شيئًا كثيرًا من قطع البلخش[٨] والياقوت والذهب والأثاث وغير ذلك . واستمر البيع فيما كان هنالك من الأثاث والأمتعة نحوًا من عشر سنين ، وأرسل إلى الخليفة ببغداد هدايا

---

(١) «أئمة خلقوا نورا ، فبورهم		من خالص نور الله لم يأفُلِ» فى الأصل . والمثبت من مفرج الكروب وابن الفرات .
(٢) فى مفرج الكروب و ابن الفرات بيت زائد نصه :
عمارة قالها المسكين وهو على		خوفٍ من القتل ، لا خوف من الزلل .
(٣) انظر البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٢٨٤ .
(٤) ذكر ابن كثير هذا القول نقلاً عن ابن أبى طى . انظر أيضا قول ابن أبى طى فى الروضتين ، جـ ١ق٢ ، ص٥٠٦-٥٠٧ .
(٥) «قضيب زمرد وطوله قبضة ونصف» فى المرآة . وانظر تفصيل ما وجد فى القصر من الأمتعة والجواهر فى المرآة أيضًا ، جـ٨ ، ص١٨١ ؛ وعن الزمرد راجع ، صبح الأعشى ، جـ ٢ ، ص ١٠٣ - ١٠٥ .
(٦) القَولَنْج : مرض اعتقال الطبيعة لانسداد المعى المسمى قولون . انظر : الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص٩٨٠ ؛ النوادر السلطانية ، ص٥٥ ، حاشيه ٣ .
(٧) حبق : هو ضراط المعى . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة «حبق» .
(٨) البلخش ، يسمى اللَّعْلُ وهو من نفائس الأحجار . انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٢ ، ص٩٩- ١٠٠ .

عظيمة سنية ، وكذلك إلى الملك العادل نور الدين ، أرسل إليه جانبًا كبيرًا صالحا ، وكان مما أرسله لنور الدين ثلاث قطع بلخش ، زنة الواحدة أحد وثلاثون مثقالاً ، والأخرى ثمانية عشر مثقالاً ، والثالثة «دونهما»[١] ، مع لآلئ كثيرة ، وستين[٢] ألف دينار ، وعطر لم يسمع بمثله[٣] ، ووجد فى القصر أيضا خزانة كتب ليس فى دار الإسلام مثلها ، تشتمل على نحو ألفى ألف مجلد[٤] . ومن عجائب ذلك أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى .

وقال العماد الكاتب[٥] : كانت الكتب قريبًا من مائة وعشرين ألف مجلد ، وقد تسلمها القاضى الفاضل ، وأخذ منها شيئًا كثيرًا مما اختاره و انتخبه[٦] .

قال[٧] : وقَسَّم القصر الشمالى بين الأمراء ، فسكنوه ، وأسكن أباه نجم الدين فى [١٦٩و] قصر عظيم على الخليج ، الذى يقال له اللؤلؤة[٨] ، الذى فيه بستان الكافورى ، وسكن أكثر الأمراء فى دور من كان ينتمى إلى الفاطميين ، ولا يلقى أحد من الأتراك أحدًا من أولئك الذين كانوا بها أكابر إلا شلحوه ثيابه ، ونهبوا داره حتى تمزق كثيرًا منهم فى البلاد ، وتفرقوا شذر مذر ، وصاروا أيادى سبأ .

وقال ابن أبى طىّ : ولم يوجد فى القصر من المال كثير ؛ لأن [شاور][٩] قد ضيعه فى إعطائه الفرنج فى المرات العديدة ، ووجد فيه ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام وكتب وجوهر ، ووجد فيه إبريق عظيم من الحجر المانع ، فأنفذه السلطان إلى

(١) «عشرة مثاقيل ، وقيل أكثر» فى البداية والنهاية .

(٢) «ستون» فى نسختى المخطوطة أ ،ب .

(٣) فى البداية والنهاية زيادة نصها : «ومن ذلك حمارة وفيل عظيم جدا ، فأرسلت الحمارة إلى الخليفة فى جملة هدايا» .

(٤) «ألفى مجلد» فى نسخة ب . وكذا ابن كثير الذى ينقل عنه العينى . انظر : البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٨٦ .

(٥) انظر قول العماد فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص ٥٠٨ .

(٦) انظر تفصيل ذلك فى الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٥٠٧ ، حيث أوردها نقلا عن ابن أبى طى .

(٧) القول لابن أبى طى . انظر الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٥٠٧ .

(٨) قصر اللؤلؤة . أو منظرة اللؤلؤة : كانت للخلفاء الفاطميين ، وتقع على الخليج بالقرب من باب القنطرة . وكان القصر من أحسن القصور وأعظمها زخرفة ، وهو أحد منتزهات الدنيا ، فهو يشرف من شرقيه على البستان الكافورى ، ومن غربيه على الخليج . وهذه المنظرة بناها العزيز بالله الفاطمى . انظر : الخطط ، جـ١ ، ص٤٦٧ ـ ٤٦٩ .

(٩) «العاضد» فى الأصل وهو خطأ . والمثبت بين الحاصرتين من قول ابن أبى طى فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٥٠٦ .

بغداد . وجعل السلطان أهل العاضد فى موضع خارج القصر ، وجعل أمرهم إلى قراقوش الخادم ، وفرق بين النساء والرجال ؛ ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم ، واستعرض مَنْ بالقصر مِنَ الجوارى والعبيد ، والعدة والعديد ، والطريف والتليد ، فأطلق من كان منهم حرًا ، وأعتق من رأى إعتاقه ، ووهب من أراد هبته ، وفرق على الأمراء والأصحاب من نفائس القصر وذخائره شيئًا كثيرًا ، وحصل هو على اليتيمات وقطع البلخش والياقوت وقضيب الزمرد ، وأطلق البيع بعد ذلك فى كل جديد وعتيق ، فأقام البيع فى القصر مدة عشر سنين .

قال[1] : ومن جملة ما باعوا خزانة الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا .

ويقال إنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التى بالقاهرة فى القصر . ويقال إنها كانت تحتوى على ألفى ألف وستمائة ألف كتاب ، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة . وانقضت تلك الدولة برمتها ، وذهبت تلك الأيام بجملتها بعد أن كانوا قد احتووا على البلاد ، واستخدموا العباد مائتين وثمانين سنة وكسورًا . [قال][2] : وحكى أن الشريف الجليس[3] وهو رجل كان قريبًا من العاضد ، يجلس معه ويحدثه ، عمل دعوة لشمس الدولة بن أيوب ، أخى السلطان ، بعد القبض على القصور[4] وأخذ ما فيها ، وانقراض دولتهم .

وغرم هذا الشريف على هذه الدعوة مالاً كثيرًا ، وأحضرها أيضا جماعة من أكابر الأمراء ، فلما جلسوا على الطعام ، قال شمس الدولة لهذا الشريف : حدثنى بأعجب ما شاهدته من أمر القوم . قال نعم ؛ «طلبنى العاضد يوما وجماعة من الندماء ، فلما دخلنا

---

(١) القول لابن أبى طى . انظر الروضتين ، جـ ١ق٢ ، ص٥٠٧ .

(٢) الإضافة من قول ابن أبى طى فى الروضتين ، جـ ١ق٢ ، ص٥٠٧ .

(٣) الشريف الجليس : هو القاضى الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الحباب السعدى . تولى ديوان الإنشاء للخليفة الفائز الفاطمى (٥٤٩هـ - ٥٥٥هـ/١١٥٤هـ - ١١٦٠م) ؛ وسمى الجليس لأنه كان يجالس الخلفاء الفاطميين . وهو من نسل بنى الأغلب أصحاب إفريقية . توفى سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م . انظر : ابن شاكر : فوات الوفيات ، جـ١ ص٥٧٧ - ٥٧٩ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٢٥١ .

(٤) «القصر» فى الأصل .والمثبت من الروضتين ، جـ ١ق٢ ، ص ٥٠٨ . وهو الأولى مع سياق الكلام .

عليه وجدنا عنده مملوكين من الترك ، عليهما أقبية[1] مثل أقبيتكم ، وقلانس[2] مثل قلانسكم ، وفى أوساطهم مناطق[3] كمناطقكم . فقلنا له : يا أمير المؤمنين ما هذا الزى الذى ما رأيناه قط؟ قال : هذه هيئة الذين يملكون ديارنا ، ويأخذون أموالنا وذخائرنا .

وفى تاريخ الدولتين[4] : أخبرنى أبو الفتوح [بن العاضد][5] أن السلطان جعل أهل العاضد فى دار برجوان[6] ، فى الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة ، وهى دار كبيرة واسعة ، كان عيشهم فيها طيبًا ، ثم نقلوا بعد الدولة الصلاحية منها ، وأبعدوا عنها .

التاسع : فى ذكر كتاب[7] كتبه القاضى الفاضل عن صلاح الدين ، إلى وزير بغداد ، على يد الخطيب شمس الدين [بن][8] أبى المضاء .

«كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره ودين الولاء مشروع ، وعلم الجهاد مرفوع ، وسؤدد السواد متبوع ، وحكم السداد بين الأمة[9] موضوع ، وسبب الفساد مقطوع ممنوع . وقد توالت الفتوح غربا ويمنا وشامًا ، وصارت [١٧٠و] البلاد بل الدنيا ، والشهر بل الدهر ، حرمًا حرامًا ، وأضحى الدين واحدًا بعد ما كان أديانا ، والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخروا عليها [إلا][10] صُمًّا وعُميانا ؛ والبدعة خاشعة ، والجمعة جامعة ، والمذلة فى شيع الضلال شائعة ؛ ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء ، وسمَّوا أعداء الله أصفياء ، وتقطعوا أمرهم بينهم شيعا ، وفرقوا أمر الأمة وكان مجتمعا ، وكذَّبوا بالنار فعجلت لهم نار الحتوف ، ونثرت أقلام الظبا حروف رءوسهم نثر الأقلام للحروف ، ومزقوا كل ممزق ، وأخذوا منهم كل مخنق ، وقطع دابرهم ، ووعظ آيبهم غابرهم ، ورغمت

(١) أقبية : مفردها قباء وهو ثوب له أكمام ضيقة . انظر : ماير : الملابس المملوكية ، ص٢٥ .
(٢) قلانس : مفردها قلنسوة ، وهى كلوته مطرزة أى زركش . انظر : الملابس المملوكية ، ص٤٢ .
(٣) مناطق : مفردها منطقة ؛ وهى حزام العسكريين ، وقد أطلق عليه فيما بعد «حياصة» . وكان يصنع من معدن ثمين وأضخمها ما كان من الفضة المطلية بالذهب . وأحيانا بالذهب الخالص . انظر : الملابس المملوكية ، ص٤٨ .
(٤) انظر : الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٤٩٤ ـ ٤٩٥ .
(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين للتوضيح .
(٦) دار برجوان : هذه الدار كانت بحارة برجوان وتعرف بدار الأستاذ ، وكان يسكن فيها . انظر : مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٥٤ ؛ السلوك ، جـ ٢ ، ص ٣٣٨ .
(٧) عن كتاب القاضى الفاضل انظر : الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص ٤٩٦ ـ ٤٩٧ .
(٨) «شمس الدين أبى المضاء» فى الأصل . والمثبت من الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٤٩٦ . وهو : أبو عبد الله محمد ابن المحسن بن الحسين بن أبى المضاء البعلبكى . انظر : الروضتين ، جـ ١ق٢ ، ص٤٩٢ .
(٩) «الأئمة» فى الأصل . والمثبت من الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٤٩٦ ، نقلاً عن نص كتاب القاضى الفاضل .
(١٠) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٤٩٦ .

أنوفهم ومنابرهم ، وحقت عليهم الكلمة تشريدًا وقتلا ، ﴿**وتمت كلمة[١] ربك صدقًا وعدلاً**﴾ ، وليس السيف عمن سواهم من كفار الفرنج بصائم ، ولا الليل عن سير إليهم بنائم . ولا خفاء عن المجلس الصاحبىّ . أن من شد عقد خلافة وحلّ عقد خلاف ، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عجز عنها الأخلاف والأسلاف ، فإنه مفتقر إلى أن يُشكر ما نصح ، ويقلَّد ما فتح ، ويبلَّغ ما اقترح ، ويقدّم حقه ولا يطرح ، ويقرب مكانه وإن نزح ، وتأتيه التشريفات الشريفة ، وتتواصل إليه أمداد التقويات الجليلة اللطيفة ، وتلبى دعوته بما أقام من دعوة ، وتوصل عروته بما وصل من غزوة ، وترفع دونه الحجب المعترضه ، وترسل إليه السحب المروضة . فكل ذلك تعود عوائده ، وتبدو فوائده ، بالدولة التى كشف وجهه لنصرها ، وجرد سيفه لرفع منارها ، والقيام بأمرها . وقد أتى البيوت من أبوابها ، وطلب النّجعة[٢] من سحابها ، ووعد آماله الواثقة بجواب كتابها ، وأنهض لإيصال ملطفاته وتنجيز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر ، وهو الذى اختاره لصعود درجة المنبر ، وقام بالأمر قيام من بَرَّ ، واستفتح بلباس السواد الأعظم ، الذى جمع الله عليه السَّواد الأعظم ، أملاً[٣] أنه يعود إليه بما يطوى الرجاء فضل عقبه ، ويخلد الشرف فى عقبه » .

العاشر : فيما ذكر جماعة من أكابر العلماء فى حق الفاطميين المذكورين :

قالوا[٤] : إنهم لم يكونوا لذلك أهلاً ، ولا نسبهم صحيحًا ، بل المعروف أنهم بنو عبيد . وكان والد عبيد هذا من نسل القدَّاح الملحد المجوسى . وقِيل كان والدعبيد هذا يهوديا من أهل سَلَمْيه من بلاد الشام ، وكان حدادًا ، وعبيد هذا كان اسمه سعيدًا ، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله ، وزعم أنه علوى فاطمى ، وادعى نسبًا ليس بصحيح ، لم يذكره أحد من مصنفى الأنساب العلوية ، بل ذكر جماعة من العلماء بالنسب خلافه .

---

(١) «كلمات» فى الأصل وفى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٩٧ . و الصحيح ما أثبتناه طبقًا للآية الكريمة من سورة (الأنعام) آية (٦) .

(٢) النجعة : طلب الكلأ فى مواضعه . انظر : المنجد ، مادة «نجع» ص٨٥٧ - ٨٥٨ .

(٣) «إملاء» فى الأصل . والمثبت من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٤٩٧ .

(٤) انظر الأقوال المختلفة فى نسب الفاطميين فى اتعاظ الحنفا ، ج١ ، ص٢٢ وما بعدها ؛ وانظر أيضا : الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص ٥٠٩ - ٥١٠ .

وقد استقصينا الكلام فيه فيما مضى[١] . وقد صنف الشريف الهاشمى[٢] كتابًا كبيرًا ، كان فى أيام الملقب بالعزيز - ثانى خلفاء مصر - فبين فيه أصولهم أتم بيان ، وأوضح كيفية [١٧٠ظ] ظهورهم وغلبتهم على البلاد ، وتتبع ذكر فضائحهم ، وما كان يصدر منهم من أنواع الزندقة والفسق والمخرقة ، وما فعله هؤلاء من الانتساب إلى على رضي الله عنه ، والتستر بالتشيع قد فعله القرامطة[٣] ، وصاحب الزنج[٤] الخارج بالبصرة ، وغيرهم من المفسدين فى الأرض ، على ما عَرَف مِنْ سيرهم مَنْ وقَف على أخبار الناس . وكلهم كَذَبَةٌ فى ذلك ، وإنما غرضهم التقرب إلى العوام والجهال .

وذكر القاضى عبد الجبار[٥] أن الملقب بالمهدى - عليه ما يستحق - كان يتخذ الجهال ويسلطهم على أهل الفضل ؛ وكان يرسل إلى الفقهاء والعلماء فيذبحون فى فرشهم . وأرسل إلى ملك الروم ، وسلطهم على المسلمين ، وأكثر من الجود واستصفاء الأموال ، وقتل الرجال . وكان له دعاة يضلون الناس على قدر طبقاتهم ، فيقولون لبعضهم : «هو المهدى ابن رسول الله ﷺ ، وحجة الله على خلقه» . ويقولون لآخرين : «هو رسول الله وحجة الله على خلقه» . ويقولون لطائفة أخرى : «هو الله الخالق الرازق» .

ولما هلك قام ابنه المسمى بالقائم[٦] مقامه ، وزاد شره على شر أبيه أضعافًا مضاعفة ، وجاهر بشتم الأنبياء ، فكان ينادى فى أسواق المهدية وغيرها : «العنوا عائشة وبعلها ، العنوا الغار ومن حوى» . وبعث إلى أبى طاهر القرمطى[٧] ، المقيم بالبحرين ، وحثه على قتل المسلمين ، وإحراق المساجد والمصاحف .

---

(١) انظر ما سبق ص٧٩-٨٠ .

(٢) هو أبو القاسم على المرتضى . نقيب الطالبيين ؛ عاش فيما بين سنتى ٣٥٥ - ٤٣٦هـ/٩٦٦-١٠٤٤م . انظر : الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٥١٥ ، حاشية (١) .

(٣) القرامطة : طائفة سياسية اتخذت الدعوة إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وسيلة لتحقيق أغراضها ، وعرفت بذلك نسبة إلى أحد دعاتها حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط . ويقال إنه سمى بقرمط لقصور قامته ورجليه . انظر : نهاية الأرب ، جـ٢٣ ، ص٥٦ ؛ الرسعنى : مختصر الفرق بين الفرق ، ص١٧١ .

(٤) هو على بن محمد بن أحمد . . . بن زيد ، ثائر ظهر بالبصرة ، واشتد أمره أيام الخليفة المعتمد ، وزعم أنه من نسل آل على ، وكثر أتباعه من عبيد الأرض الذين كانوا يعملون فى حمل المخصبات (السباخ) وغيرها لأهل البصرة ، واستمرت ثورته الخطيرة التى شملت جنوبى العراق بين سنتى ٢٥٥ - ٢٧٠هـ/٨٦٩-٨٨٣م ، ثم انهارت أمام جيوش الموفق أخى الخليفة المعتمد . انظر : الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٥١٥ ، حاشية (٣) .

(٥) انظر أقوال القاضى عبد الجبار فى العلويين وأصولهم فى الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٥١٢ - ٥١٣ .

(٦) القائم : أبو القاسم محمد بن عبيد الله المهدى ، تولى الخلافة سنة٣٢٠هـ /٩٣٢م ، وتوفى سنة٣٣٤ هـ/٩٤٦م . انظر : البداية والنهاية ، جـ١١ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٧ ؛ اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص٧٤-٨٢ .

(٧) أبو طاهر القرمطى هو حمدان بن الأشعث .

وقام بعده ابنه المنصور[١] ، فقتل أبا يزيد مخلد[٢] ، الذى خرج على أبيه ؛ ينكر عليه قبيح فعله ، وسلخه وصلبه ، واشتغل بأهل الجبال يقتلهم ويشردهم ؛ خوفًا من أن يثور عليه ثائر مثل أبى يزيد .

وقام بعده ابنه المعز[٣] ، فبث دعاته ، فكانوا يقولون : «هو المهدى الذى يملك [الأرض][٤] ، وهو الشمس التى تطلع من مغربها» . وكان يسره ما ينزل بالمسلمين من المصائب ، من أخذ الروم بلادهم . واحتجب عن الناس أيامًا ، ثم ظهر ، وأوهم أن الله رفعه إليه ، وأنه كان غائبًا فى السماء ، وأخبر الناس بأشياء صدرت منهم ، كان ينقلها إليه جواسيس له ، فامتلأت قلوب العامة والجهال منه . وهو أول الخلفاء منهم بمصر ، وهو الذى تنسب إليه القاهرة ، واستدعى بفقيه الشام أبى بكر محمد بن أحمد بن سهل الرملى ، ويعرف بابن النابلسى ، فحمل إليه فى قفص خشب ، فأمر بسلخه ، فسلخ حيًا ، وحشى جلده تبنًا ، وصلب (رحمه الله) . قال أبو ذر الهروى[٥] : سمعت أبا الحسن الدارقطنى[٦] يذكره ويبكى ، ويقول : كان يقول وهو يُسلخ : ﴿**كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا**﴾[٧] .

وقال صاحب تاريخ الدولتين[٨] : وفى أيام الحاكم أمر بكتْب سب الصحابة (رضى الله عنهم) على حيطان الجوامع ، والقياسر ، والشوارع ، والطرقات . وكتب السجلات إلى سائر الأعمال بالسب ، ثم [أمر][٩] بقلع ذلك ، وأنا رأيته مقلوعًا فى بعض أبواب دمشق ،

---

(١) المنصور : أبو طاهر إسماعيل ، مدة خلافته «٣٣٤ ـ ٣٤١ هـ/٩٤٦-٩٥٢م» .انظر : اتعاظ الحنفا ، ج١ ، ص٨٢-٩٢ .

(٢) مخلد بن كيداد الخارجى ، أبو يزيد . انظر ترجمته فى اتعاظ الحنفا ، ج١ ، ص٧٥-٨٥ .

(٣) هو : أبو تميم معد ، مدة خلافته «٣٤١ ـ ٣٦٥ هـ/٩٥٢-٩٧٦م» . انظر : اتعاظ الحنفا ، ج١ ، ص٩٣ وما بعدها .

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٥١٣ حيث ينقل أبو شامة أقوال القاضى عبد الجبار .

(٥) أبو ذر الهروى : هو عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير ، أبو ذر الأنصارى الهروى ، عالم بالحديث من الحفاظ والفقهاء المالكية . توفى سنة ٤٣٤ هـ/ ١٠٤٣م . انظر : الأعلام ، جـ ٤ ، ص٤١ . الطبعة الثانية .

(٦) هو : أبو الحسن على بن عمر بن أحمد بن مهدى البغدادى الدارقطنى .انظر : وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٢٩٧-٢٩٨ .

(٧) سورة الإسراء : آية (٥٨) .

(٨) انظر : الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص ٥١٣ .

(٩) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين للتوضيح .

فى الأسكفة[١] العليا منقورًا فى الحجر . ودلنى أول الكلام وآخره على ذلك ، ثم جُدد ذلك الباب ، وأزيل ذلك الحجر . وفى أيامه طَوَّفَ بدمشق رجل مغربى ، ونودى عليه : «هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر» . ثم ضربت عنقه .

وجرى فى أيامهم مثل هذه الأشياء ؛ مثل قطع لسان أبى القاسم الواسطى ـ أحد الصالحين ـ وكان أذَّن فى بيت المقدس وقال فى أذانه : «حى على الفلاح» ، فأُخذ ، وقطع لسانه . وما كانت ولاية [١٧١و] هؤلاء الملاعين إلا محنة من الله تعالى ، ولهذا طالت مدتهم ، مع قلة عِدتهم ، فعدتهم عدة خلفاء بنى أمية أربعة عشر ، وأولئك بقوا نيفا وتسعين سنة ، وهؤلاء بقوا مائتى سنة [وثمانيا][٢] وستين سنة .

وحكى ابن المارستانى[٣] فى سيرة ابن هبيرة الوزير قال : إنه من عجيب ما جرى فى أمر المصريين ؛ أنه رأى إنسانٌ[٤] من أهل بغداد فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، كأنَّ قمرين أحدهما أنور من الآخر ، والأنور منهما مسامت للقبلة ، وله لحية سوداء فيها طول ، ويهُبُّ أدنى نسيم فيحركها ، وأثر حركتها وظلها فى الأرض ، وكان الرجل يتعجب من ذلك ، وكأنه سمع أصوات جماعة يقرؤون بألحان وأصوات لم يسمع قط مثلها ، وكأنه سأل بعض من حضر فقال : ما هذا؟ فقالوا : قد استبدل الناس بإمامهم . قال : وكأن[٥] الرجل استقبل القبلة ، وهو يدعو الله أن يجعله إمامًا برًا تقيًا . واستيقظ الرجل . وبَلَّغَ هذا المنام ابن هبيرة ـ الوزير إذ ذاك ببغداد ـ فعبَّر المنام بأن الإمام الذى بمصر يُستبدل به ، وتكون الدعوة لبنى العباس لمكان اللحية السوداء . وقوى هذا عنده ، حتى كاتب نور الدين

---

(١) «الأمكنة» فى الروضتين .و اسكف وأسكفة : عتبة الباب .انظر : المعجم الوسيط ، مادة «سكف» .

(٢) «مائتى سنة وستين» كذا فى نسخة أ ؛ أما نسخة ب «مائتى سنة وستين سنة» . والمثبت من الروضتين جـ١ ق٢ ، ص٥١٤ حيث ينقل العينى عنه .

(٣) انظر قول ابن المارستانى فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص ٤٩٩ ـ ٥٠٠ .

(٤) ذكر الدكتور/ محمد حلمى محمد أحمد أنه وجد بأصل نسخة الروضتين تعليقًا بالهامش نصه «حاشية . قال المؤلف : رأيت فى السيرة المذكورة أن الذى رأى هذا المنام هو الفقيه الزاهد أبو محمد عفيف بن المبارك بن محمود الأحمدى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة والله أعلم» . انظر : الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٥٠٠ ، حاشية(١) .

(٥) «وكان» فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٥٠١ .

[حين][1] دخل أسد الدين إلى مصر فى أول مرة ، بأنه يظفر بمصر ، وتكون الدعوة لبنى العباس بها على يده .

وقيلت فى ذلك الزمان أشعار فى هذا منها : قصيدة شمس المعالى أبى الفضائل الحسين بن محمد بن بركات ، وكان حاجب ابن هبيرة ، قالها حين سمع تأويله المنام[2] :

لتَـهْنَك يا مَـولَى الأنَام بِشَـارةً　　　بها سَيفُ دينِ الله بالحقِّ مُرهَفُ
ضَربْتَ بهـا هَامَ الأعـادِى بهِمَّـةٍ　　　تَقَاصَر عنْها السّمْهرىُّ المثَقَّفُ
بَعـثْتَ إلى شَرقِ البـلاد وغَـرْبهـا　　　بُعـوثًا من الآراءِ تُحْـيى وتُتْلِفُ
فقامتْ مقامَ السّيفِ والسَّيْفُ قَاطِرٌ　　　ونابتْ مَنَابَ الرمْحِ والرمحُ يَرْعُفُ
وقُدْت لها جيشًا مِن الروْع هائلاً　　　إلى كل قلبٍ من عِداتك يَرجُفُ[3]
ملكتَ به أقصى المغَـاربِ عُنْوةً　　　وكادتْ بمنْ فيها المشَارقُ تَزْحَفُ[4]
ليهْنَك يا مولاى [فتحا][5] تتابعتْ　　　إليك به خُوصُ الركـائب تُوجَفُ
أخذْتَ به مصرا وقَد حَال دونَها　　　من الشركِ [ناسٌ][6] فى لُهى الحقِّ تُقْذفُ
وقد دَنّسَتْ مِنها المنابرَ عُصْبَةٌ　　　يعافُ التُّقىَ والدّينُ منهم ويأنَفُ
فَطَهَّـرهَا مِن كُلّ شِـركٍ وبدعـةٍ　　　أغـرٌّ غَـريرٌ بالمكارِمِ يُشْـغَفُ
فعَـادتْ بِحـمْد الله بِاسْمِ إمَـامِنا　　　تَتيـهُ على كلِّ البـلادِ وتَشْـرُفُ
ولا غَرْوَ أنْ دَانت ليُوسفَ مِصْرُه　　　وكـانت إلى علْيـائه تَتَـشَوّفُ
تملّكَها من قَبضَةِ الكُفْرِ يُوسُف　　　وخَلَّصَها مِن عُصْبَة الرفضِ يُوسفُ

---

(١)«حتى» فى الأصل . وما بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٠٠ وهو أولى .

(٢) ذكر الدكتور/ محمد حلمى محمد أحمد أنه بهامش أصل الروضتين تعليق نصه : حاشية . قال المؤلف : أول هذه القصيدة : لعل حداة الركب أن يتوقفوا　　ليشفى غليلاً بالمدامع مدنف . انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٠٠ ، حاشية(٣) .

(٣)«يزحف» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٠٠ .

(٤)«ترجف» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٠٠ .

(٥)«فتح» فى الأصل . والمثبت من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٠١ .

(٦) «أناس» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من نسخة ب ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٠١ .

قال يحى بن أبى طى : يريد بيوسف الأول يوسف الصديق النبى ﷺ ، وبيوسف الثانى المستنجد بالله الخليفة يومئذ ، وقاله على سبيل الفأل ؛ ألا تراه قال بعد هذا البيت :

فَشَابَهْتَه خَلْقًا وخُلُقًا وعِفَةً وَكُلٌ عن الرحمنِ فِى الأرضِ يَخْلُفُ[١]

[١٧١ظ] ذكر بقية الحوادث

منها أن فى السابع والعشرين من شوال وقع حريق عظيم فى بغداد ، واحترقت دكاكين كثيرة . ومنها أن فى ذى الحجة وصلت رسل ملك البحرين وكبش[٢] بهدايا ، فيها ألواح صندل وأبنوس وطيب وأنياب فيل .

ومنها ما قاله ابن الجوزى[٣] : وفى يوم الأربعاء غرة رمضان تكلمت فى مجلسى بالحلبة ، فتاب على يدى نحو من مائتى رجل ، وقطعت شعور مائة وعشرين منهم .

ومنها أن الخطا[٤] عبروا على جيحون يريدون خوارزم شاه ، وهو أرسلان بن أتسز ، فجمع عساكره ، وسار لقتالهم وصدهم عن بلاده ، فمرض ، فأرسل العسكر مع أحد أمرائه فلقيهم ، فاقتتلوا قتالاً شديدًا ، فانهزم الخوارزميون وأسر مقدمهم ، ورجع الخطا إلى ما وراء النهر ، وعاد خوارزم شاه إلى خوارزم مريضا[٥] .

ومنها أن الخليفة المستضىء عزل وزيره عضد الدين بن رئيس الرؤساء كرهًا ؛ لأن قطب الدين قيماز ألزمه بعزله ، فلم يمكنه مخالفته[٦] والله أعلم .

---

(١) لقول ابن أبى طى بقية ذكرها أبو شامة فى الروضتين رأينا أنه من الأهمية ذكرها لأنها تطابق الأحداث زمنيًا ونصها : «وجرى الفأل فى البيت باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبنى العباس ، وهذا من عجيب الاتفاق» . انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٠١ .

(٢) كبش ، جمعها كبوش وأكبش . وهى آلة حربية لها رأس ضخم وقرنان تدفعها الجنود نحو أسوار الحصون لتهديمها . انظر : Dozy: Supp. Dict. Ar. T.II, P. 440

(٣) انظر : المنتظم ، ج١٨ ، ص ١٩٧ .

(٤) الخطا : تطلق على الصين الشمالية فى العصور الوسطى . والخطا جماعة من المغل من جنس الترك . انظر : ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٤٣ ـ ٦٤٥ ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧ م .

(٥) انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .

(٦) انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٨ .

ذكر ماجريات نور الدين

منها أن نور الدين استدعى ابن أخيه صاحب الموصل[١] ، فوصل بالعساكر إلى خدمته ، وكانت غزوة عرقا[٢] ، فأخذها نور الدين ومعه ابن أخيه ، وذلك فى المحرم من هذه السنة .

وقال ابن أبى طى : جمع نور الدين عساكره ، وخرج إلى عرقا ، ونازلها وقاتلها أياما حتى فتحها ، واحتوى على ما فيها كلها ، وغنم الناس غنيمة عظيمة .

وقال ابن الأثير[٣] : خرجت مراكب من مصر إلى الشام ، فأخذ الإفرنج من اللاذقية مركبين منها ، مملوءين من الأمتعة والتجار ، وغدروا بالمسلمين ، وكان نور الدين قد هادنهم ، فنكثوا . فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه ، وراسل الفرنج فى ذلك[٤] ، وأمرهم بإعادة ما أخذوه ، فغالطوه ، واحتجوا بأمور لا طائل تحتها . فجمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة ، وبث السرايا فى بلادهم ؛ بعضهم نحو أنطاكية ، وبعضهم نحو طرابلس ، وحصر هو حصن عرقا ، وأخرب[٥] ربضه ، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصنى صافيتا[٦] وعريمة[٧] ، فأخذهما عنوة ، وكذلك غيرهما ، ونهب وأخرب[٨] ، وغنم المسلمون الكثير ، وعادوا إليه وهو بعرقة ، فسار فى العساكر جميعها إلى قريب طرابلس ، يخرب ويحرق وينهب . وأما الذين ساروا إلى أنطاكية ، فإنهم فعلوا فى ولايتها مثلما فعل

---

(١) هو سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى بن آق سنقر ، صاحب الموصل ، تقلد المملكة بعد وفاة أبيه مودود ، توفى يوم الأحد ثالث صفر سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م . انظر : مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٢٠ ؛ وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٥٠٤ .

(٢) عِرْقَا ، عِرْقَة : بلدة فى شرقى طرابلس ، وهى آخر عمل دمشق ، وهى فى سفح الجبل ، وعلى جبلها قلعة . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٥٣ ؛ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص٢٥٥ ، ط . بغداد ١٨٨٩م .

(٣) وردت هذه الرواية بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص٣٧ ؛ انظر أيضا : مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٢٠ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص ٥١٦ .

(٤) ورد هذا النص باستفاضة فى الباهر . ص ١٥٤

(٥) «أخرب» فى الأصل والروضتين ، وفى الباهر «وخرب» . انظر : الباهر ، ص ١٥٤ .

(٦) صافيتا : قلعة تقع إلى الشمال من عرقه من أعمال حلب قرب اللاذقية . انظر : العماد الكاتب : الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد محمود صبح ، ص٢٢٧ ، حاشية ١ .

(٧) عُرَيْمَة : موضع بين أجا وسلمى . معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٦٦٢ .

(٨) «وخرب» فى الباهر ، ص ١٥٥ .

[نور الدين] من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس ، فراسله الفرنج ، وبذلوا إعادة ما أخذوه من المركبين ، وتجدد[١] معهم الهدنة ، فأجابهم [إلى ذلك][٢] ، وكانوا فى ذلك كما يقال : «اليهودى لا يعطى الجزية حتى يُلطم»[٣] .

ومنها أن نور الدين أمر فى هذه السنة باتخاذ الحمام الهوادى[٤] ، وهى المناسيب التى تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها ، فاتخذت فى سائر بلاده . وكان سبب ذلك أنه اتسعت مملكته ، وبعدت بلاده ، فكانت من حد النوبة إلى باب همذان[٥] ، لا يتخللها سوى بلاد الفرنج . فكان[٦] الفرنج (لعنهم الله) ربما نازلوا بعض الثغور ، فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم ، [يكونون][٧] قد بلغوا بعض الغرض ، فحينئذ أمر بذلك ، وكتب به إلى سائر بلاده[٨] ، وأجرى الجرايات لها ، ولمرتبها ، فوجد بها راحة كبيرة .

[و][٩] كانت الأخبار تأتيه لوقتها ؛ لأنه كان له فى كل ثغر رجال مرتبون ، ومعهم من حمام المدينة التى تجاورهم ، فإذا رأوا أو سمعوا أمرًا كتبوه لوقته ، وعلقوه على [١٧٢و] الطائر ، وسرحوه إلى المدينة التى هو فيها فى ساعته ، فتنقل الرقعة منه إلى طائر آخر ، من البلد الذى[١٠] يجاورهم ، فى الجهة التى فيها نور الدين ، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه ، فانحفظت الثغور بذلك .

ومنها أن نور الدين أشار إلى صلاح الدين بإسقاط المكوس والضرائب عن أهل مصر والقاهرة ، وقرىء المنشور بذلك على رؤوس الأشهاد ، يوم الجمعة بعد الصلاة ، ثالث صفر من هذه السنة ، والذى اشتملت «عليه»[١١] المسامحة فى السنة ؛ من العين مائة

---

(١) «ويجدد» فى الباهر ، ص ١٥٥ .
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من الباهر للتوضيح ، ص ١٥٥ .
(٣) ورد هذا الحدث بتصرف فى ، الكامل ، ج١٠ ، ص٣٧ .
(٤) هو حمام يتخذه الملوك لحمل المكاتبات ، ويقال أن أول من اعتنى به من الملوك نور الدين بن زنكى . انظر : صبح الأعشى ، ج١٤ ، ص ٣٨٩ - ٣٩٢ .
(٥) ورد هذا النص بتصرف فى مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٧٨ .
(٦) «وكان» فى الباهر ، ص ١٥٩ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٢٠ .
(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٢٠ .
(٨) «البلاد» فى الباهر ، ص ١٥٩ .
(٩) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص ٥٢٠ .
(١٠) «التى» فى نسخة ب .
(١١) ما بين الأقواس ساقط من نسخه ب .

ألف دينار . وفى تاريخ الدولتين[١] : قرئت نسخة سجل بإسقاط المكوس بمصر على المنبر بالقاهرة ، فى التاريخ المذكور عن السلطان الملك الناصر فى أيام نور الدين ، فهو كان الآمر ، وذاك المباشر .

ذكر وقوع النفرة بين نور الدين وصلاح الدين

وذلك أن نور الدين غزا فى هذه السنة بلاد الإفرنج[٢] فى السواحل ، فأحل بهم بأسًا شديدًا ، ثم عزم على محاصرة الكرك ، وكتب إلى صلاح الدين ؛ أن يلاقيه بالعساكر المنصورة إلى بلاد الكرك ؛ ليجتمعا هناك على المصالح ، فيما يعود نفعه على المسلمين[٣] . فتوهم من ذلك صلاح الدين ، وخاف أن يكون لهذا الأمر غائلة ، يزول بها ما حصل له من التمكين ، ولكنه ركب فى جيشه من الديار المصرية ؛ ليقصد امتثال المرسوم ، فسار أيامًا ، ثم كر راجعًا معتلا بقلة الظهر ، والخوف على اختلال الديار المصرية إذا بعد منها واشتغل عنها ، وأرسل يعتذر بذلك إلى السلطان نور الدين ، فوقع فى نفسه منه ، واشتد غضبه عليه ، وعزم على الدخول إلى الديار المصرية ، وانتزاعها من يد صلاح الدين ، وتوليته غيره فيها . ولما بلغ هذا الخبر إلى صلاح الدين ضاق بذلك ذرعه ، وذكره بحضرة الأمراء والكبراء ، فبادر ابن أخيه تقى الدين عمر[٤] فقال : والله لو قصدنا نور الدين لنقاتلنه ، فشتمه الأمير نجم الدين أيوب[٥] والد صلاح الدين يوسف وأسكته . ثم قال لابنه : اسمع ما أقول لك : والله ما هاهنا أحد أشفق عليك منى ومن خالك هذا ، يعنى شهاب الدين الحارمى ، ولو رأينا الملك نور الدين لبادرنا إليه ، ولقبلنا الأرض بين يديه ، ولو كتب إلى أن أبعثك إليه مع نجاب لفعلت ، ثم أمر من هنالك بالانصراف والذهاب .

---

(١) انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص ٥٢٢-٥٢٣ .

(٢) «الفرنج» فى نسخة ب .

(٣) ورد هذا الحدث بتصرف فى الباهر ، ص ١٥٨ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص ٥٢٨ .

(٤) هو الملك المظفر تقى الدين أبو سعيد عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة ، وهو ابن أخى السلطان صلاح الدين ، توفى يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١م بالقرب من خلاط . وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ٤٥٦ - ٤٥٧ .

(٥) هو أبو الشكر أيوب بن شاذى بن مروان ، الملقب بالملك الأفضل نجم الدين ، والد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، توفى سنة ٥٦٨ هـ/١١٧٣م . انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٩ .

فلما خلا بابنه قال «له»[١] : أما لك عقل تذكر مثل هذا بحضرة هؤلاء ، ويقول ابن عمك مثل هذا الكلام وتقره عليه ، فلا يبقى عند نور الدين وجه أهم عنده من قصدك وقتالك ، ولكن ابعث إليه وترفق له وتواضع له ، وقل له أى حاجة إلى مجىء مولانا ، ابعث إلىَّ بنجاب أجىء معه[٢] إلى بين يديك ، فإنك إذا فعلت هذا تمادى الوقت بما تحصل به الكفاية من الله تعالى . ففعل صلاح الدين ذلك ، وكان كما قال نجم الدين أيوب : ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[٣] .

وقال العماد : وكان صلاح الدين واعده نور الدين أن [يجتمعا][٤] على الكرك والشوبك يتشاوران فيما يعود بالصلاح المشترك ، فخرج من القاهرة فى الثانى والعشرين من المحرم ، فلقى فى تلك السفرة شدة ، وعدم خيلا وظهرًا وعُدّة ، وعاد إلى القاهرة فى النصف من ربيع الأول .

وفى تاريخ بيبرس : تجهز صلاح الدين من مصر إلى الكرك ، وكان قد قرر مع نور الدين أن يخرج من دمشق ، ويجتمعا على غزو الإفرنج ، فسبق صلاح الدين ، وخرج نور الدين من دمشق ، [١٧٢ظ] فأوجس صلاح الدين خيفة منه أن يعزله عن مصر ويوليها غيره ، فرجع عائدًا وقد بقى بينه وبين الكرك مسافة قريبة ، وأرسل إلى نور الدين رسولاً ، وأصحبه هدايا كثيرة وتحفًا جليلة ، وكتب إليه ؛ يعتذر بأن والده ضعيف . وكان الرسول إليه الفقيه عيسى الهكارى ، فلاطف نور الدين ، وخاطبه بالحسنى حتى قال نور الدين : حفظ مصر عندنا أهم من غيرها ، وفطن لما قصده برجعته ، وعز ذلك عليه فى باطنه .

وقال ابن الأثير[٥] : لما نصح نجم الدين ولده صلاح الدين ، وأشار عليه بأن يرسل رسولاً إلى نور الدين ويستعطفه ، فأرسل إليه بذلك ، عدل نور الدين عن قصده ، وكان من جملة ما قال نجم الدين لولده صلاح الدين : الأيام تندرج ، والله كل وقت فى شأن . وكان الأمر كما قال ؛ توفى نور الدين . ولم يقصد صلاح الدين ، ولا أزاله ، وكان هذا الرأى من نجم الدين من أحسن الآراء وأجودها .

---

(١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة «ب» .

(٢) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٥ - ٣٦ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص ٥١٨ - ٥٢٠ ؛ مفرج الكروب ، ج١ ، ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

(٣) سورة الأحزاب : آية (٣٨) .

(٤) «يجتمعوا» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص ٥١٨ حيث يتسق مع السياق واللغة .

(٥) نقل العينى هذا النص بتصرف من الباهر ، ص ١٥٨ - ١٥٩ .

وفيها[١] . . . .

وفيها حج بالناس[٢] . . . .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد بن أبو محمد [بن][٣] الخشاب[٤] ؛ قرأ القرآن وسمع الحديث الكثير ، وقرأ النحو واللغة ، وانتهى علمهما إليه ، وشرح الجُمَل للإمام عبد القاهر (رحمه الله) ، وفاق أهل عصره . وكان مُغْرَى بشراء الكتب ، وكان يؤدب أولاد الخليفة ، وكان يكتب[٥] خطًّا حسنًا . وله مصنفات فى النحو واللغة والعروض والحساب وغيره ، وكانت وفاته فى رمضان يوم الجمعة الثالث منه ، ودفن قريبًا من بشر الحافى (رحمه الله) . وكان يقول الشعر ، ومن شعره فى الشمعة :

صفراءُ لا مِنْ سَقَمٍ مَسَّها	كَيفَ وكانَتْ أُمُّها الشَّافِيَة
عُرْيانَةٌ باطِنُها مُكْتَسٍ	فَاعْجَبْ لَها كَاسِيَةً عَارِيَة[٦]

محمد بن محمد بن محمد بن أبو المظفر البرَوى[٧] ؛ تفقه على محمد بن يحيى ، وناظر ووعظ ، وقدم بغداد فجلس للوعظ فى أول ولاية المستضىء ، وأظهر مذهب الأشعرية ، وتعصب على الحنابلة وبالغ ، فأخذه قيام الدم فى رمضان هذه السنة ، وتوفى ودفن فى تربة أبى إسحق الشيرازى (رحمهما الله)[٨] .

---

(١) بياض فى نسختى المخطوطة بمقدار سطر ونصف تقريبًا .

(٢) بياض فى نسختى المخطوطة بمقدار سطر .

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة لازمة من وفيات الأعيان ، ج ٣ ص١٠٢ ؛ البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٨٩ .

(٤) انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ١٠٢ - ١٠٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٢٨٩ .

(٥) «يقرأ» فى نسخة ب .

(٦) أورد ياقوت هذه الأبيات فى معجم الأدباء ، ج١٢ ، ص٥٣ ؛ كما أوردها ابن خلكان ، مع بعض الاختلاف فى الألفاظ . انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ١٠٣ .

(٧) انظر : المنتظم ، ج ١٨ ، ص ١٩٨ ؛ وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ ؛ السبكى : طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص١٨٢ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٢٤ .

(٨) انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٢٨٩ .

وفى المرآة[١] : وبالغ فى ذم الحنابلة ، وقال : لو كان إلى أمر لوضعت على الحنابلة الجزية ، وكان شابًا حسنًا ، جميل الصورة ، مليح العبارة ، فصيحًا ، فيقال : إن الحنابلة دسوا عليه من سمه ؛ جاءته امرأة فى الليل ، ومعها صحن حلواء ، فطرقت بابه ، فقال : من؟ قالت : أنا امرأة آكل من مغزلى ، وقد غزلت قطنًا وبعته ، واشتريت من ثمنه هذه الحلواء ، واشتهيت أن الشيخ يأكل منها ، فإنه حلال ، فتناوله منها ، ومضت . فجلس يأكل هو وزوجته وولده الصغير ، فأصبحوا موتى جميعًا فى رمضان ، ودفن بباب أبرز (رحمه الله) ولا رحم تلك المرأة .

أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن على بن عبد القوى بن قلاقس ، اللخمى الأزهرى الإسكندرى ، الملقب القاضى الأعز[٢] ، الشاعر المشهور ؛ كان شاعرًا مجيدًا وفاضلاً نبيلاً ، ولم يكن له لحية ، بل كان سناطًا ، وقيل فيه أشعار بسبب ذلك . صحب الشيخ الحافظ أبا طاهر أحمد بن محمد السِّلفى ، وانتفع بصحبته ، وله فيه غرر المدائح ، وقد تضمنها ديوان . وكان كثير الحركات والأسفار ، وفى آخر وقته دخل اليمن فحصَّل [١٧٣و] شيئًا كثيرًا من صاحب بلاد اليمن ، فركب البحر ، فانكسر المركب به ، وغرق جميع ما كان معه ، بجزيرة الناموس بالقرب من دَهْلَك[٣] ، وذلك يوم الجمعة خامس ذى القعدة سنة [ثلاث][٤] وستين وخمسمائة ، فعاد إليه وهو عريان ، فلما دخل عليه أنشده قصيدته التى أولها :

صَدَرْنا وقَد نَادَى السَّماحُ بِنَا رِدُوا فَعُدْنَا إلى مَغْناكَ والعَوْدُ أحْمَدُ

وهى من القصائد المختارة ، ولو لم يكن فيها سوى هذا البيت لكفاه . ومحاسنه نادرة ، وكانت ولادته بإسكندرية يوم الأربعاء رابع شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، وتوفى فى ثالث شوال من هذه السنة بعيذاب .

وله فى جارية سوداء ، وهو معنى غريب :

(١) انظر : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٨٣ .
(٢) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ٣٨٥ - ٣٨٩ .
(٣) دَهْلَك : وهى جزيرة فى بحر اليمن ومرسى بين بلاد اليمن والحبشة . معجم البلدان ج ٢ ، ص ٦٣٤ .
(٤) « ست وستين» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ٣٨٦ .

رُبَّ سَوْداءَ وهى بيضاءُ مَعْنى		نافَسَ المسكَ عندها الكافُورُ
مثل حَبِّ العُيونِ يَحْسَبُه النا		سُ سَوادًا ، وإنما هُو نُورُ

وقَلاقِس : جمع قُلقاس «بضم القاف»[(١)] ، وهو معروف .

وعَيْذاب : بليدة على شاطئ بحر جدة ، تعدى منها المراكب المصرية المتوجهة إلى الحجاز ، على طريق فى ليلة واحدة فى غالب الأوقات ، فتصل إلى جُدَّة ، ومنها إلى مكة مسافة يوم [واحد][(٢)] . وجُدَّةُ قبر أم البشر حواء (عليها السلام) ، على ما يقال ، وقبرها ظاهر هناك يزار ، كذا قال ابن خلكان (رحمه الله) .

عبد الله بن أحمد بن الحسين بن إسحق أبو محمد الحميرى[(٣)] ؛ ويعرف بابن [النقار[(٤)]] الكاتب ، ولد بطرابلس سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، ونشأ بها ، وقرأ الأدب . ولما استولى الفرنج عليها انتقل إلى دمشق ، وكان شاعرًا فاضلاً ، وله شعر رقيق ، ومعنى دقيق ، ومنه هذه الأبيات :

اللهُ يعلمُ أنّنى ما خِلْتُه		يَصْبُو إلى الهِجرانِ [حين[(٥)]] وصَلْتُه
مَنْ مُنْصِفى مِن ظَالم مُتَعَنِّت[(٦)]		يزدَادُ ظُلما كُلّما حَكّمْتُه
مَلَّكتُهُ رُوحى ليحفَظَ مُلْكَه		فأضَاعَنى وأضاعَ ما مَلّكْتُه
لا ذَنبَ لى إلا هَواهُ لأنّه		لما دَعانى للسّقَامِ أجَبْتُه
أَحْبابَنا أنفقتُ عُمْرى عِندكُمْ		فمتَى أعَوَّضُ بعضَ ما أنفَقْتُه
وبمَنْ أعوذُ إلى سِواكُمْ قَاصِدًا		والقلبُ فى عَرصَاتِكُم خَلَّفْتُه

---

(١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٢) ما بين الحاصرتين مثبت من نسخة ب .

(٣) كذا فى الأصل ، والنجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص٦٥ ؛ ومرآة الزمان ، ج ٨ ، ص١٨٠ . و «الحميدى» فى تهذيب تاريخ ابن عساكر ، ص٢٧٧ .

(٤) «ابن البقار» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الخريدة ، شعراء الشام ، ج١ ، ص٣١٤ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٨٠ ؛ الأعلام ، ج٤ ، ص١٩١ ، ط٢ ، ١٩٥٩ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٦٥ .

(٥) «يوم» فى نسخة أ ، «منذ» فى نسخة ب ، والمثبت بين الحاصرتين من الخريدة ، شعراء الشام ، ج١ ، ص ٣١٤ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٦٥ .

(٦) «مُتَعتِّب» فى الخريدة ، شعراء الشام ، ج١ ، ص ٣١٥ .

ولِمَن أَلُومُ على الهَوَى وأنا الذى قُدتُ الفؤادَ إلى الغرام وسُقْتُه

قد كنتُ أعْذِلُ[١] كلَّ صَبٍّ فى الهَوَى وألومُه فى العِشْقِ حتى ذُقْتُه

مالى سوى قَلْبى وفيكَ أَذَبْتُه مالى سِوَى دمْعِى وفِيكَ سَكَبْتُه

أبكى إذا جَنَّ الظلامُ تَشَوقًا من طُولِ لَيْلٍ فى هواكَ سَهِرْتُه

وأنُوحُ إن نَاحَ الحمامُ ضُحًى على إلْفٍ فقدتُ الصبرَ حينَ فَقَدتُه

ما كنتُ أعرفُ مَا الغَرامُ ولاَ الأَسَى والشوقُ والتبريحُ حتى ذُقْتُه[٢]

عَرقَلَةُ الشَّاعِرُ[٣] ؛ **واسمه حَسَّان بن نمير البدوى** ؛ الشاعر الحلبىّ ، من حاضرة دمشق ، وكان شيخًا [١٧٣ظ] خليعا أعور ، مطبوعا كَيسا لطيفا ظريفا منادما . وله فى صلاح الدين قصائد كثيرة ، وتوفى فى هذه السنة ، وقيل إن وفاته تأخرت ، حتى أخذ صلاح الدين دمشق ، وله ديوان مشهور ، ومن شعره :

عِنْدِى إليكم مِنَ الأَشْواقِ والبُرَحَا ما صيَّر الجسْمَ من بعْد الضنا شَبَحَا

أحَبابَنا لا تَظُنُّونى سَلَوْتُكُمُ الحالُ بالحالِ والتَّبْرِيحُ ما بَرِحَا

لو كان يَسْبَحُ صَبٌّ فى مَدامعِهِ لكُنتُ أوَّلَ[٤] مَن فى دَمْعِه سَبَحَا

أو كُنتُ أعْلَمُ أنّ البيْنَ يَقْتُلُنى ما حُلْتُ عنْكُم ولكنْ فَاتَ «ما»[٥] ذَبحَا

وقال :

كَتمَ الهَوى فوشَتْ عليه دُمُوعُه مِن حَرِّ جَمْرٍ تَحْتَويه ضُلُوعُهُ

صَبٌّ تشاغَلَ بالحبيبِ وزَهْرِهِ [زمنًا][٦] وفى وجْه الحبِيبِ رَبيعُه

يا لائِمِى فِيمَن تَمَنَّعَ وصْلُه عن بُغيتى أحْلَى الهَوى مَمْنُوعُه

(١) «أعدك» فى نسخة ب .

(٢) انظر : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٣) انظر ترجمته فى الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص ١٧٨ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص ٢٢٠ .

(٤) «أولى» فى نسخة ب .

(٥) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٦) «قوم» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٦٤ ، وهو ما يتفق مع السياق .

كيف التخلُّصُ إنْ تَجَنَّى أو [جَنَى][١]	والحسْنُ شيءٌ ما يُردُّ شَفيعُه

شمسٌ ولكنْ فى فؤادِى حَرُّها	بدرٌ ولكِنْ فى القلوبِ طُلُوعُه

قال العواذلُ ما الذى استَحْسنتُه	منه وما [يسبيك][٢] قلتُ جميعُه

ابن مَرْدَنِيش ؛[٣] هو الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد ، المعروف بابن مردنيش ، صاحب شرق الأندلس ، مُرْسِيَّةُ[٤] وما يضاف إليها . توفى فى هذه السنة ، وسبب موته أن أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، صاحب المغرب ، دخل إلى جزيرة الأندلس ؛ لكشف مصالح دولته ، وتفقد أحوالها ، وذلك فى سنة ست وستين وخمسمائة ، وفى صحبته مائة ألف فارس من العرب والموحدين ، فنزل بإشبيلية[٥] ، فخافه الأمير أبو عبد الله المذكور ، وحمل على قلبه ، فمرض مرضًا شديدًا ، ومات فى التاسع والعشرين من رجب سنة سبع وستين وخمسمائة بإشبيلية .

وقيل أن أمُّهُ سَمَّتْهُ ، لأنه كان قد أساء العشرة مع أهله [وأصحابه][٦] وخواصه وكبراء دولته ، فنصحته وأغلظت عليه فى القول ، وتهدَّدَها . فخافت بطشته ، فعملت عليه وقتلته بالسُّم . «ومولده»[٧] فى سنة ثمانى عشرة وخمسمائة ، فى قلعة من أعمال طرطوشة[٨] ، يقال لها بُنُشْكُلَة ، وهى من الحصون المنيعة .

ولما مات محمد بن سعد جاء أولاده ، وقيل إخوته ، إلى الأمير يوسف بن عبد المؤمن ، وهو بإشبيلية ، فسلّموا إليه جميع بلاد شرق[٩] الأندلس التى كانت لأبيهم ، وقيل لأخيهم ، فأحسن إليهم الأمير يوسف وتزوج أختهم ، وأصبحوا عنده فى أعز مكان .

---

(١) «يحى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٦٥ .

(٢) «يشينك» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص١٨٣ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٦٥ .

(٣) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص١٣١ - ١٣٣ .

(٤) مُرْسِيَة : مدينة بالأندلس من أعمال تُدْمير . معجم البلدان ، ج ٤ ، ص٤٩٧ .

(٥) إشْبيلية ، بالكسر ثم السكون وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة ولام وياء خفيفة ، مدينة عظيمة بالأندلس . معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٧٥ .

(٦) ما بين الحاصرتين ساقط من نسخة أ ، و مثبت من نسخة ب .

(٧) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٨) طرطوشة : مدينة بالأندلس تتصل بكور بلنسية وهى شرقى بلنسية وقرطبة . معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٣٩ .

(٩) تقديم وتأخير فى نسخة ب .

ومَرْدَنِيْش[١] : بفتح الميم وسكون الراء وفتح الدال المهملة وكسر النون وسكون الياء آخر الحروف وفى آخره شين معجمة ، وهو بلغة الإفرنج[٢] اسم العَذِرَة .

وبُنُشْكُلَة : بضم الباء الموحدة والنون وسكون الشين المعجمة وضم الكاف وفتح اللام وفى آخره هاء .

ناصر الجونى[٣] ؛ كان متصوفًا ، وكان يمشى فى طلب الحديث حافيا ، وتوفى ببغداد فى هذه السنة (رحمه الله) .

---

(١) لمعرفة المزيد من التفاصيل عن ابن مردنيش انظر المقرى : نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ١١٣ .

(٢) «الفرنج» فى نسخة ب .

(٣) انظر ترجمته فى البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٨٩ .

[١٧٤و] فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثامنة والستين بعد الخمسمائة★

استهلت هذه السنة والخليفة المستضيء بأمر الله العباسى، وإليه الأمر والنهى. وصاحب مصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. وسُلطان الشام وحلب وغيرهما الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى. وسلطان الروم عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان السلجوقى. وسلطان المغرب يوسف بن عبد المؤمن. وسلطان خوارزم أرسلان شاه، ولكنه مات فى هذه السنة على ما نذكره إن شاء الله. وسلطان همدان وغيرها أتابك شمس الدين أيلدكز، ولكنه مات فى هذه السنة على ما نذكره. وصاحب اليمن عبد النبى. وصاحب الموصل وغيرها سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن أخى نور الدين. وصاحب تبريز فلك الدين بن آقسنقر الأحمديلى. وصاحب نيسابور المؤيد أيَابَا[1]. وصاحب خُوزِسْتان شملة التركمانى. وصاحب خلاط شاهْ أَرْمن. وصاحب غزنة شهاب الدين الغُورى.

ذكر مَاجريات نور الدين

منها أن نور الدين برز إلى الإفرنج، وكانوا قد اجتمعوا بالشام؛ لقصد مدينة زُرْع[2]، فوصلوا إلى [سَمكين][3]، فهربوا من نور الدين إلى الغَوْر[4]، ثم إلى السَّواد[5]، ثم إلى[الشلالة][6]، فبعث نور الدين سرية إلى طبرية[7]، فعاثوا هنالك، وسبوا وقتلوا وغنموا وعادوا. ورجعت الفرنج خائبين[8].

★ يوافق أولها ٢٣ أغسطس ١١٧٢م.

(١) يرسم الاسم أيابه أو أيابا أو أى به.

(٢) زُرْع: تدعى قديما «زُرًّا» من أعمال حوران. انظر: معجم البلدان، ج ٢، ص ٩٢١.

(٣) «سمسكين» فى نسختى المخطوطة أ، ب. والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين، ج١ ق٢، ص ٥٢٨. وهى ناحية من أعمال دمشق من جهة حوران. انظر: معجم البلدان، ج٣، ص ١٤٠ - ١٤١.

(٤) الغور: المنخفض من الأرض. معجم البلدان، ج ٣، ص ٨٢١.

(٥) السواد قرب البلقاء، وسميت بذلك لسواد حجارتها. انظر: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٧٤.

(٦) ذكرها العينى برسمين «السّلالة»، «انشلالة». والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين، ج ١ ق٢، ص ٥٢٨؛ مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٢٧؛ البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٨٩.

(٧) طبرية: بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية من أعمال الأردن. انظر: معجم البلدان، ج ٣، ص ٥٠٩.

(٨) ورد هذا النص بتصرف فى الروضتين، ج ١ ق٢، ص ٥٢٨؛ الكامل، ج ١٠، ص ٤٥.

ومنها أن نور الدين فتح فى هذه السنة مَرعش فى ذى القعدة ، وأخذ بَهَسْنَى فى ذى الحجة منها .

ومنها أن كلب الروم[١] اللعين خرج فى جنوده الشياطين ، فقصد الغارة على ناحية زُرًّا من حوران ، ونزلوا بقرية تعرف [بسمكين][٢] . فركب نور الدين وهو نازل بالكسوة[٣] إليهم ، فلما عرفوا وصوله ، رحلوا إلى الفوار ثم إلى السواد ، ثم نزلوا بالشلالة[٤] ، ونزل نور الدين عشترا[٥] ، فأنفذ سرية إلى أعمال طبرية ، واغتنموا خُلُوّها ، فلما عادت لحقها الفرنج عند المخاضة ، فوقف الشجعان حتى عبرت السرية ، ورحل نور الدين من عشترا فنزل بظاهر زُرًّا .

قال العماد : وكنت راكبًا فى لقائهم مع الملك العادل وهو يقول لى : كيف تصف ماجرى ، فمدحته بقصيدة[٦] منها :

عُـقِـدَتْ بنَصْـرِكَ رَايةُ الإيمـانِ ... وبَدَتْ لعَـصْـرِكَ آيَةُ الإحْـسَـانِ
يا غالب الغُلْبِ المُلُوكِ وصَائدَ الصِّـ ... ـيدِ اللُّيُـوثِ وفـارسَ الفُـرسَـانِ
يا سَـالبَ التِّـيجـانِ مِنْ أرْبَابِهـا ... حُزْتَ الفَخَارَ علَى ذَوِى التِّيجانِ
مـحـمـودٌ المحـمـودُ مـا بينَ الوَرَى ... فـى كـلِّ إقليـمٍ بكـلِّ لـسـانِ
يا واحِدًا فى الفضلِ غير مُشَارَكٍ ... أقْسَمْتُ مالَك فى البَسِيطَةِ[٧] ثان

ومنها :

وجَلَوْتَ نُورَ الدِّينِ ظُلْمَةَ ظُلْمِهم[٨] ... لمـا أَتَيتَ بوَاضِحِ البُـرهَانِ
وهَزَمْـتَـهُـم بالرأىِ قـبل لِقَـائِهـم ... والرأىُ قبلَ شَجاعَةِ الشُّجْعَانِ
[١٧٤ظ] أصـبـحتَ لـلإسْـلامِ رُكْنا ثابتًـا ... والكُفْرُ منك مضَعْضَعُ الأرْكَانِ/

(١) يقصد بذلك امبراطور الروم Manuel Comnenus الذى حكم بين سنتى ١١٤٣ ـ ١١٨٠ م/ ٥٣٨ ـ ٥٧٦هـ .
(٢) «بسمسكين» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين .
(٣) الكسوة ؛ أول منزل تنزله القوافل التى تخرج من دمشق فى اتجاه مصر . انظر : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ .
(٤) «الشلالة» الروضتين ج ١ ق٢ ، ص ٥٢٨ .
(٥) عشترا ، موضع بحوران من أعمال دمشق . انظر : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٦٧٩ .
(٦) وردت هذه القصيدة فى الروضتين ، ج ١ ق٢ ، ص ٥٢٩ ـ ٥٣٠ . وقد وردت بعض أبياتها فى مفرج الكروب ، ج١ ، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .
(٧) «من ثانى» فى نسخة ب وهو خطأ .
(٨) «كفرهم» فى الروضتين ، ج ١ ق٢ ، ص ٥٢٩ .

وهى قصيدة طويلة ، مدح فيها أمراءه الحاضرين الجهاد معه[١] ومدحه .

ومنها أن نور الدين سار قاصدًا جانب الشمال ، فسار إلى بعلبك ، ومنها إلى حمص ، ثم حلب ، وفعل فى كلٍّ منها من المصالح ما وجب ، وقصد بلاد قليج أرسلان ملك الروم ، وكان العماد معه ، ووصل إلى مرعش ، وكان الزمان فى أطيب فصوله ، وهو زمن المشمش . وكتب العماد إلى صديق له بدمشق :

كِتَابى فَدَيْتُكَ ، من مَرْعَش ... وخوفُ نَوَائِبها مُرْعِشِى
وما مَرَّ فى طُرْقِها مُبصِرٌ[٢] ... صحيحُ النواظرِ إلاَّ عَشِى[٣]
ومَا حَلّ فى أرضِها آمِنٌ ... من الضُّرِّ والضَّيِّم إلاَّ خَشِى
تُرَنِّحُنى نشواتُ الغرام ... كأنِّىَ[٤] من كأسِه مُنْتَشِى
أُسِرُّ وأُعْلِنُ بَرْحَ الجَوَى ... فَقَلْبِى يُسِرُّ ودمعى يَشِى
بذلْتُ لكُم مُهْجَتى رِشْوةً ... فَحَاكِمُ حُبِّكُمْ مُرْتَشى
وَكَيفَ يَلَذُّ الكَرَى مُغْرَمٌ ... بِنَارِ الغَرامِ حَشَاهُ حُشِى
بمَرْعش أبغى[٥] وبَلُّوطِها ... مضاهاة جِلَّقَ والمِشْمِشِ

قال العماد فى الخريدة : فسارت هذه القطعة ، ونُمى حديثها إلى نور الدين ، فاستنشدنيها ، فأنشدتها إياه ، ونحن سائرون فى وادٍ كثير الأشجار ، مع بيتين بدهت بهما[٦] فى الحال ، [وهما][٧] :

وبالمَلِكِ العادلِ اسْتأنَسْتُ ... نجاحًا مُنَى كُلِّ مسْتَوحِشِ
ومَا فِى الأنَامِ كريمٌ سِوَاه ... فإنْ كُنتَ تنْكِر ذا [فتِّشِ][٨]

---

(١) «معهم» فى نسخة ب .
(٢) «مُنْصر» فى نسخة ب .
(٣) «غشى» فى الروضتين ، ج ١ ق٢ ، ص ٥٤٣ .
(٤) «كأننى» فى نسخة ب ، وهو خطأ إذ يخل بوزن البيت .
(٥) «أبقى» فى الروضتين ، ج ١ ق٢ ، ص ٥٤٣ .
(٦) «بدهتهما» فى نسخة ب .
(٧) ما بين الحاصرتين مثبت من الروضتين ، ج ١ ق٢ ، ص ٥٤٣ ، وذلك لاستقامة النص .
(٨) «ففتش» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج ١ ق٢ ، ص ٥٤٣ .

قال ابن الأثير[١] : وفى سنة ثمان وستين سار نور الدين نحو ولاية الملك عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السلجوقى ، وهى ملطية[٢] ، وسيواس[٣] ، وقونية[٤] ، وأقصرا[٥] ، عازما على حربه ، وأخذ بلاده منه . وكان سبب ذلك أن ذا النون[٦] بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس وغيرهما من تلك البلاد ، قصده قليج أرسلان ، وأخذ بلاده ، وأخرجه عنها طريدا فريدا ، فسار إلى نور الدين مستجيرًا به ، وملتجئا إلى ظله ، فأكرم نزله ، وأحسن إليه ، وحمل له ما يليق أن يحمل للملوك[٧] ، ووعده النصرة والسعى فى رد ملكه إليه[٨] . وأرسل [ذو النون][٩] إلى قليج أرسلان ، وشفع إليه فى إعادة ما غلبه عليه من بلاده ، فلم يجبه إلى ذلك ، فسار نور الدين نحوه ، فابتدأ بكيسون ، و بهسنى ، ومرعش ، ومرزبان ، فملكها وما بينها من الحصون[١٠] ، وسير طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها . وكان قليج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده قد سار من «أطرافها»[١١] التى تلى الشام إلى وسطها ؛ خوفا وجزعًا ، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه ، فأجابه إلى الصلح[١٢] ، وكان فى جملة رسالة نور الدين إليه : إننى أريد منك أمورا وقواعد ، ومهما تركت منها فلا أترك [١٧٥و] ثلاثة أشياء :

---

(١) الكامل ، ج ١٠ ، ص ٤٨ ـ ٤٩ .

(٢) ملطية : ثغر من ثغور الجزيرة مما يلى الروم ، وهى مدينة كبيرة من أكبر الثغور ، وبين ملطيه ومنبج أربعة أيام . انظر : الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص٤٣-٤٨ .

(٣) سيواس : بلد بالروم ، إحدى بلاد آسيا الصغرى وتقع على مسافة ٦٠ ميلا من قيسارية . انظر : ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ، ج ٢ ، ص ٧٦٨ .

(٤) قونية : من أعظم مدن الإسلام بالروم : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٠٤ .

(٥) أقصرا : يطلق عليها الآن آق سراى وهى قرب قونية . انظر : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٠٤ «داخل مادة قونية» ؛ انظر : السلوك ج ١ ق١ ، ص ١٣٩ حاشية ٤ .

(٦) أمير تركى كون لنفسه إمارة مستقلة عن السلاجقة فى مدن ملطية وسيواس وقيسارية أثناء تقدم السلاجقة نحو آسيا الصغرى ، وقد حكم ذو النون فى مناسبتين أولاهما بين سنتى ٥٣٧ ـ ٥٥٠هـ/١١٤٢ ـ ١١٥٥م ، وثانيهما بين سنتى٥٦٤ ، ٥٦٩هـ/١١٦٩ـ ١١٧٤م . انظر : معجم الأنساب ، ج١ ، ص٢٢٠ـ ٢٢١ .

(٧) «إلى الملوك» فى الباهر ، ص١٦٠ .

(٨) ورد هذا النص فى الروضتين ، ج ١ ق٢ ، ص ٥٤٣ ـ ٥٤٤ ؛ الباهر ، ص ١٦٠ .

(٩) ما بين الحاصرتين إضافة من الباهر ، ص ١٦٠ .

(١٠) الكامل ، ج ١٠ ، ص ٤٨ ـ ٤٩ ؛ كما ورد النص بتصرف فى الروضتين ، ج ١ ق٢ ، ص ٥٤٤ .

(١١) «طرقها» فى الكامل ، جـ١٠ ، ص ٤٩ .

(١٢)وردت الرواية فى الباهر بتصرف ، ص ١٦٠ .

أحـدها : أن تجـدد إسـلامك على يد رسـولى ؛ حـتى يحل لى إقـرارك على بلاد الإسلام ، فإنى[١] لا أعتقدك مؤمنا ، وكان قليج أرسلان يتهم باعتقاد مذاهب[٢] الفلاسفة .

والثانى : إذا طلبت عسكرك إلى الغزاة[٣] تسيره ، فإنك قد ملكت طرفا كبيرا من بلاد الإسلام ، وتركت الروم وجهادهم ، وهادنتهم ، فإما أن تكون[٤] تنجدنى بعسكرك ؛ لأقاتل بهم الفرنج ، وإما أن تجاهد من يجاورك من الروم ، وتبذل الوسع والجهد فى جهادهم .

والثالث : أن تزوج ابنتك لسيف الدين غازى ابن[٥] أخى ، وذكر أمورًا غيرها . فلما سمع قليج أرسلان الرسالة قال : ما قصد نور الدين إلا الشناعة على بالزندقة[٦] ، وقد أجبته إلى ما طلب ، أن أجدد إسلامى على يد رسوله .

واستقر الصلح ، وعاد نور الدين ، وترك عسكره فى سيواس مع فخر الدين عبد المسيح فى خدمة ذى النون ، فبقى العسكر بها إلى أن مات نور الدين ، فرحل العسكر عنها ، وعاد قليج أرسلان وملكها[٧] .

ومنها أن مليح بن لاون[٨] مقدم بلاد الأرمن التجأ إلى نور الدين ، وتقوى به على الروم والأرمن . وكانت الدروب أذنة[٩] والمصيصة[١٠] ، وكان كلب الروم يحمى سيواس ويضبطها بجنده ، حتى استولى عليها مليح بن لاون ، فكسرهم وقتل وأسر ، وساق لنور الدين من مقدمى الروم ثلاثين أسيرًا ، فأرسل نور الدين القاضى كمال الدين بن الشهرزورى[١١] بالأسرى والهدايا إلى الخليفة المستضىء بأمر الله ، ومعه كتاب يشرح هذه الكسرة وما فتح من البلاد .

---

(١) «فإننى» فى الباهر ، ص١٦٠ ؛ وفى الروضتين : «إننى» ، ج١ ق٢ ، ص٥٤٤ .

(٢) «مذهب» فى الباهر ، ص١٦٠ ، وفى الروضتين « مذاهب» ، ج١ ق٢ ، ص ٥٤٤ وهى الأصح .

(٣) «للغزاة» فى الروضتين ، ج ١ ق٢ ، ص٥٤٤ .

(٤) «تكون» هنا زائدة ، وتجعل النص مضطربًا ، وقد تركناها حفاظًا على النص .

(٥) «ولد» فى الباهر ، ص١٦١ .

(٦) «الزندقية» فى نسخة ب .

(٧) ورد هذا النص فى : الباهر ، ص١٦٠ ـ ١٦١ ، ثم توقف العينى عن النقل من ابن الأثير وأخذ ينقل من البرق الشامى للعماد الأصفهانى دون ذكر اسمه .

(٨) «إليون» فى نسخة ب .

(٩) أذَنَة : بلد من الثغور قرب المصِّيصة . معجم البلدان ، ج١ ، ص ١٧٩ـ ١٨٠ .

(١٠) المصِّيصة : هى مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس . معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٥٧ـ ٥٥٨ .

(١١) هو أبو الفضل محمد بن أبى محمد عبد الله بن أبى أحمد القاسم الشهرزورى . المتوفى سنة ٥٧٢ هـ/١١٧٦م بدمشق . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٢٤١ـ ٢٤٥ .

ومنها أنه وصل شهاب الدين بن أبى عصرون[١] من بغداد ، ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون[٢] ، وصُرَيْفين[٣] ، وخمسين دينارا من دنانير النثار ، التى نثرت يوم دخل الشهاب إلى بغداد بالبشارة بالخطبة فى مصر ، وزن كل دينار عشرة دنانير .

قال العماد[٤] : وكانت ناحيتا درب هرون وصريفين من أعمال العراق لزنكى - والد نورالدين - قديما من إنعام أمير المؤمنين ، فسأل نور الدين إحياء ذلك الرسم فى حقه ، فأنعم بهما الخليفة عليه ، ووجه بهما . وكان مراده (رحمه الله) أن يستوهب ببغداد على شاطئ دجلة أرضا ، يبنى عليها مدرسة للشافعية ، ويقف عليها الناحيتين ، فعاقه أمر القدر عن قدرته على الأمر .

ومنها أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين الموفق خالد بن القيسرانى ؛ ليقيم له حساب الديار المصرية ؛ وذلك لأنه استقل الهدية التى أرسل بها إليه من خزائن العاضد ، ومقصوده أن يقرر له على الديار المصرية خراج ، يحمل إليه كل سنة .

ذكر ماجريات صلاح الدين

منها أن صلاح الدين بعث إلى نور الدين هدية ، فيها[٥] فيل وحمار عتابى[٦] ، فبعث بها نور الدين إلى بغداد ، وخرج الناس للقائها ، وعجبوا من خلقة الحمار .

وقال العماد : خرج صلاح الدين فى النصف من شوال ، ومعه الفيل والحمارة العتابية ، والذخائر النفيسة التى كان انتخبها من خزائن القصر . قال : ووصل ذلك إلينا

(١) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٥٣-٥٧ .

(٢) درب هارون : من أعمال بغداد .

(٣) صَرِيفون أو صريفين . من أعمال بغداد على ضفة نهر دُجَيْل . وهى قرية كبيرة غناء . انظر : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٨٤-٣٨٧ . وقد ورد فى الروضتين ، ج ١ ق٢ ، ص ٥٤٩ أن درب هارون وصريفين من أعمال بغداد . انظر حاشية (١) .

(٤) إلى هنا توقف العينى عن النقل من ابن أبى طى دون أن يذكر اسم المرجع . . . وقد ذكر هذا فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص ٥٤٩ .

(٥) «منها» فى نسخة ب .

(٦) حمار عتابى ، واحدة من حمر الوحش المخطط ، والعتابى نسبة إلى العتابيين وهى أحد محال بغداد واشتهرت بإنتاج نوع من النسيج المخطط ، ومن ثم وصف هذا النوع من الحمير بأنه عتابى تشبها له بهذا النسيج . راجع
Dozy: Supp. Dict. Ar. vol.1, p. 321.

ونحن بحلب بالميدان الأخضر ، وأهدى نور الدين الفيل إلى ابن أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل ، مع شىء من تحف الثياب والعود والعنبر ، [١٧٥ظ] ثم سَيَّره سيف[١] الدين هدية إلى بغداد للخليفة مع ماسيره معه من التحف اللطيفة ، وسير نور الدين الحمارة إلى بغداد مع هدايا وتحف سنايا .

ومنها أن صلاح الدين نزل فى هذه السنة على الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون ، فبرح بها ، وفرق عنها عُربها ، وخرب عمارتها ، وبعث سراياه على أعمالها[٢] ، وأرسل كتابا بذلك إلى نور الدين .

وقال ابن الأثير وابن شداد : هذه أول غزوة غزاها صلاح الدين من الديار المصرية ، وإنما بدأ ببلاد الكرك والشوبك[٣] ؛ لأنها كانت أقرب إليه ، وكانت فى الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية ، فخرج صلاح الدين فى أثناء السنة ، فحاصرها ، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات[٤] ، وعاد عنها ، فلم يظفر منها بشىء فى تلك الدفعة ، وحصل ثواب القصد .

وفى المرآة[٥] : وفى هذه السنة سار نور الدين إلى الموصل ، وصلى فى الجامع الذى بناه وسط البلد ، وتصدق بمال عظيم .

ولما علم صلاح الدين أن نور الدين قد توجه إلى الموصل ، خرج بعساكره [ومضى إلى الشام][٦] ، فحصر الكرك والشوبك ، ونهب أعمالها ، وكانت جماعة من العرب نازلين بأرض الكرك ؛ ينقلون الأخبار إلى الإفرنج ، وإذا غاروا على البلاد دلوهم على المسلمين ، فنهبهم صلاح الدين ، وقتل البعض ، وأجلى من بقى منهم عن أرض الكرك ، وكتب كتابا إلى نور الدين ؛ يخبره بما جرى من العربان ، وأنه لم[٧] يبق منهم أحد ، فإنهم كانوا

---

(١) انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٢٦ حيث ينقل العينى قول العماد عنه . أما فى سنا البرق الشامى ، ص٦٥ فقد ذكر البندارى أنه «نور الدين» .

(٢) أورد ابن واصل هذه الرواية بتصرف ، انظر : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٢٤ .

(٣) انظر : النوادر السلطانية ، ص٤٥ ؛ الكامل ، ج ١٠ ، ص ٤٩ .

(٤) «وجرى بينه وبين صلاح الدين الفرنج وقعات» كذا فى نسخة ب وهو خطأ .

(٥)انظر : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص١٨٣ .

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص١٨٣ .

(٧) «وان لا يبقى» فى المرآه ، ج ٨ ، ص ١٨٣ .

آفة على المسلمين، ودليلا للكفار على الإسلام. ثم عاد صلاح الدين إلى مصر، وعاد نور الدين من الموصل، وقطع الفرات، وقصد بلاد الروم، وقد ذكرناه[١].

ومنها أن فى جمادى الأولى غزا توران شاه شمس الدولة بن أيوب - أخو صلاح الدين - بلاد النوبة، بأمر صلاح الدين، وفتح حصنا لهم يقال له إبريم[٢]، وهى بلاد عديمة الجدوى، كثيرة البلوى، ثم جمع السبى، وعاد به إلى أسوان، وفرق على أصحابه من الغنائم السودان.

وقال ابن أبى طى الحلبى[٣]: وفى هذه السنة اجتمع السودان والعبيد من بلاد النوبة، وخرجوا فى أمم عظيمة؛ قاصدين ملك بلاد مصر، وساروا إلى أعمال الصعيد، وصمموا على قصد أسوان، وحصارها، ونهب قراها. وكان بها الأمير كنز الدولة[٤]، فأنفذ يعلم الملك الناصر صلاح الدين، وطلب منه نجدة، فأنفذ قطعة من جيشه مع الشجاع البعلبكى، فلما وصل إلى أسوان، وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أخربوا أرضها، فأتبعهم الشجاع وكنز الدولة، فجرت حرب عظيمة؛ قتل فيها من الفريقين عالم عظيم، ورجع الشجاع إلى القاهرة، وأخبر بفعال العبيد، وتمكنهم من بلاد الصعيد، فأنفذ صلاح الدين أخاه شمس الدولة فى عسكر كثيف، فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة، فسار قاصدًا بلادهم، وشحن مراكب كثيرة فى البحر بالرجال والميرة، وأمرها بلحاقه إلى بلاد النوبة[٥]، وسار إليها، ونزل على قلعة إبريم، وافتتحها بعد ثلاثة أيام، وغنم جميع ما فيها من المال والكراع[٦] والميرة، وخلص جماعة من الأسرى، وأسر من وجده فيها،

---

(١) نقل العينى هذا النص بتصرف من مرآة الزمان، ج ٨، ص١٨٤.

(٢) إبريم: بلدة قديمة تقع على الضفة الشرقية للنيل فى منطقة النوبة المصرية التى عرفت فى العصر الرومانى باسم Nabatia، وفى المراجع العربية القديمة باسم مريس. انظر: الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى، للدكتور مصطفى مسعد، ص ٢٧، ص ٩٣، ص ٩٦.

(٣) انظر، الروضتين، ج١ ق٢، ص٥٣١.

(٤) كنز الدولة، لقب منح لأول مرة أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى لأمير أسوان أبى المكارم هبة الله بعد انتصاره على ثورة أبى ركوة وأصبح هذا اللقب وراثيا فى أسرة أبى المكارم بعد اندماجها مع النوبيين. انظر: مفرج الكروب، ج٢، ص١٦ حاشية ٢.

(٥) بلاد النوبة: بلاد واسعة عريضة فى جنوبى مصر بعد أسوان، واسم مدينة النوبة دمقلة ودنقلة ودنكلة، وهى منزل الملك، على ساحل النيل. وأهلها نصارى أهل شدة فى العيش. انظر: معجم البلدان، ج٤، ص٨٢٠- ٨٢١؛ ج٢، ص ٥٩٩، ٦١١؛ مراصد الاطلاع، ج٣، ص١٣٩٤.

(٦) الكراع: لغة طرف الشىء؛ وكراع الأرض طرفها البعيد، والكراع هنا ذخيرة الحرب من الأطعمة والمؤنة، انظر: السلوك، ج١ ق٢، ص٣٧٤، ص٦٢٠ حاشية ٣.

وهرب صاحبها[١] ، وكتب إلى صلاح الدين بذلك ، ثم رجع شمس الدولة إلى أسوان ثم إلى قوص[٢] . وكان فى صحبته أمير يقال له إبراهيم الكردى ، فطلب من شمس الدولة قلعة إبريم ، فأقطعه إياها ، وأنفذ معه جماعة من الأكراد البطالين[٣] ، فلما حصلوا فيها ، تفرقوا فرقا ، وكانوا يشنون الغارة [١٧٦و] على بلاد النوبة حتى برَّحوا بهم ، واكتسبوا أموالا عظيمة ، وكثرت مواشيهم ، واتفق أنهم عدوا إلى جزيرة من بلاد النوبة ، تعرف بجزيرة دندان ، فغرق أميرهم إبراهيم وجماعة من أصحابه ، ورجع من بقى منهم إلى قلعة إبريم ، وأخذوا جميع ما كان فيها ، وأخلوها بعد مقامهم بها سنتين ، فعاد النوبة إليها وملكوها . وأنفذ ملك النوبة رسولا إلى شمس الدولة ، وهو مقيم بقوص ، ومعه كتاب فيه طلب الصلح ، ومع الرسول هدية عبد وجارية ، فكتب له[٤] جواب كتابه ، وأعطاه زوجى نشاب[٥] ، وقال مالك عندى جواب إلا هذا ، وجهز معه رسولا يعرف بمسعود الحلبى ، وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها ، فسار الحلبى مع الرسول حتى وصل دنقلة ، وهى مدينة الملك .

قال مسعود : فوجدت بلاداً ضيقة ، ليس لهم زرع إلا الذرة ، وعندهم نخل صغار ، منه إدامهم ، ووصف ملكهم بأوصاف منها أن قال : خرج علينا يومًا وهو عريان ، قد ركب فرسًا عريًا ، وقد التف فى ثوب أطلس ، وهو أقرع ليس على رأسه شعر . قال : فأتيت فسلمت عليه ، فضحك ، وأمر بى أن تكوى يدى ، فكوى عليها هيئة صليب ، وأمر لى بقدر خمسين رطلا من الدقيق ، فصرفنى[٦] .

---

(١) انظر : الروضتين : جـ١ق٢ ، ص٥٣٢ .

(٢) قوص : من المدن القديمة بصعيد مصر من الجهة الشرقية من النيل ، انظر : رمزى ، القاموس الجغرافى ، ق٢ جـ٤ ، ص ١٨٧- ١٨٩ .

(٣) البطالون من الأجناد والأمراء هم العاطلون من إقطاعات الدولة ووظائفها لكبر السن أو لغضب السلطان أو لغير ذلك . انظر : السلوك ، جـ١ ، ص٧٣ ، حاشية ٤ .

(٤) «له» فى نسخة ب .

(٥) نشاب : هى النبل أو السهام وواحدته نشابة . والنُّشَّابة قوم يرمون بالنشاب . وقد ذكر الحسين بن عبد الله فى آثار الأول وأخبار الدول ، صفحة ١٦٠ أنواع النشاب وما يمتاز به كل نوع على الآخر . والنشاب صحيحة الاعتدال والاستداره . انظر : النوادر السلطانية ، ص٦٣ ، حاشية ١ .

(٦) إلى هنا توقف العينى عن النقل من الروضتين جـ ١ ق٢ ، ص٥٣٣ .

ومنها أن صلاح الدين (رحمه الله) بعث سرية صحبة قراقوش[1] - مملوك تقى الدين عمر بن شاهنشاه[2] - إلى بلاد إفريقية فملكوا طائفة كبيرة منها ، فمن ذلك مدينة طرابلس المغرب وعدة مدن معها .

وفى تاريخ الدولتين[3] : كان مع قراقوش طائفة من الترك ، وجماعة من العرب ، فاستولوا على طرابلس ، وكثير من بلاد إفريقية ما خلا المهدية[4] ، وسفاقس[5] ، وقفصة[6] وتونس .

ذكر الأمور المزعجة

منها أن فى صفر زاد الإرجاف ببغداد بمجيء العسكر من باب همدان ، فغلت الأسعار ، وأخذ الخليفة فى التجنيد ، وعمارة السور ، وجمع الغلات ، وعرض العسكر[7] .

ومنها أنه وقع حريق ببغداد ، وتغير ماء دجلة باصفرار ، وثخن الماء ، فبقى على هذا مدة[8] .

ومنها أنه فى شعبان مرت ريح سوداء أظلمت منها الدنيا .

---

(١) قراقوش التقوى : هو غلام تقى الدين عمر بن شاهنشاه ، وهو غير بهاء الدين قراقوش الأسدى . وقد قام قراقوش التقوى بعدة غزوات للمغرب تعددت فى السنوات ٥٧١هـ ، ٥٧٢هـ ، ٥٧٥هـ ، ٥٧٦هـ ، ٥٧٨هـ ، ٥٨٢هـ ، لأن تقى الدين عمر بن شاهنشاه فكر فى الخروج بنفسه إلى المغرب أكثر من مرة لإقامة ملك له هناك . انظر : الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص ٥٤٨ ؛ مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٢٣٦ ، حاشية١ ، حاشية٤ .

(٢) تقى الدين عمر : أحد أبناء البيت الأيوبى ، كان طموحًا غيورًا ، وقد رأى تورانشاه يستولى لنفسه على اليمن ، فطمع تقى الدين فى تأسيس ملك له بالمغرب ، وكان صلاح الدين يريد إرضاءه ، لذا منحه مدينة عزاز إقطاعًا له سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م وجعله نائبًا عنه فى مصر سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م ، انظر : شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص٢٨٩-٢٩٠ ؛ الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص ٥٤٨ ، حاشية ٤ .

(٣) انظر : الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص ٥٤٨ .

(٤) المهدية : أنشأها عبيد الله المهدى الفاطمى بقرب القيروان لتكون عاصمة لدولته وبدأ انشاءها سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م وانتقل إليها ٣٠٨هـ/٩٢٠م . انظر : معجم البلدان جـ٤ ، ص٦٩٣ ، ص ٦٩٦ .

(٥) سفاقس : على مقربة من المهدية وسوس وقابس على ضفة الساحل فى وسط غابة للزيتون . انظر : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٩٦ .

(٦) قفصة : فى طرف مقاطعة إفريقيا من ناحية المغرب فى أرض سبخة . انظر : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص١٥١ .

(٧) إلى هنا توقف العينى عن النقل من الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص ٥٤٨ .

(٨) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من الكامل ، جـ١٠ ، ص٥٠ .

ومنها أنه خرج ترجم الإيوانى[١] فى جمع من التركمان فى حياة أيلدكز، وتطرق إلى أعمال همدان، ونهب الدينور[٢]، وسمع أيلدكز الخبر وهو بنقجوان[٣]، وتبعه بمن خف من عسكره، فهرب ترجم إلى أن قارب بغداد، وهو يتبعه، وظن الخليفة أنه حيلة ليصل إلى بغداد فجأة، فشرع الخليفة فى جمع العساكر وتحصين السور، وأرسل إلى أيلدكز خلعًا فأرسل إليه يعتذر، ويذكر أنه لم يقصد إلا كف هؤلاء، ولم يتعد قنطرة خانقين[٤]، وعاد راجعًا[٥].

ذكر بقية الحوادث

منها أن فى أيام إرجاف أهل بغداد عمل الخليفة مهما عظيما؛ لختان أولاده السادة، وفرق خلعًا كثيرة، وعمل من الطعام ما لا يحد، فذكر أنه ذبح ثلاث آلاف دجاجة وألف رأس من الغنم، وعملت إحدى وعشرون ألف خشكنانكة[٦] من ستين كارة من سميد[٧].

وفى المرآة[٨]: [١٧٦ظ] ذبح من الغنم ألف رأس، وخمسمائة بقرة، وخمس آلاف دجاجة، وألف صحن حلواء، وعشرين ألف قطعة خشكنانكة[٨]، وخلع على جميع أرباب الدولة، والقضاة، والعدول، والعلماء، والفقهاء، والصوفية، وغيرهم.

---

(١) «الايوانى» فى الكامل، ج١٠، ص٥٠.

(٢) الدينور: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين بينها وبين همذان نيف وعشرون فرسخًا. والفرسخ ثلاثة أميال. انظر: معجم البلدان، ج١، ص٣٨، ج٢، ص٧١٤.

(٣) نقجوان: بلد من نواحى أرّان وهو نخجوان. انظر: معجم البلدان، جـ ٤، ص٨٠٣.

(٤) خانقين: بلدة من نواحى السواد فى طريق همذان من بغداد وبها قنطرة عظيمة على واديها. انظر: معجم البلدان، ج٢، ص٣٩٣.

(٥) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من الكامل، ج١٠، ص٥٠.

(٦) خشتنانك أو خشكنانج، كلمة من أصل فارسى وهو نوع من الطعام، عَرّفه دوزى بأنه نوع من الفطير المصنوع من الزبد والسكر والجوز أو الفستق ويكون على هيئة الهلال. انظر: الجواليقى: المعرب، ص١٣٤؛ الجاحظ: البخلاء، تحقيق د. طه الحاجرى، ص١١٠، ٣٣٣؛ مفرج الكروب، ج١، ص١٠٢، حاشية ٣؛
Dozy: Supp. Dict. Ar.T.1,P.373

(٧) ورد هذا الحدث فى المنتظم، ج١٨، ص ١٩٩- ٢٠٠.

(٨) انظر: مرآة الزمان، ج٨، ص١٨٣.

ومنها أنه وصل الإمام الكبير الفقيه قطب الدين النيسابورى[١] ، وهو فقيه عصره ونسيج وحده ، فسر به نور الدين ، وأنزله بحلب بمدرسته بباب العراق ، ثم أرسله إلى دمشق ، فدرس بزاوية الجامع الغربية ، المعروفة بالشيخ نصر المقدسى ، ونزل بمدرسة الجاروق[٢] ، وشرع نور الدين فى إنشاء مدرسة كبيرة للشافعية ، فأدركه الأجل قبل ذلك[٣] . قال أبو شامة[٤] : هى العادلية[٥] الكبيرة التى عمرها بعده الملك العادل أبو بكر ابن أيوب أخو صلاح الدين .

ومنها أن أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن[٦] سير عساكره ، وسار من إشبيلية إلى الغزو ، فقصد بلاد الإفرنج ، ونزل على مدينة رُنْدَة - وهى بالقرب من طليطلة شرقا منها - وحصرها ، فاجتمعت الفرنج على ابن ألفونش - ملك طليطلة - فى جمع كثير ، فلم يقدموا على لقاء المسلمين ، واتفق أن الغلاء اشتد على المسلمين ، وعدمت الأقوات عندهم ، وهم فى جمع كثير ، فاضطروا إلى مفارقة بلاد الإفرنج ، فعادوا إلى أشبيلية ، وأقام أبو يعقوب بها إلى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، وهو فى ذلك يجهز العساكر ، ويسيرها إلى بلاد الإفرنج فى كل وقت . وكان فيها عدة وقائع وغزوات ، وظهر فيها من العرب من الشجاعة ما لا يوصف ، حتى صار الفارس منهم يبرز بين الصفين ، ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج ، فلا يبرز إليه أحد[٧] .

---

(١) القطب النيسابورى : هو أبو المعالى مسعود بن محمد بن مسعود الطريثيثى ، نسبة إلى طرثيث بنيسابور . ولد سنة ٥٠٥هـ/١١١١م ، وتوفى سنة ٥٧٨هـ/١١١٢م بدمشق ، انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص ١٩٦ ؛ الدارس ، ج١ ، ص١٨٣ـ ١٨٤ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٦٣ .

(٢) مدرسة الجاروق : هى الجاروخية ، وكانت داخل بابى الفرج والفراديس شمال الجامع الأموى ، بناها سيف الدين جاروخ التركمانى . انظر : الدارس ، ج١ ، ص٢٢٥ وما بعدها .

(٣) انظر هذا الخبر فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٤٥ ؛ مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص١٨٤ .

(٤) انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٤٥ .

(٥) المدرسة العادلية : هى المدرسة التى أنشأها العادل داخل دمشق شمالى الجامع . انظر : الدارس ، ج ٣ ، ص١٥٩ وما بعدها ، انظر أيضا : خطط الشام ، ج ٦ ، ص٨٥ ـ ٨٦ .

(٦) أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن : صاحب المغرب ، دخل الأندلس سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م ، ونزل أشبيلية ، وتوفى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م ، انظر : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٣٠-١٣٧ .

(٧) ورد هذا النص بتصرف فى ، الكامل ، ج١٠ ، ص٤٧ ـ ٤٨ .

ومنها أن شملة التركمانى[1] نهب نهاوند[2] ، وكان فى أيام أيلدكز لا يزال يطلب نهاوند منه ؛ لكونها مجاورة لبلاده ، ويبذل له فيها الأموال ، وهو لا يجيبه إلى ذلك ، فلما مات أيلدكز ، وملك بعده ولده محمد البهلوان[3] ، سار إلى أذربيجان[4] لإصلاحها ، فَنَفَّذَ شملة ابن أخيه ابن سُنكاه ؛ لأخذ نهاوند ، وبلغ أهل البلد الخبر ، فتحصنوا ، وحصرهم ، فقاتلهم وقاتلوه ، فلما علم أنه لا طاقة له بهم ، رجع إلى تُسْتر[5] - وهى قريبة منها - وأرسل أهل نهاوند إلى البهلوان ؛ يطلبون منه نجدة ، فتأخرت عنهم ، ولما اطمأنوا ، خرج ابن سنكاه من تستر فى خمسمائة فارس ، وسار يومًا وليلة ، فقطع أربعين فرسخًا ، حتى وصل إلى نهاوند ، وضرب البوق ، وأظهر أنه من أصحاب البهلوان ؛ لأنه جاءهم من ناحيته ، ففتح أهل البلد الأبواب ، فدخلها ، وقبض على القاضى والرؤساء فصلبهم ونهب البلد ، وقصد نحو ما سبذان[6] ونحو العراق .

وفيها[7] . . .

وفيها حج بالناس[8] . . .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أحمد بن سالم بن أحمد أبو العباس الشحمى[9] ؛ قرأ القرآن ، وأقرأ ، وصنف كتابا فى المتشابه كبيرا ، وسمع من المروقى وغيره ، وتوفى فى المحرم من هذه السنة ،

---

(١) شملة التركمانى تملك بلاد فارس وكان يخطب للخليفة .وهو صاحب خوزستان وبنى بها عدة قصور وكانت وفاته بسبب صراعه مع شمس الدين البهلوان بن أيلدكز صاحب عراق العجم ، وتوفى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م . انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص٧١ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٣٧ .

(٢) نهاوند : مدينة عظيمة فى قبلة همذان بينهما ثلاثة أيام . معجم البلدان ، ج٤ ، ٨٢٧ - ٨٢٩ .

(٣) محمد البهلوان بن أيلدكز : صاحب أذربيجان وعراق العجم . توفى سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م ، انظر : شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص ٢٦٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١١ .

(٤) أذربيجان : يحدها من الشرق بَرْذَعة إلى أرزنجان من الغرب ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم . وأشهر مدنها بلاد تبريز . معجم البلدان : ج١ ، ص١٧١ - ١٧٤ .

(٥) تُسْتَر : أعظم مدينة بخوزستان اليوم ، وهو تعريب شوشتر . معجم البلدان : ج١ ، ص٨٤٧ - ٨٥٠ .

(٦) ماسبذان : من بلاد عراق العجم أى من بلاد الجبل وهى عاصمة السيروان . انظر : تقويم البلدان ، ص٤١٤ ؛ انظر أيضا : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٩٣ .

(٧) بياض بمقدار سطر تقريبًا .

(٨) بياض بمقدار سطر .

(٩) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠١ .

ودفن فى مقبرة الفيل[١] من باب الأزج[٢] .

أبو المعالى الكتبى[٣] ؛ كان فاضلا ، يقول الشعر المليح ، والنثر الجيد ، وله رسائل ومدائح ، وكان من الذكاء على غاية ، [١٧٧و] وكان دلال الكتب «ببغداد»[٤] ، وتوفى فى صفر ، ودفن بباب حرب[٥] .

وفى المرآة : أبو المعالى الكتبى الخطيرى ، والخطيرة بالطاء القائمة : قرية بدُجْل[٦] . واسمه سعد بن على بن [القسم][٧] بن على ، صحب أبا القاسم على بن أفلح الشاعر[٨] مدة ، واشتغل بالأدب حتى فرغ منه ، وقال الشعر ، وتفقه على مذهب أبى حنيفة (رضي الله عنه) وغلبت عليه الفكرة ، فأحب الخلوة ، فخرج على التجريد سائحا ، ورأى عجائب ، وجال[٩] فى أقطار الشام وغيره ، وحج ، وعاد إلى بغداد ، وصنف الكتب : [لمح الملح فى الأدب نظمًا ونثرًا][١٠] ، و[زينة الدهر فى عصرة أهل العصر][١١] ، وغير ذلك[١٢] .

وذكره العماد فى الخريدة ، وسجع له ، وقال : أنشدنى أبياتا فى وصف العذار أرق من الاعتذار ، وذكر مقطعات من شعره ، وكلامًا فاحشًا يدل على أنه كان خليعًا[١٣] .

---

(١) مقبرة الفيل : تقع تجاه باب الخاصة ، أحد أبواب بغداد . انظر : ابن الساعى : الجامع المختصر ، جـ ٩ ، ص٢٠٣ .

(٢) باب الأزج : من أبواب بغداد ، على شاطئ دجلة . والأزج من قرى بغداد على طريق خراسان . انظر : الباهر ، ص١٣ ؛ مراصد الاطلاع ، ج١ ، ص٤ .

(٣) انظر : المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠١ .

(٤) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٥) باب حرب : أحد أبواب بغداد ، وينسب إلى حرب بن عبد الله أحد أصحاب أبى جعفر المنصور ، وينسب إلى حرب المحلة المعروفة بالحربية ، وبها قبر أحمد بن حنبل . انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٦٤ ، ٦٥ .

(٦) «دحيل» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من معجم البلدان ج٢ ، ص٥٥٧ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص ١٨٦ .

(٧) «القاسم» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من المرآة ، ج٨ ، ص ١٨٦ .

(٨) هو جمال الملك أبو القاسم على بن أفلح العبسى الشاعر ، وقد اختلف فى تاريخ وفاته فابن الجوزى ذكره فى وفيات سنة ٥٣٣هـ/١١٣٩م ؛ أما ابن خلكان فقد ذكر عدة تواريخ لوفاته هى ٥٠٥هـ/١١١١م ، ٥٠٦هـ/١١١٢م ، ٥٣٧هـ/١١٤٢م . انظر : المنتظم ج١٨ ، ص٥٣٣ ؛ وفيات الاعيان ، ج٣ ، ص ٣٨٩ ، ٣٩١ .

(٩) «جبال» فى نسخة ب .

(١٠) «لمح اللمح فى الألغاز» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من البغدادى : هدية العارفين ، ج١ ، ص٣٨٤ .

(١١) «زينة الدهر فى شعر العصر» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من هدية العارفين ، ج١ ، ص٣٨٤ .

(١٢) إلى هنا توقف العينى عن النقل من المرآة ، ج ٨ ، ص ٨٦ .

(١٣) انظر شعره فى الخريدة ، قسم شعراء الشام ، جـ١ ، ص٨٨ - ٨٩ ، ص١٢٣ ، ج٢ ، ص٢٥٤ ، ٢٦٧ ، ص٤٥٣ ؛ مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٨٦ .

أبو الفتح بن الربى[١] ؛ كان متفقها على مذهب الإمام أبى حنيفة (رضي الله عنه) وكان عاملا على ديوان المقاطعات ، فتوفى فى غرة ذى الحجة منها ، ودفن بباب أبرز[٢] .

وقال ابن الجوزى[٣] : وكانت له امرأة يهودية ، وابن أخ مسلم ، فكتب جميع ما له لليهودية ، وترك ابن أخيه المسلم ، فاجتلب من الناس ذمًا كثيرًا .

أرسلان شاه صاحب خوارزم[٤] ؛ مات فى هذه السنة ، وملك بعده ولده سلطان شاه ، وكان قد عاد من قتال الخطا مريضا ، فاتفقت وفاته . [ومَلَكَ بعده][٥] سلطان شاه محمود ، وكان صغيرا ، ودبرت والدته المملكة والعساكر ، وكان ولده الكبير علاء الدين تكش ـ ابن أرسلان شاه ـ مقيمًا فى الجند ، قد أقطعه أبوه إياها ، فلما بلغه موت أبيه وتولية أخيه الصغير ، أنف من ذلك ، وقصد ملك الخطا ، واستمده على أخيه ، وأطمعه فى الأموال وذخائر والده ، فسير معه جيشًا كثيفًا مقدمهم قوما ، فساروا حتى قاربوا خوارزم ، فلما قربوا منها ، خرج سلطان شاه وأمه ولحقا بالمؤيد[٦] صاحب نيسابور ، ومَلَكَ تكش خوارزم بغير قتال . ولما وصل سلطان شاه إلى المؤيد ، أهدى إليه هدية جليلة ، ووعده أموال خوارزم ، فاغتر بقوله ، وجمع جيوشه ، وساروا إلى خوارزم ، وكان تكش قد أعد عسكره بالقرب منها ، فلما تراءى الجمعان ، انهزم عسكر المؤيد ، وأخذ أسيرا ، وجىء به إلى خوارزم شاه تكش ، وهرب سلطان شاه ، وأُخذت أمه ، فقتلها تكش ، وعاد إلى خوارزم . ولما عاد المنهزمون إلى نيسابور ، ملّكوا ابنه طوغان شاه أبا بكر بن المؤيد ، فلما أخبر به سلطان شاه ، سار إلى غياث الدين ملك الغورية ، فأكرمه ، وأحسن نزله . وأما علاء الدين تكش فإنه لما ثبت قدمه بخوارزم ، اتصلت به رسل الخطا بالاقتراحات والتحكم كعادتهم ، فأخذته حمية الملك والدين ، وقتل أحد أقارب الملك . وكان ورد

---

(١) انظر : المنتظم ، ج١٨ ، ص ٢٠١ .

(٢) باب أبرز : قريبًا من المدرسة التاجية ، التى بزاوية الجامع الأموى الشرقية . انظر : الجامع المختصر ، جـ ٩ ، ص٦٤ ؛ الدارس ، ج١ ، ص٤٨٣ .

(٣) المنتظم ، ج١٨ ، ص ٢٠١ .

(٤) أرسلان خوارزم شاه بن أنس خوارزم شاه بن محمد ، توفى سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م . الشذرات ، ج٤ ، ص٢٢٦ .

(٥) «واسم» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين هو الصحيح . انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص٣٩ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص٥٣ .

(٦) المؤيد أى به بن عبد الله السنجرى ، توفى سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م . انظر : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٢٧ . وقد ذكر صاحب المختصر الاسم كالآتى طوغان شاه بن المؤيد «أى به» انظر : المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص٥٣ .

إليه ومعه جماعة أرسله ملكهم فى مطالبته ، وأمر أعيان خوارزم فقتل كل واحد منهم رجلا من الخطا الذين صحبته ، فلم يسلم منهم أحد ، ونبذوا إلى ملك الخطا عهده . وبلغ ذلك سلطان شاه ، فسار إلى ملك الخطا ، واغتنم الفرصة بهذه الحال ، فاستنجده على أخيه تكش . وقال له : إن أهل خوارزم يريدونه ، ويختارون ملكه عليهم ، ولو رأوه لسلموها إليه ، فسير معه جيشًا كبيرًا من الخطا مع قوما ، انضموا إليه ، فوصلوا إلى خوارزم فحصروها ، فأمر علاء الدين تكش بإجراء ماء جيحون عليهم ، فكادوا يغرقون ، فرحلوا ، ولم يبلغوا منها غرضًا ، وندموا على ما فعلوا ، ولاموا سلطان شاه ، وعنفوه ، فقال لمقدمهم المسمى قوما : لو أرسلت معى جيشًا إلى مرو لاستخلصتها من يد دينار الغزى ؛ فإنه استولى عليها منذ كانت فتنة الغزُ إلى الآن[١] فسير معه جيشاً ، فنزل على سرخس[٢] ، على غرة من أهلها ، وهجم على الغز ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وألقى دينار الغزى - ملكها - نفسه فى خندق القلعة ، فأُخرج منه ، ودخل القلعة ، وتحصن بها .

وسار سلطان شاه إلى مرو فملكها ، وعاد الخطا إلى ماوراء النهر ، وجعل سلطان شاه دأبه قتال الغز ، والغزو[٣] فيهم ، وانتهابهم . فلما عجز دينار عن مقاومته أرسل إلى نيسابور إلى طغان شاه بن المؤيد ، يقول له أن يرسل إليه من يسلم له قلعة سرخس ، فأرسل إليه جيشاً مع أمير اسمه قراقوش ، فسلم إليه دينار القلعة ، ولحق بطغان شاه ، فجمع جيوشه ، وقصد سرخس ، فلما التقى هو وسلطان شاه فرَّ طغان شاه إلى نيسابور ، فأخلى قراقوش قلعة سرخس ، ولحق بصاحبه ، وملك سلطان شاه قلعة سرخس ، ثم أخذ طوس[٤] [والزَّام][٥] ، وضيق الأمر على طغان شاه بعلو همته واجتهاده وقلة قراره .

وكان طغان شاه يحب الدعة ومعاقرة الخمر ، فلم تزل الحال كذلك إلى أن مات طغان شاه سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة[٦] .

---

(١) وردت هذه الرواية بتقديم وتأخير فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٩ .

(٢) سرخس : مدينة قديمة من نواحى خراسان بين نيسابور ومرو . انظر : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧١ .

(٣) «القتل» فى الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٩ .

(٤) طوس : مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٥٦٠ -٥٦٣ .

(٥) «الرَّام» فى الأصل .والمثبت من معجم البلدان ، ج٢ ، ص٩٠٩ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص٤٠ وهى إحدى كور نيسابور المشهورة .

(٦) إلى هنا توقف العينى عن النقل من الكامل ، ج١٠ ، ص٤٠ .

أتابك شمس الدين أيلدكز[١] صاحب همذان وغيرها ، مات فى هذا السنة بهمذان ، وملك بعده ابنه محمد بن البهلوان ، ولم يختلف عليه أحد . وكان أيلدكز هذا مملوكاً للكمال وزير السلطان محمود ، ولما مات الكمال صار أيلدكز إلى السلطان محمود ، واستمر بأصفهان ، ولم يحضر إلى السلطان مسعود[٢] عندما ملك ولا إلى غيره ، ثم ملك أذربيجان وهمذان وغيرهما . وتزوج امرأة السلطان طغرل[٣] .

وكان عسكره خمسين ألف فارس سوى الأتباع ، واتسع ملكه ، وامتد من باب تفليس[٤] إلى مكران[٥] . وكان أيلدكز عاقلا ، حسن السيرة ، يجلس بنفسه للرعية ، ويسمع شكاويهم ، وينصف بعضهم من بعض[٦] .

وفى تاريخ المؤيد[٧] : وكان أيلدكز يخطب فى بلاده بالسلطنة للسلطان أرسلان بن طغرل ، ولم يكن لأرسلان معه حكم .

يزْدن التركى[٨] ؛ كان من أكابر أمراء بغداد ، المتحكمين فى الدولة ، ولكنه كان رافضياً خبيثاً متعصباً للروافض ، وكانوا فى خفارته وجاهه حتى أراح الله المسلمين منه فى هذه السنة ، فإنه مات فى ذى الحجة من هذه السنة ، ودفن بداره ، ثم نقل إلى مقابر قريش . وحين مات فرح أهل السنة بموته ، وغضبت الشيعة من ذلك ، فقام بسبب ذلك فتنة .

---

(١) انظر ترجمته فى شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٢٦ .

(٢) السلطان مسعود : هو مسعود بن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى . انظر ترجمته فى الباهر ، ص٤٣ ومايليها .

(٣) وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٢٠٨ .

(٤) تفليس : بفتح أوله أو كسره ، بلد بأرمينية والبعض يقول بأرّان . وهى قصبة ناحية جُرزان قرب باب الأبواب ، وقد فتحها المسلمون فى خلافة عثمان بن عفان .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٥٧ - ٨٥٩ .

(٥) مكران : بالضم ثم السكون ولاية واسعة فى بلاد الهند تشتمل على مدينة وقرى غربها كرمان ، وشمالها سجستان ، والبحر جنوبها . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٩١٤ ؛ تقويم البلدان ، ص٢٢ ، ص٣٣٢ ، ص٣٣٨ ؛ مراصد الاطلاع ، ج٣ ، ص١٣٠٢ .

(٦) إلى هنا توقف العينى عن النقل من الكامل ، ج١٠ ، ص٤٦ - ٤٧ .

(٧) المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص٥٣ .

(٨) «يزدن» فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٧٢ ، وهو الحسن بن صافى بن يزدن التركى . انظر : المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠١ .

وذكر ابن الساعى[١] فى [١٧٨و] تاريخه أنه كان فى صباه شاباً حسنًا مليحًا . قال : ولشيخنا أبى اليمن الكندى فيه وقد رمدت عينه :

بِكلِّ صَبَاحٍ لِى وَكُلِّ عَشِيَّةٍ وُقُوفُ عَلَى أَبْوَابِكُم وَسَلاَمُ
وَقَدْ قِيلَ لِى يَشْكُو سِقَامًا بَعَيْنِهِ فَهَا نَحْنُ مِنْهَا نَشْتَكِى وَنُضَامُ

الأمير نجم الدين أيوب ؛ [٢] والد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، والكلام فيه على أنواع :

الأول فى ترجمته : هو أبو الشكر أيوب بن شاذى ، والد الملوك بنى أيوب الكردى الزرْزَارِى ، وهم خيار الأكراد [٣] من بلاد دُوَيْن بشمال بلاد أذربيجان ممايلى الكرج . ومنهم من يقول «أيوب بن شاذى بن مروان» [٤] ، ومنهم من يقول أيوب بن شاذى بن مروان بن يعقوب ، وأغرب بعضهم ، فزعم أنهم من سلالة مروان بن محمد الجعدى ، آخر خلفاء بنى أمية . وهذا ليس بصحيح ، والذى عليه الجمهور أنه لايعرف بعد شاذى أحد من نسبهم ، والذى نسب إلى بنى أمية ادعاء هو الملك أبو الفداء إسماعيل بن طغتكين بن أيوب بن شاذى ، ويعرف بابن سيف الإسلام ، وقد ملك اليمن بعد أبيه ، فتعاظم فى نفسه ، وادعى الخلافة ، وتلقب بالإمام الهادى بنور الله ، المعز لدين الله ، أمير المؤمنين ، وزعم أنه أموى ، ومدحه الشعراء ، وأطروه ، ولهجوا بذلك ، وقال هو فى ذلك أيضاً :

وَإِنِّى[أَنَا] [٥] الهَادِى الخَلِيفَةَ وَالَّذِى أَدُوسُ رِقَابَ الغُلْبِ الضُّمَّرِ الجُرْدِ
وَلاَبُدَّ مِنْ بَغْدَادَ أَطْوِى رُبُوعَهَا وَأَنْشُرها نَشْرَ السَّمَاسِرَةِ البُرْدِ

---

(١) ورد النص بتصرف فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٧٢- ٢٧٣ .

(٢) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢٥٥-٢٦١ ، ترجمة رقم ١٠٧ ؛ النوادر السلطانية ، ص٤٦ ؛ الشذرات ، ج٤ ، ص٢٢٦ - ٢٢٧ ، كما أن هناك ترجمة كاملة لأسرة شاذى . انظر ، التاريخ الباهر ، ص١١٩ ، ١٢٠ .

(٣) ذكر ابن الأثير أنه من الأكراد الروادية وهم أشرف الأكراد . انظر : التاريخ الباهر ، ص١١٩ .

(٤) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٥) «وأنا» في نسختى المخطوطة أ ، ب . والصواب ما أثبتناه .

وأَنْصُبُ أَعْـلاَمِى عَلَى شُـرفـاتِها ... وَأُحْيِى بِهَا مَاكَانَ أَسَّسَهُ جَدِّى

وَيُخْطَبُ لِى فِيهَا عَلَى كُل مِنْبَرٍ ... وَأُظْهِرُ دِينَ الَّلهِ فِى الغَوْرِ وَالنَّجْدِ[١]

وهذا الادعاء ليس بصحيح ، ولا له أصل يعتمد عليه ، ولا مستند يستند إليه .

قال ابن أبى طى الحلبى : لا يعرف فى نسب نجم الدين أكثر من والده شاذى . وحدثنى أبى قال : كان تقى الدين عمر يُزيد فيقول : شاذى بن مروان ، وسمعت أنا من يقول : شاذى بن مروان بن يعقوب [٢] . قال : وأجمع الجماعة من آل أيوب أن دعوى ابن سيف الإسلام أنهم من بنى مروان بن محمد الجعدى ـ آخر خلفاء بنى أمية ـ كذب ، وأن جميع آل أيوب لايعرفون جدًّا فوق شاذى[٣] .

قال : وكذلك أخبرنى السلطان الملك [الناصر][٤] قال : وصحة دليل ذلك أنى وقفت على كتاب وقف رباط النجمى بدمشق [٥] ، ولم يزد فيه على نجم الدين أبى سعيد أيوب ابن شاذى العادلى[٦] . والمقصود أن الأمير نجم الدين والأمير أسد الدين شيركوه كانا أخوين ، وكان نجم الدين أسن من أسد الدين ، وُلدا بأرض الموصل [٧] .

وقال ابن أبى طى «الحلبى»[٨] فى تاريخه الكبير : كان مولد نجم الدين أيوب ببلد شَبَخْتان ، وقيل : إنه ولد بجبل جور[٩] ، وربى فى الموصل ، ومولد أبيه شاذى فى بلد دوين .

الثانى : فى بيان ابتداء أمره ، وانتسابه واتصاله بالدولة : وهو أن أباه شاذى كان من أعيان أهل دوين ، وكان له صاحب يقال له جمال الدولة مجاهد الدين[١٧٨ظ]

---

(١) وردت هذه الأبيات فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٣٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩١ .

(٢) ورد النص فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٣٤ .

(٣) ورد النص بتصرف فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٤ ـ ٥٣٥ .

(٤) « الظاهر» فى الأصل ، والتصحيح من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٠ .

(٥) رباط النجمى : ناحية باب البريد ، أنشأه نجم الدين أيوب .انظر : خطط الشام ، ج٦ ، ص١٣٧ .

(٦) ورد النص فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٣٥ .

(٧) انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٧١ .

(٨) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٩)جور : كورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحى أرمينيا وفيها قلاع وقرى وأهلها نصارى . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٢٠ .

بَهْرُوز[١] ، وكان من أظرف الناس ، وألطفهم ، وكان بينه وبين شاذى أخوة أكيدة ، فجرت لبهروز قضية فى دوين ، فخرج منها حياءً . وذلك أنه اتهم بزوجة بعض الأمراء بدوين ، فأخذه صاحبها فخصاه . فلما جرى له ذلك ، لم يقدر على الإقامة ، فخرج وقصد خدمة أحد الملوك السلجوقية ، وهو السلطان مسعود بن غياث الدين محمد بن ملكشاه[٢] ، واتصل باللالا[٣] الذى لأولاده ، فوجده لطيفاً كافياً فى جميع الأمور ، فتقدم عنده وفوض إليه أموره ، وجعله يركب مع أولاد السلطان مسعود إذا كان له شغل . فرآه السلطان يوماً مع أولاده فأنكر علي اللالا ، فقال : إنه خادم ، وأثنى عليه وشكر دينه ومعرفته ، ثم صار يسيره إلى السلطان فى الأشغال ، فخف على قلبه ، فلعب معه الشطرنج والنرد[٤] ، فحظى عنده ، واتفق موت اللالا فجعله السلطان مكانه ، وسلم إليه أولاده ، وأرصده لمهماته ، وسار ذكره فى تلك النواحى . فسير إلى شاذى يستدعيه من بلده ؛ ليشاهد ماصار إليه من النعمة والدولة ، وليقاسمه ماخوله الله تعالى ، وليعلم أنه مانسيه . فلما وصل إليه بالغ فى إكرامه والإنعام عليه ، واتفق أن السلطان رأى أن يسير المجاهد المذكور إلى بغداد والياً ونائباً عنه بها ، وكذا كانت عادة الملوك السلجوقية فى بغداد ، يُسيرون إليها النواب ، فاستصحب معه شاذى ، فسار هو وأولاده صحبته ، وأعطى السلطان لبهروز قلعة تكريت[٥] ، فلم يجد من يثق إليه فى أمرها سوى شاذى ، فأرسله إليها ، فمضى وأقام بها مدة ، وتوفى بها ، فولى مكانه نجم الدين أيوب ، فنهض فى أمرها ، وشكره بهروز وأحسن إليه . وكان أكبر سناً من أخيه أسد الدين شيركوه . ثم أن شيركوه رأى يوماً امرأه تبكى

---

(١) جمال الدولة مجاهد الدين بهروز : كان خادماً رومياً تولى شحنة بالعراق من جهة السلطان مسعود بن غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقى ، وكانت تكريت إقطاعاً له ، وبنى فى بغداد رباطاً وقف عليه وتوفى سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م وبهروز لفظ أعجمى معناه جيد .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٤١ـ ١٤٢ .

(٢) أبو الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى ، الملقب غياث الدين ، أحد ملوك السلجوقية المشاهير ، رباه بالموصل الأمير مودود ثم آق سنقر البرسقى ، توفى سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢م .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٢٠٠ـ ٢٠٢ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص١٤٥ .

(٣) اللا لا : لفظ فارسى ، معناه هنا الشخص المكلف بالعناية بالأطفال ـ أى مربى الطفل . انظر : السلوك ، ج١ ق٢ ، ص٤١٨ ، هامش(٣) .

(٤) النرد : شىء يلعب به ، وهو لفظ فارسى معرب «نردشير» انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة «نرد» .

(٥) تكريت : بفتح التاء وكسرها غربى دجلة بين بغداد والموصل وهى إلى بغداد أقرب . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٦١ .

فقال[١] لها : مايبكيك ؟ فقالت : أنا داخلة من باب القلعة ، فتعرض إلىَّ الاسفهسلار[٢] ، فقام شيركوه ، وتناول حربة الاسفهسلار ، وضربه بها فقتله ، فمسكه أخوه نجم الدين واعتقله . وعرف بهروز بذلك ، فوصل جوابه : «لأبيكما علىَّ حقٌ ، وبينى وبينه مودة متأكدة ، مايمكنني أن أكافئكما بسيئة ، ولكنى أشتهى أن تتركا خدمتى ، وتخرجا من بلدى ، وتطلبا رزقكما» . فلما وقفا عليه ، خرجا . ووصلا إلى الموصل ، فأحسن إليهما الأتابك عماد الدين زنكى ، والد نور الدين محمود بن زنكى ، وأقطعهما إقطاعاً حسناً . ثم لما ملك الأتابك قلعة بعلبك كما ذكرناه ، استخلف بها نجم الدين أيوب ، ثم بعد مدة انتقل إلى دمشق ، وأقام فى خدمة نور الدين محمود بن زنكى ، ثم لم يزل معه فى السراء والضراء والحضر والسفر حتى صار أكبر الأمراء عنده ، فصار لا يقطع أمرًا دونه ، ثم أن نور الدين أرسل أخاه شيركوه إلى الديار المصرية ثلاث مرات كما ذكرناه .

وكان معه فى كل مرة ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم لما جرى ماجرى من أمور المصريين ، وغلب عليهم صلاح الدين يوسف ، وصار أمر الديار المصرية إليه كما ذكرناه مفصلاً ، طلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه نجم الدين ، فأرسله إليه مع أهله وحاشيته كما ذكرنا .

وقال العماد الكاتب[٣] : لما دخل فصل النيروز[٤] ، استأذن الأمير نجم الدين أيوب نور الدين فى قصده ولده صلاح الدين ، والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته . [١٧٩و] وخيم بظاهر البلد ، ثم سار ، فوصل إلى مصر فى السابع والعشرين من رجب من سنة خمس وستين وخمسمائة ، وركب العاضد خليفة مصر لاستقباله . ووصف ذلك عمارة اليمنى فى قصيدة مدح بها السلطان صلاح الدين منها قوله :

---

(١) أورد ابن خلكان هذه الأحداث بالتقديم والتأخير . انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢٥٧ .

(٢) اسفهسلار : كلمة مكونة من لفظين أحدهما فارسى وهو « اسفه » ومعناه المقدم ، والثانى تركى هو «سلار» معناه العسكر ، فكان معناها « مقدم العسكر» ، وقد استعمل هذا المصطلح فى عهد الدولة الفاطمية ، وكان حامله صاحب وظيفة تلى صاحب الباب . انظر : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٨٣ .

(٣) انظر قول العماد فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٦٣ - ٤٦٤ أحداث سنة ٥٦٥هـ .

(٤) النيروز : أول من اتخذ النوروز جمشيد ويقال فى اسمه أيضًا جمشاد ، أحد ملوك الفرس الأول ، وهو فى الأصل نوروز وعربته العرب إذ قلبوا الواو ياء فقالوا نيروز ، ومعناه اليوم الجديد . انظر الخطط ، ج٢ ، ص٣٩٠- ٣٩١ . طبعة مكتبة الآداب .

صَحَّتْ بِهِ مِصْرُ وَكَانَتْ قَبْلَهُ تَشْكُو سِقَامًا لَمْ تُعَنْ[١] بِطَبِيبِ
عَجَبًا لِمُعْجِزَةٍ أَتَتْ فِى عَصْرِهِ وَالدَّهْرُ وَلاَّدٌ لِكُلِّ عَجِيبِ
رَدَّ الإله بِهِ قَضِيَّةَ يُوسُف نَسْقاً عَلَى ضَرْبٍ مِنَ التَّقْرِيبِ
جَاءَتْهُ إِخْوَتهُ وَوَالِدُهُ إِلَى مِصْر عَلَى التَّدْرِيجِ وَالتَّرْتِيبِ
فَاسْعَدْ بِأَكْرَمِ قَادِمٍ وبدولة قَدْ سَاعَدَتْكَ رِيَاحُهَا بِهُبُوبِ

وفى تاريخ الدولتين[٢] : وكان بهروز المذكور يُنَفِّذ أمره فى جميع العراق إلى البصرة ، إلى الموصل ، إلى أصفهان . وكانت خيله خمسة آلاف فارس ، فأقر نجم الدين فى ولاية تكريت ، وأضاف إليه النظر فى جميع الولاية المتاخمة له ، وقرر أمره عند السلطان مسعود[٣] .

ثم إن عماد الدين زنكى والد نور الدين محمود طمع فى أخذ بغداد ، ووصل الخبر إلى قراجا الساقى[٤] ، وهو أتابك [ابن][٥] السلطان محمود ، فجرد ألف فارس للقاء زنكى ، فانهزم زنكى ، وقتل جماعة من أصحابه ، ونهب جميع ما كان معه فى عسكره ، وجاء إلى تكريت وبه عدة جراحات . وعلم مكانه الأمير نجم الدين وأخوه شيركوه ، فأحسنا إليه وداويا جراحاته ، وخدماه أحسن خدمة ، فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوماً ، ثم سار إلى «الموصل وأعوزه»[٦] الظهر ، فأعطياه «جميع ما كان عندهما من الظهر»[٧] حتى أنهما أعطياه جملة من البقر ، حمل [عليها] [٨] ماسلم معه من أمتعته ، فكان زنكى يرى لنجم الدين أيوب هذه اليد ، ويواصله بالهدايا والألطاف مدة مقامه فى

---

(١) «يعن» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٦٣ .
(٢) الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٣٦ .
(٣) «وكان» أضافها العينى بعد كلمة مسعود . ووجودها يخل بالنص .
(٤) قراجا الساقى : اسمه برس صاحب بلاد فارس وخوزستان . انظر : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٤٢ فى ترجمة صلاح الدين يوسف .
(٥) ما بين الحاصرتين مثبت من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٧ .
(٦) مابين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٧) مابين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٨) «عليهما» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ج١ق٢ ، ص٥٣٧ .

تكريت ، فلما انفصل منها على ماذكرنا ، تلقاه زنكى بالرحب والسعة ، واحترمه احتراماً عظيماً (١) .

وقال صاحب تاريخ الدولتين(٢) : وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة ، حتى ملك بذلك حبات قلوبهم ، وكان أخوه شيركوه معه فى القلعة ، وكان شجاعا باسلاً ، ينزل من القلعة ويصعد إليها فى أسبابه وحاجاته . وكان نجم الدين لايفارق القلعة ولاينزل منها ، فاتفق أن أسد الدين شيركوه نزل يوماً لبعض شأنه ، ثم عاد إلى القلعة ، وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارض ، وكان رجلاً نصرانيا ، فاتفق فى ذلك اليوم أن النصرانى صادف أسد الدين صاعداً إلى القلعة ، فعبث به بكلمة مُمِضّة ، فجرد أسد الدين سيفه ، وقتل النصرانى ، وصعد إلى القلعة ، وكان مهيباً ، فلم يتجاسر أحد على معارضته فى أمر النصرانى بشىء ، وأخذ النصرانى برجله ، فألقاه من القلعة . وبلغ ذلك إلى بهروز [وحضر](٣) عنده مَنْ خوَّفه جرأة أسد الدين ، وأنه ذو عشيرة كبيرة ، وأن أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرعايا ، وأنه ربما كان منهما (٤) أمر يخشى عاقبته ويصعب استدراكه ، فكتب إلى نجم الدين ينكر عليه ماجرى من أخيه ، ويأمره بتسليم القلعة إلى نائب [١٧٩ظ] سيرهُ صحبة الكتاب ، فأجاب نجم الدين [إلى](٥) ذلك با لسمع والطاعة ، وأنزل من القلعة جميع ماكان له بها من أهل ومال . واجتمع هو وأخوه أسد الدين ، وصمما على قصد عماد الدين زنكى بالموصل ، فخرجا واتصلا به كما ذكرنا . وقيل إن أسد الدين خرج إلى الموصل قبل نجم الدين ، ثم أنه جرى بين أسد الدين وبين جمال الدين الوزير مودة عظيمة ، حتى حلف كل واحد منهما للآخر أنه يقوم بأمره فى [حياته](٦)وبعد وفاته ، وتجرد جمال الدين فى أمر أسد الدين وأخيه نجم الدين ، حتى قربهما من قلب أتابك ، وجعلهما عنده بالمنزلة العظيمة ، وخرجا معه إلى الشام ، وشهدا معه حروب الكفار وقتال الإفرنج ، لعنهم الله ، وكان لأسد الدين فى تلك الوقائع اليد البيضاء ، والفعلة الغراء .

---

(١) ورد هذا النص بتصرف فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٧ ؛ انظر أيضا : الباهر ، ص٤٣ ـ ٤٤ ، حاشية ٦ .

(٢) الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٧ .

(٣) «وحصل» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٧ ، حيث ينقل العينى عنه .

(٤) «منه» فى نسخة ب .

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٨ ، لاستقامة النص .

(٦) «حيوته» فى نسخة أ . والمثبت بين الحاصرتين من نسخة ب والروضتين .

وقال ابن أبى طى[١] : حدثنى أبى عن سعد الدولة أبى الميامن عن حسام الدين سنقر غلام نجم الدين أبى طالب ـ وكان فى خدمة نجم الدين أيوب ـ قال : لما دخل نجم الدين أيوب الديار المصرية إلى ولده صلاح الدين ، كنت معه فى خدمته ، وكانا قد اجتمعا فى دار الوزارة ، وقعدا على طراحة[٢] واحدة ، والمجلس غاصٌّ بأرباب الدولتين ، إذ تقدم نصرانى كان فى خدمة نجم الدين ، فقبل الأرض بين يديهما ، وقال لنجم الدين : يامولاى هذا تأويل مقالتى لك حين وُلد هذا السلطان ، يعنى صلاح الدين ، فضحك نجم الدين وقال : صدقت والله ، ثم التفت إلى الجماعة الذين حوله من أكابر العلماء والقضاة والأمراء ، وقال : لكلام هذا النصرانى حكاية عجيبة ، وذلك أنى ليلة رُزقت هذا الولد ـ يعنى السلطان صلاح الدين ـ أمرنى صاحب قلعة تكريت «فى تلك الليلة»[٣] بالرّحلة عنها ، بسبب أخى شيركوه من قتله ذلك النصرانى ، وكنت قد أَلِفْت هذه القلعة وصارت لى كالوطن ، فثقل علىّ الخروج منها جداً ، واغتممت . وفى ذلك الوقت جاءنى البشير بولادة هذا ـ يعنى صلاح الدين ـ فتشاءمت به ، وتطيرت لِما جرى علىّ ، وخرجنا من القلعة ، وأنا لا سميته ولا التفت إليه . وكان هذا النصرانى معى كاتباً لى ، فلما رأى مانزل بى ، قال : ياмولاى أى شىء لهذا المولود من الذنب ، وبما استحق ذلك منه وهو لا يضر ولا ينفع ، وهذا الذى جرى عليك قضاء من الله تعالى ، ثم مايُدريك أن هذا الطفل يكون سبباً لوصول الخيرات إليك ، ويكون هو مِلكا عظيم الصيت ، جليل المقدار . فعطَّفنى كلامه عليه ، وها هو قد جرى ماقال لى . فتعجب الحاضرون من ذلك ، وحمد السلطان ووالده الله تعالى وشكراه[٤] .

ولعمارة اليمنى فى نجم الدين مدائح ومراثٍ منها :

ثَغْرُ الزَّمان بِنَجْمِ الدِّين مُبْتسِمٌ ... وَوَجْـهُـهُ بِدَوَامِ العِـزِّ مُـتَّـسِمُ

يقول فيها :

(١) لم يذكر أبو شامة مصدر هذا القول مباشرة «وحدثنى أبى رحمه الله قال حدثنى سعد الدولة . . .» انظر الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٨ .

(٢) الطراحة : مرتبه يفترشها السلطان إذا جلس . انظر : Dozy. Supp. Dict. Ar.T.II,P.32

(٣) مابين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٤) الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٩ .

أَضْحَى بِكَ النِّيلُ مَحْجُوجاً وَمُعْتَمِرَا		كَـأَنَّمَـا حَلَّ فِيــهِ الحِلُّ وَالْحَـرمُ

إلى أن قال :

وَالنَّاصِرُ ابْنُكَ كَافِى كُلِّ مُعضلةٍ		إِذا الْحَوَادِثُ لَمْ تُكْشفْ لَهَا غُمَمُ[١]

الثالث فى سيرته : وكان شجاعاً باسلاً أمينا خيراً محسناً ناصحاً ، عظيمًا فى أنفس الناس بالخير والدين وحسن السياسة ، وكان لا يأتى أحد من أهل العلم والدين« إلا حمل إليه المال والضيافة الجليلة ، وكان لايسمع بأحد من أهل الدين»[٢] فى مدينته إلا أنفذ إليه . وقد ذكره العماد الكاتب ، وذكر من دينه وعفته ، ووفور أمانته وكثرة خيره أشياء كثيرة حسنة . [١٨٠و] .

قال ابن خلكان[٣] : وكان نجم الدين رجلاً مباركاً كثير الصلاح ، مائلاً إلى الخير ، حسن النية ، جميل الطوية ، وظهرت ثمرة بركته فى أولاده ، وله خانقاه بدمشق تعرف بالنجمية[٤] ، وخانقاه بالديار المصرية ، ومسجد ، وقناة خارج باب النصر من القاهرة ، وخانقاه أخرى لطيفة ببعلبك ، بناها حين كان نائباً بها عن عماد الدين زنكى .

وفى المرآة :[٥] وكان نجم الدين رجلاً عاقلاً حازماً شجاعاً حليماً جواداً ، عاطفاً على الفقراء والمساكين ، محباً للصالحين ، قليل الكلام جداً ، لا يتكلم إلا عن ضرورة . ولما قدم مصر سأله ولده صلاح الدين أن يكون هو السلطان ، فقال : أنت أولى ، وكان يلعب بالأكرة[٦] دائماً .

وقال القاضى ابن شداد[٧] : كان شديد الركض بالخيل ، يلعب بالأكرة ، ومن يراه يلعب بها يقول : مايموت إلا من وقوعه عن ظهر الفرس .

---

(١) انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٤٠ ؛ وبالرجوع إلى النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية لعمارة اليمنى ، لم ترد هذه الأبيات الخاصة بالمديح .

(٢) مابين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٣) وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢٦١ .

(٤) الخانقاه النجمية بدمشق ، بنواحى باب البريد ، وقد اندرست ولم يبق لها أثر . الدارس ، ج٢ ، ص١٧٤ ، حاشية٢ .

(٥) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٨٤ .

(٦) اللعب بالأكرة : هى من ألعاب الفروسية وكان يقام لها احتفال خاص يخرج إليه السلطان فى موكب رسمى ويشترك فيها الأمراء ومن أدواتها الجوكان أو الصولجان وهو المحجن الذى يضرب به الكرة ، وهو عصا مدهونة برأسها خشبه معقوفة . انظر :صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٤٧ ؛ ج٥ ، ص٤٥٨ .

(٧) النوادر السلطانية ، ص٤٦ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٨٤ ـ ١٨٥ .

الرابع فى وفاته : خرج نجم الدين يوماً من باب النصر - أحد أبواب القاهرة - فشب به فرسه ، فألقاه في وسط المحجة ، وذلك يوم الاثنين ثامن عشر ذى الحجة من سنة ثمان وستين وخمسمائة ، وحمل إلى داره ، وبقى متألماً ، إلى أن توفى يوم الأربعاء سابع عشرى الشهر المذكور . ويقال فى الثامن والعشرين منه .

وفى تاريخ بيبرس : وكان سبب وفاته أنه تقنطر عن فرسه ، فحمل إلى داره ، فمات بها .

وفى تاريخ الدولتين [١] : وعاش ثمانية أيام بعد وقوعه من الفرس ، وكانت وفاته يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذى الحجة . وكان ولده صلاح الدين غائباً عنه فى بلاد الكرك والشوبك على الغزاة .

وقال القاضى ابن شداد[٢] : ولما عاد صلاح الدين من غزاته ، بلغه قبل وصوله إلى مصر وفاة نجم الدين أبيه ، فشق ذلك عليه ؛ حيث لم يحضر وفاته .

ومن كتاب فاضلى عن السلطان إلى عز الدين فرخشاه بمصر يقول فيه : صحّ من المصاب بالمولى الدارج ، غفر الله له ذنبه ، وسقى بالرحمة تُربه ، ماعظمت به اللَّوعة ، واشتدت الرَّوعة ، وتضاعفت لِغيبتنا [٣] عن مشهده الحسرة ، فاستنجدنا بالصبر ، فأبى ، وانحدرت العبرة ، فياله فقيداً فقد عليه العزاء ، وهانت بعده الأرزاء .

وَتَخَطَّفَتْه يدُ الردَى فى غَـيْبَـتى هبْنى حضرتُ ، فكنتُ ماذا أَصْنَعُ؟! .

قال : فدفن نجم الدين إلى جانب قبر أخيه أسد الدين ، فى بيت بالدّار السلطانية ، ثم نقلا بعد [سنتين][٤] إلى المدينة الشريفة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، وقبرهما فى تربة الوزير جمال الدين الأصفهانى وزير الموصل . وكان جمال الدين المذكور مؤاخيًا لأسد الدين شيركوه كما ذكرنا [٥] .

---

(١) نقل العينى هذا النص بتصرف من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٣ .

(٢) النوادر السلطانية ، ص٤٦ .

(٣)«بغيبتنا» فى نسخة ب .

(٤) «سنين» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٣٠ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٣ .

(٥) انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٣-٥٣٤ .

وفى تاريخ القاضى الفاضل : وصل كتاب من المدينة النبوية يوم الخميس رابع صفر من سنة ثمانين وخمسمائة ، يخبر بوصول تابوتى[١] الأمير نجم الدين أيوب ، وأسد الدين شيركوه ، واستقرارهما بتربتيهما ، مجاورين الحجرة المقدسة النبوية (على ساكنها أفضل الصلاة والسلام) [٢] .

الخامس فيما يتعلق به خلف نجم الدين من الأولاد : صلاح الدين يوسف الناصر ، وسيف الدين أبو بكر العادل ، وشمس الدولة توران شاه ، وشاهنشاه ، وسيف الإسلام طغتكين ، وتاج الملوك بورى . ومن البنات : ست الشام وربيعة خاتون[٣] . وقال عمارة اليمنى يرثيه :[١٨٠ظ] .

صَفْوُ الْحَيَاةِ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى كَدَرُ ... وَحَادِثُ الدَّهْرِ لاَيُبْقِى وَلاَيَذَرُ
وَمَا يَزَالُ لِسَانُ الدَّهْرِ يُنْذِرُنَا ... لَوْ أَثَّرَتْ عِنْدَنَا ٱلآثَارُ وَالنُّذُرُ
كَمْ شَامِخِ العِزِّ ذَاقَ الْمَوْتَ مِنْ يَدِهَا ... مَا أَضْعَفَ الْقَدْرَ إِنْ أَلْوَى بِهِ الْقَدَرُ
أُوذِى عَلِىٌّ وَعُثْمَانٌ بِمِخْلَبِهَا ... وَلَمْ يَفُتْهَا أَبُوبَكْرٍ وَلاَعُمَرُ
وَمَنْ أَرَادَ التَّأَسِّى فِى مُصِيبَتِه ... فَلِلْوَرَى فِى رَسُولِ اللّه مُعْتَبَرُ
لا قُدِّسَتْ لَيْلَةٌ كَادَتْ مُصِيبَتُهَا ... الأكبادُ حُزْنًا عَلَى أَيُّوب تَنْفَطِرُ
كَأَنَّمَا صَوَّر اللّهُ الكَمَال بِهِ ... شَخْصًا وَيُوسُفُ مِنْهُ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ
إِذَا اللَّيَالِى تَجَافَتْ عَنْ حُشَاشَتِه ... فَالجُرْحُ مُنْدَمِلٌ وَالذَّنْبُ مغْتَفَرُ
يَانَاصِرَ الْحَقِّ والأَيَّامُ خَاذِلَةٌ ... إِنَّ الغَرِيبَ بِغَيْرِ الدَّمْعِ يَنْتَصِرُ
مَامَاتَ أَيُّوبُ إِلاَّ بَعْدَ مُعْجِزَةٍ ... فِى الْخَلْقِ لَمْ يُؤْتَهَا مِنْ جِنْسِهِ بَشَرُ
مَضَى حَمِيدًا مِنَ الدُّنْيَا وَلَيْسَ لَهُ ... فِى رُتْبَةٍ أَرَبٌ مِنْهَا وَلاَ وَطَرُ
صَلَّى الإِلَهُ عَلَى نَجْمٍ أَضَاءَ لَنَا ... مِنْ نَسْلِهِ النَيِّرانِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ[٤]

وهى قصيدة طويلة . وله قصيدة أخرى فى مرثيته وأولها هو قوله :

---

(١) «تابوت» فى نسخة ب .

(٢) وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢٥٨ .

(٣) ذكر سبط ابن الجوزى أن نجم الدين خلف ست بنات . انظر مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٨٥ .

(٤) وردت هذه الأبيات بالنقص والزيادة مع بعض الاختلافات فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٤١ - ٥٤٢ .

هِيَ الصَّدْمَةُ الأُولَى فَمَنْ بَانَ صَبْرُهُ ... عَلَى هَوْلِ مَلْقاهَا [تَضَاعَفَ][1] أَجْرُه[2]

أَذُمُّ صَبَاحَ الأَرْبعَاء فَإِنَّهُ ... تَبَسَّمَ عَنْ ثَغْرِ المَنيَّة فَجْرُهُ

أَصَابَ الهُدَى فِي نَجْمِهِ بمُصِيبَةٍ ... تَدَاعى سِماكُ الجوِّ منْهَا وَنَسْرُه

فَلاَ تَعْذِلُونَا ، وَاعْذُرونَا ، فَمَنْ بَكَى ... عَلَى فَقْدِ أَيُّوبٍ فَقَد بانَ عذْرُهُ

أَقَامَ بِأَعْمَالِ الفُراتِ ، وخيْلُه ... يُرَاعُ بِهَا نيلُ العَزيزِ وَمِصْرُهُ

إِلَى أَنْ رَمَاهَا منْ أَخِيه بِضَيْغَمٍ ... فَرَى نَابُه أَهْلُ الصَّلِيبِ وَظُفْرُهُ

تَعَاقَبْتُمَا مِصْرًا تَعَاقُبَ وابِلٍ ... يَبِيتُ بِقُطْرِ النَّيلِ تنهلُّ قَطْرُهُ

نزلتَ بدارٍ حلّها فحللتها ... فمغْناك مغْناه ، وقطرك «قطره»[3]

وَوَاخَيْتَه فِي البر حَيًّا وَمَيِّتا ... فَقَبْرُكَ فِي دَارِ القَرَارِ وَقَبْرُهُ

وَقَدَ شَخُصَتْ أَهْلُ البَقيع إِلَيْكُما ... وَ إلا فَسُكَّانُ الحَجُون وَحجرُهُ

هَنيئًا لِمَلكٍ مَاتَ وَالعز عزهُ ... وَقُدْرَتُهُ فَوْقَ الرِّجَالِ وَقَدرُهُ

[١٨١و] وأَدْرَكَ منْ طُولِ الحَيَاةِ مُرَادَهُ ... وَمَاطَالَ إلاَّ فِي رِضَى اللَّه عُمْرُهُ/

وَأَسْعَدُ خَلْق اللَّه مَنْ مَاتَ بَعْدَمَا ... رأى فِي بَنِي أَبْنائِه مَايَسُرُّهُ

رَعَى اللَّهُ نَجْمًا تَعْرِفُ الشَّمْسُ أَنَّهُ ... أَبُوهَا ، ونورُ البَدْرِ منْهَا ، وَزَهْرُهُ

وَأَبْقَى المَقَامَ النَّاصِرِيَّ ، فَإِنَّهُ ... لِدَوْلَتِكُمْ كَنْزُ الرَّجَاءِ وَذُخْرُهُ[4]

ملك النحاة واسمه الحسن بن أبى الحسن صافى[5] ؛ مولى حسين زين الدين الأرموى ، التاجر البغدادى ، ولد ببغداد سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وقرأ النحو على أبى الحسن الاستراباذى ، وأصول الدين على أبى عبد الله القيروانى ، وقرأ أصول الفقه . ودخل الشام ، واستوطن دمشق ، وعاش تحت ظل نور الدين محمود إلى أن مات فى سنة

(١) «يضاعف» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من النكت العصرية ، ص٢٦٠ .
(٢) ذكر مطلع القصيدة فقط فى النكت العصرية ، ص٢٦٠ .
(٣) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٤) ذكر أبوشامة القصيدة كاملة فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٤٠ ـ ٥٤١ .
(٥) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٩٢ ـ ٩٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٢ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٨٥ ـ ١٨٦ .

ثمان وستين وخمسمائة فى شوال ، ودفن بالباب الصغير[١] ، وقد جاوز الثمانين سنة ، وله ديوان شعر مليح ، ومدائح فى وصف النبى عليه السلام . وذكره ابن عساكر ، ووصفه بالكرم . وكان يصنع الحلاوات ، ويهديها إلى جيرانه وأصحابه وخلانه .

قال العماد : ورآه بعض الصالحين ، أو بعض أصحابه فى المنام ، فقال له : مافعل الله بك؟ فقال : غفر لى بأبيات قلتها :

يَارَبُّ هَا قَدْ أَتَيْتُ مُعْتَرِفًا ... بِمَا جَنَتْهُ يدَاىَ مِنْ زَلَلِ

مَلآنُ كَفٍّ من كُلِّ مَأْثُمَة ... صِفْرُ يَدٍ مِنْ مَحَاسِنِ العملِ

وكَيْفَ أَخْشَى نَارًا مُسَعَّرَةً ... وَأَنْتَ يَارَبُّ فِى القِيَامَةِ لِى

قال : فوالله منذ فرغتُ من إنشادها ما سمعت حسيس النار .

(١) الباب الصغير : أحد أبواب دمشق . انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٩٢ .

فصل فيما وقع من الحوادث
فى السنة التاسعة والستين بعد الخمسمائة★

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضىء بأمر الله(١) ، وصاحب مصر السلطان الملك الناصر يوسف بن أيوب ، وصاحب الشام وحلب وغيرهما الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ، غير أنه توفى إلى رحمة الله فى هذه السنة على مانذكره عن قريب إن شاء الله تعالى . فلنذكر أولا ماجريات صلاح الدين ، ثم ماجريات نور الدين ، ثم نذكر وفاته إن شاء الله .

ذكر ماجريات صلاح الدين

منها أنه أرسل أخاه شمس الدولة تورانشاه بن أيوب إلى اليمن(٢) ، وكان صلاح الدين قد أقطعه قوص وأعمالها ، وارتفاعها مائة ألف دينار ، ثم تجهز منها ، وسافر ، ووصل زَبيد(٣) ، وقتل ابن المهدى(٤) صاحبها ، وكان يلقب أمير المؤمنين ، فلما قتله سيّر نواب الحصون مفاتيحها إليه ، وهى أحد وأربعون حصناً .

وقال العماد(٥) : وفى رجب توجه توران شاه(٦) ـ أكبر أخوة صلاح الدين ـ إلى اليمن فملكها ، وكان يحثه على المسير إليها عمارة اليمنى(٧) ، شاعر القصر ، وكان كثير المدح

★ يوافق أولها ١٢ أغسطس ١١٧٣م .

(١) الخليفة المستضىء بأمر الله هو الحسن بن يوسف بن محمد بن أحمد بن عبد الله أمير المؤمنين المستضىء بالله ، توفى عام ٥٧٥هـ/١١٧٩م . انظر : فوات الوفيات ، ج١ ، ص٢٦٩ ـ ٢٧١ .

(٢) ورد النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص٤٦ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٥١ .

(٣) زَبيد : مدينة فى اليمن أحدثت فى أيام المأمون وبإزائها ساحل غلافقة وساحل المندب . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٩١٥ .

(٤) هو : عبد النبى بن على بن مهدى بن محمد ثالث حكام الدولة المهدية باليمن« زبيد» حكم من(٥٥٨هـ ـ ٥٦٩هـ/١١٦٢م ـ ١١٧٣م) . وقد هزمه المعظم توران شاه بن أيوب . انظر : زامباور معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ج١ ، ص١٨٢ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٣٤ .

(٥) انظر قول العماد بالروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥١ ، حيث ينقل أبو شامة عن العماد من كتاب البرق الشامى وهو غير موجود بين أيدينا الآن .

(٦) هو الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب بن شاذى بن مروان الملقب فخر الدين ، سيره أخوه فغزا النوبة ، ثم بعثه فافتتح اليمن ، وتحول من الشام الى مصر سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م ، ثم مات بالإسكندرية سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م .انظر : وفيات الأعيان ج١ ، ص٣٠٦ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٥٥ ـ ٢٥٦ .

(٧) عمارة اليمنى : هو أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على بن زيدان بن أحمد بن محمد الحكمى اليمنى ، وسيذكره العينى بالتفصيل فى وفيات هذه السنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م . انظر مايلى ص١٨٤ وما بعدها . انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٣١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٤ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٧٠ ؛ الشذرات ، ج٤ ، ص٢٣٤ .

لتُورَان شاه ، فتجهَز وسَار إلى مكة ، ثم إلى زبيد فملكها ، وقبض على الخارجى[١] بها ، وأهلكه نائبه سيف الدولة مبارك بن منقذ[٢] . ومضى إلى عدن فأخذها[١٨١ظ] واستناب فيها عز الدين عثمان الزنجيلى[٣] ، وفتح حصن تعزّ[٤] وغيره من القلاع .

وقال ابن شداد[٥] : ولما [كانت][٦] سنة تسع وستين رأى صلاح الدين قوة عسكره وكثرة عدد إخوته وقوّة بأسهم . وكان بلغه أن باليمن إنسانا استولى عليها وملك حصونها ، وهو يخطب لنفسه ، يسَمّى عبد النبى بن مهدى ، ويزعم أنه ينتشر ملكه إلى الأرض كلها ، واستَتبَ أمره ، فرأى أن يسيّر إليها أخاه الأكبر الملك المعظم توران شاه ، وكان كريما أريحيّا حسن الأخلاق[٧] ، فمضى إليها ، وفتح الله على يديه ، وقتل الخارجى الذى كان بها . وكان أخو هذا الخارجى[قد خرج][٨] باليمن قبله .

وقال ابن أبى طى[٩] : وكان سبب خروج شمس الدولة إلى اليمن أنه كان كريما جوادا ، وكان إقطاعه بمصر لا يقوم بفتوَّته ، ولا [ينهض][١٠] بمروَّته . وكان قد انتظم فى سلكه عمارة الشاعر ، وكان من أهل اليمن ، وكان ورد إلى مصر ، ومدح أصحابها . فلما

---

(١) الخارجى : هو عبد النبى بن على بن مهدى ، ثالث حكام الدولة المهدية . انظر ماسبق ص١٣٥ ، حاشية (٤) .

(٢) هو : المبارك بن كامل بن على بن مقلد بن نصر من منقذ الكنانى ، الملقب سيف الدولة مجد الدين . كان من أمراء الدولة الصلاحية ، ولما سير صلاح الدين أخاه توران شاه إلى بلاد اليمن وتملكها ، رتب ابن منقذ هذا نائباً عنه فى زبيد . وكانت وفاة المبارك هذا سنة ٥٨٩ هـ/١١٩٣م بالقاهرة . انظر : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص١٤٤ .

(٣) هو : «عز الدين أبو عُمر عثمان بن على الزنجارى - كان صاحب اليمن ، وانتقل إلى الشام فى زمن الملك العادل سيف الدين أبى بكر» . هكذا ورد اسمه فى الأعلاق الخطيرة لابن شداد ، ص٢٢٢ . وورد اسمه فى الدارس ، ج١ ، ص٥٢٦ . «أبو عمرو عثمان بن على الزنجيلى» .

(٤) حصن تَعِزّ : بالفتح ثم الكسر والزاى مشددة ، قلعة عظيمةمن قلاع اليمن المشهورات . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٥٤ .

(٥) انظر : النوادر السلطانية ، ص٤٦ ، حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(٦) «كان» فى نسختى أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من النوادر السلطانية ، ص٤٦ ، حيث ينقل العينى عنه .

(٧) ذكر فى الروضتين أنه سمع من صلاح الدين مانصه « الثناء على كرمه ومحاسن أخلاقه وترجيحه إياه على نفسه» .
انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٥٢ .

(٨) مابين الحاصرتين إضافة للتوضيح من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٢ .

(٩) انظر قول ابن أبى طى فى الروضتين ، المصدر السابق حيث أن الروضتين هو المصدر المتاح لدينا لأقوال ابن أبى طى ، ج١ ق٢ ، ص٥٥٢ .

(١٠) « تنهض» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٢ .

زالت دولتهم انضوى إلى شمس الدولة ومدحَه ، وكان إذا خلا بِه يصف له بلاد اليمن وكثرة أموالها وخيرها ، وضعف مَن فيها ، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها .

ومن جملة شعره فى ذلك قوله فى القصيدة التى أولها :

العِلْمُ مُذْ كَانَ مُحْتَاجًا[١] إِلَى الْعِلْمِ	وَشَفرَةُ السَّيْفِ تَسْتَغنى عَنِ الْقَلَمِ

كَمْ تَتْرُكُ البيضُ فِى الأَجْفَانِ ظَامِئَةً	إِلى المَـوَارِدِ فِى الأَعْنَاقِ وَالقِـمَمِ

أَمَـامَكَ الْفَـتحُ مُنْ شَـامٍ وَمِنْ يَمَنٍ	فَـلاَ تَرُدّ رؤوسَ الْخَـيْلِ باللُّجمِ

فَعَـمُّكَ الْملكُ الْمنصورُ[٢] سَوَّمَـهَا	مَنِ الْفُـراتِ إِلَى مِـصْرٍ بِلاَ سَـأَمِ[٣]

وله قصيدة أخرى منها قوله :

أفـاتحَ أرضَ النِّيل وهى منيعـةٌ[٤]	على كل راجٍ فـتْـحـهـا ومُـؤمّلِ

مـتى توقِـدُ النار التى أنت قَـادحٌ	بغمْدَانَ [مشبوبًا][٥] سناها بمنْدلِ

وتفـتـح مـا بين الحَـصـين وأَبْيَنٍ	وصنعاء من حِصْنٍ حَصِينٍ ومَعْقِلِ[٦]

وقـال ابنُ أبى طى : ووافق ذلك أنه كـاتَبَه رجل من أهل اليمن ، يقـال له هاشم بن غانم ، وأطمعه [فى المعاونة][٧] لأن صاحب اليمن عبد النبى كان قد تعدى على هذا الشريف هاشم ، فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن فأجابوه ، وتجهز ، ثم دخل على أخيه السلطان واستأذنه فى دخول اليمن ، فأذن له ، وأطلق له مُغَلّ[٨] قوص[٩] سنة ، وزوّده فوق ماكان فى نفسه ، وأصحبه جماعةً من الأمراءِ ومقدار ألف فارس خارجا

---

(١) « محتاج» فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٣ ؛ وانظر أيضاً : مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٣٨ - ٢٤٠ .

(٢) المنصور : يقصد بها أسد الدين شيركوه .

(٣) أورد أبو شامة أبياتًا أخرى من القصيدة فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٥٣ .

(٤) «عظيمة» فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٣ .

(٥) «مشوبا» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت هو الصواب من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٣ .

(٦) ذكر أبو شامة بيتين آخرين من القصيدة ، كما ذكر أبياتاً من قصيدة أخرى ، انظر : الروضتين ج١ ق٢ ، ص٥٥٣ .

(٧) مابين الحاصرتين إضافة من الروضتين يحتاجها السياق . انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٥٣ .

(٨) يقصد ما تغله قوص فى السنة .

(٩) قوص : مدينة كبيرة بصعيد مصر ، كانت محط التجار القادمين من عدن . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٠٠ ، وهى مركز بمديرية قنا ، انظر : القاموس الجغرافى ، ق٢ ج٤ ، ص١٨٣ .

عمّن سيره من حلقته[١] ، وسار فى البر والبحر ، فى البر العساكر ، وفى البحر الأسطول يحمل الأزواد والعُدد والآلات ، فوصل إلى مكة شرفها الله تعالى ، فدخلها زائراً ، ثم خرج متوجها منها إلى اليمن ، فوصل زبَيد فى أول شوال ، فنزل عليها ، ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسنى ، وجميع[٢] الأشراف بنو سليمان[٣] فى جمع جم وعدد كثير ، فهجم زبيد وتسلمها واحتوى على مافيها ، وقبض على صاحب اليمن - عبد النبى - أخى على[٤] بن مهدى ، ثم رحل إلى عدن [٥] وفى صحبته ابن مهدى [١٨٢و] ، ففتحها عنوةً ، وولاها عز الدين بن الزنجيلى .

ثم سار إلى [المخلاف][٦] ، وتسلم الحصون التى كانت فى يد ابن مهدى كتعز وغيرها ، وسار إلى صنعَاء بعد فتح مدينة الجَنَد[٧] وغيرها ، فأحرقت صنعاء ، فدخلها شمس الدولة فلم يجد فيها إلا شيخا [و][٨] امرأة عجوزًا ، فأقام بها ثمانية أيام ، ثم لم يستطع المقام لقلة الميرة ، فرجع إلى زَبيد فوجد ابن منقذ قد قتل عبد النبى بن مهدى . وكان شمس الدولة قد استناب بزَبيد الأمير سيف الدولة المبارك بن منقذ ، وأمره بحمله ، فلما بعُد شمس الدولة خاف ابن منقذ من فساد أمره ، فرأى المصلحة فى قتله ، فقتله ابن منقذ بزَبِيد . فلما بلغ شمس الدوله قتله استصوبه .

ولما «حصل»[٩] شمس الدولة فى زَبِيدَ أنفذ إليه صاحب طمار[١٠] ، وصالحه هو وباقى الملوك على أداء المال ، ثم تتبع تلك الحصون والقلاع فاحتوى عليها جميعها ،

---

(١) جند الحلقة : هم طبقة من الأجناد دون المماليك السلطانية فى الدرجة . وهم مماليك السلاطين والأمراء السابقين وأولادهم . انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص١٥ - ١٦ .

(٢) «وجمع » فى نسخة ب .

(٣) بنو سليمان : هم العلويون باليمن حكموا من سنة ٤٥٠هـ - ٦٤٩هـ/١٠٥٨- ١٢٥١م ، والذى حارب بنو مهدى ، منهم هو وحاس بن غانم . انظر : زامباور ، ج١ ، ص١٧٨ - ١٧٩ .

(٤) هو : على بن مهدى بن محمد بن على بن داود . أول حكام بنو مهدى الخوارج بزبيد . حكم من سنة ٥٥٣هـ- ٥٥٤هـ/ ١١٥٨م - ١١٥٩م . انظر : زامباور ج١ ، ص١٨٢ .

(٥) «العدن» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٥٤ ، حيث ينقل عن ابن أبى طى .

(٦) «المحلاف» فى الأصل . والمثبت من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٥٤ . والمخاليف بمنزلة الكور والرساتيق . وقد أضيف إليها أسماء قبائل اليمن . انظر : معجم البلدان ج٤ ، ص٤٣٤ .

(٧) الجند : هى من أعمال اليمن العظيمة ومن المدن النجدية ، بينها وبين صنعاء ثمانية وخمسون فرسخا . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٣٦ .

(٨) «أو» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٤ .

(٩) «دخل» فى نسخة ب .

(١٠) طمار : الطمار المكان المرتفع ، وهو جبل باليمن . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٥٤٦ .

وكتب بذلك إلى أخيه الملك الناصر صلاح الدين ، فأرسل إلى نور الدين يخبره بذلك ، فأرسل نور الدين مهذب الدين أبا الحسن على بن عيسى النقاش بالبشارة بذلك إلى بغداد . وذكر العماد الأمير مجد الدين سيف الدولة المبارك بن كامل بن منقذ المستناب بزَبِيدَ ، ووصفه بأنه من الكفاة «الرماة»[1] والدُّهاة ذوى الآراء ، وأنه فاضل من أهل بيت فضل ، كتب العماد من شعره :

لما نزلتُ الدَّيرَ قُلْتُ لصَاحِبى ... قُم فاخطُب الصَّهْباءَ من شَمّاسِه
فأتى وفى يُمناه كأسٌ خِلْتُها ... مقبوسَةً فى اللّيل من نبراسه
وكأنّ ما فى كأسه من خَدّه ... وكأنّ ما فى خَدِّه من كَاسِه
وكأن لذّةَ طَعْمِها من رِيقِه ... وأريجُها الفيَّاحُ من أنْفَاسِه
لم أنسَ ليلة شُربِها بغنائه ... إذ بات يجْلُوها على جُلاسِه
إذ قام يَسْقِينَا المُدام وكُلّما ... عاتَبْتُه[2] ردَّ الجوابَ بِراسِه

ومدحه أبو الحسن بن الذَّروى المصرى[3] بقصيدة غراء ذالية ، ما أظن أنه نُظِمَ على قافية الذال أرق منها لفظا وأروق[4] معنى ، أولُها :

لك الخيرُ عرِّج بى[5] على رَبْعِهم فَذِى ... رُبوعُ يفوح المِسْكُ من عَرْفِها الشَّذِى
مَبَارِكُ عِيسِ الوَفد بَابُ مُبارِكٍ[6] ... وهل منقذُ القُصَّاد غيرُ ابن مُنْقذِ

وفى المرآة[7] : لما سار شمس الدولة إلى اليمن ، وكان أعيانها قد كتبوا إلى صلاح الدين ؛ يسألونه أن يبعث إليهم بعض أهله ، فلما وصل شمس الدولة إلى مكة ، صعد

(١) «الكرماء» فى الروضتين الذى ينقل عن ابن أبى طى . انظر : ج١ ق٢ ، ص٥٥٥ .
(٢) «عابثته» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٥٥ .
(٣) هو : القاضى الوجيه رضى الدين أبو الحسن على بن أبى الحسن يحيى بن الحسن بن أحمد المعروف بابن الذَّروى ، وهو الأديب الشاعر . والذَّروى بفتح الذال المعجمة والراء وبعدها واو نسبة إلى ذَرَوَة ، وهى قرية بصعيد مصر . انظر : خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص١٨٧-١٨٨ ؛ وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص ١٤٥ - ١٤٦ ؛ فوات الوفيات ، ج٢ ، ص١٨٨ .
(٤) «أدق» فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٥ .
(٥) «من على» فى نسخة ب .
(٦) «مبارك وفد العيس» فى وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص١٤٥ .
(٧) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٨٨ ، حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

صاحبها إلى أبى قبيس [١] ، فتحصن فيه[٢] بقلعة بناها عليه ، وأغلق باب الكعبة وأخذ المفاتيح ، فجاء شمس الدولة فطاف بالبيت ، وصلى ركعتين وصعد إلى باب الكعبة ، وقال : اللهم إن كنت تعلم أنى جئت إلى هذه البلاد لإصلاح العباد وتمهيدها ، فيَسِّر علىّ فتح الباب ، وإن كنت تعلم أنى جئت لغير ذلك فلا تفتحه . ومدَّ يدَه فجذب القفل فانفتح [٣] ، فدخل شمس الدولة إلى البيت وصلى ودعا .

فلما بلغ أمير مكة ذلك نزل إلى خدمته ، وحمل المفاتيح واعتذر وقال : خفت منك ، والآن فأنا تحت طاعتك .[١٨٢ظ] فقال له : إذا أخذت منك مفاتيح مكة فلمن أعطيها ، ثم خلع عليه وعلى أصحابه ، وطيب قلوبهم . وسار إلى اليمن ، فانهزم عبد النبى بين يديه إلى زَبيد . وكان أبوه المسمى بالمهدى قد فتح البلاد ، وقتل خلقاً كثيرا ، وشق بطون الحوامل ، وذبح الأطفال على صدور أمهاتهم . وكان يرى رأى القرامطة[٤] ، ويظهر أنه داعية« لصاحب»[٥] مصر ، ويتستر بالإسلام [٦] . وكان قد مات قبل دخول شمس الدولة اليمن بسنين ، وملك بعده ولده عبد النبى ، ففعل باليمن أشد مما فعله أبوه ، وسبى[نساءهم][٧] واستعبدهم . وكان أبوه لما مات بنى عليه قبةً عظيمةً وصَفَّح حيطانها بالذهب الأحمر والجواهر ظاهرا وباطنا ، بحيث لم يعمل فى الدنيا مثلها ، وجعل فيها قناديل الذهب وستور الحرير ، ومنع أهل اليمن[٨] من زَبِيدَ إلى حضرموت أن يحجوا إلى

---

(١) أبو قُبَيْس : اسم الجبل المشرف على مكة من شرقها . وهو نسبة إلى رجل من مذحج كان يكنى أبا قبيس لأنه أول من بنى فيه قبة . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص١٠٢ .

(٢) «عليه» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٨٨ .

(٣)« بها ففتح» فى نسخة ب .

(٤) القرامطة : طائفة سياسية اتخذت الدعوة إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وسيلة لتحقيق أغراضها ، وسلاحا للوصول إلي ما تصبو إليه . وهم يُنسبون إلى حمدان بن الأشعث قَرْمَط . وقد سمى بهذا الاسم لأنه كان يقرمط فى سيره إذا مشى ، أى يقارب بين خطواته . ويقال إنه سمى بقرمط لقصور قامته ورجليه . ويقال أيضا أنه لقب بهذا لأنه كان أحمر البشرة تشبيها له بالقرمد ، وهو الطوب الأحمر (الآجر) . وأصل هذا اللفظ يونانى Keramidi. انظر : اتعاظ الحنفا ، ج١ ، ص٢٦ ؛ جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص٤١ ، ط . دار الفكر العربى ، ١٩٧٦م ؛ انظر : المعجم الوسيط ، ج٢ ، ص٧٣٧ .

(٥) «لأهل» ، فى المرآة ، ج٨ ، ص١٨٨ .

(٦) « باليمن» ، فى المرآة ، والمثبت هو الأولى للسياق .

(٧) «نسائهم» فى نسخة أ . والمثبت بين الحاصرتين من نسخة ب .

(٨)«البلد» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٨٨ .

الكعبة ، وأمرهم بالحج إلى قبر أبيه ، وكانوا يحملون إليها من الأموال كل سنة مالا يحد ولا يوصف[١] ، ويطوفون حولها مثل مايطاف [٢] با لكعبة ، ومن لم يحمل مالا قتله ، وكانوا يقصدونها من البحر ، فاجتمع فيها أموال عظيمة . وأقام عبد النبى على الظلم والفسق والفجور ، وذبح الأطفال ، وسفك الدماء ، وسبى النساء ، إلى أن دخل شمس الدولة إلى اليمن وجاء إلى زبيد . فيقال : إنه حصر عبد النبى فيها وأمَّنه وقيده وقتله . ويقال : أنه انهزم بين يديه ، وجاء إلى قبة أبيه فهدمها ، وأخذ ماكان فيها من المال والجواهر والفضة ، وكان على ستمائة جمل ، ونبش القبر وأحرق عظام أبيه وذراها فى الريح . ومضى إلى صنعاء ، فحلف شمس الدولة أنه لا ينتهى عنه حتى يقتله ويحرقه كما فعل بأبيه ، وصار خلفه فرجع إلى زبيد ، وعاد شمس الدولة إليها فظفر به ، فأخذ ماكان معه وقتله وصلبه وحرقه كما فعل بعظام أبيه .

وفى تاريخ ابن كثير[٣] : ولما وصل شمس الدولة زَبِيد ، خرج إليه عبد النبى فقاتله ، فانهزم ، وأسره شمس الدولة وأسر زوجته الحرة ، وكانت ذات أموال جزيلة ، فاستقرها على أشياء جزيلة ، وذخائر جليلة ، ونهب الجيش زَبِيدَ ، ثم سار إلى عدن فقاتله صاحبها ياسر ، فهزمه توران شاه ، وأخذ البلد بيسير [من الحصار] [٤] ومنع الجيش من نهبها . وقال : ماجئنا لنخرب البلاد ، وإنما جئنا لعمارتها وملكها . ثم سار فى الناس سيرة حسنة عادلة فأحبوه . واستوسق[٥] له ملك اليمن ، وخَطب فيها للخليفة العباسى المستضىء[٦] بأمر الله ، وقتل الداعى المسمى بعبد النبى [٧] .

---

(١) «يحصى» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٨٩ .

(٢) «يطوفون» فى المرآة ، ج٨ ، ص١٨٩ .

(٣) انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٣ ـ ٢٩٤ ، حيث ينقل عنه العينى .

(٤) مابين الحاصرتين إضافة للتوضيح من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٣ .

(٥) استوسقت الإبل أى اجتمعت . انظر : القاموس المحيط ، ج٣ ، ص٢٩٩ . مادة «وسق» .

(٦) هو : أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله يوسف بن المقتفى محمد بن المستظهر أحمد . بويع بالخلافة بعد أبيه وتلقب بالمستضىء . وكانت وفاته سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م . انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٤ ؛ الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ، ج١ ص٢١٢ ـ ٢١٣ .

(٧) إلى هنا انتهى نقل العينى عن البداية والنهاية بتصرف ، ج١٢ ، ص٢٩٣ ـ ٢٩٤ .

ومنها إرسال صلاح الدين بالهدايا إلى نور الدين (رحمه الله) .

قال ابن أبى طىّ [١] : وفى هذه السنة وصل رسول نور الدين ، وهو الموفق بن القيسرانى ، واجتمع بالملك الناصر ، وأنهى إليه رسالة نور الدين ، وطالبه بحساب جميع ماحصّله وارتفع إليه من ارتفاع[٢] البلاد ، فصعب ذلك على السلطان ، وأراد شق العصا ، لولا ما ثاب إليه من السكينة ثم أمر النواب بعمل الحساب ، وعرضه على ابن القيسرانى ، وأراه جريدة [٣] الأجناد بمبلغ إقطاع وكميات جامكيتهم[٤] ورواتب نفقاتهم . فلما حصل عنده جميع ذلك ، أرسل معه هدية[٥] إلى نور الدين على يد الفقيه [عيسى][٦] . قال : ووقفت على برنامج شرحها بخط الموفق بن القيسرانى وهى : خمس ختمات[إحداها][٧] ختمة ثلاثون جزءاً مغشاة بأطلس[١٨٣و] أزرق ، مضببة بصفائح ذهب ، وعليها أقفال ذهب ، مكتوبة بذهب ، بخط يانسى[٨] ؛ وختمة بخط راشد مغشاة

(١) انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٨ حيث أورد أقوال ابن أبى طى ؛ مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٥٧ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص٥٢ .

(٢) الارتفاع : مايتحصل من الدواوين عامة . انظر : السلوك ، ج١ ق١ ، ص٥٢ .

(٣) فى الروضتين« جرائد الأجناد بمبالغ إقطاعهم وتعيين جامكياتهم» انظر : ج١ ق٢ ، ص٥٥٨ .

(٤) الجامكية : رواتب الجند بصفة عامة . انظر :صبح الأعشى ، ج٣ ،ص٤٥٧ ؛ وانظر أيضًا : Dozy: Supp. Dict. Ar

(٥) انظر ذكر تفصيل الهدية فى السلوك ، ج١ ق١ ، ص٥٤ ـ ٥٥ .

(٦) «الساعى» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٨ . وقد صحح العينى الاسم بعد ذلك حين ذكر تفصيل الهدية فيما بعد . وهو : الفقيه أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد بن أحمد بن يوسف . ويقال له الهكارى ، الملقب ضياء الدين . توفى بمنزلة الخروبة سنة ٥٨٥ هـ /١١٨٩م . انظر : الفتح القسى ، ص٣٥٥ ؛ الكامل : ج١٠ ، ص١٩٠ ؛ مضمار الحقائق ، ص٢٩٦ ـ ٢٩٧ ؛ وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٩٧ .

(٧) «أحديها» فى الأصل : والتصحيح من الروضتين ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٥٨ .

(٨) لعله الخط اليابس . وقد ذكر القلقشندى فى صبح الأعشى أن ابن الحسين ذكر فى كتابة «الأبحاث الجميلة فى شرح العقيلة» فى قلم الثلث : « أن الخط الكوفى فيه عدة أقلام مرجعها إلى أصلين وهما التقوير والبسط . فالمقور هو المعبر عنه الآن باللين . . . والمبسوط هو المعبر عنه الآن باليابس وهو مالا انخساف وانحطاط فيه كالمحقق» . انظر : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص١١ . وقد ذكر فوزى سالم عفيفى فى كتابه « نشأة وتطور الكتابة الخطية العربية» : أن الخط اللّين والخط اليابس كانا موجودين قبل الإسلام . بدليل النقوش النبطية التى تغلب عليها اليبوسة والليونة معا . انظر : ص١١٥ .

بديباج فُسْتُقى عشرة أجزاء ؛ وختمة بخط ابن البواب[(١)] ، مجلد واحد بقفل ذهب ؛ وختمة بخط مهلهل ، جزء واحد ، وختمة بخط الحاكم البغدادى ؛ وثلاثة أحجار بلخش[(٢)] ، حجر وزنه اثنان وعشرون مثقالا ، وحجر وزنه اثنا عشر مثقالا ، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف ؛ وست قصبات زمرد[(٣)] ، قصبة وزنها مثقالان وربع وسدس ، وقصبة وزنها مثقالان وثلث ، وقصبة وزنها مثقالان ونصف ، وقصبة وزنها ثلاثة عشر مثقالا وثلث وربع ، وقصبة وزنها ثلاثة مثاقيل ؛ وحجر ياقوت وزنه سبعة مثاقيل ؛ وحجر أزرق وزنه ستة مثاقيل وسدس ؛ ومائة عقد جوهر مختومة وزنها [(٤)] ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالا ؛ و[خمسون][(٥)] قارورة دهن بلسان[(٦)] ، وعشرون قطعة بلور ؛ [أربع عشرة قطعة][(٧)] جزع[(٨)] ، وذكر تفصيلها ؛ إبريق يشم [(٩)] ، طشت يشم سقرق [(١٠)] مينا مذهب ؛ صحون صينى وزبادى وسكارج [(١١)] ؛ أربعون قطعة عود طيب ، قطعتين كبار ؛ كرتان وزن أحديهما ثلاثون رطلا

---

(١) هو : أبو الحسن على بن هلال المعروف بابن البواب الكاتب المشهور ، لم يوجد فى المتقدمين ولا المتأخرين من كتب مثله ولا قاربه من خط الكوفيين . توفى سنة ٤٢٣هـ/١٠٣٢م ، وقيل ٤١٣ هـ/١٠٢٢م . انظر ، وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٣٤٢ ؛ صبح الأعشى ، ج٣ ، ص١٣ ذكر «أن» : ابن البواب هو الذى أكمل قواعد الخط وتممها واخترع غالب الأقلام التى أسسها ابن مقلة» .

(٢) البلخش : يسمى اللَّعْلَ ، وهو من نفائس الأحجار . انظر : صبح الأعشى ، ج٢ ، ص٩٩ - ١٠٠ .

(٣) لم يذكر أبو شامة فى كتابه الروضتين غير خمس قصبات مع اختلاف فى الترتيب . ج١ ق٢ ، ص٥٥٨ .

(٤) «وزنها جميعها» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٥٨ .

(٥) ما بين الحاصرتين ساقط من نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٨ لاستقامة النص ؛ انظر أيضًا : السلوك ، ج١ق١ ، ص٥٤ .

(٦) البلسان : هو شجر كثير الوجود فى سورية ، له زهر أبيض صغير عطرٌ فى عناقيد منبسطة . الواحدة بيلسانة ، كبير النفع فى التفتيح والتحليل . انظر : محيط المحيط ، ج١ ص ١٥٠ ؛ Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٧) «وقطعة» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، الذى ينقل عنه العينى ، ج١ق٢ ، ص٥٥٨ .

(٨) الجَزْع : هو الخرز اليمانى . فيه سواد وبياض . والمقصود هنا الآنية المصنوعة من الصينى المجزع . انظر : Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٩) اليشم : هو من الأحجار غير النفيسة . انظر : صبح الأعشى ، ج٢ ، ص١١٨ ؛ مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٢٤ ، حاشية٣ حيث ذكر أن : اليشم واليشب حجر ثمين قريب من الزبرجد ، منه الأبيض والأصفر والزيتى ؛ انظر أيضًا : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ص٧٠ .

(١٠) سقرق : لعلها محرفة عن السكرك . فقد ذكر فى لسان العرب : « السُكُرْكَة خمر الحبشة ، وذكر فى المعرب أن السكركة ضرب من الشراب تتخذه الحبش من الذرة ، وهى تسكر . ولعل المقصود هنا الآنية الخاصة بهذا الشراب . انظر : لسان العرب مادتى «س ك ر » ، « س ك ر ك» . ؛ المعرب ، ص٢٨٤ ؛ السلوك ، ج١ ق١ ، ص٥٥ .

(١١) الزبادى : جمع زبدية ، وهى وعاء الشراب . وسكارج جمع سكُرُجة : لفظة فارسيه تعنى الإناء الصغير أو الصحفة ، يؤكل فيه الشئ القليل . انظر : لسان العرب ، مادة «سكرج» ؛ Dozy : Supp. Dict. Ar.

بالمصرى والأخرى[واحد](١) وعشرون رطلا ؛ ومائة ثوب أطلس ؛ وأربعة وعشرون بَقْيَاراً(٢) مُذهبة ؛ وأربعة وعشرون ثوبا حريريا ؛ وأربعة وعشرون ثوبا من الوَشى حريرية بيض ؛ حلة فلفلى مذهبة ؛ حلة مرايش صفراء مُذهبة . وذكر غير ذلك أنواعا من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية ، وعدة من الخيل والغلمان والجوارى ، وشيئًا كثيرا من السلاح على اختلاف ضروبه . قال : وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل إلى نور الدين ؛ لأنه(٣) اتصل بهم وفاته ، فمنها ما أعيد ومنها ما استهلك ، لأن الفقيه عيسى وابن القيسرانى وضعا [عليها من نهبها] (٤) واستبدًا بأكثرها . وقيل إنها وصلت جميعها إلى السلطان ؛ لأنه اتصل به خبر موت نور الدين ؛ فأنفذ مَن ردّها .

قال : وحدثنى من شاهد هذه الهدية أنه كان معها عشرة صناديق مالاً لايعلم(٥) مقداره(٦) .

ومنها أن صلاح الدين صلب فى رمضان منها جماعة من أعيان المصريين ؛ فإنهم قصدوا الوثوب عليه ، وإعادة الدولة العلوية (٧) ، فعلم بهم وصلبهم عن آخرهم (٨) . فمنهم عبد الصمد الكاتب ، والقاضى[العويرس](٩) ، وداعى الدُعاة(١٠) ، وعمارة بن على اليمنى الشاعر الفقيه الشافعى .

---

(١)« أحد» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين هو الصحيح لاستقامة النص .

(٢) بقيارا : كلمة فارسية ومعناها سجادة سوداء مصنوعة من وبر الجمل . انظر السلوك ، ج١ق١ ، ص٥٥ ، حاشية٤ ، وقد ذكر دوزى أنها نوع من العمائم الكبار كالتى يلبسها الوزراء وأصحاب القلم . انظر أيضا : مفرج الكروب ، ج٣ ، ص٢٤٥ ، حاشية٢ .

(٣)« لأنهم» فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٩ .

(٤)«وضعا عليهم من نهبهم» فى نسختى المخطوطة . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ج١ق٢ ، ص٥٥٩ .

(٥) «لم يعلم» ، فى الروضتين ج١ق٢ ، ص٥٥٩ .

(٦) نهاية قول ابن أبى طىّ المنقول من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٩ .

(٧) قصد بها الدولة العبيدية وهى : الدولة الفاطمية نسبة إلى مؤسسها المهدى بالله أبو محمد عبيد الله بن الحسن بن محمد بن على الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين ، السبط ابن على بن أبى طالب ، رضى الله عنهم . وهى فى الفترة ما بين ٢٩٧هـ -٥٦٧ هـ / ٩١٠م -١١٧١م . انظر : الجوهر الثمين ، ج١ ، ص٢٤١ -٢٤٣ ؛ تاريخ الدول الإسلامية ، ج١ ، ص١٣١ - ١٣٥ .

(٨) انظر تفصيل هذه الحادثة فى الكامل ، ج١٠ ، ص٥٣ - ٥٥ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٦٠ - ٥٦٤ ومابعدها ؛ مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٤٣ - ٢٤٤ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٨٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٤ - ٢٩٦ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص٥٣ - ٥٤ .

(٩) «العويرس» فى الأصل وكذا فى الكامل ، ج١٠ ، ص٥٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٥ ؛ والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين نقلاً عن ابن أبى طى ، ج١ق٢ ، ص٥٦١ . وهو القاضى الأعز أبا محمد الحسن بن على بن سلامة ، المعروف بالعويرس . انظر : اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٢٧٨ . وقد ذكر فى السلوك ، ج١ق١ ، ص٥٣ أنه : سلامة العوريس .

(١٠) هو : عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوى ، داعى الدعاة . انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٥ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص٥٣ .

وفى تاريخ ابن كثير[١] : اجتمع نجم الدين عمارة الشاعر اليمنى الفقيه الشافعى مع جماعة من رؤس الدولة الفاطمية الذين كانوا حكاما ، فاتفقوا فيما بينهم أن يعيدوا الدولة الفاطمية ، وكتبوا إلى الإفرنج يستدعونهم إليهم ، وعينوا خليفة من ذرية الفاطميين ، ووزيرا وأمراء فى غيبة السلطان صلاح الدين ببلاد الكرك ، ثم اتفق مجيؤه وحرض عمارة اليمنى شمس الدولة توران شاه على المسير[٢] إلى اليمن ؛ ليخف الجيش ويضعف عن مقاومة الفرنج إذا قدموا لنصرة الفاطميين . فخرج توران شاه ولم يخرج معه عمارة إلى اليمن ، بل أقام بالقاهرة يفيض فى هذا الحديث ، [ويداخل][٣] المتكلمين فيه ، وكان من أكابر الدعاة إليه والمحرضين[١٨٣ظ] عليه . هذا وقد أدخلوا معهم فى هذا الأمر بعض من ينسب إلى الملك الناصر ؛ وذلك من قلة «عقلهم وكثرة جهلهم»[٤] . فخانهم أحوج ماكانوا إليه ، وهو الشيخ زين الدين على بن نجا الواعظ[٥] ، جاء إلى السلطان الملك الناصر ، فأخبره بما تمالأ القوم عليه ، وبما انتهى أمرهم إليه ، فأطلق له السلطان أموالا جزيلة ، وأفاض عليه حللا جميلة ، ثم استدعاهم السلطان واحداً واحداً ، فقررهم فأقروا له بذلك ، فاعتقلهم ، ثم استفتى الفقهاء فى أمرهم فأفتوه بقتلهم[٦] ، وتبدد شملهم . فعند ذلك أمر بصلب رؤوسهم وأعيانهم دون أتباعهم وغلمانهم ، وأمر بنفى من بقى من جيش العبيديين إلى أقاصى البلاد ، وأفرد ذرية العاضد وأهل بيته فى دار ، فلا يصل إليهم إصلاح ولا إفساد ، وأجرى عليهم من الأرزاق كفايتهم[٧] . وقد كان عمارة معاديا للقاضى الفاضل[٨] فلما أحضر بين يدى السلطان ، قام القاضى الفاضل فاجتمع

---

(١) انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٤ ، حيث نقل العينى عنه بتصرف .

(٢) « المصير» فى نسختى المخطوطة وهو خطأ . والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٤ .

(٣) «ويتداخل» فى نسختى المخطوطة أ ، ب ، والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٤ ، وهو أولى .

(٤) « عقولهم وتعجيل دمارهم» فى البداية والنهاية ج١٢ ، ص٢٩٤ .

(٥) هو : زين الدين أبو الحسن على بن إبراهيم بن نجا بن غنايم الأنصارى . الفقيه الواعظ ، المعروف بابن نجيّة . توفى سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢م بمصر . انظر : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٥٣٠ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٣٤ ، طبقات الحنابلة ، ج١ ، ص٤٣٦ ؛ الدارس ، ج٢ ، ص٦٧ .

(٦) عن هذه الحادثه انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٦٠-٥٦١ .

(٧) « مايليق بهم من الأرزاق والثياب» فى البداية والنهاية : ج١٢ ، ص٢٩٥ .

(٨) هو : أبو على عبد الرحيم بن على بن الحسن بن البيسانى ، المولى الأجل القاضى الفاضل . وقد عاصر فترتين من فترات الحكم فى مصر ، سقوط الفاطمى وقيام الأيوبى . كما كان صاحب ديوان الإنشاء فى عهدى شيركوه وصلاح الدين وقد جعله صلاح الدين كاتبه وصاحبه ووزيره ، واعتمد عليه فى كل مايتعلق بشئون دولته . توفى بالقاهرة . سنة٥٩٦هـ/١٢٠٠م . انظر :خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص٣٥ ؛ وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص١٥٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٢٧ - ٢٩ .

بالسلطان ليشفع فيه ، فتوهم [عمارة][١] أنه يكلمه فيه فقال : يامولانا السلطان لاتسمع منه . فغضب القاضى الفاضل ، ونهض وخرج من القصر ، فقال له السلطان : إنه كان قد شفع فيك ، فندم ندماً عظيماً ، ولما ذهب به ليُصْلب اجتاز بدار القاضى ، فطلبه ، فتغيب عنه ، فأنشد عند ذلك :

عُبَيدُ[٢] الرحيم قد احْتجَبْ إنَّ الخلاصَ هو الْعَجَبْ[٣]

وفى تاريخ الدولتين[٤] : وكان صلب المذكورين يوم السبت ثانى شهر رمضان ، وكان الذين صلبوا منهم : المفضل[٥] بن كامل[٦] القاضى ، وابن عبد القوى الداعى ، والعويرس[٧] ، وكان قد تولى ديوان النظر[٨] ثم القضاء بعد ذلك ، وشبرما[٩] كاتب السر ، وعبد الصمد أحد أمراء المصريين ، ونجاح الحمامى ، ورجل منجم نصرانى أرمنى ، كان قال لهم إن أمرهم يتم بطريق علم النجوم ، وعمارة اليمنى الشاعر .

قال العماد فى البرق : ووصل من صلاح الدين يوم وفاة نور الدين إلى دمشق كتاب يتضمن هذه القضية ، وهو بخط ابن قريش يعنى المرتضى[١٠] . وفى قضية عماره هذه

---

(١) مابين الحاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٥ .

(٢) «عبد» فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٥ .

(٣) انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٦٩ .

(٤) انظر : الروضتين ج١ ، ق٢ ، ص٥٦٠ ـ ٥٦٢ . حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(٥) «الفضل» فى نسخة ب ، أما المقريزى فقد ذكر فى السلوك ، ج١ق١ ، ص٥٣ : أنه : القاضى المفضل ضياء الدين نصر الله بن عبد الله بن كامل وهو خطأ . وقد ذكر العماد أنه : أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل ، القاضى المفضل ، قاضى قضاة الديار المصرية زمن الفاطميين ، الملقب بفخر الأمناء . انظر : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص١٨٦ ـ ١٨٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٥ ؛ اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٢٢٣ ، ٢٧٨ ، ٣١٨ . ويؤيد ذلك ماذكر فى الروضتين ، ج١ ق ٢ ، ص٥٦١ .

(٦) «ابن كامل» مكرر فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ج١ ق ٢ ، ص٥٦١ .

(٧) «العورس» فى نسخه ب .

(٨) تقاصر منصب الوزارة بمصر منذ عصر الأيوبين وشارك الوزير فى أعماله وتصريفها النظارُ . وتنوعت ألقاب هؤلاء بحسب الأعمال التى آلت إليهم فمنهم ناظر الدولة ويسمى أيضًا ناظر الدواوين وأحيانا ناظر النظار أو الصاحب الشريف . وعمله مشاركة الوزير فى التصرف عامة ، والنظر فى المالية وأرزاق أصحاب القلم من الموظفين خاصة . ومقره ديوان النظر . انظر : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص ٤٦٥ ـ ٤٦٦ .

(٩) «شهريا» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٦١ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص٥٧ .

(١٠) هو : القاضى المرتضي صفى الدين أبو المجد عبد الرحمن بن على بن عبد العزيز بن على بن قريش المخزومى ، أحد كتاب الإنشاء فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . وهو صاحب قيسارية ابن قريش بالقاهرة . قتل شهيدا على عكا سنة ٥٨٦ هـ /١١٩٠م . المقريزى : الخطط ، ج٢ ص٨٦ .

يقول : العلامة تاج الدين[١] الكندى ـ رحمه الله ـ قال أبو شامة[٢] : نقلته من خطه :

عُمارَةُ فى الإسلام أبْدَى خيانةً[٣]		وبايعَ فيها بَيْعةً وصَليبَا
وأمسى شريكَ الشِّرك فى بُغض أحمد		فأصْبح فى حُبِّ الصَّليبِ صَليبَا
وكان حثيث[٤] الملتقَى إنْ عَجَمْتَهُ		تجِدْ منه عُودًا فى النِّفاقِ صَليبَا
سيلقى غدًا مَا كان يَسْعَى لأجْله		ويُسْقى صَديدًا فى لظى وصَليبَا

قلت[٥] : الصليب الأول صليب النصارى ، والثانى بمعنى مصلوب ، والثالث من الصلابة ، والرابع وَدَك العظام . وقيل هو الصديد أى يُسقى ما يسيل من أهل النار ، نعوذ بالله منها[٦] . وقال ابن أبى طىّ الحلبى : وكان[٧] داعى الدعاة يعلم بدفائن القصر ، فعوقب ؛ ليُعْلِم بها ، فامتنع من ذلك ، فمات واندرست .

ذكر ماجريات نور الدين (رحمه الله)

منها أن نور الدين قد فتح من حصون الروم مرعش [٨] وغيرها [٩] ، ومليح بن لاون متملك الأرمن فى خدمته[١٠] ، ووصل إلى خدمته أيضا ضياء الدين مسعود بن

(١) هو : الشيخ العلامة تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد الكندى المقرىء النحوى الأديب . توفى سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م . انظر : الذيل على الروضتين ، ص ٩٥ ـ ٩٩ ؛ وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٣٣٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٧٨ ـ ٨١ .

(٢) ينقل العينى قول تاج الدين الكندى من الروضتين ج١ ق٢ ، ص٥٦٦ ، وانظر أيضا قول الكندى فى النكت العصرية ، ص٣٩٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٦ ، ج١٣ ، ص٨٠ ـ ٨١ حيث أورد الأبيات بطريقة مختلفة .

(٣) «جناية» فى الروضتين ج١ق٢ ، ص٥٦٦ الذى ينقل عنه العينى ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٦ .

(٤) «خبيث» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٦٦ .

(٥) القول هنا لأبى شامة فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٦٦ .

(٦) انتهى نقل العينى بتصرف من الروضتين ، وقد أورد أبو شامة بعد ذلك أبياتا كثيرة لعمارة فى مدح الفاطميين . انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٦٦ ـ ٥٦٩ .

(٧) بالرجوع إلى الروضتين وجدنا أن هذا القول هو للعماد وليس لابن أبى طى . انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٦١ .

(٨) مرعش : مدينة فى الثغور بين الشام وبلاد الروم وفى وسطها حصن . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤٩٨ ؛ تقويم البلدان ، ص٢٦٢ .

(٩) انظر ذكر باقى الحصون فى الباهر ، ص١٦٠ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص٤٨ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٢ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٤٢ ـ ٥٤٤ ؛ زبدة الحلب ، ج٢ ، ص٣٣٧ ـ ٣٣٨ .

(١٠) يذكر ابن الأثير فى كتابه الباهر دواعى استخدام نور الدين لمليح بن ليون بالتفصيل . انظر : الباهر ، ص١٦٩ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص٤٦ ؛ زبدة الحلب ، ج٢ ص٣٣٧ . وهو مليح بن ليون الأرمنى صاحب بلاد الدروب المجاورة لحلب .

قفجاق[١] صاحب ملطية[٢] ، وكان فى خدمته أيضا الأمراء من البلاد[٣] [١٨٤و] ، وأظهر أنه ينزل على قلعة الروم[٤] على[٥] الفرات ، فبذل له صاحبها خمسين ألف دينار على سبيل الجزية ، ثم عاد إلى حلب ، وأراد أن يُسرع إلى دمشق ، فتوقف لمرض سَرِيتّه ، فتصدق عنها بألوف ، والتزم لله فى شفائها بنذور ووقوف ، ثم سيرها فى محفة تحمل على أيدى الرجال ، وتأخر نور الدين جريدة مع عدة من مماليكه ، ثم سار على طريق سَلَمْية[٦] ، فجاءَه الخبر أن الفرنج قد أغارت على حوران [٧] ، فثنى إلى الجهاد العنان ، وسمع الفرنج به فتفرقوا ، ودخل دمشق[٨] .

ومنها أنه فى جمادى الأولى أبطل فريضة الأتبان [٩] ، وكتب بذلك منشوراً[١٠] وعلامته بخطه «الحمد لله» . يقول فيه : وبعد فإن من سُنتنا العادلة ، وسير آبائنا الزاهرة ، وعوائد دولتنا القاهرة ، إشاعة المعروف ، وإغاثة الملهوف ، وإنصاف المظلوم ، وإعفاء رسم ما سنّه الظالمون من جائرات الرسُوم . ومانزال نجدّد للرعيَة رسماً من الإحسان يرتعون فى رياضة ، ويرتوون من[١١] حياضه ، ونستقرئ أعمال بلادنا المحروسة ، ونصفّيها من الشبه والشوائب ، ونلحق مايعثر عليه من بواقى رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس

---

(١) هكذا ورد الاسم فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٤٩ . وقد أجمعت المصادر على أن ملطية وسيواس كانتا تابعتين لسلاجقة الروم وبالتحديد لعز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش بن أرسلان بيغو بن سلجوق سلطان الروم . الذى حكم من سنة ٥٥١هـ - ٥٨٤ هـ/١١٥٦-١١٨٨م - المتوفى سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م . انظر : الباهر ، ص ١٦٠ ، ١٦٩ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص٤٨ ؛ زبدة الحلب ، ج٢ ، ص٣٣٧ ؛ مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٤١١-٤١٣ ؛ تاريخ الدول الإسلامية ، ج١ ، ص٣١٣ - ٣٢٥ .

(٢) بلدة من بلاد الروم مشهورة تتاخم الشام . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٣٣ - ٦٣٤ .

(٣) أوضح أبو شامة البلاد بأنها هى : المِجْدل ، وهى بلد من إقليم الخابور إلى جانبه تل عليه قصر ، والخابور : اسم نهر كبير بين رأس عين والفرات . انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٤٩ - ٥٥٠ ، وانظر أيضًا : معجم البلدان ، ج٤ ص٤١٨ .

(٤) هى قلعة حصينة فى غربى الفرات مقابل البيرة بينها وبين سميساط . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٨٧ .

(٥) « من» فى نسخة ب .

(٦) هى : بليدة فى ناحية البرية من أعمال حماة . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٢٣ - ١٢٤ .

(٧) هى : كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة ذات قرى كثيرة . ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٥٧-٣٥٨ .

(٨) انظر هذا الخبر بالتفصيل فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٤٩ - ٥٥٠ .

(٩) عن فريضة الأتبان انظر : ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص٣٤٤ .

(١٠) انظر نص هذا المنشور فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٥٠ - ٥٥١ .

(١١) « فى » نسخة ب .

والضرائب ؛ تقربا إلى الله تعالى ، الكافل لنا بسبوغ المواهب وبلوغ المطالب . وقد أطلقنا جميع ماجرت العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة ، وضياع الغوطة ، والمرج ، وجبل سنير[١] ، وقصر حجاج[٢] ، والشاغور[٣] ، والعقيبة[٤] ، ومزارعها الجارية فى الأملاك ، وجميع مايقُسّط بعد المقاسمة من الأتبان على الضياع الخواص والمقْطعة ، بسائر الأعمال المذكورة ، ووفّرناه على أربابه ؛ طلباً لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه ، وهرباً من انتقامه وأليم عقابه . وسبيل الثواب[٥] إطلاق ذلك على الدوام ، وتعفية آثاره ، [والاستعفاء][٦] من أوزاره ، والاحتراز من التدنس بأوضاره ، وإبطال رسمه من الدواوين ؛ لاستقبال سنة تسع وستين ، ومابعدها على تعاقب الأيام والسنين .

ومنها أن نور الدين تكلف فى هذه السنة بإفادة الألطاف ، والزيادة فى الأوقاف ، وتكثير الصدقات ، وتوفير النفقات ، وكسوة النسوة الأيامى فى أيامها ، وإغناء فقراء الرعية وإنجادها بعد إعدامها ، وصَون الأيتام والأرامل ببَذله ، وعون الضعفاء وتقوية المقوين بعدله[٧] .

ذكر وفاة نور الدين

والكلام فيه على أنواع :

الأول فى ترجمته : هو السلطان الجليل الملك العادل ، أبو الغنائم ، نور الدين محمود[٨] بن الملك الأتابك ، قسيم الدولة عماد الدين أبى سعيد زنكى ، ابن الملك آقسنقر الأتابك الملقب بقسيم الدولة أيضا ، المعروف بالحاجب بن عبدالله . وكان

(١) «شنير» فى نسختى المخطوطة أ ، ب ، وبالبحث لم نجد هذه الكلمة ، وإنما وجدنا سنير ، وهو جبل بين حَمص وبعلبك على الطريق ، وعلى رأسه قلعة سنير . ويمتد غربا إلى بعلبك وشرقا إلى سلمية . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٧٠ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥١ .

(٢) قصر حجاج : محلة كبيرة فى ظاهر باب الجابية من دمشق ، قيل إنه ينسب إلى حجاج بن عبد الملك بن مروان . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص١١٠ .

(٣) الشاغور : محلة بالباب الصغير من دمشق بظاهر المدينة . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٢٣٦ .

(٤) يذكر القلقشندى أن العقيبة تقع فى الجانب الشمالى من دمشق وهى مدينة مستقلة بذاتها ذات أبنية جليلة وعمائر ضخمة . انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٩٤ .

(٥) «النّواب» فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥١ .

(٦) « الاستغناء» كذا فى نسخة أ ، والمثبت من نسخة ب ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٥١ .

(٧) انظر قول العماد فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٦ .

(٨) انظر ترجمته فى الباهر ، ص٤ ومابعدها ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٥ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٦ ومابعدها ؛ وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٨٤ رقم ٧١٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٧ - ٣٠٤ .

آقسنقر[١] مملوك السلطان ملكشاه[٢] ابن السلطان ألب أرسلان السلجوقى كما ذكرنا . فنور الدين أيضا تركى سلجوقى ولاءً ، ولد وقت[٣] طلوع الشمس يوم الأحد السابع عشر من شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة بحلب ، ونشأ فى كفالة والده ، صاحب حلب والموصل وغيرهما من البلدان الكثيرة ، وتعلم الفروسية والرمى .

الثانى فى ألقابه : السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط[١٨٤ظ] نور الدين ، وعدته ركن الدين ، وسيفه قسيم الدولة ، وعمادها اختيار الخلافة ، ومقرها ورضى الإمامة وأمرها فخر الملة ومخبرها شمس المعالى ، وفلكها سيد ملوك الشرق والغرب ، وسلطانها محيى العدل فى العالمين ، منصف المظلومين من الظالمين ، ناصر دولة أمير المؤمنين . ثم إن نور الدين أسقط الجميع قبل موته ، وقال : اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكى .

ورُوى أنه كتب رقعة بخطه إلى وزيره خالد بن القيسرانى ، يأمره أن يكتب له صورة مايدعى له «به»[٤] على المنابر ، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب ، ولئلا يقول ما ليس فيه ، فكتب ابن القيسرانى كلاماً ، ودعا له فيه ، ثم قال : وأرى أن يقال على المنبر : اللهم وأصلح عبدك الفقير إلى رحمتك ، الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد فى سبيلك ، المرابط لأعداء دينك ، أبا القاسم محمود بن زنكى ، ابن آقسنقر ، ناصر أمير المؤمنين . فإن هذا مايدخله كذب ولا تزيد[٥] . فكتب نور الدين على رأسها بخطه : مقصودى أن لا يكذب على المنبر ، أنا بخلاف كل ما يقال ، [لا] [٦] أفرح بما لا أعمل .

---

(١) هو : أبو سعيد آق سنقر بن عبد الله ، الملقب قسيم الدولة ، المعروف بالحاجب . جد البيت الأتابكى أصحاب الموصل . قتله تاج الدولة تتش سنة ٤٨٧ هـ/١٠٩٤م . وهو غير آق سنقر البرسقى الذى قتلته الباطنية سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م . انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ؛ ص٢٤١ ؛ الكامل ، ج٨ ، ص٤٩٤ ـ ٤٩٥ ؛ البداية والنهاية : ج١٢ ،ص١٥٧ ؛ النجوم ، ج٥ ، ص١٤١ .

(٢) هو : أبو الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق ، الملقب جلال الدولة . كان من أحسن ملوك السلاجقة سيرة حتى كان يلقب بالسلطان العادل .حكم من ٤٦٥هـ ـ ٤٨٥هـ/ ١٠٧٣-١٠٩٢م . وتوفى سنة ٤٨٥ هـ . انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٢٨٣ ؛ الكامل ، ج٨ ، ص٤٨١ ـ ٤٨٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص١٥١ـ ١٥٣ . وعن السلاجقة فى غرب آسيا انظر : تاريخ الدول الإسلامية ، ص٣١٣ ـ٣٢٢ .

(٣) «قبل» فى نسخة ب .

(٤) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٥) انظر : الروضتين ، ج١ق١ ، ص٣٠ .

(٦) مابين الحاصرتين إضافة لاستقامة النص .

الثالث فى صفته : قال ابن خلكان(١) : كان أسمر اللون ، طويل القامة ، حسن الصورة ، ليس بوجهه شعر سوى ذقنه . وقال ابن كثير(٢) : كان حلو العينين ، واسع الجبين ، تركى الشكل ، ليس له لحية إلا فى حنكه . وفى المرآة(٣) : وكان معتدل القامة ، واسع الجبهة ، بلحيته شعرات خفيفة فى حنكه . ونشأ على الخير والصلاح وقراءَة القرآن والعبادة .

الرابع فى سيرته : كان ملكا مهيبا متواضعا ، عليه جَلالة ونور ، [يعظم الإسلام وقواعد الدين ، ويعظم الشرع(٤)] . وقال ابن خلكان(٥) : وكان ملكا عادلا ، زاهدا ، عابدًا ، ورعاً ، مستمسكا بالشريعة ، مائلا إلى أهل الخير ، مجاهدًا فى سبيل الله .

وفى تاريخ الدولتين(٦) : ولقد كان من أولياء الله المؤمنين ، وعباده الصالحين ، وجمع الله له من العقل المتين ، والرأى الثاقب الرصين ، والاقتداء بسيرة السلف الماضيين ، والتشبه بالعلماءِ والصالحين ، والإصغاء لسيرة مَن سلف منهم فى حسن سمتهم ، والاتباع لهم فى حفظ حالهم ووقتهم ، حتى روى فى حديث المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأسمعه . وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه ؛ حرصا منه على الخير فى نشر السنة بالأداءِ والتحديث ، رجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثًا ، كما جاءَ فى الحديث . فمن رآه شاهد من جلال(٧) السلطنة ، وهيبة الملك مايبهره ، فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه مايحيره . يحبُ الصالحين ، ويؤاخيهم ، ويزورُ مساكنهم . لحسن ظنه فيهم ، وإذا احتلم مماليكه أعتقهم ، وزوَّج ذكرانهم بإناثهم ورزقهم ؛ ومتى تكررت الشكاية إليه من أحد من ولاته ، أمره بالكف عن أذى من تظَّلم

---

(١) انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٨٨ .
(٢) انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٤ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٧١ .
(٣) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٢ .
(٤) «عليه جلالة ونور الإسلام وتعظيم قواعد الشرع» فى نسختى المخطوطة أ ، ب ، والمثبت بين الحاصرتين من البداية والنهاية ج١٢ ، ص٣٠٢ لدقة المعنى .
(٥) انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٨٥ .
(٦) انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٠ ـ ٥٨١ حيث ينقل العينى بتصرف عن أبى شامة .
(٧) «خلال» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ص٥٨١ ، الذى ينقل عنه العينى . ويبدو أن هذا خطأ مطبعى فى الروضتين .

بشكاته ، فمن لم يرجع منهم إلى العدل ، قابله بإسقاط المنزلة والعزل . فلما جمع الله له من شريف الخصال ، يسر له جميع مايقصده من الأعمال ، وسهل على يديه فتوح[1] الحصون والقلاع ، ومكن له فى البلدان والبقاع[2] .

وفى تاريخ ابن العميد : وكان ملكا عظيما ، جليلا ، عابدًا ، سخيا ، كريما ، صالحا ، معدودا من الأبدال[3] . وفى تاريخ ابن العميد : ولما اشتهر من قلة ابتهاجه بالشعر ، لما علم من تزيد الشعراء ، وهى طريقة عمر بن عبد العزيز(رضي الله عنه) زاهد الخلفاء .
قال يحيى بن محمد الوهرانى فى مقامة له ، وقد سئل فى بغداد عن نور الدين : هو سهم للدولة سديد ، وركن للخلافة شديد ، وأمين زاهد[١٨٥و] وملك مجاهد ، تُساعده الأفلاك ، وتعضده الجيوش والأملاك ، غير أنه عرف بالمرعى الوَبيل لابن السبيل ، وبالمحل الجدب[4] للشاعر الأديب ، فما يرزى ولا يعزى ، وما لشاعر عنده من نعمة تجزى ، وإياه عُنى أسامة بن منقذ[5] بقوله :

سلطاننا زاهد والناسُ قد زهدوا [له][6] فكلٌّ على الخيرات مُنكمشُ
أيامُه مثل شهر الصوم طاهرةٌ من المعاصى وفيها الجوعُ والعطشُ

وقال صاحب التاريخ : ماكان يبذل أموال المسلمين إلا فى الجهاد ، ومايعود نفعه على العباد ، وكان كما قيل فى حق عبد الله بن محيريز ؛ وهو من سادات التابعين بالشام . قال يعقوب بن سفيان الحافظ : حدثنا ضمرة عن الشيبانى[7] قال : كان ابن الديلمى من

---

(١) «فتح» فى نسخة ب .
(٢) عن هذه الصفة لنور الدين انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٣ ، حيث ينقل أبو شامة هذا القول عن ابن عساكر .
(٣) الأبدال : قوم بهم يقيم الله عز وجل الأرض وهم سبعون ؛ أربعون بالشام وثلاثون بغيرها ، لايموت أحدهم إلا قام مكانه آخر من سائر الناس . انظر : الفيروز آبادى : القاموس المحيط ، مادة بدل ، ج٣ ، ص٣٤٤ ؛ ابن عربى : الفتوحات المكية ، السفر الأول ، ص٥٣ ، ط . هيئة الكتاب ، القاهرة ١٩٨٥م .
(٤) «الجديب» فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٤ .
(٥) هو : أبو المظفر أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى الشيزرى ، مؤيد الدولة مجد الدين ، من أكابر بنى منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم . له تصانيف عديدة فى فنون الأدب . توفى سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م . انظر : ترجمته فى الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٤٩٨ ـ ٥٤٧ ؛ وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٩٥ .
(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٥١٦ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٨٤ .
(٧) «ضمرة الشيبانى» فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٤ .

أنصر الناس لإخوانه ، فذكر ابن محيريز فى مجلسه ، فقال رجل : «كان رجلا بخيلا»[١] ، فغضب ابن الديلمى وقال : كان جوادا حيث يحب الله ، بخيلا حيث تحبون . وأما شعر ابن منقذ فلا اعتبار به ، فهو القائل فى ليلة الميلاد يمدح نور الدين :

فى كلِّ عـــامٍ للبـــريَّةِ ليلةٌ فيـهـا [تُشَبُّ][٢] النارُ بالإيقـادِ

لكِنْ لنورِ الدِّين مِن دُونِ الورَى نارينِ نارُ قِـرًى ونارُ جـهـادِ

أبدًا يُصَـرِّفُـهـا نداهُ وبأسُـه فـالعـامُ أجـمعُ ليلةَ المـيـلادِ

مَلكٌ له فى كلِّ جـيـدٍ مِنَّةٌ أَبْهَى من الأَطْواقِ فى الأَجْـيـادِ

أعلى الملوكَ يدًا وأَمْنعُهم حِمًى وأمَـدُّهم كـفًّـا ببَـذْلِ تلادِ

يعْطِى الجَزيلَ مِن النوالِ تبرُّعًا مِن غـيـرِ مَسْـألةٍ ولا مِـيـعـادِ

لازالَ فى سَـعْـدٍ ومُلْكٍ دائمٍ مـادامَت الدُّنيـا بغـيـرِ نفـادِ

ولقد أكثر ابن منير[٣] ، وابن القيسرانى[٤] ، والعماد الكاتب وغيرهم من مدح نورَ الدين بالكرم والجود ، «وذلك كله»[٥] يردّ قول الوهرانى[٦] وابن منقذ . على أن ابن منقذ قد رددنا شعره لشعره كما تراه . وإنما الشعراء وأكثر الناس كما قال الله [تعالى][٧] فى وصف قوم : ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا [مِنْهَا][٨] إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ .

وما كلّ وقت يتفق العطاء ، ويفعل الله مايشاء .

---

(١) «رجل كان بخيلاً» فى الروضتين عن الحافظ ابن عساكر ، ج١ ق٢ ، ص٥٨٤ .

(٢) «يشب» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٤ .

(٣) هو : أبو الحسين أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسى ، الملقب مهذب الدين . كان شاعرا مجيدا مكثرا هجاءً معارضا للقيسرانى فى زمانه . توفى بحلب سنة٥٤٨هـ /١١٥٣م . انظر : الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٧٦ - ٩٥ ؛ وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٥٦ .

(٤) ابن القيسرانى : أبو عبدالله محمد بن نصر بن صغير بن داغر المخزومى الخالدى الحلبى ، الملقب شرف الدين . كان هو وابن منير شاعرى الشام فى ذلك العصر . توفى بدمشق سنة ٥٤٨هـ . انظر : الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٩٦- ١٦٠ . وقد ذكر أبو شامة أشعار كثيرة لهما وللعماد فى مدح نور الدين انظر : الروضتين ، ج١ ق١ ، ص٤٤ - ٥٨ ؛ وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٤٥٨ .

(٥) « ما قليل منه» فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٥ .

(٦) «المهرانى» فى نسخة ب .

(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٥ .

(٨) ما بين الحاصرتين ساقط من نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من سورة التوبة : آية (٥٨) .

الخامس في شجاعته[١] : كان يقال إنه لم يرُ على ظهر الفَرس أحسن ولا أثبت منه ، وكان حسن اللعب بالأكرة[٢] ، وربما ضربها ، ثم يسوق وراءها ، ويأخذها من الهواء بيده ، ثم يرميها إلى آخر الميدان ، ولم يُرَ جوكانه[٣] يعلو على رأسه ، ولا يرى الجوكان فى يده ؛ لأن الكم ساتر لها . كان شجاعا صبورا فى الحرب ، يضرب به المثل فى ذلك ، وكان يقول : قد تعرضت للشهادة غير مرة . فقال له يوما الفقيه قطب الدين النيسابورى : بالله يامولانا[لا] [٤] تخاطر بنفسك ؛ فإنك لو قتلت قتل جميع من معك ، وأخذت البلاد . فقال : أسكت ياقطب الدين ، من هو محمود؟! [و][٥] من كان يحفظ البلاد قبلى؟! الله الذى لا إله إلا هو . قال : فبكى من حضر . وكان إذا حضر الحرب شد تركاشين[٦] ، وحمل قوسين ، وباشر الحرب بنفسه ، وشجاعته ظاهرة فى غزواته وفتوحاته على ماذكر فى السنين المتقدمة .

السادس فى ورعه وزهده : وقال ابن الأثير فى تاريخه[٧] : قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين من قبل الإسلام إلى يومنا هذا ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز (رضى الله عنهم) [١٨٥ظ] ملكًا أحسن سيرة من نور الدين ، ولا أكثر تحريا للعدل والإنصاف منه .

وقال الحافظ ابن عساكر[٨] (رحمه الله) : وكان لا يأكل ولايلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من مِلك اشتراه من سهمه من غنائم الكفار ، وكان يُحضر الفقهاء ويستفتيهم فيما يحل له من تناول الأموال ، فأفتوه من جهات عينوها ، فلم يتعد إلى غيرها ، ولم

(١) انظر : الباهر ، ص١٦٨ - ١٦٩ ؛ لبداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٠ ؛ الروضتين ، ج١ ق١ ، ص١٨ - ١٩ .
(٢) هى : لعبة الكرة وهى اللعبة المعروفة الآن باسم Polo . وعن تعريف هذه اللعبة ووصف هيئة السلطان للعب بالميدان الأكبر . انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٤٧ ؛ السلوك ، ج١ ق٢ ، ص٤٤٤ .
(٣) الجوكان : هو المحجن الذى تضرب به الكرة ويعبر عنه بالصولجان . انظر : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٥٨ ؛ السلوك ، ج١ ق٢ ، ص٤٣٥ .
(٤) مابين الحاصرتين ساقط من أ ، والمثبت من ب .
(٥) مابين الحاصرتين ساقط من أ ، والمثبت من ب .
(٦) مثنى تركاش ؛ وهو لفظ فارسى الأصل ، ومعناه الكنانة أو الجعبة التى توضع فيها النشاب . انظر Dozy : Supp. Dict. Ar. ؛ السلوك ، ج١ ق٢ ، ص٣٧١ .
(٧) انظر : الباهر ، ص١٦٣ حيث ينقل العينى عنه بتصرف ، وانظر أيضا : الكامل ، ج١٠ ، ص٥٦ - ٥٧ .
(٨) ورد هذا النص فى الباهر نقلا عن ابن عساكر ، ص ١٦٤ ؛ الروضتين ، ج ١ ق١ ، ص ١١ .

يلبس حريرا قط ، ولا ذهبا ولا فضة ، ومنع من بيع الخمر فى بلاده ، وكان يَحد شاربها ، والناس عنده سواء فى ذلك ، وكان كثير الصيام ، وله أوراد فى الليل والنهار ، وكان يقدم أشغال المسلمين عليها ، ثم يتم أوراده (١) .

وكان قد تزوج الخاتون (٢) بنت معين الدين[أُنر](٣) ، فطلبت منه زيادة نفقة ، وقال : قد فرضتها مايكفيها ، والله لا أخوض جهنم بسببها ، وهذه الأموال ليست لى ، وإنما هى للمسلمين ، وأنا خازنهم ، فلا أخونهم فيها ، ولى بحمص ثلاثة (٤) دكاكين ، اشتريتها من الغنائم ، قد وهبتها لها ، وكان يحصل منها قدر يسير(٥) .

وكان أول من بنى دار العدل(٦) بدمشق ، وسماها دار الكشف ؛ وسببه أن الأمراء لما قدموا دمشق اقتنوا الأملاك ، واستطالوا على الناس خصوصاً أسد الدين شيركوه(٧) ، وكثرت الشكاوى إلى القاضى[كمال الدين] (٨) ، فلم يقدر على الإنصاف من أسد الدين ، فشكوا إلى نور الدين ، وأمر ببناء دار العدل ، فأحضر أسد الدين شيركوه أصحابه

(١) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٣ .

(٢) هى : الست خاتون عصمت الدين بنت معين الدين أُنر . توفيت سنة ٥٨١هـ /١٠٨٥م . انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٩ ؛ الشذرات ، ج٤ ، ص٢٧٢ .

(٣) «أنز» فى الأصل ؛ الكامل ، ج٩ ، ص٣٦٤ ؛ الشذرات ، ج٤ ، ص١٣٨ . أما مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٢٢-١٢٣ فقد ورد الاسم «أبر» . والمثبت بين الحاصرتين من ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٨٨-٣٠٦ ؛ الباهر ، ص٥٨ . وهو : معين الدين أُنر بن عبد الله ، تولى منصب الاسفهسلار بدمشق زمن النوريين سنة ٥٣٢هـ/١٠٣٨م ، ثم ارتفع شأنه حتى حاصر نور الدين دمشق ، فتصالحا وتزوج نور الدين ابنته . توفى سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م .

(٤) «ثلاث» فى نسختى المخطوطة أ ، ب والصحيح لغويا ماأثبتناه .

(٥) عن معاملة نور الدين لزوجته انظر : الباهر ، ص١٦٤ حيث ينقل عنه العينى باختصار .

(٦) عن دار العدل بالتفصيل انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٤ ـ ١٩٥ . وعن جلوس السلطان بدار العدل لخلاص المظالم انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٤٤ .

(٧) هو أبو الحارث شيركوه بن شاذى بن مروان ، الملك المنصور ، أسد الدين ، عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . ولاه العاضد الفاطمى الوزارة بمصر سنة ٥٦٤هـ/١٠٦٩م ، فأقام بها شهرين وخمسة أيام . ثم توفى فجأة فى نفس السنة ، فتولى الوزارة صلاح الدين من بعده . انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص١٥ ـ ١٦ ؛ الباهر ، ص٤٣ ـ ٤٤ ؛ وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٤٧٩ ؛ الروضتين ، ج١ق١ ، ص٤٠٥ ـ ٤٠٦ .

(٨) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح من الباهر . وانظر ماسيأتى ص١٥٧ . وهو : القاضى كمال الدين أبو الفضل محمد بن أبى محمد عبدالله بن أبى أحمد القاسم الشهرزورى ، الفقيه الشافعى . بنى مدرسة بالموصل للشافعية . كان فى خدمة نور الدين محمود بعد والده عماد الدين زنكى . كان فقيها أديبا شاعرا . توفى بدمشق سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦ م . انظر : الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج٢ ، ص٣٢٣ ـ ٣٢٧ ؛ وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٢٤١ ـ ٢٤٤ ؛ طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص٧٤ ـ ٧٦ .

وديوانه ، وقال : إن نور الدين مابنى هذه الدار إلا بسببى وحدى ؛ لينتقم منى ، وإلا فمن هو الذى يمتنع على كمال الدين ، والله لإن أحضرت إلى دار العدل بسبب واحد منكم لأصلبنه ، فإن كان بينكم وبين أحد منازعة فأرضوه مهما أمكن ، ولو أتى على جميع مافى يدى ، فإن خروج أملاكى من يدى أهون من أن يرانى نور الدين بعين ظالم ، ويسوى بينى وبين آحاد العوام ، ففعلوا وأرضوا الخصوم . فجلس نور الدين فى دار العدل ، وقال للقاضى : ما أرى أحدا يشكو من شيركوه ، فأخبره الخبر ، فسجد وقال : الحمد لله الذى جعل أصحابنا ينصفون من نفوسهم قبل حضورهم عندنا .

وكان نور الدين يقعد فى دار العدل فى كل أسبوع أربعة أيام أو خمسة [١] ، ويحضر عنده العلماء والفقهاء ، ويأمر بإزالة الحاجب والبواب ، ويُوصل إليه الشيخ الضعيف والعجوز الكبيرة ، ويسأل الفقهاء عما أشكل عليه .

وكان إذا مات أحد من جنده أو قتل وله ولد ؛ فإن كان كبيرا أقر الإقطاع عليه ، وإن كان صغيرا رتب معه من يتولى أمره إلى أن يكبر[٢] .

وماكان أحد من الأمراء يتجاسر أن يجلس عنده ؛ من هيبته[٣] ، فإذا دخل عليه فقير أو عالم أو رب خرقة [٤] قام ومشى إليه ، وأجلسه إلى جانبه ، ويعطيهم الأموال ، فإذا قيل له فى ذلك ، يقول : هؤلاء لهم حق فى بيت المال ، فإذا قنعوا منا ببعضه ، فلهم المنة علينا [٥] .

وأسقط ماكان يؤخذ من دار بطيخ[٦] ، وسوق الخيل والغنم ، والكيالة ، وجميع المكوس[٧] . وعاقب على شرب الخمر .

---

(١) «وكان يجلس فى الأسبوع يومين» كذا فى الباهر ، ص١٦٨ ويوافق العينى فى روايته ما ورد فى المرآة ، ج٨ ، ص١٩٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٩ .

(٢) انظر : الباهر ، ص١٦٩ . حيث يوضح نظام الإقطاع فى دولة نور الدين ؛ مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٨٠ حيث تعليق د . الشيال على ذلك .

(٣) عن وقاره وهيبته ، انظر الباهر ، ص١٧٢ ـ ١٧٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠١ .

(٤) هم المتصوفة . والخرقة : هى خرقة التصوف . وهى مايلبسه المريد من يد شيخه الذى يدخل فى إرادته ويتوب على يده . انظر : كشاف اصطلاحات الفنون ، ج٢ ، ص٢٢٤ .

(٥) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠١ .

(٦) دار البطيخ : محلة ببغداد كانت تباع فيها الفواكه ، توجد فى درب الأساكفة بجانب درب الخير ، ثم نقلت إلى الكرخ ، انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥١٧ ؛ الدارس ، ج٢ ، ص٣١٤ .

(٧) عن إبطال نور الدين للمكوس انظر : ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٢٩ ؛ الباهر ، ص١٦٦ ؛ مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٨٠ ـ ٢٨١ .

وكان كثير المطالعة فى الكتب الدينية ، متبعا الآثار النبوية ، مواظبا على الصلوات الخمس فى الجماعات ، عاكفا على تلاوة القرآن ، حريصا على فعل الخير ، عفيف البطن والفرج ، مقتصدا فى الإنفاق ، متحريا فى المطعم والمشرب والملبس . لم تسمع منه كلمة فحش قط ، لا فى رضاه ولا فى غضبه ، هذا مع ماجمع الله فيه من العقل المتين ، والرأى الصائب الرصين ، والاقتداء بسنة السلف الصالحين[١٨٦و] حتى روى حديث المصطفى [وأسمعه][١] ، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه ؛ حرصا منه على الخير ، ونشر السنة والتحديث ، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً ، كما جاء في الحديث . وكان يكتب خطاً حسنا ، وكان عارفًا بمذهب أبى حنيفة (رضي الله عنه) ، وليس عنده تعصب على أحد ، والمذاهب كلها سواء .

وقال ابن الأثير[٢] : وكان يوما يلعب بالأكرة فى ميدان دمشق ، فجاء رجل ، فوقف بإزائه ، وأشار إليه ، فقال للحاجب : اسأله ما حاجته ، فسأله ، فقال : لى مع نور الدين حكومة ، فرمى الصولجان من يده ، وجاء إلى مجلس القاضى كمال الدين بن الشهرزورى ، وتقدمه الحاجب يقول للقاضى : قد قال لك : لا تنزعج واسلك معه ماتسلكه مع آحاد الناس ، فلما سوى بينه وبين خصمه ، وتحاكما ، فلم يثبت للرجل عليه حق ، وكان يدعى مُلكا فى يد نور الدين ، فقال نور الدين للقاضى والعدول : هل ثبت له علىّ حق؟ قالوا : لا ، قال : فاشهدوا أنى قد وهبت له هذا المُلك ، وقد كنت أعلم أنه لاحق[له][٣] عندى ، وإنما حضرت معه ؛ لئلا يقال عنى : إنى دُعيت إلى مجلس الشرع فأبيت [٤] .

---

(١) «واسمه» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والصحيح ما أثبتناه .

(٢) انظر : الباهر ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٣ ؛ البداية والنهاية ، ح١٢ ، ص٢٩٩ .

(٣) «لك» : فى الأصل : ويبدو أنه خطأ من الناسخ ويؤيد ذلك الضمير السابق واللاحق فى الكلام ، انظر : الباهر ، من ص ١٦٦ - ١٦٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٩ .

(٤) انظر هذه القصة عن عدله فى الكامل ، ج١٠ ، ص٥٧ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٣ ؛ الروضتين ، ج١ق١ ، ص١٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٩ .

قال[١] : ودخل يوما إلى خزائنه ، فرأى مالا كثيرا ، فقال : من أين هذا؟ قال خازنه : بعث به القاضى كمال الدين من فائض الأوقاف ، فقال : ردُّوه إليه ، وقولوا له : إن رقبتى دقيقة لا [تقدر][٢] على حمله غدًا ، وأنت رقبتك غليظة ، تقدر على حمله .

وكان له برسم نفقته الخاص فى كل شهر من الجزية مايبلغ ألفى قرطاس[٣] ، يصرفها فى كسوته ، وملبوسه ، ومأكوله ، حتى أجرة خياطه وجامكية طباخه ، ويستفضل منها ما يتصدق به فى آخر الشهر . ويقال : إن قيمة القراطيس مائة وخمسون درهما ، وقيل : كل ستين قرطاسا أو سبعين بدينار [٤] .

قال ابن الأثير[٥] : وماكان يصل إليه من هدايا الملوك وغيرهم يبعثه إلى القاضى كمال الدين ، يبيعه ويعمر به المساجد المهجورة ، ولايتناول منه شيئا .

وقال ابن الجوزى[٦] : وكان يتدين بطاعة الخلافة ، والطرق آمنة فى أيامه ، والمحامد كثيرة ، وكان يميل إلى التواضع ، ويحب العلماء وأهل الدين ، وقد كاتبنى مرارًا . وقد صنف له كتابا سماه «الفخر النورى»[٧] فيه أحاديث العدل والجهاد ومواعظ وغير ذلك . وصنف نور الدين أيضا كتابا فى الجهاد ، وهو بدمشق .

وقال السبط(رحمه الله) [٨] : كانت له عجائز بدمشق وحلب ، وكان يخيط الكوافى ، ويعمل السكاكر[٩] للأبواب ، وتبيعها العجائز ، ولا يدرى من أخذ ، فكان يوم يصوم يفطر على أثمانها . وحكى شرف الدين يعقوب ولد المبارز المعتمد أن فى دارهم سكّرة من عمل نور الدين ، وهى باقية إلى سنة خمسين وستمائة ، يتبركون بها . وفى المرآة[١٠]

---

(١) القول لابن الأثير حيث يستمر العينى فى الاقتباس منه . انظر : الباهر ، ص ١٦٧ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٣ ؛ الروضتين ، ج١ق١ ، ص١٦ -١٧ ؛ مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٨١ .

(٢) « أقدر» فى نسخة أ وماأثبتناه من نسخه ب .

(٣) «قرطاش» فى نسخة ب .

(٤) عن الأوقاف والصدقات انظر : الروضتين ، ج١ق١ ، ص٢٦ ، حيث ينقل أبو شامة عن العماد الأصفهانى .

(٥) بالرجوع إلى ابن الأثير ، لم نجد النص المذكور وإنما ورد فى مصادر أخرى . انظر هذا القول فى الروضتين ، ج١ق١ ، ص٢٦ ، حيث ينقل أبو شامة عن العماد الأصفهانى .

(٦) انظر : المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٠ ؛ انظر أيضًا : المرآة ، ج٨ ، ص١٩٦-١٩٧ .

(٧) انظر مؤلفات ابن الجوزى كما أوردها السبط فى المرآة ، ج٨ ، ص٣١٢- ٣١٦ ؛ هدية العارفين ، ج١ ، ص٥٢٠- ٥٢٣ .

(٨) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٧ حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(٩) «الكساكير» فى المرآة ، ج٨ ، ص١٩٧ .

(١٠) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٧- ١٩٩ .

قال : حكى لى رجل صالح من أهل حرّان[١] قال : لما قُتل أتابك زنكى على قلعة جعبر[٢] ، وملك نور الدين قلعة حلب ، تصدَّق وأزال المكوس ورد المظالم وأنا حديث عهد بعرس ، وقد ركبنى دين ، فقالت لى زوجتى : قد سمعتُ أوصاف نور الدين ، وإحسانه إلى الناس ، فلو قصدته وأنهيت إليه حالك[٣] لقضى دينك ، قال : فخرجت من حرّان وليس معى سوى درهمين ، فتركت عندها درهمًا ، وتزودت بدرهم ، وأتيت الفرات وقت القائلة ، فعبرت جسر منبج[٤] ، وأبعدت عن أعين الناس ، وخلعت ثيابى ، ونزلت فتوضأت للصلاة ، وصليت [١٨٦ظ] ركعتين ، وإذا إلى جانبى شخص ، ملفوف فى عباءة ، فقال لى : يافقير من أين أنت؟ قلت : من حرّان . قال : وإلى أين؟ قلت : إلى حلب ، قال : وماتصنع فيها؟ فقلت : أنا فقير مديون ، وقد بلغنى إحسان نور الدين إلى الخلق ، فقصدته لعله يقضى دينى ، فقال : وأين أنت من نورالدين؟ ومن يوصلك إليه؟ كم عليك دين؟ قلت : خمسون دينارا ، فأخرج يده من العباءة ، وبحث [فى][٥] الرمل ، وأخرج منه قرطاسا وألقاه إلىّ ، وقال : خذ هذا فاقض به دينك ، وارجع إلى أهلك . قال : فأخذته فعددته ، وإذا به خمسون دينارا ، فالتفتُ فلم أره ، فبهتُ وبتُ فى مكانى [أتفكر][٦]هل أرجع إلى حران ، أم أمضى إلى حلب ، وترجّح عندى المضى إلى حلب ، وقلت فى نفسى : فهذه أوفى بها دينى ، فمن أين أتقوّت ؟ .

ثم قمت وقصدت طريق حلب ، فبتُ بباب بزاعة[٧] ، وقمت فى الليل ، فأصبحت تحت قلعة حلب وقت الصباح ، وقعدت تحت القلعة ، وإذا قد فتح بابها ، ونزل نور الدين فى أبهة عظيمة ، والأمراء بين يديه ، حتى جاء إلى الميدان ، فلما أراد أن يدخل ، نظر إلىّ فرمقنى طويلا ، وأشار إلى خادم بين يديه ، فجاء الخادم إلىّ ، وقال : قم ، فأخذنى ،

---

(١) حران : قصبة ديار مضر . وهى على طريق الموصل والشام والروم . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٣٠-٢٣٢ .

(٢) جعبر : هى على الفرات بين بالس والرقة ، قرب صفين . وكانت قديمًا تسمى دوسر . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٨٤ .

(٣) «ذلك» فى نسخة ب .

(٤) منبج : بلد قديم ، بين الفرات وحلب . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٥٤ - ٦٥٥ .

(٥) مابين الحاصرتين إضافة للتوضيح من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٨ .

(٦) «اذكر» فى الأصل والمثبت من المرآة ، وهو الأصح .

(٧) بزاعة : هى بلدة من أعمال حلب ، بين منبج وحلب . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٦٠٣ .

وصعد بى [إلى][(١)] القلعة ، قال : فندمت على مجيئى حلب ، وقلت : ياليتنى قبلت من ذلك الرجل الصالح ، ولعل نور الدين يتوهم أني إسماعيلى .

قال : فلما كان بعد ساعة عاد نور الدين إلى القلعة ، وجلس فى الإيوان[(٢)] ، وَمُدَّ سماط عظيم ، ولم يمد يده إليه ، وإذا قد فتح باب عن يمينه صغير ، وخرج منه خادم ، وعلى يده طبق خوص ، مغطى بمنديل ، فوضعه بين يديه ، وفيه غضارة[(٣)] عليها رغيف ، فتأملتها من بعيد ، وهى تردُه ، فتناول منها شيئا يسيرا ، وأكل الناس وأكلت معهم ، وصرف الناس ، وبقيت قاعدا خائفا ، فأومأ إلى ، فقمت وأتيت إلى بين يديه ، وأنا خائف أرعد ، فقال : من أين أنت؟ قلت : من حران ، قال : ومالذى أقدمك ؟ قلت : على دين وبلغنى إحسانك إلى الناس ، فقصدتك لتقضى دينى ، قال : وكم دينك ؟ قلت : خمسون دينارا ، قال : ما أعطاك صاحب العباءة أمس على الفرات خمسين دينارا ؟ هل لا رجعت إلى أهلك ، وأنت عليك خرقة الفقر ، وإذا حصل القوت للفقير فما[(٤)] يطلب شيئا آخر . ثم قال : مايضيع تعبك ، ورفع سجادته ، وكانت زرقاء ، وإذا بقرطاس مثل القرطاس الذى أعطانى صاحب العباءة . قال : فبكيت بكاء كثيرا ، وقلت : لا آخذه حتى تخبرنى بصاحب العباءة ، قال : هو أمر لا يلزمك ، فقلت : يامولاى أنا غريب وضيف ولى حرمة ، فبالله عليك أخبرنى ، فقال : احلف لى أنك لا تتحدث بهذا فى حال حياتى ، فحلفت له ، فكشف [القباء][(٥)] ، وإذا بتلك العباءة على جسده ، وقال : أنا ذاك الفقير . فقلت : بالله الذى أعطاك هذه المنزلة بأى شئ وصلت إلى هذا ، فقال : بقوله تعالى :﴿ **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ** ﴾[(٦)] .

قال : لما التقينا بالإفرنج على حارم[(٧)] ، ونصرنا الله عليهم ، وعدت إلى حلب ،

---

(١) مابين الحاصرتين ساقط من أ ومثبت من ب .

(٢) «الديوان» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٨ .

(٣) الغضارة : صحفة من الطين يوضع فيها الطعام . انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة«غضر» ، ج٦١ ، ص٣٢٧ .

(٤) «فلا» فى نسخة ب .

(٥) «العباءة» فى الأصل . والمثبت من المرآة ، ج٨ ، ص١٩٩ حيث ينقل عنه العينى .

(٦) سورة الأنبياء : آية (١٠١) .

(٧) هى حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية ، وهى من أعمال حلب . انظر : معجم البلدان ؛ ج٢ ، ص١٨٤ ؛ وعن فتح نور الدين لحارم انظر : الباهر ، ص١٢٢ ـ ١٢٦ ؛ الكامل ، ج٩ ، ص٤٦٧ ـ ٤٦٩ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٣٣٩-٣٤٣ .

التقانى فى الطريق شاب حسن الوجه ، طيب الرائحة ، فسلم على وقال : يامحمود أنت من الأبدال ، وقد أعطاك الله الدنيا ، فاشتر بها الآخرة ، وسله مهما شئت ، ثم علمنى كلمات وقال : إذا طلبت أمراً فاذكرها ، فقلت له : بالله من أنت؟ فقال : أنا أخوك الخضر ، ثم غاب عنى .[١٨٧و] فإذا عزمت على أمر ، أو أردت أن أذهب إلى مكة أو إلى المدينة أو إلى أى بلد شئت ، لبست العباءة ، وتكلمت بتلك الكلمات ، وأغمض عينى وما أفتحها إلا وأنا فى تلك البقعة .

قال السبط[١] أيضا : وحكى لى نجم الدين الحسن بن سلام ،[٢] أحد عدول دمشق وأعيانها ، وكان صديقنا وصاحبنا(رحمه الله) قال : لما ملك الأشرف[٣] بن العادل دمشق ، وبنى مسجد أبى الدرداء[٤] فى القلعة ، وأفرده عن الدور ، قال : وماصلى فيه أحد منذ زمان أبى الدرداء إلى الآن . فقلت له : الله الله يامولانا ، مازال نور الدين منذ ملك دمشق يصلى فيه الصلوات الخمس ، فقال : من أين لك هذا؟ قلت : حدثنى والدى ـ وكان من أكابر عدول دمشق ، وكان أبوه يلقب بالسعيد ـ أنه لما نزلت الفرنج على دمياط[٥] بعد وفاة أسد الدين شيركوه(رحمه الله) وضايقوها وأشرفت على الأخذ ، فأقام نور الدين عشرين يوما صائما لا يفطر إلا على الماء ، فضعف وكاد يتلف[٦] . وكان مهيباً لا يتجاسر أن يخاطبه أحد فى ذلك[٧] ، وكان له إمام يقال له يحيى ، ضرير ، يصلى به فى هذا المسجد ، وكان يقرأ عليه القرآن ، وله عنده حرمة ، فاجتمع إليه خواص نور الدين وخدمه ، وقالو [له] [٨] : قد خفنا على السلطان ، ونحن من هيبته ما نقابله[٩] ، وأنت تدل

(١) يستمر العينى فى النقل بتصرف عن المرآة ، ج٨ ، ص١٩٩ .

(٢) هو : النجم بن سلام ، متولى ديوان دمشق بالقلعة بعد الشمس بن النفيس . توفى سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م . انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٧٥ .

(٣) هو : الملك الأشرف موسى بن العادل أبو بكر بن أيوب . ملك دمشق بعد ابن أخيه الناصر داود سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م . وذلك بالاتفاق مع أخيه الملك الكامل محمد . توفى سنة ٦٣٥ هـ/١٢٣٨م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٣٣٠ ـ ٣٣٦ .

(٤) هو : عويمر بن زيد ، أو ابن عامر ، أو ابن مالك ، بن عبد الله بن قيس بن عائشة بن أمية ، أسلم يوم بدر ، توفى سنة ٣٢هـ/٦٥٢م ، انظر السلمى : طبقات الصوفية ، ص٥٧ ـ ٥٨ ، حاشية(و) . والمسجد من المقامات والمزارت فى قلعة دمشق . انظر : خطط الشام ، ج٦ ، ص١٥٧ ؛ وانظر أيضاً : ابن قتيبة : المعارف ص٢٦٨ ، تحقيق ثروت عكاشة ، القاهرة ١٩٦٠م .

(٥) عن نزول الفرنج على دمياط انظر : ماسبق فى أحداث سنة ٥٦٥هـ ؛ انظر أيضا : الباهر ، ص١٤٣ ـ ١٤٤ .

(٦) « أن يتلف» فى نسخة ب .

(٧) «لايتجاسر أحد أن يخاطبه فى ذلك » فى نسخة ب .

(٨) مابين الحاصرتين ساقط من أ ، والمثبت من نسخة ب .

(٩) «لانقابله» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٠ .

عليه ، ونحن [نسألك][١] أن تسأله أن يتناول شيئا مما يحفظ به قوته ، فقال : نعم إذا صليت به غداة الفجر سألته . قال : فلما كان فى تلك الليلة ، رأى الشيخ يحيى فى المنام رسول الله(ﷺ)يقول له : يايحيى بشر نور الدين محمود برحيل الفرنج عن دمياط ، قال : فقلت : يارسول الله ربما لا يصدقنى ، وأريد له أمارة ، قال : قل له بعلامة يوم حارم ، قال : فانتبه يحيى وهو ذاهب العقل ، فلما صلى نور الدين خلفه الفجر وسلم ، شرع[يدعو ، ففاته][٢] أن يتحدث معه ، فقال له نور الدين : يايحيى ، قال : لبيك يامولانا ، قال : تحدثنى أو أحدثك ، قال : فارتعد يحيى وخرس ، فقال له : أنا أحدثك ؛ رأيت النبى(ﷺ) فى هذه الليلة ، وقال لك :كذاوكذا ، فقال : نعم يامولانا ، فقال : يامولانا مامعنى قوله عليه السلام : بعلامة يوم حارم؟ فقال له نور الدين : لما التقى الصفان يوم حارم ، خفت على الإسلام ؛ لأنى رأيت من كثرة الفرنج ما هالنى ، فانفردت عن العسكر ، ونزلت فمرغت وجهى على التراب ، وقلت : ياسيدى مَنْ محمود فى الدين؟ الدين دينك ، والجند جندك ، وهذا اليوم هو ، فافعل مايليق بكرمك . قال : فنصرنا الله عليهم[٣] .

السابع : فيما فعله من الخيرات ومابناه من بيوت العبادات وغيرها[٤] :

وكان نور الدين (رحمه الله) بنى المدائن ، وأوقف الأوقاف ، وبنى سور دمشق والمساجد والمدارس ، ووقف أوقافا على المرضى والمجانين ، وبنى المكاتب لليتامى ، وبنى المارستان[٥] فى دمشق .

---

(١) «نسأله» فى نسختى أ ، ب . والمثبت من مرآة الزمان ج ٨ ، ص ٢٠٠ ، حيث ينقل عنه العينى ، ويتمشى مع السياق .
(٢) مابين الحاصرتين إضافة يحتاجها النص من المرآة ، ج٨ ، ص٢٠٠ .
(٣) إلى هنا ينتهى النص المنقول بتصرف من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٠ .
(٤) عن تفاصيل هذه المنجزات انظر : الباهر ، ص ١٧٠ ـ ١٧٢ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ص١٩٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٨ .
(٥) المارستان : مستشفى لمعالجة المرضى وإقامتهم . وهو لفظ فارسى مركب من «بيمار» أى مريض و«ستان» أى محل . ويقال بيمرستان وبيمارستان . وأول من بنى المارستان فى الإسلام ودار المرضى الوليد بن عبد الملك . وكان بدمشق ثلاث مستشفيات أو بيمارستانات الأول أنشأه نور الدين محمود بن زنكى ، كما أنشأ غيره فى البلاد . وكان بيمارستان دمشق أعظمها وأكثرها خرجا ودخلا . انظر : خطط الشام ، ج٦ ، ص١٦١ ـ ١٦٢ .

ووقف على سكان الحرمين ، وأقطع أمراء العرب القطائع ؛ لئلا يتعرضوا للحاج . وأمر بإكمال سور المدينة ، وأجرى إليها العين التى تأخذ من أُحُد من عند قبر حمزة(ﷺ) . وبنى الرُبط والخانات والقناطر ، وجدد كثيرا من قنى السبيل ، ووقف كتبا كثيرة فى مدارسه . وأول من بنى دار العدل بدمشق ، وقد ذكرناه .

وبنى جامعا فى الموصل ، وفوض عمارته إلى الشيخ عمر المُلا[١٨٧ظ] ، وكان من الصالحين ، وإنما سمى المُلا ؛ لأنه كان يملأ تنانير الآجر ، ويأخذ الأجرة فيتقوت بها ، وكان لايملك شيئا من الدنيا ، وكان عالما بفنون العلوم ، وجميع الملوك والعلماء والأعيان يزورونه ويتبركون به . وصنف كتاب سيرة النبى(ﷺ) . وكان يعمل بمولد رسول الله(عليه السلام) فى كل سنة ، ويحضر عنده صاحب الموصل والأكابر ، وكان نور الدين يحبه ويكاتبه .

وكان مكان الجامع النورى[١] خربة واسعة ، ماشرع أحد فى عمارتها إلا وقصر عمره ، فأشار عمر على نور الدين بعمارتها جامعا ، فاشتراها ، وأنفق عليها أموالا كثيرة ، يقال ستون ألف دينار ، ويقال ثلثمائة ألف دينار ، فتم فى ثلاث سنين . ولما تم ، جاء نور الدين إلى الموصل ، وهى المرة الأخيرة ، فصلى فيه ، ووقف عليه قرية بالموصل ، ورتب فيه الخطيب والمؤذنين والحصر والبسط وغيرها . ثم دخل عمر المُلا على نور الدين وهو جالس على دجلة ، فوضع بين يديه أوراق الحساب والخرج ، وقال : يامولانا أشتهى أن تنظر فيها ، فقال له نور الدين : ياشيخ نحن عملنا هذا لله ، دع الحساب إلى يوم الحساب ، ثم رمى بالأوراق فى الدجلة [٢] .

---

(١) يقصد جامع الموصل السابق ذكره . وعن قصة بناء الجامع النورى بالموصل انظر : الباهر ، ص١٧٠ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٥ .

(٢) انفرد السبط بذكر هذه الحادثة . انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٥ .

وقال ابن الأثير[١] : وبنى جامع حماة[٢] على العاصى[٣] ، وهو من أحسن الجوامع . قال[٤] : ووقع بيد نور الدين إفرنجى[٥] من أكابر الملوك ، ففدى نفسه بمال عظيم ، فشاور نور الدين أمراءه ، فأشاروا ببقائه فى الأسر ؛ خوفا من شره ، فأرسل إليه نور الدين فى السر ، يقول : أحضر المال ،فأحضر ثلثمائة ألف دينار ، فأطلقه نور الدين ، فعند وصوله إلى مأمنه مات . وطلب الأمراء سهمهم من المال ، فقال نور الدين : ما تستحقون منه شيئا ؛ لأنكم نهيتم عن الفداء ، وقد جمع الله لى الحُسْنَيَيْن : الفداء ، وموت اللعين وخلاص المسلمين منه . فبنى بذلك المال مارستان دمشق ، ومدرسة ودار الحديث بدمشق[٦] ، ووقف عليها الأوقاف .

قال ابن الأثير[٧] : وبلغنى أن أوقاف نور الدين فى أبواب البر بالشام فى وقتنا هذا ، وهو سنة ثمان وستمائة ، كل شهر تسعة آلاف دينار صورِية[٨] ، ليس فيها مِلك ، بل حق ثابت بالشرع باطنا وظاهرا ، صحيح الشراء .

وقال السبط[٩] : أما فى زماننا هذا فقد تشعَّث وقفه ، وتغيرت صفاته ، ولم يبق منه إلا آثاره وبركاته .

---

(١) انظر : الباهر ، ص١٧٠ ، حيث ينقل العينى عنه بتصرف ؛ المرآة ، ج٨ ، ص١٩٥ ؛ الروضتين ، ج١ق١ ، ص ٢١ .

(٢) جامع مفرد مشرف على نهرها ، المعروف بالعاصى . عليه عدة نواعير تستقى الماء من العاصى فتسقى بساتينها وتصب إلى بركة جامعها . انظر : معجم البلدان ج٢ ، ص٣٣١ ، مادة «حماة» ؛ خطط الشام ، ج٦ ، ص٦١ .

(٣) اسم نهر حماة وحمص ، مخرجه من بحيرة قَدَسْ ومصبه فى البحر قرب أنطاكية . والعاصى ضد الطائع . وقد سمى بذلك لأن أكثر الأنهُر تتوجه ذات الجنوب ، وهو يأخذ ذات الشمال . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٥٨٨ .

(٤) القول هنا ليس لابن الأثير . فقد ذكر ابن الأثير ، أن نور الدين أطلق بيمند صاحب أنطاكية بمال جزيل أخذه منه ، وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم» . انظر : الباهر ، ص ١٢٥ ؛ الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٦٩ ، أحداث سنة ٥٥٩هـ . أما عن تفصيل هذه النادرة وارتباطها ببناء مارستان دمشق ، انظر : مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ ؛ الروضتين ، جـ ١ ق١ ، ص٢١ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ٣٠٠ .

(٥) هو : البرنس بوهيموند الثالث صاحب أنطاكية . ويطلق عليه العرب بيمند . وقد أسره نور الدين فى معركة حارم مع عدة من ملوك الفرنج وذلك فى سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤م . انظر : الباهر ، ص ١٢٥ ؛ حسين مؤنس : نور الدين محمود ، ص ٢٩٤ - ٢٩٧ .

(٦) عن مدرسة ودار الحديث النورية بدمشق انظر : الدارس ، ج١ ، ص٦٠٨ - ٦١١ ؛ الباهر ، ص ١٧٢ .

(٧) نقل العينى هذا النص بتصرف من الباهر ، ص١٧٢ . انظر أيضًا : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٩٥ ؛ الروضتين ، ج١ق١ ، ص٢٣ .

(٨) الدنانير الصورية : هى الدنانير المسكوكة التى يؤتى بها من البلاد الإفرنجية والروم ، وهى مشخصة ، على أحد وجهيها صورة الملك الذى تضرب فى زمنه . ويعبر عنها بالإفرنتية . انظر : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٣٧ .

(٩) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٥ .

وقال [العماد][١] : فى سنة وفاته أكثر من الخيرات والصدقات والأوقاف ، وعمارة المساجد المهجورة ، وإسقاط كل ما كان فيه من الحرام ، فما أبقى سوى الجزية والخراج ، وما يحُصَّل من قسمة الغلات على قويم المنهاج . قال : وأمرنى[بكتابة][٢] المناشير لجميع أهل «البلاد»[٣] ، فكتبت أكثر من ألف منشور . وحسِبنا ماتصدق به فى تلك الشهور ، فكان [٤] ثلاثين ألف دينار .

وقال العماد[٥] : بنى جامع قلعة دمشق ، ومسجد عطية[٦] بباب الجابية ، ومسجد الرماحين[٧] ، ومسجد سوق الصاغة ، ومسجد دار البطيخ ، ومسجد العباسى[٨] ، ومسجد بجوار بيعة اليهود ، ومسجد الكشك[٩] وأشياء أخر .

وقال ابن الجوزى : وكان من عزمه أن يفتح[١٠] البيت المقدس ، فعمر منبرا وقبلة بجامع حلب على اسم القدس ، فتوفى قبل الفتوح . فلما ملك صلاح الدين البيت المقدس ، حمل المنبر إليه ، وأبقى القبلة بجامع حلب . وحكى عن الشيخ أبى عمر[١٨٨و] شيخ المقادسة (رحمه الله) قال : كان نور الدين (رحمه الله) يزور والدى الشيخ أحمد (رحمه الله) فى المدرسة الصغيرة[١١] التى على نهر يزيد ، المجاورة للدير ، ونور الدين بنى هذه المدرسة والمصنع والفرن .

---

(١) «ابن الأثير» فى الأصل وهو خطأ ، والصحيح ماأثبتناه من الروضتين ج١ق١ ، ص٢٦ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٦ حيث ينقل كلاً من أبى شامة والسبط هذا القول عن العماد . وقد نقل العينى هذا النص بتصرف .

(٢) «بكتبه» فى الأصل . والتصحيح من الروضتين ، ج١ق١ ، ص٢٦ ، حيث ينقل أبو شامة هذا النص من العماد .

(٣) مابين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٤) كذا فى الأصل والمرآة ، ج٨ ، ص١٩٦ ، عن العماد . وفى الروضتين عن العماد « فزاد على» انظر : ج١ق١ ، ص٢٦ .

(٥) انظر : قول العماد فى المرآة ، ج٨ ، ص١٩٦ . وقد ذكر السبط هذه الجوامع والمساجد فى معرض الحديث عن إحصاء نور الدين للمساجد لوقف الأوقاف عليها .

(٦) يعرف بمسجد عطية الحائك . انظر : الدارس ، ج٢ ، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

(٧) مسجد الرماحين : يعرف بمسجد الطريفيين فى سوق السراجين . الدارس ، ج٢ ، ص٣٠٦ .

(٨) مسجد العباسى : ويعرف بسوق الأحد قبلة المطرزين ، له بابان ، انظر : الدارس ، ج٢ ، ص٣٢٨ .

(٩) مسجد الكشك : كان دارًا فبناه الملك نور الدين مسجداً ، وبنى له منارة ، وعين له إماماً ومؤذناً . الدارس ، ج٢ ، ص٣١٥ .

(١٠) « أن يفتح» مكرره فى نسخة ب .

(١١) المدرسة الصغيرة على نهر يزيد ، بجوار دير الحنابلة . ووصفت بالصغيرة لأنها صغيرة بالنسبة للمدرسة العمرية ، وهى مسجد ناصر الدين غربى المدرسة العمرية . وقد بناها نور الدين محمود . انظر : الدارس ، ج٢ ، ص١٠٣ - ١٠٤ .

وقال ابن خلكان[1] (رحمه الله) : وبنى نور الدين المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل : دمشق وحلب وحماه وحمص وبعلبك ومنبج والرحبة ، وبنى جامع الرها ، وجامع منبج ودار الحديث بدمشق .

وقال النويرى فى تاريخه[2] : وأحصيت أوقافه ، وكانت فى كل شهر تسعة عشر ألف دينار مصرية من وجه حل ، إما من إرث والده ، أو من سهمه فى الغنيمة . وهو الذى بنى أسوار مدن الشام مثل : دمشق وحمص وحماة وحلب وشيزر [3] وبعلبك وغيرها ، لما هدمت بالزلازل .

وقال ابن كثير[4] : وبنى المارستان الذى بدمشق ، وهو أحسن مابنى من المارستانات بالبلاد ، ومن شرطه أنه على الفقراء والمساكين ، وإذا لم توجد بعض الأدوية التى يعز وجودها إلا فيه ، فلا يمنع منه الأغنياء ، ومن جاء إليه مستوصفا ، فلا يمنع من شرائه ، ولهذا جاء نور الدين إليه ، وشرب من شرابه . وقال ابن كثير[5] : ويقول بعض الناس : إنه لم تخمد النار منه منذ بُنى إلى زماننا هذا ، والله أعلم . وقد بنى الخانات فى الطرقات والأبراج ، [ورتب الخفراء][6] فى الأماكن المخوفة ، وفيها الحمام الهوادى[7] التى تطالع بالأخبار فى أسرع مدة ، وبنى الربط والخانقاهات[8] .

وقال ابن الأثير[9] : وهو أول من بنى دار الحديث ، ووقف على من يعلم الأيتام الخط ، وجعل لهم نفقة وكسوة ، وعلى من يقرئ القرآن ، وعلى المجاورين بالحرمين . وكان الجامع بدمشق داثرًا ، فولى نظره للقاضى كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزورى

---

(١) انظر : ترجمة نور الدين محمود بن زنكى فى وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٨٥ ، حيث ينقل العينى عنه باختصار .

(٢) بالرجوع إلى تاريخ النويرى« نهاية الأرب» لم نجد هذه المعلومة بخصوص أوقافه فى كل شهر . انظر : نهاية الأرب ، ج٢٧ ، ص١٦٧ ، ولمعرفة تفاصيل أوقافه انظر : أبوشامة ، الروضتين ، ج١ق١ ، ص٣٩ - ٤٤ .

(٣) شيزر : قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم .انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٥٣ .

(٤) انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٠ .

(٥) ينقل العينى هنا عن ابن كثير بتصرف ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٠ .

(٦) «والخفر» فى الأصل ، والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٠ ، حيث ينقل عنه العينى هذا الخبر .

(٧) الحمام الهوادى : ذكر أبو شامة فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٢٠ ، أنها : «المناسيب التى تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها» . انظر أيضا : الباهر ، ص١٥٩ .

(٨) خانقاه وجمعها خنقاوات وخنقاهات ، وهى منزل للصوفية . العصر المماليكى ، ص ٤١١ .

(٩) انظر : الباهر ، ص١٧٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٨١ .

الموصلى ، الذي قدم به فولاه قاضى القضاة بدمشق ، فأصلح أموره ، وفتح المشاهد الأربعة ، وقد كانت حواصل الجامع بها من حين احترق فى سنة إحدى وستين وأربع مائة ، وأضاف إلى أوقاف الجامع الأوقاف التى لايعرف[1] واقفوها ، ولايعرف[1] شروطهم فيها ، وجعلها قلما واحدا ، وسمى مال المصالح ، ورتب عليه ذوى الحاجات والفقراء والمساكين والأرامل والأيتام وما أشبه ذلك .

وأحاط السور على حارة اليهود ، وكان خرابا ، وأغلق باب كيسان ، وفتح باب الفرج ، ولم يكن هناك قبله باب بالكلية . وحكى الشيخ شهاب الدين : أن نور الدين وقف بستان الميدان سوى الغيط الذى قبليه نصفه على «تطييب»[2] جامع دمشق ، والنصف الآخر يقسم على أحد عشر جزءاً ، جزءان منها على تطييب المدرسة التى أنشأها للحنفية ، والتسعة الأجزاء الباقية على تطييب المساجد التسعة[3] ؛ وهى : جامع الصالحية بجبل قاسيون ، وجامع القلعة ، ومسجد عطية ، ومسجد ابن لبيد بالفسقار[4] ، ومسجد الرماحين المعلق ، والمسجد العباسى بالصاغة ، ومسجد دار البطيخ المعلق ، والمسجد الذى جدده نور الدين بجوار بيعة اليهود ، لكل من هذه المساجد جزء من أحد عشر جزءا من النصف .

الثامن فى فتوحاته وبلاده :

قال النويرى : وكان قد اتسع ملكه جدًا ، وخطب له بالحرمين ومصر والشام وحلب وديار بكر والجزيرة ، وكذلك باليمن لما ملكها الملك المعظم توران شاه بن أيوب بن شاذى ، وطبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله وكرمه وصدقاته . وتصدق فى شهر واحد بثلاثين ألف دينار ، وقسم في يوم واحد مائتى ألف دينار ، خلاف الدواب والسلاح والخيام . وكان يُحضر أماثل البلد عنده ، ويعطيهم الذهب ، ويقول : تصدقوا به على من تعرفونه فى جواركم من الأرامل والأيتام [5] .

(١ -١) «تعرف» فى نسخة ب .

(٢) «تطييب» فى الروضتين ، ج١ق١ ، ص٤١ . والمثبت أولى لمقصود أبى شامة حيث ذكر أنه : «يبتاع بذلك عود وطيب» .

(٣) عدد المساجد ثمانية وليست تسعة كما ذكرها العينى .

(٤) « العسقار» فى نسخة ب . وهو خطأ . ويوجد فى دمشق سوق يسمى سوق الفسقار . انظر : الدارس ، ج٢ ، ص٣٠٥ .

(٥) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٨٧ .

وقال ابن الجوزى[١] : ولى نور الدين الشام سنين ، وجاهد الثغور وانتزع من أيدى الكفار نيفا وخمسين مدينة وحصناً منها الرها . وكان محبًا للعلماء وأهل الدين ، وكاتبنى مرارا . وعاهد ملك الإفرنج[٢] صاحب طرابلس ، وقد كان فى قبضته أسيرا على أن يطلقه بثلثمائة ألف دينار ، وخمسمائة حصان ، وخمسمائة زردية[٣] ، ومثلها أتراس[٤] إفرنجية ، ومثلها قنطاريات[٥] ، وخمسمائة أسير [١٨٨ظ] من المسلمين ، وأنه لا يعبر بلاد الإسلام سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام . وأخذ منه فى قبضته على الوفاء بذلك ، مائة من أولاد كبراء الإفرنج وبطارقتهم ، فإن نكث أراق دمهم . وعزم على فتح بيت المقدس ، فوافته المنية فى شوال من هذه السنة [٦] .

وذكر الحافظ ابن عساكر(رحمه الله) : فتح نور الدين(رحمه الله) نيفا وخمسين حصنا منها : تل باشر وعينتاب وأعزاز ومرعش وبهسنى وتل خالد وحارم والمرزبان ورعبان وكيسون والرها . وكسر إبرنس أنطاكية وقتله ، وقتل معه ثلاثة آلاف ، وأخذ من القومص ثلثمائة ألف دينار ، وخمسمائة زردية ، وخمسمائة حصان ، وخمسمائة أسير . واتسع ملكه ، ففتح الموصل والجزيرة وديار بكر والشام والعواصم ودمشق وبعلبك وبانياس ومصر واليمن ، وخُطب له فى الدنيا ، وأظهر السُنة بحلب ، وأزال الأذان بحى على خير العمل . وكان يتعرض للشهادة ، ويسأل الله تعالى أن يحشره [فى] [٧] بطون السباع[٨] وحواصل الطير[٩] .

---

(١) انظر : المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٩ ـ ٢١٠ .

(٢) ملك الإفرنج صاحب طرابلس ، هو ريموند بن ريموند الصنجيلى ، تزوج بالقومصية صاحبة طبرية ، وعاش معها فى طبرية ، وتوفى بالشام . الكامل ، ج١٠ ، ص١٤١ .

(٣) زردية : هى قميص من الزرد يقوى برقائق من المعدن تتداخل أطرافه بعضها فوق بعض . انظر ماير : الملابس المملوكية ، ص٦٨ .

(٤) أتراس : جمع ترس ، وهو مستدير الشكل ، تحيطه حافة ، وله مقبض أفقى من الداخل ، وعليه من الخارج بعض النهود القليلة ، وكان يصنع من الخشب أو المعدن . انظر : الملابس المملوكية ، ص٨٦

(٥) القنطارية : نوع من الرماح أسنتها قصار وعراض . انظر : نبيل عبد العزيز : خزائن السلاح ومحتوياتها ، ص١٢٤ ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد ٢٣ لسنه ١٩٧٦م ؛ الملابس المملوكية ، ص٦٧ ـ ٨٣ .

(٦) الى هنا توقف العينى عن النقل من المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٩ ـ ٢١٠ .

(٧) «من» فى الأصل وهو خطأ . والمثبت هو الصحيح .

(٨) «السبا» فى نسخة ب .

(٩) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٢ .

النوع التاسع فى وفاته :

قال العماد [١] : أمر نور الدين بتطهير ولده الملك الصالح إسماعيل [٢] يوم عيد الفطر . قال : ونظمت للهنا بالعيد والطهر قصيدة منها :

عيدان فطرٌ وطُهْرٌ	فَتْحٌ قريبٌ ونصْرُ
كلاهُما لك فيه	حقًّا هناءٌ وأجرُ
وفيهما بالتَّهانى	رسمٌ لنا مستَمِرٌّ
طَهارة طابَ فيها	أصْلٌ وفرعٌ وذكرُ
نَجْلٌ على الطُّهْرِ نام	زَكىٌّ له منْك نَجْرُ
محمود المَلكُ العادلُ	الكريمُ الأغرُّ
وبابنه الملِكِ الصالح	العيونُ تَقَرُّ
مولى به اشتدَّ للدين	والشريعةِ أزرُ

وهى قصيدة طويلة آخرها :

هذا الطُّهورُ ظُهُورٌ	على الزمان وأمْرُ
وذا الخِتَانُ خِتَامٌ	بِمِسْكِهِ طَابَ نَشْرُ [٣]

قال : وفى يوم العيد ركب نور الدين على الرسم المعتاد ، محفوفا من الله بالإسعاد ، والقدر يقول له : هذا آخر الأعياد . ووقف فى الميدان الأخضر ، ورمى القبق [٤] ، وكان قد ضرب خيمته فى الميدان القبلى الأخضر ، وأمر بوضع المنبر ، وخطب له القاضى شمس

---

(١) انظر قول العماد فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٧٧ - ٥٨٠ .

(٢) عن الملك الصالح إسماعيل انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٨٨ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٧٧- ٥٧٩ .

(٣) أورد أبو شامة/ القصيدة كلها ، مع زيادة بيت عما ذكره العينى وهو آخر القصيدة ، ونصه :

رزقت عمرا طويلا	ماطال للدهر عمر

(٤) القبق أو القباق : لفظ تركى معناه القرعة العسلية (Une Courgette)وقد أطلق فى العربية على الهدف الذى كان مستعملاً فى لعب الرماية ، المعروف باسم القبق أيضا ، وكانت طريقة لعب القبق أن ينصب صار طويل من خشب يكون فى رأسه شكل قرعة من ذهب أو فضة بمثابة هدف ويكون فى القرعة طير حمام ثم يأتى اللاعبون للمباراة فى رمى الهدف بالنشاب أو السهام وهم على ظهور الخيل من أصاب منهم القرعة وطار الحمام فاز بالسباق وأخذ القرعة المعدنية نفسها مكافأة . انظر : المقريزى : السلوك ، ج٢ ، ص١١١ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص٣٠٤ ؛ راجع أيضا : Dozy: Supp. Dict. Ar.

الدين بن الفراش قاضى العسكر ، بعد أن صلى به ، وعاد إلى القلعة ، وأنهب سماطه العام على رسم الأتراك ، وأكابر الأملاك . قال : ثم حضرنا على خوانه[1] الخاص . وفى يوم الاثنين ثانى العيد بكّر وركب ، ودخل الميدان والعظماء يسايرونه ، وفيهم همام الدين مودود ، وكان قديما فى أول دولته والى حلب ، فقال لنور الدين فى كلامه ، عظة لمن يغتر بأيامه ، هل نكون ههنا فى مثل هذا اليوم فى العام القابل؟ فقال نور الدين : قل هل نكون بعد شهر؟ فإن السنة بعيدة ! فجرى على منطقهما ماجرى به القضاء السابق ، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر ، والهمام[2] لم يصل إلى العام . ثم شرع نور الدين فى اللعب بالأكرة ، فاعترضه أمير يقال له ، برتقش وقال له باش ، فأحدث له الغيظ والاستيحاش ، وكان ذلك على خلاف مذهبه ، ونهره وزجره ، ثم ساق ودخل القلعة واحتجب ؛ فبقى أسبوعا فى منزله . ثم اتصل به مرض ، وأشار عليه الأطباء بالفصد ، فامتنع من ذلك ، وكان مهيبا فما روجع ، وانتقل[١٨٩و]يوم الأربعاء حادى عشر شوال من دار الفناء إلى دار البقاء .

وقال ابن شداد[3] : وكانت وفاة نور الدين بسبب خوانيق اعترته ، عجز الأطباء عن علاجها . وقال ابن الأثير[4] : وكان نور الدين قد شرع بتجهيز المسير إلى مصر ؛ لأخذها من صلاح الدين ، فإنه رأى منه فتورا فى غزو الفرنج من ناحيته ، فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليتركها [5] بالشام ؛ لمنعه من الإفرنج ، ليسير هو بعساكره إلى مصر . وكان المانع [لصلاح][6] الدين من الغزو ، «الخوف من نور الدين»[7] ، فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه ، فكان يحتمى بهم عليه ، وكان نور الدين لايرى إلا الجدّ فى غزوهم بجهده وطاقته ، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو ، علم غرضه ، فتجهز للمسير إليه ، فأتاه أمر الله الذى لايرد . قال[8] : وحكى

(١) الخوان : كلمة فارسية معناها ، سفرة الطعام ، أو السماط ، انظر : محمود التونجى : المعجم الذهبى ، ص٢٤٥ .
(٢) «وهمام الدين» فى نسخة ب .
(٣) انظر : النوادر السلطانية ، ص٤٧ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٠ .
(٤) انظر : التاريخ الباهر ، ص١٦١ . حيث ينقل العينى عنه بتصرف .
(٥) «ليتركها مع ابن أخيه سيف الدين فى الشام» ، فى التاريخ الباهر ، ص١٦١ .
(٦) «من صلاح» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الباهر ، ص١٦١ .
(٧) « خوف نور الدين» فى الباهر ، ص١٦١ ، والمثبت من الأصل ؛ والروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨١ وهو الأولى حسب السياق .
(٨) الضمير عائد على ابن الأثير فى الباهر ، ص١٦١ .

لى طبيب بدمشق يعرف بالرحبى[١] ، وهو من أحذق الأطباء ، قال[٢] : استدعانى نور الدين فى مرضه الذى توفى فيه مع غيرى من الأطباء ، فدخلنا عليه ، وهو ببيت صغير بقلعة دمشق ، وقد تمكنت الخوانيق منه ، وقارب الهلاك . فلايكاد يسمع صوته ، وكان يخلو فيه للتعبد فى أكثر أوقاته ، فابتدأ به المرض فيه ، فلم ينتقل عنه . فلما دخلنا عليه ، ورأينا مابه ، قلت : كان ينبغى أن لا يؤَخَّر[إحضارنا][٣] إلى أن يشتد المرض إلى هذا الحد ، فالآن ينبغى أن تنتقل إلى مكان فسيح ، فله أثر فى هذا المرض . وشرعنا فى علاجه ، فلم ينجع فيه الدواء ، ومات عن قريب[٤] . قال ابن عساكر[٥] : وتوفى يوم الأربعاء الحادى عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسمائة ، ودفن بقلعة دمشق ، ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته التى بناها لأصحاب أبى حنيفة (رضي الله عنه) جوار الخواصين فى الشارع الغربى . وقال العماد : قلت فى ذلك :

عَجِبْتُ من[٦] المَوتِ كيفَ اهْتدى	إلى مَلِكٍ فى سَجَايا مَلَكْ
وكيف ثَوى الفَلَكُ المُسْتَدِيـ	ـرُ فى الأرضِ ، والأرضُ وسط الفَلَكْ[٧]

وقال ابن كثير[٨] : حصلت له علة الخوانيق ، ومنعته عن النطق ، فمات فى التاريخ المذكور ، وصلى عليه بجامع القلعة ، ودفن بها ، حتى حُوّل إلى تربته التى بُنيت له بباب المدرسة التى أنشأها للحنفية . وقبره بدمشق مشهور يزار وَيُخَلَّقُ شباكه ، فيستطيب برائحته[٩] كل مَار . وإنما يقول الناس : [قبر][١٠] نور الدين الشهيد ، لما حصل له فى «حلقه»[١١] من الخوانيق ، وكذا كان يقال لأبيه الشهيد ، ويلقب بالقسيم . وكانت الإفرنج

---

(١) هو : جمال الدين عثمان بن يوسف بن حيدرة الرحبى .
(٢) انظر هذا الخبر فى ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٦٢ .
(٣) «إحضارك عنك» فى نسختى المخطوطة أ ، ب والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٢ .
(٤) ورد هذا الخبر بتصرف فى : الباهر ، ص١٦١ - ص١٦٢ .
(٥) «العساكر» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . وقد نقل العينى هذا الخبر من الروضتين عن ابن عساكر ، ج١ ق٢ ، ص٥٨٢ - ٥٨٣ .
(٦) « إلى» فى نسخة ب .
(٧) انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨١ .
(٨) البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٤ .
(٩) «رائحته» فى نسخة ب .
(١٠) مابين الحاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٤ ، لتوضيح النص .
(١١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

يقولون له ابن القسيم . وقال ابن خلكان[1] : ويقول أهل دمشق إن الدعاء عند قبره مستجاب . وقال القاضى : ولقد جربت ذلك فصحَّ . وكان عمره حين مات ثمانيا وخمسين سنة ، وله فى المُلك ثمان وعشرون سنة .

العاشر فيما رثى به ، وماقيل له من الأشعار :

قال العماد : ومما نظمته فى مرثية نور الدين قصيدة «منها» [2] :

لِفَقْدِ المَلكِ العَادِل يبْكِى المُلْكُ والعَدْلُ
وقد أظْلَمَت الآفَاق : لا شَمْسٌ ولا ظِلُّ
ولمَّا غَابَ نُور الدِّين عنَّا أظْلَمَ الحَفْلُ
وزالَ الخِصْبُ والخَيْرُ وزاد الشَّرُّ والمَحْلُ
ومات البَأسُ[3] والجُودُ وعاش اليَأسُ والبُخْلُ
[١٨٩ظ] وعَزَّ النَّقْصُ لَمّا هَان أهلُ الفَضْلِ والفَضْلُ/
وهلْ يَنْفقُ ذو العِلْمِ إذا مَا نفَقَ الجَهْلُ[4]
وماكَانَ لِنُور الدِّين ،لولا نَجْلُه مِثْلُ

[يا مَلكاً] [5] أيامُه لم تَزلْ بفَضْلِه فَاضِلةً فاخره
مَلكتَ دُنْياك وخَلَّفْتَهَا وسِرْتَ حتى تَمْلِكَ الآخره

وكان الواعظ أبو عثمان[6] المنتجب بن أبى محمد الواسطى ـ من الصالحين الكبار ـ أنشد لنور الدين بقوله :

---

(١) وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٨٧ .
(٢) ما بين الأقواس ساقط من ب ./انظر هذه القصيدة فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٨ .
(٣) «الناس» فى نسخة ب .
(٤) هذا الشطر مكرر فى نسخة ب .
(٥) «يا ملك» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨١ .
(٦) «أبو عنان» فى نسخة ب .

مَـثِّلْ وُقُـوفَكَ أيهـا المَـغْـرور ... يومَ القـيـامـةِ والسـمـاءُ تمـورُ

إن قـيلَ نورُ الدين رُحتَ مسلمًا ... فـاحـذر بأن تبـقى ومـالك نُور

أنهَيتَ عن شُربِ الخمور وأنت فى ... كـأسِ المَظالم طَالحٌ[1] مخـمورُ

عطَّلت كـاسـات المُدام تعَـفُّـفًا ... وعليك كاسَاتُ [الحَرام][2]تَدُورُ

ماذا تقول إذا [نُقلتَ][3] إلى البلى ... فـرْدًا وجـاءك مُنكرٌ ونَكيـرُ

وتَعلَّقتْ فيك الخُصُومُ وأنت فى ... يوم الحساب مُسَحَّبٌ[4] مجرور

وتَفـرقَتْ عنك الجُنودُ وأنت فى ... ضيق اللحُودِ مُوَسّدٌ مَقْبورُ

ووَددْتَ أنك مَـا وَلِيتَ ولايةً ... يومًا ولاقـال الأنامُ أمِـيـرُ

وبقـيتَ بعـد العِزِّ رهنَ حُفَـيْرةٍ ... فى عَـالَم المَـوتَى وأنت حَـقِـيرُ

وحُشِرت عُـرْيانًا حَزينًا باكـيًا ... قلِقًا ومَالَك فى الأنام[5] مُجِيرُ

أرضيت أن [تحيا][6] وقلبُكَ دارسٌ ... عافِى الخرابَ وجسْمُكَ المَعْمُورُ

أرضِيتَ أنْ يحْظَى سِواكَ بقُـرْبِه ... أبداً وأنتَ مُـبَـعَّـدٌ مَـهْـجـورُ

مَـهِّـدْ لنفْسِك حُجَّةً تَنْجو بها ... يومَ المَـعَـادِ لَعَلَّك المَـعْـذُورُ

فلما سمعها الملك نور الدين بكى ، وأمر بوضع المكوسات والضرائب فى سائر البلاد . وقيل : إن برهان الدين البلخى[7] أنكر على نور الدين استعانته فى الحروب بأموال المكوس . قال : وكيف تنصرون وفى عسكركم الطبول والخمور والزمور؟ . وقص عليه وزيره موفق الدين خالد بن محمد بن نصر «بن»[8] القيسرانى الشاعر أنه رأى فى منامه أنه

---

(١) «طائش» فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٢ .

(٢) «المظالم» فى نسختى المخطوطة أ ، ب ، والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٢ .

(٣) «انقلبت» فى نسختى المخطوطة أ ، ب ، والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٢ حيث ينقل عنه العينى .

(٤) «مسلسل» فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٢ .

(٥) «الأنام» مكررة فى نسخة أ .

(٦) «تحيى» فى الأصل . والمثبت هو الصحيح .

(٧) هو أبو الحسن البلخى على بن الحسن الحنفى الواعظ درس بالصادرية ، وكان يلقب ببرهان الدين توفى سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م . انظر : الدارس ، ج١ ، ص٤٨١ ، مطبعه الترقى بدمشق١٩٤٨ ؛ وانظر أيضًا : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص١٤٨ .

(٨) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

يغسل ثياب الملك نور الدين ، فأمره أن يكتب مناشير بوضع المكوسات والضرائب عن البلاد ، وقال : هذا تفسير رؤياك . وكتب إلى الناس يستحل منهم عما أخذ منهم ، ويقول : إنما صُرفت فى قتال أعدائكم من الكفرة . وكتب بذلك إلى سائر ممالكه وبلدان سلطانه ، وأمر الوعاظ أن يستحلوا من التجار لنور الدين ، وكان يقول فى سجوده : اللهم أنا العشّار المكّاس .

الحادى عشر فى تملك ولده الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الملك العادل نور الدين محمود ابن الأتابك زنكى بن آقسنقر

ولما توفى نور الدين فى التاريخ المذكور ملك ولده المذكور دمشق ومامعها ، بعد أن حلف له الأمراء والمقدمون بدمشق ، وكان عمره إحدى عشرة سنة ، وأطاعه أهل الشام ، وخطب له الناصر صلاح الدين بمصر ، وضرب السكة باسمه ، وأظهر له الطاعة . وتولى تربيته وتدبير دولته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك[١٩٠و] المعروف بابن المقدم[١] . وقال له كمال الدين بن الشهرزورى ولمن معه من الأمراء والمقدمين : قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر من أصحاب الشهيد ، والمصلحة أن تشاوره فى الذى تفعله ، ولا تخرجه من بيننا ، فيخرج عن طاعتنا ، ويجعل ذلك حجة علينا ، وهو أقوى منا ؛ لأنه انفرد اليوم بملك مصر . فلم يوافق هذا القول أغراضهم ، وخافوا أن يدخل صلاح الدين فيخرجهم ، فلم يمض غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح ؛ يعزيه ويهنيه بالملك ، وأرسل دنانير مصر عليها اسمه ، ويعرفه أن الخطبة والطاعة له[٢] كما كانت لأبيه . ولما سار سيف الدين غازى بن قطب الدين صاحب الموصل إلى الجزيرة ، وملك البلاد الجزرية - على مانذكره - أرسل صلاح الدين يعتب الملك الصالح ، حيث لم يعرِّفه قصد سيف الدين ابن عمه بلاده قبل أخذها ؛ ليحضر فى خدمته ويكفه عنه .

---

(١) ابن المقدم : هو شمس الدين محمد بن عبد الملك من أعيان أمراء الدولتين وهو الذى سلّم سنجار إلى نور الدين ثم تملك بعلبك توفى سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧م . انظر : العبر ، ج٤ ، ص٢٥٠ ؛ الدارس ، ج١ ، ص٥٩٤ .

(٢) ورد هذا الخبر فى الكامل ، ج١٠ ، ص٥٨ ؛ التاريخ الباهر ، ص١٦٢ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٤ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٩٤ ـ ٥٩٥ ؛ انظر أيضا : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١ .

وكتب إلى كمال الدين الشهرزورى والأمراء يقول لهم : لو كان نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق إليه ثقته إلىَّ لسلم إليه مصر ، التى هى أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل إليه الموت ، لم يعهد إلى أحد بتربية ولده[١] والقيام بخدمته غيرى ، وأراكم قد تفردتم بمولاى وابن مولاى دونى ، وسوف أصل إلى خدمته ، وأجازى إنعام والده بخدمة يظهر أثرها [له][٢] ، وأجازى كلا منكم بسوء صنيعه فى ترك الذب عن بلاده[٣] .

وتمسك ابن المقدم وجماعة من الأمراء بالملك الصالح ، ولم[٤] يرسلوه إلى حلب ؛ خوفا أن يغلب عليهم شمس الدين على بن الداية ، فإنه كان أكبر الأمراء النورية ، وإنما منعه من الاتصال بخدمته مرض لحقه . وكان هو و[أخوته][٥] بحلب ، وأمرها إليهم ، وعساكرها معهم فى حياة نور الدين وبعده ، ولما عجز عن الحركة أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب ؛ ليمنع به البلاد الجزرية من سيف الدين ابن عمه ، فلم يمكِّنه الأمراء الذين معه من الانتقال إلى حلب .

وفى المرآة :[٦] وكان الصالح لم يبلغ الحلم ، فأجلسوه مكان أبيه ، وحضر القاضى كمال الدين بن الشهرزورى ، وشمس الدين بن المقدم ، وجمال الدولة ، وريحان وهو أكبر الخدم ، والعدل أبوصالح بن العجمى أمين[٧] الأعمال ، والشيخ إسماعيل خازن بيت المال ، وتحالفوا أن تكون أيديهم واحدة ، وأن شمس الدين «بن»[٨] المقدم إليه تقدمة العساكر وتربية الملك الصالح . ووصل كتاب صلاح الدين من إنشاء الفاضل[٩] إلى دمشق وفيه : « أدام الله أيام مولانا الملك الصالح ، ورفع قدره ، وأعظم أجر المملوك فى مولانا السلطان الملك العادل» . وآخره : «أصدر خدمته هذه يوم الجمعة رابع عشر ذى

---

(١) «بتربيته لولده» كذا فى نسخة ب .

(٢) مابين الحاصرتين ساقط من أ ، ومثبت فى ب .

(٣) لمعرفة المزيد عن هذا الحدث انظر : النوادر السلطانية ، ص٥٠ .

(٤) «لم» مكرره فى نسخه ب .

(٥) «أخوه» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الكامل ، ج١٠ ، ص٥٨ ، وهى الأقرب إلى سياق النص .

(٦) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٤ .

(٧)«أمير» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٤ حيث ينقل العينى عنه .

(٨) ما بين الأقواس ساقط من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٤ .

(٩) هو أبو على عبد الرحيم بن القاضى الأشرف بهاء الدين أبى المجد على بن القاضى السعيد . . . اللخمى العسقلانى ولد بعسقلان . . . عرف باسم القاضى الفاضل ولقب مجير الدين وزر للسلطان الملك الناصر صلاح الدين توفى بالقاهرة سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م . وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص١٥٨-١٦٣ .

القعدة ، وفيه أقيمت الخطبة بالاسم الكريم ، وصرح بذكره فى الموسم العظيم ، والجمع الذى لا لغو فيه ولا تأثيم[١] ، والله تعالى يخلد ملك مولانا الملك الصالح ويصلح به وعلى يديه ، ويديم النعمة[٢] عليه» . وذكر فصولا تتعلق بالتهنئة والتعزية . وقال العماد[٣] : أخرجوا يوم وفاة نور الدين ولده الملك الصالح إسماعيل ، وقد أبدى الحزن والعويل ، وهو مجزوز الذوائب ، مشقوق الجيب ، حاسر حاف مما فجأه وفجعه من الريب ، وأجلسوه فى الإيوان الشمالى من الدست [١٩٠ظ] والتخت الباقى من عهد تاج الدولة تتش ، فاستوحى كل قلب حزنه ، فاستوحش . وبعد أن تحالفوا له أنشأ العماد كتابا عن الملك الصالح إلى صلاح الدين فى تعزيته بنور الدين ، ترجمته : «إسماعيل بن محمود» وفيه :

«أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر ، وعَظَّمَ أجرنا وأجره فى والدنا الملك العادل ، ندبُ الشام بل الإسلام ، حافظ ثغوره ، وملاحظ أموره ، مقتنى فضيلته ، ومؤدى فريضته ، ومحيى سنته . وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريره ، على أنه يعزّ أن يرى الزمان نظيره . وما هاهُنا ما يشغل السر ، ويقسم الفكر ، إلا أمر الفرنج خذلهم الله ، وماكان اعتماد مولانا الملك العادل «عليه»[٤] وسكونه إليه إلا لمثل هذا الحادث [الجلل][٥] ، والصرف الكارث المذهل ، فقد ادخره لكفايات النّوائب ، وأعده لحسم أدواء المعضلات اللوازب ، وأمَّله ليومه ولغده ، ورجاه لنفسه ولولده ، ومكنه قوة لعضده . فما فقد رحمه الله إلا صورة والمعنى باق ، والله تعالى [حافظٌ][٦] لبيته واق ، وهل غيره ، دام سموه ، من مؤازر ، وهل سوى السيد الأجل الناصر من ناصر[٧] . وفى تاريخ ابن كثير[٨] : لما مات نور الدين وتولى ابنه المذكور اختلفت الأمراء ، [وحادت][٩] الآراء ، وظهرت الشرور ، وكثرت الخمور ، وانتشرت الفواحش ، حتى أن ابن أخيه سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود ـ

---

(١) فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٤ جملة زائدة مضطربة نصها « وأسد الملوك اسمه فى الخدمة ووفى بما لزمه من حقوق الخدمة وجمع كلمة الإسلام لعلمه أن الجماعة رحمة» .

(٢) «النعما» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٤ والمثبت أولى .

(٣) ورد هذا الخبر فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٥- ٥٨٦ نقلاً عن العماد ؛ انظره أيضا فى مفرج الكروب ج٢ ، ص١ .

(٤) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٥) «الجليل» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت هو الصحيح من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٦ .

(٦) «حافظه» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٦ حيث ينقل العينى عنه .

(٧) انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٦ نقلاً عن العماد .

(٨) البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٥ .

(٩) «حارت» فى نسخة أ ، والمثبت من نسخه ب ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٥ حيث ينقل العينى عنه .

صاحب الموصل ـ لما تحقق موت عمه ، وكان محصورا منه ، نادى مناديه بالبلد بالمسامحة فى اللعب واللهو والشرب والطرب ، ومع المنادى دف[١] وقدح ومزمار ، وتحقق حينئذ قول الشاعر[٢] :

ألا فاسقنى خَمْرا وقُلْ لى هى الخَمْرُ	ولا تَسْقِنى سِراً وقد أمكَن الجَهْرُ

وطمعت الأعداء من كل جانب فى المسلمين ، وعزم الإفرنج على قصد دمشق ، فبرز إليهم الأتابك ابن المقدم[فواقعهم][٣] عند بانياس ، فضعف عن مقاومتهم ، فهادنهم مدة ودفع إليهم أموالاً جزيلة عجَّلها لهم ، ولولا خوفهم من قدوم السلطان الملك الناصر صلاح الدين صاحب الديار المصرية« لما هادنوه . ولما بلغ ذلك صلاح الدين»[٤] كتب إلى الأمراء ، وخاصة إلى ابن المقدم ، يلومهم على ماصنعوا من المهادنة ، ودفع الأموال إلى الإفرنج ، وهم أقل وأذل ، وأنه على عزم[٥] قصد البلاد ؛ لحفظها من الإفرنج فردوا إليه كتابا فيه غلظة وكلاما فيه بشاعة ، فلم يلتفت إليهم . ومن شدة خوفهم منه كتبوا إلى سيف الدين غازى صاحب الموصل ليملِّكوه عليهم ، [ليدفع عنهم كيد][٦] الملك الناصر صلاح الدين ، فلم يفعل ؛ لأنه خاف أن تكون مكيدة منهم له ، وذلك أنه كان قد هرب منه الطواشى سعد الدولة كمشتكين ، الذى كان قد جعله عنده نور الدين عينا عليه ، وحافظاً له من تعاطى مالا يليق عليه ، فلما سمع الخادم بموت أستاذه خاف أن يمسكه ، فهرب سرا ، فحين تحقق غازى موت عمه بعث فى طلب الخادم ففاته ، فاستحوذ على حواصله [٧] . ودخل سعد الدولة حلب ، ثم سار إلى دمشق ، فاتفق مع الأمراء على أن يأخذ ابن أستاذه الملك الصالح إسماعيل إلى حلب ، [١٩١و] فيربيه هنالك ، وتكون دمشق مسلمة إلى الأتابك شمس الدين بن المقدم ، والقلعة إلى الطواشى جمال الدين ريحان ، فسار معه الأمراء والأكابر من دمشق ، وذلك فى الثالث

(١) «دنّ» فى نسخة ب .
(٢) ذكر أبو شامة الشطر الثانى من هذا البيت ونسبه إلى ابن هانى . انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٩٢ .
(٣) «فوافقهم» فى نسختى المخطوطة أ ، ب .والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٥ .
(٤) مابين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٥) «عزم على» فى نسخة ب .
(٦) «ليدفعوا به الملك الناصر» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٥ .
(٧) انظر هذا الخبر فى مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٥ .

والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة . وحين وصلوا إلى حلب جلس الصبى على سرير مملكتها ، واحتاطوا على بنى الداية شمس الدين[١] ، وعلى أخيه مجد الدين ، الذى كان رضيع نور الدين ، وأخوته الثلاثة ، وقد كان شمس الدين بن الداية يظن أن يُسلَّم إليه ابن نور الدين ليربيه ؛ لأنه أحق الناس بذلك ، فخيبوا ظنه وسجنوه وأخوته[٢] فى الجب . فكتب صلاح الدين إلى الأمراء ، يلومهم على مافعلوا من نقل الولد[من دمشق][٣] إلى حلب ، ومن سجْنهم لبنى الداية[٤] ، وقد كانوا من خيار الأمراء ورؤوس الأمراء الأكابر ، [ولم لا يسلموا] [٥] الولد الى مجد الدين بن الداية ، الذى كان أحظى الناس عند نور الدين؟ فكتبوا إليه يسيئون الأدب عليه ، وكل ذلك مما يزيده حنقا عليهم ، ويحرضه على القدوم بجيشه إليهم ، ولكنه فى هذا الوقت فى شغل شاغل بما [دهم][٦] بلاده من الأمر الهائل ، كما سنذكره إن شاء الله فى السنة الآتية .[٧] إنه على ذلك قدير .

ذكر الأمور المزعجة

منها أن فى ثالث المحرم وقع حريق ببغداد ، فاحترقت مواضع كثيرة .

ومنها أن فى ربيع الأول وقعت صاعقة فى نخلة بالجانب الغربى فاشتعلت النخلة .

ومنها أنه سقط فى بغداد بَرَدٌ كبار كالنارنج ، منها ما وزنه سبعة أرطال ، ثم جاء عقيب ذلك سيل عظيم ، وزادت دجلة زيادة عظيمة لم يعهد مثلها أصلا ، فخرب شيئا كثيرا من العمران والقرى والمزارع والقبور ، حتى خرج الناس إلى الصحراء ، وكثر الضجيج والابتهال إلى الله تعالى ، حتى فرَّج الله وتناقصت زيادة الماء[٨] . وقال ابن الجوزى[٩] (رحمه الله) : ودخل الماء إلى المارستان وعلا عليه ، ورمى عدة شبابيك من شبابيكه

---

(١) هو : على بن الداية ، الأمير شمس الدين .

(٢) «أخوه» فى نسخة ب ؛ وقد ذكر أبو شامة فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٩٣ ، أسماء أخوته وهم : سابق الدين عثمان ، بدر الدين حسن ، ومجد الدين .

(٣) الإضافة من البداية والنهاية حيث ينقل العينى عنه ، ج١٢ ، ص٣٠٦ .

(٤) انظر : تفصيل هذا الخبر فى مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٠ .

(٥) «ولم ما سلموا» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٦ .

(٦) «ردم» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . وفى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٦ «لما دهمه ببلاد مصر» . ولعل الصواب ما أثبتناه لسياق النص .

(٧) نهاية النص المنقول بتصرف من ابن كثير المرجع السابق .

(٨) انظر هذا الخبر فى : الكامل ، ج١٠ ، ص٦١ - ٦٢ ؛ المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٤ .

(٩) انظر : المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٤ - ٢٠٥ .

الحديد ، فكانت السفن تدخل من الشبابيك إلى أرض المارستان ، وَرَقَت المرضى إلى الأسطحة ، وامتلأت مقبرة أحمد بن حنبل(رحمه الله) كلها ، ولم يسلَم منها إلا موضع قبر بشر الحافى[١] (رحمه الله) ؛ لأنه كان على نشز . وكان من يرى مقبرة أحمد(رحمه الله) بعد أيام يدهش ، كأن القبور قد قلبت ، وجمع الماءُ من عظام الموتى كالتل العظيم ، وكذلك من ألواح القبور[٢] .

ومنها أن بالموصل كان نحو مما كان ببغداد أو أكثر ؛ حتى انهدم بالماء نحو من ألفى دار ، وهلك تحت الهدم شئ كثير .

ومنها أن الفرات أيضا زاد زيادة عظيمة ، فهلك بسببها شئ كثير من القبور[٣] ، وغلت الأسعار بالعراق فى هذه السنة فى الزروع والثمار ، ووقع الموتان فى الغنم ، حتى أبيع الحمل منها بقيراط ، وأصيب كثير ممن أكل منها بالعراق وغيرها [٤] .

ومنها أن فى رمضان توالت الأمطار بديار بكر والموصل أربعين صباحا ، لم يروا الشمس فيها سوى مرتين لحظتين يسيرتين ، فتهدمت «البيوت»[٥] والمساكن على أهلها .

ومنها أنه سقط أبو العباس أحمد[٦] ابن أمير المؤمنين المستضىء من قبة شاهقة إلى الأرض ، ولكنه سلم ووثئت[٧] يده اليمنى وساعده الأيسر ، وانسلخ شىء من أنفه ، وكان معه خادم أسود يقال له نجاح ، فلما رأى سيده قد سقط إلى الأرض ، ألقى نفسه أيضا وقال : لا حاجه لى بالحياة بعد . فسلم أيضًا . فلما[١٩١ظ] صارت الخلافة إلى أبى العباس الناصر كان لاينساها لنجاح ، فحكَّمه فى الدولة ، و أحسن إليه كثيرا .

---

(١) بشر الحافى : هو أبو نصر بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان بن عبد الله المروزى المعروف بالحافى - أسلم على يد على بن أبى طالب (ﷺ) ، أصله من مرو ، وسكن بغداد وتوفى بها سنة ٢٢٦هـ/٨٤١م وقيل بمرو . انظر : شذرات الذهب ، ج٢ ، ص٦٠ .

(٢) إلى هنا توقف العينى عن النقل من المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٤-٢٠٦ .

(٣) «التبول» ، فى نسخة ب .

(٤) وردت هذه الأحداث بتصرف فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٧ .

(٥) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٦) أبو العباسى أحمد بن المستضىء توفى سنة ٦٢٣ هـ/١٢٢٦م . انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٢٦ .

(٧) «وثئت» من الوثء ، وهو مايصيب اللحم ، ولا يبلغ العظم . القاموس المحيط ، مادة«وثأ» .

ذكر بقية الحوادث

منها أن ابن سُنكا ، وهو ابن أخى شملة صاحب [خوزستان][١] ، بنى قلعة بالقرب من [قلعة][٢] الماهكى ؛ ليتقوى بها على الاستيلاء على تلك الأعمال ، فسير إليه الخليفة العساكر من بغداد لتمنعه ، فالتقوا ، فحمل بنفسه على الميمنة فهزمها ، واقتتل الناس قتالا عظيما ، ثم كانت الهزيمة عليه ، فأُخذ أسيرا وقتل وحمل رأسه إلى بغداد ، فعلِّق بباب النوبى [٣] ، وهدمت القلعة التى بناها [٤] .

ومنها أنه كانت وقعة عظيمة بين المؤيد ، صاحب نيسابور ، وبين شاه مازندران ، فقُتل فيها كثير من الطائفتين ، فانهزم شاه مازندران ، ودخل المؤيد بلد الديلم ، وخربها وفتك بأهلها وعاد عنها .

ومنها أن ملك الروم خرج من القسطنطينية ، وقصد بلاد قليج أرسلان ، فجرت فيها حرب استظهر فيها المسلمون ، فلما رأى ملك الروم عجزه ، عاد إلى بلده ، وقد قُتل من عسكره وأُسر جماعة كبيرة [٥] .

ومنها أن الفرنج حاصروا بانياس ، ثم عادوا عنها ، وقد قلنا إن هذا كان بعد موت نور الدين ، وأن شمس الدين محمد بن عبد الملك خرج من دمشق ، وراسل الإفرنج وبذل لهم فعادوا [٦] .

ومنها أن ابن الجوزى قال[٧] : وعظت يوما بالحربية ، فاجتمع عندى قريب من ثلثمائة ألف .

---

(١) «خوزستا» فى نسخة ب ، وخوز : بضم أوله وتسكين ثانيه وآخره«ز» ، بلاد خوزستان وهو اسم لجميع بلاد الخوز . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٩٤ ـ ٤٩٧ .

(٢) مابين الحاصرتين إضافة من المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٤ ، للتوضيح ، وقد ذكر ابن الجوزى أنه استحدث قلعة فى ولاية باذرايا ، بالقرب من قلعة الماهكى .

(٣) باب النوبى : أحد أبواب الثلث الشرقى من مدينة بغداد ، وهو الباب الذى به العتبة التى يقال أن الملوك والرسل كانوا يقبلونها . صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٣٣٠ ـ ٣٣١ .

(٤) الكامل ، ج١٠ ، ص٦٠ .

(٥) الكامل ، ج١٠ ، ص٦٢ .

(٦) انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٩٤ ، الذى نقل هذا الخبر عن ابن أبى طى ؛ وانظر أيضًا : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٧ . حيث أورد قول شمس الدين بن المقدم تفصيلاً ؛ انظر أيضاً : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٤ ، ٢٠٥ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص٦٢ .

(٧) المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٣ .

ومنها أن فى يوم عاشوراء جلس محمد الطوسي بالتاجيَّة[١] ، وقال على المنبر أن ابن ملجم لم يكفر بقتل على (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) ، فضرب بالآجر ، ثم ثار الناس ، ولولا من كان حوله من الغلمان لقتل . فلما كان اليوم الثانى من مجالسه فرشوا له المنبر ليجلس ، فاجتمع الناس على باب التاجية ، ومعهم قوارير النفط ليحرقوه ، وبعضهم فى أيديهم الآجُر ليرجموه ، ولم يحضر فأحرقوا منبره ، وأحضره نقيب النقباء ، وأسمعه كلاما غليظا ، فقال لنقيب النقباء : « أنت نائب الديوان»[٢] ، وأنا نائب الله فى أرضه ، وأمر النقيب بأن يُجر برجله ، وكتب إلى الخليفة يخبره بما بدا منه ، فأمر الخليفة بنفيه ، فنفى إلى الجانب الغربى ، ثم خرج بعد مدة إلى مصر ، وجرى له العجائب ، وسنذكره إن شاء الله تعالى[٣] .

وفيها : ....
..........................[٤]

وفيها : حج بالناس ....[٥]

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أحمد بن على بن المعمر بن محمد بن عبيد الله أبو عبد الله الحسينى[٦] نقيب العلويين ؛ وكان يلقب بالطاهر ، سمع الحديث الكثير ، وكان جم الأخلاق ، جميل المعاشرة ، يتبرأ من الرافضة ، توفى ليلة الخميس العشرين من جمادى الآخرة منها ، ودفن بداره ، ثم نقل بعد مدة إلى مشهد الصبيان بالمدائن ، وولى ولده مكانه .

الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد بن محمد العطار أبو العلاء الهمدانى[٧] ؛ سافر الكثير وسمع الكثير ، وانتهت إليه القراءات والتحديث فى همدان ، وتوفى ليلة الخميس عاشر جمادى الآخرة منها وقدجاوز الثمانين بأربعة أشهر .

---

(١) المدرسة التاجية : توجد بزاوية الجامع الأموى الشرقية ، غربى دار الحديث العروية . انظر : الدارس ، ج١ ، ص٤٨٣-٤٨٧ .
(٢) مابين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٣) ورد هذا الحدث بتصرف فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٣ .
(٤) بياض فى نسختى المخطوطة : أ ، ب بمقدار سطر ونصف .
(٥) بياض فى نسختى المخطوطة : أ ، ب مقداره نصف سطر .
(٦) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٨ .
(٧) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٨ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٣١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٦ .

رستم بن سرهنك أبو القاسم الواعظ[(١)] ؛ سمع الحديث ، وتعلم الوعظ من ابن الزاغونى شيخ ابن الجوزى ، وتوفى يوم الثلاثاء السادس والعشرين من ربيع الأول منها ، عن ستين سنة تقريبا ، ودفن بباب حرب[١٩٢و] .

ابن الأهوازى خازن دار الكتب بمشهد أبى حنيفة[(٢)] (رضي الله عنه) ؛ توفى فى ربيع الأول ، جاء من محلته إلى البلد ، فاتكأ على دكة فمات ، وكذلك أخوه وأبوهما فجأة .

يحيى بن نجاح المؤدب[(٣)] ؛ سمع الحديث الكثير ، وقرأ النحو واللغة ، وكان غزير الفضل ، يقول الشعر الحسن ، توفى فى أواخر هذه السنة .

ابن قرقول أبو إسحق إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن باديس[بن][(٤)] ، القائد الحَمْزى المعروف بابن قُرقُول[(٥)] ؛ صاحب كتاب «معارف الأنوار» الذى وضعه علي مثال كتاب ؛ «مشارق الأنوار» ، للقاضى عياض ، كان من الأفاضل ، وصحب جماعة من علماء الأندلس ، وكانت ولادته بالمَرِيَّة من بلاد الأندلس فى سنة خمس وخمسمائة ، وتوفى بمدينة فاس[(٦)] يوم الجمعة وقت العصر ، السادس من شوال من هذه السنة ، وكان قد صلى الجمعة فى الجامع ، فلما حضرته الوفاه تلا[(٧)] سورة الإخلاص ، وجعل يكررها ، ثم تشهَّد ثلاث مرات ، وسقط على وجهه ساجدا ميتا (رحمه الله) . وقُرقُول بضم القافين وسكون الراء المهملة وبعد الواو لام . مَرِيّة بفتح الميم وكسر الراء المهمله وتشديد الياء آخر الحروف وفى آخرها هاء ، وهى مدينة عظيمة بالمغرب بالقرب من سبتة[(٨)] . والحمزى بفتح الحاء المهملة وبعد الميم الساكنة زاى معجمة نسبة إلى حمزة .

---

(١) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٩ .
(٢) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٦ .
(٣) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٠ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٣٦ .
(٤) مابين الحاصرتين إضافة من وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٦٢ .
(٥) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٦٢ - ٦٣ .
(٦) فاس : مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى بالقرب من مدينة سبته . انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٤٦ ؛ صبح الأعشى ، ج٥ ، ص١٥٣ .
(٧) «تلى» كذا فى نسخة ب .
(٨) «سيتة» ، فى نسخة ب وهو خطأ من الناسخ .

أبو العباس الخضر بن نصر بن عقيل بن نصر الإربلى ؛ الفقيه الشافعى[١] ، كان فقيها فاضلا عارف بالمذهب والفرائض والخلاف ، واشتغل ببغداد على الكِياهِراسى وابن الشاشى ، ولقى عدة من مشايخها ، ثم رجع إلى إربل ، وبنى له بها الأمير أبو منصور سُرفتكين بن عبد الله الزينى - صاحب[٢] نائَب إربل- مدرسة القلعة سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ، ودرس فيها زمانا ، وهو أول من درس بإربل ، وله تصانيف حسان كثيرة فى التفسير والفقة وغير ذلك ، وله كتاب ذكر فيه ست وعشرين خطبة للرسول(ﷺ) وكلها مسندة ، واشتغل عليه خلق كثير ، وانتفعوا به . وكان رجلا صالحا زاهدا عابدا ورعا متقللا فى نفسه مباركا ، وكان قدم دمشق فأقام بها مدة ، وأثنى عليه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ، ثم رجع إلى إربل ، ومن جملة من تخرَّج عليه ؛ الفقيه ضياء الدين أبو عمر ، وعثمان بن عيسى بن دِرباس الهمدانى ، وتوفى ليلة الجمعة الرابع عشر من جمادى الآخرة من هذه السنة بإربل ، ودفن بمدرسته التى في الربض فى قبة منفردة ، وقبره يزار[٣] . وقال ابن خلكان[٤] : وزرته كثيرا ، وتولى موضعه ابن اخيه .

عز الدين أبو القاسم نصر بن عقيل بن نصر ؛ وكان فاضلا ، ومولده بإربل فى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، وسخط عليه الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل ، وأخرجه منها ، فانتقل إلى الموصل ، وسكن فى رباط ابن الشهرزورى ، ولم يزل هنالك إلى أن توفى فى ثالث عشر ربيع الآخر سنة تسع عشرة وستمائة ، وكان له ولد يسمى شرف الدين محمد[٥] ، وكانت له اليد الطولى في عمل الدوبيت ، ومولده فى رجب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة بإربل ، وتوفى ليلة السبت الثامن والعشرين من المحرم سنة ثلاث وثلاثين وستمائة بدمشق ، ودفن فى مقابر الصوفية .

---

(١) انظر ترجمته فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٧ ؛ السبكى : طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص٢١٨ . المطبعة الحسينية ، القاهرة .

(٢) «حاجب» فى نسخة ب .

(٣) ورد هذا النص فى وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٢٣٧ - ٢٣٩ .

(٤) وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٥) «مشرف» فى نسخة ب وهو خطأ فى النسخ .

أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل[١] ؛ قاضى القضاة بالديار المصرية زمن الفاطميين ، ويلقب بفخر الأمناء ، وكان أول من صُلب مع عمارة [١٩٢ظ] اليمنى وأصحابه كما ذكرنا ، وقد كان ينسب إلى فضيلة وأدب ، وله شعر رائق ، فمن ذلك قوله فى غلام رفا :

يا رافـيًـا خَـرْقَ كُلِّ ثوبٍ ويا [رَشَـا][٢] حُـبُّـه اعْـتِـقَـادى

عـسى بكَفِّ الوِصَـالِ ترفـو مـا مَـزَّق الهـجـرُ من فـؤادى

وقال العماد فى الخريدة[٣] : أبو القاسم هبه الله بن عبد الله ؛ كان داعى الدعاة بمصر للأدعياء ، وقاضى القضاة لأولئك الأشقياء ، يلقبونه بفخر الأمناء ، وهو عندهم فى المحلة العلياء ، والمرتبة الشماء ، والمنزلة[التى][٤] فى السماء ، حتى انكدرت نجومهم ، وتغيرت رسومهم ، وأقيم قاعدهم وعضد عاضدهم ، [وأخليت][٥] منهم مصرهم ، [وأجلى][٦] عنهم قصرهم ، وهو أول من ضمه حبل الصَلب ، وأمه فاقرة الصُلب ، وهذا صنع الله فيمن كفر النعمة وجحد ، وذلك غرة رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة .

عمارة اليمنى ؛ هو الفقيه أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على بن زيدان بن أحمد ابن محمد بن سليمان بن أيوب الحكمى اليمنى الملقب نجم الدين الشاعر المشهور . وقال ابن خلكان[٧] : نقلت من بعض تواليفه أنه من قحطان . ثم الحكم بن سَعد العشيرة المذحجى ، وأن وطنه من تهامة باليمن ، مدينة يقال لها مرَطان من وادى وساع ، وبُعدها من مكة فى مهب الجنوب أحد عشر يوما ، وبها مولده ومرباه ، وأنه بلغ الحلم سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، ورحل إلى زبَيد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، فأقام يشتغل بالفقه فى بعض مدارسها مدة أربع سنين ، وأنه حج سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وسيّره قاسم بن هاشم بن فليته صاحب مكة ـ شرفها الله ـ رسُولاً إلى الديار المصرية ، فوصلها

---

(١) انظر ترجمته فى شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٣٥ .
(٢) «رشاء» فى الأصل . والمثبت من الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص١٨٧ .
(٣) انظر الخبر فى الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ص١٨٦ـ ١٨٧ .
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من المرجع السبق ، ص١٨٦ .
(٥) «أجليت» فى نسخة أ ، والمثبت من نسخة ب .
(٦) «وأخلى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص١٨٧ .
(٧) انظر وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٣١ ـ ٤٣٦ .

فى ربيع الأول سنة خمسين وخمسمائة، وصاحبها يومئذ الفائز بن الظافر[١]، والوزير الصالح طلائع بن رُزيك[٢]، وأنشَدهما فى تلك الدفعة قصيدته الميمية[٣] وهى:

الحَمْدُ للعيس بعدَ العَزْمِ والهِمَم حَمْدًا يقومُ بما أَولَت من النِّعم

لا أجْحَدُ الحقَّ عِنْدى للركابِ يَدٌ تمنَّت اللَّجَمُ فيها رُتبةَ الخَطُم

قَرَّبنَ بعدَ مَزارِ العزِّ من نظرى حتى رأيتُ إمامَ العَصْرِ من أَمَم

ورُحْن من كَعْبةِ البَطحاءِ والحرَم وفدًا الى كَعْبةِ المَعْروفِ والكَرم

فهل دَرىَ البيتُ أنِّى بعدَ فُرقَتِه ماسِرْتُ من حَرمٍ إلا إلى حَرم

حيثُ الخِلافةُ مضروبٌ سُرادقُها بين النقيضين من عَفْوٍ ومن نِقَم

وللإمَامةِ أنوارٌ مُقَدّسةٌ تجْلُو البغيضين من ظُلمٍ ومن ظُلَم

وللنبوةِ آياتٌ [تنصُّ][٤] لنا على الخَفِيين[٥] من حُكمٍ ومن حِكم

وللمَكارمِ أعلامٌ تعُلِّمُنا مدحَ الجَزِيلَيْن مِنْ بأسٍ ومن كَرَم

وللعُلا ألْسُنٌ تُثْنِى مَحَامِدُها على الحَميدين من فعلٍ ومن شِيَم

ورايةُ [الشَّرفِ][٦] البذَّاخِ ترفَعُها يدُ الرفيعَيْن من مَجْدٍ ومن هِمَم

أقسَمْتُ بالفائزِ المعصوم معتقداً فوزَ النجاة وأجْرَ البر فى القَسَمِ/ [١٩٣و]

لقد حَمى الدينَ والدُّنيا وأهلَهُما وزيرُه الصالِحُ الفَرَّاجُ للغُمَمِ

اللابسُ الفخْرَ لم تَنْسِجْ غَلائلَهُ إلا يدُ الصَّنعتين[٧] السيفِ والقلمِ

وُجُودُه أوجَدَ الأيامَ ما اقْتَرحَتْ وَجُودُه أعْدَمَ الشَّاكِين للعَدَمِ

---

(١) الفائز بن الظافر: هو أبو القاسم عيسى الملقب الفائز بن الحافظ بن محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدى عبيد الله توفى سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠م. انظر: وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٩١ ـ ٤٩٤.

(٢) هو أبو الغارات طلائع بن رزيك الملقب بالملك الصالح وزير مصر كان والياً بمنية بنى خصيب من أعمال صعيد مصر توفى سنة ٥٥٦ هـ/١١٦١م. انظر: وفيات الأعيان، ج٢، ص٥٢٦ ـ ٥٣٠.

(٣) انظر القصيدة أيضا فى النكت العصرية لعمارة اليمنى، ص٣٢ ـ ٣٤؛ وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٣٢ ـ ٤٣٣.

(٤) «ينص» فى نسختى المخطوطة أ، ب. والمثبت من النكت العصرية، ص٣٣؛ وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٣٢ ـ ٤٣٣.

(٥) «الحفيين» فى نسخة ب.

(٦) «للشرف» فى الأصل، والمثبت من ديوان عمارة؛ وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٣٢.

(٧) «الصنعين» فى وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٣٣.

قد مَلَّكَتْه العَوالى رِقَّ مملكةٍ تُعيرُ أنفَ الثُريّا عِزَّة الشَّمَم
أرى مَقامًا عَظِيمَ الشَّأْن أَوهَمَنى فى يقظتى أنها من جُملَةِ الحُلُم
يومٌ من العُمْرِ لم يخْطُرْ على أَمَلى[١] ولا ترقَّت إليه رَغْبَةُ الهِمَم
ليتَ الكواكبَ تدنو لى فأنظُمُها عقودَ مَدْحٍ فما أرضَى لكُمْ كلمى
تَرى الوزارةَ فيه وهى بَاذِلةٌ عندَ الخلافة نُصْحًا غيرَ مُتَّهَم
عواطفُ علَّمَتْنا[٢] أنَّ بَيْنَهُما قَرابةً من جَميل الرأى لا الرَّحِم
خليفةٌ ووزيرٌ مَدَّ عَدْلُهُما ظِلاً على مَفْرِق الإسْلام والأُمم
زيادَةُ النيلِ نقْصٌ عند فَيْضِهِما[٣] فَمَا عسَى نتعاطَى منّةَ الدِّيَم

فاسْتَحْسَنا قصيدته، وأجْزلا صِلَته.

قال عمارة[٤] : لما دخلتُ مِصرَ، وحضرتُ للسلام على الخليفة، والوزير فى قاعة الذهب من قصر الخليفة، أنشدتهما هذه القصيدة[٥]، والصالح يستعيدها فى حالة الإنشاد مراراً، فاستحسنها الأستاذون والأمراء والكبراء، ثم أُفيضت علىَّ خلع من ثياب الخليفة[٦] مُذهبة، ودفع إلىَّ الصالح خمسمائة دينار، وإذا بعض الأستاذين قد خرج لى من عند السيدة [الشريفة] [٧] بنت الإمام الحافظ بخمسمائة دينار أخرى، وحمل المال معى إلى المنزل، وأطلقت لى من دار الضيافة رسوم لم تطلق لأحد[من][٨] قبلى، وتهادتنى أمراء الدولة إلى منازلهم للولائم، فاستحضرنى الصالح للمجالسة، ونظمنى فى سلك أهل المؤانسة، [وانثالت علىّ صلاته وغمرنى برّه][٩]، ووجدت بحضرته من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالى بن الحباب، والموفق أبا الحجاج يوسف بن الخلال صاحب ديوان الإنشاءِ، وأبا الفتح محمود بن قادوس، والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير وغيرهم.

---

(١) «أمل» فى نسختى المخطوطة أ، ب. والمثبت من وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٣٣.
(٢) «أعلمتنا» فى نسختي المخطوطة أ، ب. والمثبت من وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٣٣.
(٣) «قبضهما» فى وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٣٣.
(٤) انظر: النكت العصرية، ص٣٢-٣٤ حيث ورد النص مع اختلاف طفيف فى الألفاظ.
(٥) أورد عمارة القصيدة السابقة فى هذا الموضع.
(٦) «الخلافة» فى النكت العصرية.
(٧) مابين الحاصرتين إضافة من النكت العصرية، ص٣٤.
(٨) مابين الحاصرتين إضافة من النكت العصرية، ص٣٤.
(٩) مابين الحاصرتين إضافة من النكت العصرية، ص٣٤.

وقال ابن خلكان[١] : وأقام عمارة فى مصر إلى شوال من سنة خمسين فى أرغد عيش وأعز جانب ، ثم فارق مصر فى هذا التاريخ ، وتوجه إلى مكة ، ومنها إلى زَبيد فى صفر سنة إحدى وخمسين ، ثم حج من عامه ، فأعاده قاسم صاحب مكة المذكور فى رسالة[٢] إلى مصر مرة ثانية ، فاستوطنها ولم يُفارقها بعد ذلك . وكان فقيها شافعى المذهب ، شديد التعصب للسُّنة ، أديبا ماهراً ، شاعراً مجيدا ، محادثا ممتعًا ، فأحسن الصالح وبنوه إليه كل الإحسان ، وصحبوه مع اختلاف العقيدة ؛ لحسن صحبته .

وله فى الصالح وولده مدائح كثيرة ، وكانت بينه وبين ابن شاور[٣] صحبة متأكدة قبل وزارة أبيه ، فلما وُزِّرَ استحال عليه فكتَبَ إليه :

إذا لم يُسَالِمْك الزمَانُ فحارِبِ ... وباعِدْ إذا لم تنتفعْ بالأقاربِ
ولا تحتقرْ كيداً ضَعيفا فربَّما ... تموتُ الأفاعِى من[سمام][٤]العقَاربِ
فقد هَدّ قِدمًا عرش بلقيس هدْهدٌ ... وَخرَّبَ فأرٌ قبل ذا سد مأربِ/ [١٩٣ظ]
إذا كان رأسُ المالِ عُمْرك فاحترز ... عليه من الإنفاقِ فى غير واجبِ
فبين اختلافِ الليلِ والصبح مَعرَكٌ ... يَكر علينا جيشُه بالعجائبِ
وما راعَنى غَدْرُ الشبابِ لأننى ... أَنستُ بهذا الخُلْق من كلِّ صاحبِ
وغدْرُ الفتى فى عَهْده ووفائِه ... وغدْرِ المواضِى فى بُنُوِّ المضاربِ
إذا كان هذا الدُّرُّ مَعْدِنُه فَمى ... فصُونوه عن تقْبيلِ راحة واهبِ
رأيتُ رجالا أصبَحَتْ فى مآدبِ ... لدَيكم وحالى وحْدَها فى نوادِبِ
تأخَرْتُ لَمَّا قدَّمَتْهُم عُلاكُم ... عَلَىَّ وتأبى الأسْدُ سَبْقَ الثعالبِ
تُرى أين كَانُوا فى مواطِنِى التى ... غَدَوْتُ لكُم فيهِنَّ أكرمَ نائبِ
ليالىَ أتْلُو ذِكْرَكُم فى مَجَالسٍ ... حَديثُ الورَى فيها بغَمزِ الحواجبِ

(١) انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٣٣ - ٤٣٥ .
(٢) انظر خبر هذه الرسالة فى النكت العصرية ، ص٤٢ .
(٣) هو : الكامل بن شاور . انظر النكت العصرية ، ص١٢٩ ، حيث أورد بعد ذلك الأبيات الآتى ذكرها ص١٣٠ .
(٤) «سموم» فى نسخة ب .

قال ابن خلكان(١) : وزالت (٢) دولة المصريين وهو فى البلاد . ولما ملك السلطان صلاح الدين مدحَه ، ومدح جماعةً من أهل بيته ، يتضمن ديوانه جميع ذلك . ورَثى أصحاب القصر عند زوال ملكهم بقصيدة لامية طويلة أجاد فيها ، وغالبُ شعره جيدِ ، ثم أنه شرع فى أمور وأسباب من الاتفاق مع جماعةٍ من رُوساء البلد على التعصب للمصريين وإعادة دولتهم ، فأحس بهم صلاح الدين ، فكانوا ثمانية من الأعيان ، ومن جملتهم عمارة هذا ، وشنقهم يوم السبت ثانى شهر رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة بالقاهرة ، وقد ذكرناه مفصلاً . وقال ابن خلكان(٣) : وله تواليف منها كتاب «أخبار اليمن» ، وفيه فوائد . ومنها «النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصريّة» ، وغير ذلك .

وقال ابن كثير(٤) : وله تصنيف فى الفرائض ، وقد كان أديبا فاضلا فقيها فصيحا ، غير أنه كان ينسب إلى موالاة الفاطميين ، وله فيهم وفى أمرائهم ووزرائهم مدائح كثيرة جداً ، وأقل ما [كان](٥) ينسب إلى الرفض ، وقد اتهم باطنه بالكفر المحض .

وذكر العماد(٦) فى الخريدة أنه قال فى قصيدته التى يقولُ فيها :

قد كان أول هذا الدينِ من رجل سعى إلى أن دَعَوْه سيِّد الأمم

قال [العماد](٧) : فأفتى علماء مصر بقتله وحرَّضوا السلطان صلاح الدين على ذلك . قال : ويجوز أن يكون [هذا البيت] (٨) معمولا به عليه(٩) ، والله أعلم .

وقد أورد ابن الساعى(١٠) شيئا من رقيق شعره ، فمن ذلك قوله يتغزل :

---

(١) انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٣٤ - ٤٣٥ حيث نقل العينى عنه بتصرف .

(٢) «ورايت» فى نسخة ب .

(٣) وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٣٤ - ٤٣٥ .

(٤) انظر البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٥ .

(٥) مابين الحاصرتين من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٥ .

(٦) ذكر فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٥ أول القصيدة هذا نصها :

العلم مذ كان محتاج إلى العلم وشفرة السيف تستغنى عن القلم .

وقال أيضاً : « وهى طويلة جداً» . وقد ذكر فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٣ نقلاً عن العماد أن هذا منسوب إليه .

(٧) «العلماء» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٦ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٦١ .

(٨) مابين الحاصرتين إضافه للتوضيح من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٦ .

(٩) انظر هذا الخبر فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٦٢ .

(١٠) انظر : النكت العصرية ، ص٢٦٥ حيث أورد عمارة اليمنى القصيدة كاملة .

لى فى هوى[الرَّشَأِ][1] العُذْرِىِّ أعْذارُ لـم يبقَ لى مُـنْذُ أقَـرَّ الدمعُ إنكارُ
لى فى القُدودِ وفى لثْمِ الخدودِ وفى[2] ضَمِّ النُّهُودِ لُبَـانَاتٌ وأوطارُ
هذا اختيارى فوافِقْ إن رَضِيتَ به أو لاَ فَدَعْنى بمـا أهْوى وأخْتَـارُ

ومما وجد فى شعره يرثى العاضد وأيامه ، ويظهر محبته للفاطميين[3] :

يا عـاذلِى فى هَوى أبناءِ فـاطِمَـةٍ لكَ المَلامةُ إن قصَّرتَ فى عَذْلى
بالله زُر ساحةَ القَصْرين ، وابكِ معى عليهما ، لا على صِفِّين والجَمَلِ[4]/ [١٩٤و]

وهى قصيدة طويلة ، وقد ذكرناها فيما مضى .

مَالك بن على[5] صاحب قلعة جعبر ؛ قتل فى هذه السنة ، قتله الإسماعيلية بسرُوج[6] .

مِرِى ملك الإفرنج ، صاحب عسقلان (لعنه الله) ، هلك فى هذه السنة ، وقد كاد اللعين أن يغلب على الديار المصرية ، لولا فضل الله تعالى ورحمته .

---

(١) «الرشاء» فى الأصل . والمثبت هو الصحيح لسلامة الوزن .
(٢) «لى» فى نسخة ب .
(٣) ذكر ابن كثير أبياتا أخرى لعمارة اليمنى فى رثاء العاضد أولها :
أسفى على زمان الإمام العاضد أسف العقيم على فراق الواحد
انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٧٧ .
(٤) انظر هذه القصيدة فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٧٠ - ٥٧١ حيث نقلها عن العماد .
(٥) هو : شهاب الدين مالك بن على بن مالك بن سالم بن مالك بن بدران بن مقلد العقيلى . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٨٥ .
(٦) سروج : بلدة قريبة من حران من ديار مضر . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٨٥ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة السبعين بعد الخمسمائة★

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضىء بأمر الله ، وصاحب مصر السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وسلطان الشام وحلب وماوالاهما الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ، وسلطان الروم عز الدين قُليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن[1] سليمان بن قطلومش بن أرسلان بيغو بن سلجوق ، وصاحب اليمن الملك المعظم توران شاه بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وصاحب المغرب أبو يعقوب [2] يوسف بن السلطان عبد المؤمن ، وصاحب الموصل وغيرها سيف الدين غازى بن مودود ، وصاحب ماردين وغيرها قطب الدين إيل غازى بن نجم الدين ألبى بن تمرتاش بن إيلغازى بن أرتُق ، وصاحب آمِد وحصن كيفا[3] نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود ، وصاحب تبريز[4] فلك الدين ابن آقسنقر الأحمديلى ، وصاحب خوزستان وفارس شملة التركمانى ، وصاحب همدان وغيرها البهلوان محمد [5] بن أيلدكز ، وصاحب غزنة[6] شهاب الدين الغورى .

ذكرُ تملك صلاح الدين دمشق وأخذه من الملك الصالح بن نور الدين

ولما مات نور الدين فى التاريخ الذى ذكرناه ، وتولى عوضه ولده إسماعيل ، وطمعت الفرنج فى بلاد الشام ، واختلفت آراء أمراء الشام ، وعزم السلطان صلاح الدين للتوجه إلى

★ يوافق أولها ٢ أغسطس ١١٧٤م .

(١) «ابن» مكرره فى نسخة ب .

(٢) يوسف بن عبد المؤمن بن على القيسى الكومى ، تولى الحكم سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٣م ، وتوفى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٣٠ - ١٣٨ .

(٣) حصن كيفا : بلدة وقلعة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ،ص٢٧٧ .

(٤) تبريز : من مدن أذربيجان وهى مدينة عامرة . معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٣٢ .

(٥) هو : محمد البهلوان بن أيلدكز الأتابك شمس الدين صاحب أذربيجان وعراق العجم توفى ٥٨١هـ/١١٨٥م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٢٠٨ ، عارضة ٢٥٣ ؛ الشذرات ج٤ ، ص٤٦٩ .

(٦) غزنة : من طرف خراسان وأول بلاد الهند . انظر : تقويم البلدان ، ج٣ ، ص٤٦٦ - ٤٦٧ .

الشام ، لأخذها وحفظها من الإفرنج ، ولكنه عرض عليه أمران : الأول : مجئ الإفرنج إلى بلاد مصر ، والثاني : مخالفة كنز المقدم بأسوان ، فلنذكر الأمرين أولاً ، ثم نذكر أخذ صلاح الدين دمشق .

أما الأمر الأول فقد قال ابن كثير(١) : استهلت هذه السنة والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على عزم الدخول إلى الشام ؛ ليحفظه من أيدي الإفرنج المخذول ، ولكنه قد دهمه أمر شغله عنه . وذلك أن الفرنج قدموا إلى ساحل البلاد المصرية في أسطول لم يسمع بمثله ؛ في كثرة مراكبه ومافيه من آلات الحصار ، وكثرة الرجال والمقاتلة ، في جملة ذلك ؛ مائتا شيني في كل منها مائة وخمسون مقاتلا ، وأربعمائة قطعة أخرى . وكان قدومهم من صقلية إلى ظاهر إسكندرية قبل رأس السنة بأربعة أيام ، فنصبوا المنجنيقات والدبابات حول البلد ، وبرز إليهم أهلها ، فقاتلوهم دونها قتالاً شديداً ، واستمر القتال أياما ، وقتل من كل الفريقين خلق كثير ، ثم اتفق أهل «البلد»(٢) على تحريق مانصبوه من المنجنيقات والدبابات ، ففعلوا ذلك ، فأضعف ذلك قلوب الإفرنج وفنَّد في أعضادهم ، ثم كبسهم المسلمون في منازلهم ، فقتلوا من أحبوُا وأرادوا ، وغنموا ماشاءوا واختاروا . وانهزم الكفار في كل وجه ، ولم يكن لهم ملجأ إلا البحر أو القتل أو الأسر ، واستحوذ المسلمون على أموالهم وأثقالهم وخيولهم ، وماضربوه من الخيام لنزولهم ، وبالجملة قتلوا خلقا من الرجال ، وغنموا شيئا كثيراً من الأموال ، وركب من بقي منهم في الأسطول راجعين إلى بلادهم خائبين لعنهم الله .

وفي تاريخ بيبرس(٣) : وفي هذه السنة قصد الإفرنج ثغر الإسكندرية[١٩٤ظ] وجاءوا في مائتي شيني وطريدة وبطسة ، و أمد الملك الناصر صلاح الدين أهل الثغر بالعسكر ، وتحرك ليتوجه إليهم ، فألقى الله في قلوبهم الرعب ، فعادوا خائبين بعد أن ضايقوا الثغر وزحفوا عليه ثلاثة أيام ، وقاتلوا قتالا شديداً .

---

(١) انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٧ ، حيث ينقل عنه العيني بتصرف .
(٢) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٣) انظر : نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٣٩٢ .

وفى تاريخ الدولتين[١] : أما وصول الأسطول إلى إسكندرية فكان يوم الأحد السادس والعشرين من ذى الحجة سنة تسع وستين ، وانهزم فى أول المحرم سنة سبعين .

وأرسل صلاح الدين كتابا إلى بعض الأمراء بالشام ، وفيه : وصل[٢] أول الأسطول وقت الظهر ، ولم يزل واصلا إلى وقت العصر . وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر ، لاعلى خفاءٍ من الخبر ، واستنزلوا خيولهم من الطرائد ورجالهم من المراكب ، فكانت الخيل[ألفا وخمسمائة رأس][٣] ، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل مابين فارس وراجل ، وكانت عدة الطرائد[ست وثلاثين طريدة تحمل الخيل وكان معهم][٤] مائتا شينى ، فى كل شينى مائة وخمسون راجلا ، وكانت عدة السفن التى تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن ، وكانت عدة المراكب الحمالة برسم الأزواد للرجال أربعين مركبا ، وفيها من الرجال المتفرقين وغلمان الخيالة وصُناع المراكب وأبراج الزحف ودباباته والمنجنيقية ، مايتمم خمسين ألف راجل .

ولما تكاملوا نازلين على البر ، حملوا على المسلمين حملة أوصلوهم إلى السور ، وفقد من أهل الثغر فى وقت الحملة مايناهز سبعة أنفس . واستشهد محمود بن البصار و[كان][٥]بسهم جرح ، وجدفت مراكب الإفرنج داخلة إلى الميناء ، وكان به مراكب مقاتلة ومراكب مسافرة ، فسبقهم المسلمون إليها فخسفوها وغرقوها ، وغلبوهم على أخذها ، وأحرقوا ما احترق منها ، واتصل القتال إلى المساء ، فضربوا خيامهم بالبر ، وكانت عدتهم ثلثمائة خيمة .

فلما أصبحوا زحفوا وضايقوا وحاصروا ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها ، وثلاثة مجانيق كبارا تضرب بحجارة سوداء استصحبوها معهم من صقلية ، والدبابات تشبه الأبراج فى جفاء أخشابها ، وارتفاعها ، وكثرة مقاتِلتها واتساعها ، وزحفوا بها إلى أن قاربت السّور ، ولجّوا فى القتال عامة النهار المذكور .

---

(١) انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٩٨ .

(٢) «وصول» فى نسخة ب .

(٣) «ألفين وخمسمائة فارس» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٩٨ ؛ مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٢-١٣ .

(٤) مابين الحاصرتين ساقط من نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٩٨ ؛ وانظر أيضا : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٣ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص٥٦ .

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة لازمة من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٩٩ لاستقامة النص .

وورد الخبر إلى منزلة العساكر بفاقوس يوم الثلاثاء ثالث يوم نزول العدو على جناح الطائر ، فاستنهض السلطان العساكر إلى الثغرين إسكندرية ودمياط . وأما أهل إسكندرية فإنهم فتحوا الأبواب[١] على غفلة ، وخَرَّجُوا منها ممن كان من الأمراء ، فأحرقوا الدبابات المنصوبة ، وأنزل الله النصر على المسلمين ، والخذلان على الكفار ، واتصل القتال إلى العصر من يوم الأربعاء ، وانهزم الإفرنج واستحر القتل والجرح فيهم ، ولم يسلم منهم إلا من نزع لبسه ، ورمى فى البحر نفسه . وتقحم المسلمون فى البحر على بعض المراكب فخسفوها وأتلفوها ، فولت بقية المراكب هاربة ، وبقى العدو بين قتل وغرق وأسرٍ ، واحتمى ثلثمائة فارس فى رأس تل ، فأخذت خيولهم ، ثم قتلوا وأسروا ، وأقلع هذا الأسطول عن الثغر يوم الخميس . وذكر ابن شداد [٢] أن نزول هذا العدو كان فى شهر [١٩٥و] صفر ، وكانوا ثلاثين ألفا فى ستمائة قطعة ما بين شينى ، وطرادة ، وبطسة ، وغير ذلك .

وأما الأمر الثانى : فهو نوبة الكنز . وقال بيبرس فى تاريخه[٣] : وفى هذه السنة خالف الكنز بأسوان وهو مقدم من المصريين ، وكان قد انتزح إلى أسوان ، فأقام بها ، ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه ، ويخيل لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة المصرية ، ويقطع خطبة الناصر صلاح الدين ، ويخطب لداود بن العاضد ، فاجتمع إليه جمع وافر من السودان ، وقصد قوص وأعمالها . فانتهى خبره إلى الملك الناصر ، فجرد إليه عسكرا[٤] ، وقدّم عليه أخاه الملك العادل ، وتوجه صحبته أبو الهيجاءِ السمين ، فساروا إلى الكنز ، وقد حشد جمعا كثيرا من السودان والرعية وعُربان البلاد ، فالتقوا وقتلوا الكنز وأبادوا جموعه ، واطمأنَّ الصعيد ، وعاد الملك العادل وسكن القصر بالقاهرة ، ولقب من ذلك الحين بالملك العادل[٥] .

---

(١) «الباب» فى نسخة ب .

(٢) نقل العينى هذا النص بتصرف من النوادر السلطانية ، ص٤٨ - ٤٩ .

(٣) زبدة الفكرة غير موجود بين أيدينا ، انظر : نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٣٦٩ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص٦٤ - ٦٥ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٠ - ٥٣٣ حيث أورد أبوشامة نقلاً عن المؤرخ الحلبى ابن أبى طى حديثاً مفصلاً عن حملة تورانشاه إلى بلاد النوبة .

(٤) «فجرد عسكر إليه» كذا فى نسخة ب .

(٥) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص٤٧-٤٨ .

والكنز المذكور من قبيلة ربيعة[١] ، وكان مسكنهم بجزيرة العرب ، ومستقرهم منها باليمامة ، وانتقلوا إلى مصر من أيام المتوكل العباسى[٢] ، فسكنوا بيوت الشعر فى صحارى هذه الأعمال . وكانت البجاة [٣] تشن الغارات فى كل وقت ، فمنعوهم من ذلك ، ثم تزوجوا عندهم ، وظفروا معدن الذهب بالعلاقى[٤] ، فتمولوا .

وفى تاريخ ابن كثير[٥] : ومما عوق الملك الناصر صلاح الدين عن الشام رجل يعرف بالكنز ، وسماه بعضهم عباس بن شادى ، وكان من مقدمى الديار المصرية ، ومن الدولة الفاطمية ، وكان قد [انتزح][٦] إلى أسوان ، وجمع عليه خلقا من الرعاع من الحاضرة والعربان ، وزعم لهم أنه سيعيدُ الدولة[الفاطمية][٧] ، ويدحض الدولة [الأتابكية][٨] التركية ، ثم ذكر قريبا مما ذكرناه .

وقال ابن أبى طى[٩] : خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها طود[١٠] رجل يعرف بعباس بن شادى[١١] ، وثار فى بلاد قوص ونهبها وخربها ، وأخذ أموال الناس ، واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، وكان السلطان استنابه بمصر ، فجمع له العساكر وأوقع به ، وبدد شمله ، ثم قصد بعده كنز الدولة الوالى بأسوان ، وكان قصد بلد طُود ، فقتل أكثر عسكره وهرب ، فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله .

---

(١) بنو ربيعة : هم بطن من طى من القحطانية مساكنهم البلاد الشامية . انظر : نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، ص١٠٠ - ١٠٣ .

(٢) المتوكل العباسى : هو أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى توفى سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م . وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٣٥٠ - ٣٥٦ .

(٣) البُجَاة : البجة بضم الباء الموحدة وفتح الجيم وألف فى الآخر ، وهم من أصفى السودان لوناً ، وهم مسلمون ونصارى وأصحاب أوثان ، وموطنهم فى جنوب صعيد مصر مما يلى الشرق فيما بين بحر القلزم وبين نهر النيل على الغرب من الديار المصرية وقاعدتهم سواكن . صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٤) العلاقى : وادى العلاقى فى بلاد البجة فى جنوبى أرض مصر به معدن التبر . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٧١٠ .

(٥) البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٨ .

(٦) «انتزع» فى نسخة أ ، وهو خطأ ، والمثبت من نسخة ب .

(٧) مابين الحاصرتين إضافة من ابن كثير الذى ينقل عنه العينى ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٨ .

(٨) مابين الحاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٨ .

(٩) انظر قول ابن أبى طى فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٠١ - ٦٠٢ .

(١٠) الطود : بليدة بالصعيد الأعلى فوق قوص ودون أسوان لها مناظر وبساتين ، أنشأها الأمير درباس الكردى المعروف بالأحول فى أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٥٥٦ .

(١١) عباس بن شادى : من مقدمى الديار المصرية والدولة الفاطمية استند إلى بلد يقال له أسوان وقيل إنه تولى حكم أسوان فى أول أيام صلاح الدين . انظر : البداية والنهاية ، ج١١ ص٢٨٨ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٠١ - ٦٠٢ ؛ النوادر السلطانية ، ص٤٧ - ٤٨ .

وأما توجه السلطان صلاح الدين إلى الشام فقد كان فى هذه السنة فخرج إلى البركة فى مستهل صفر ، وأقام حتى اجتمع العسكر ، ثم رحل إلى بلبيس فى ثالث عشر ربيع الأول ، وكان عنده رسل شمس الدين صاحب بُصْرَى ، صديق ابن جاولى ، وشمس الدين بن المقدم [١] ، ثم سار إلى أيلة ، ثم أناخَ على بصرى[٢] ، فاستقبله صاحب بُصرَى ، ولم يزل فى خدمته إلى الكسوة[٣] ، وبكر صلاح الدين يوم الاثنين آخر شهر ربيع الأول ، وسار فى عسكره حتى دخل دمشق ، ودخل إلى دار العقيقى[٤] وكانت مسكن أبيه ، وكان فى قلعة دمشق جمال الدين ريحان الخادم ، فاستماله صلاح الدين حتى ملك القلعة أيضًا ، ونزل فى القلعة سيف الإسلام أخو السلطان صلاح الدين ، وأظهر السلطان لأهل دمشق أنه إنما جاءَ لتربية الملك الصالح بن نور الدين ، وحفظ مالهُ من المصالح ، وجاء إليه أعيان البلد ، [١٩٥ظ] منهم : القاضى كمال الدين بن الشهرزورى ، فأكرمه السُلطان ، وبالغ فى إكرامه ، والأمراء والأجناد والأتراك والأكراد والعربان ، ثم أرسل السلطان الكتب الفاضلية إلى مصر بهذا الفتح والنصر . وفى بعض كتبه :«وكان رحيلنا من بُصرى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأول ، ومن ثم[٥] لقينا الأجَلُّ ناصر الدين بن المولى أسد الدين[شيركوه][٦] ، والأمير سعد الدين بن أُنر يوم السبت السابع والعشرين منه ، ونزلنا يوم الأحد بجسر الخشب ، واستقبلنا هناك الأجناد الدمشقية ، ولما دخلنا دمشق أمرنا بالنداء بإطابة النفوس ، وإزالة المكوس» .

---

(١) شمس الدين بن المقدم : هو محمد بن عبد الملك من أعيان أمراء الدولتين ، وهو الذى سلم سنجار إلى نور الدين ، ثم تملك بعلبك وعصى على صلاح الدين مدة ، ثم صالحه وناب له بدمشق . توفى سنة٥٨٣ هـ/١١٨٧م . انظر : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٧٦ .

(٢) بصرى موضع بالشام من أعمال دمشق . معجم البلدان ، ج١ ، ص٦٥٤ .

(٣) الكسوة : قريه قريبة من دمشق ، وهى أول منزل تنزله القوافل الخارجة من دمشق إلى مصر ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٧٥ .

(٤) دار العقيقى : هى دار أبى أيوب والد صلاح الدين ، وهى ظاهر دمشق إلى داخل بابى الفرج والفراديس فى دمشق . أما العقيقى ؛ فهو أحمد بن الحسين بن أحمد بن على العقيقى صاحب الحمام بباب البريد . انظر : الدارس فى تاريخ المدارس ، ج١ ، ص٣٤٩ .

(٥) «وفيه» فى نسخة ب .

(٦) مابين الحاصرتين إضافة من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٠٣ .

وفى تاريخ بيبرس : وفى هذه السنة خرج الملك الناصرصلاح الدين إلى دمشق ، واستناب عنه الملك العادل أخاه بالديار المصرية ، وكان السبب فى ذلك أن الملك الصالح بن نور الدين كتب إلى ابن عمه سيف الدين غازى بن مودود[١] ، صاحب الموصل ، وإلى أخيه عماد الدين زنكى ، صاحب سنجار ، بأن يحضرا إليه بعساكرهما ؛ ليجتمعوا جميعا على قصد صلاح الدين وأخذ الديار المصرية منه ، فأما أخوه عماد الدين زنكى فإنه امتنع منه ؛ لأن صلاح الدين كان قد كاتبه وأطمعه فى ملك والده ، بحكم أنه الكبير ، فحمله الطمع على الامتناع على أخيه ، فلما رأى أخوه امتناعه ، سار إليه إلى سنجار ، وحاصره بها ، وامتنع عماد الدين ، وجَدَّ فى حفظ البلد ، والذب عنها ، فدام الحصار عليها [٢] .

فبينا يحاصرها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذى مع أخيه عز الدين مسعود[٣] من صلاح الدين ؛ لأنه كان عند مسيره إلى سنجار قد رتبه مع عسكر بدمشق ، وصحبته أمير كبير يسمى عز الدين محمود ، فلما وصل صلاح الدين إلى دمشق أخذها ، وانهزم العسكر الذى بها . فراسل الملك الصالح أخاه عماد الدين ، وصالحه على مابيده ، ورحل إلى الموصل ، إلى سيف الدين ابن عمه ؛ ليستنجده على صلاح الدين ، فسار بنفسه ، وسار صلاح الدين من دمشق إلى حمص ، واستخلف عليها أخاه سيف الإسلام طُغتكين[٤] ، وقاتل أهل حمص يوما واحدا ، فملكها ، وامتنعت القلعة عليه . فسار عنها إلى حماة ، وبها عزُ الدين جُورديك [٥] ، وهو من مماليك نور الدين ، فامتنع من التسليم . فسَيَّر إليه صلاح الدين يذكر أنه فى طاعة الملك الصالح ، وأنه ما خرج إلا لحفظ البلاد

---

(١) انظر : ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٤ - ٥ .

(٢) «عليه» فى نسخة ب .

(٣) عز الدين مسعود : هو مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى الأتابك صاحب الموصل ، توفى سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٢٠٣ - ٢٠٩ ؛ التاريخ الباهر ، ص١٨٥ - ١٨٩ .

(٤) سيف الإسلام طغتكين : هو طغتكين بن أيوب بن شادى بن مروان المنعوت بالملك العزيز ظهير الدين صاحب اليمن ، توفى سنة ٥٩٣ هـ/١١٩٧م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٥٢٣-٥٢٤ .

(٥) عز الدين جُورديك : كان من مماليك نور الدين ، لهذا لقب بالنورى ، وكان واحداً من القواد الذين رافقوا أسد الدين شيركوه أثناء حملته على مصر ، كما شارك صلاح الدين فى القبض على شاور والقضاء عليه . انظر : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٤٤٠-٤٤١ ، ص٤٤٨ ؛ النوادر السلطانية ، ص٦١ ، حاشية ٦ .

من الفرنج ، فاستحلفه على ذلك ، وسلم إليه البلد ، فلما تسلمها سار منها إلى حلب ، فحاصرها وبها الملك الصالح بن نور الدين ، واتفق وصول سيف الدين غازى ابن عمه من الموصل منجدًا له ، وتقدمت عساكره لقتال صلاح الدين ، فبذل له صلاح الدين تسليم حمص وحماة ، وأن يقر بيده مدينة دمشق ، ويكون فيها نائبا من جهة الملك الصالح ، فلم يجبه إلى ذلك ، وقال : لابد من تسليم جميع ما أخذه من بلاد الشام وعوده إلى مصر أو القتال .

وكان صلاح الدين فى أثناء المراسلة يجمع عساكره ، ويتأهب للقائه ، فلما امتنع سيف الدين من إجابته لما بذل ، سار بعسكره ، فالتقى هو وعسكر سيف الدين غازى على قرون حماة[١] ، فهزمهم وتتبعهم حتى حازوا معسكرهم ، وغنم منهم[١٩٦و] غنائم كثيرة ودوابا وسلاحا ، وعاد العسكر السيفى منهزما إلى حلب ، فتتبعهم صلاح الدين إليها ونزل عليها محاصرًا لها ، فراسلوه فى الصلح على أن يكون له مابيده من بلاد الشام ، ولهم ما بأيديهم من بلاد حلب معًا ، فأجابهم وانتظم الصلح ، ورحل عن حلب فى شوال منها ، وقطع خطبةَ الملك الصالح من بلاده ، وأزال اسمه عن الصَّكة[٢] .

وفى تاريخ النويرى[٣] : وفى هذه السنة أرسل شمس الدين بن الداية ، المقيم بحلب ، كمشتكين الطواشى ، يستدعى الملك الصالح بن نور الدين من دمشق إلى حلب ؛ ليكون مقامه بها ، فسار الصالح إليه ، ولما استقر بحلب تمكن كمشتكين وقبض على شمس الدين بن الداية وأخوته ، وقبض على الرئيس ابن الخشاب وأخوته ، وهو رئيس حلب ، واستبدّ كمشتكين بتدبير[أمر][٤] الملك الصالح ، فخاف ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق ، وكاتبوا صلاح الدين بن أيوب صاحب مصر ، واستدعوه ؛ ليملكوه .

(١) قرون حماة : منطقة جبلية تشرف على مدينة حماة ، وهى مكونة من قلعتين متقابلتين . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٣٢ .

(٢) أورد ابن شداد هذا الحدث بالتفصيل فى النوادر السلطانية ، ص٥٠- ٥١ .

(٣) نقل العينى هذا النص بتصرف من نهاية الأرب ، ج٢٧ ، ص١٧٠ .

(٤) مابين الحاصرتين إضافة من الباهر ، ص١٧٦ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٩٢ .

فسار صلاح الدين جريدة[1] فى سبعمائة فارس ، ووصل إلى دمشق واستقر فيها ، ولم ينتطح عنزان ولا اختلف سَيفان ، وذلك أن نائبها شمس الدين بن المقدم كان قد كتب إليه أولا فأغلظ لرمى الكتاب ، فلما رأى أمره متوجهاً ، جعل يكاتبه ويستحثه على القدوم[إلى دمشق][2] ، ويعده بتسليم البلد ، فلما رأى الجدَّ لم يمكنه المخالفة ، فسلمه البلد ، فنزل السلطان «صلاح الدين»[3] أولاً فى دار والده ، وهى دار العقيقى ، وهى التى بنيت مدرسة للملك الظاهر بيبرس(رحمه الله) ، ولما ثبت أمره بها ، استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغتكين ، وأخذ ما فى القلعة من الأموال ، ثم سار إلى حمص مستهل جمادى الأولى ، ونزل عليها فى حادى عشر جمادى الأولى ، وملك المدينة ، وعصت عليه القلعة ، فترك عليها من يضيق عليها .

ورحل إلى حماة ، وملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة ، وكان بقلعتها عز الدين جُرديك أحد المماليك النورية ، فامتنع ، فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض سوى حفظ بلاد الملك الصالح بن نور الدين عليه ، وإنما هو نائبه . وقَصَدَ جُرديك من صلاح الدين أن يكون سفيره بينه وبين الحلبيين ، فأجابه إلى ذلك ، فسار جرديك إلى حلب للرسالة ، واستخلف فى قلعة حماة أخاه ، فلما وصل جُرديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه[4] ، فلما علم بذلك أخوه ، سلم قلعة حماة إلى صلاح الدين ، فملكها ، ثم سار صلاح الدين إلى حلب ، فنازلها على جبل جَوشَن[5] وحصرها ، فاجتمع أهل حلب وقاتلوا صلاح الدين ، وصدُّوه عن حلب ، فأرسل كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية[6] أموالا عظيمة ، ليقتلوا صلاح الدين . ووثبوا

(١) جريدة : فرقه من العسكر الخيالة لا رجالة فيها ، والمقصود بها سير السلطان على وجه السرعة دون أن يأخذ أثقالاً أو حشداً . المعجم الوسيط ، مادة «جرد» .

(٢) مابين الحاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٨٨ .

(٣) مابين الأقواس ساقط من نسخه ب .

(٤) ورد هذا النص بتصرف فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٨٨ - ٢٨٩ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٠٧ - ٦٠٨ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص٥٨ - ٥٩ .

(٥) جبل جوشن : بالفتح ثم السكون وشين معجمه فى غربى حلب . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٥٥ .

(٦) سنان مقدم الإسماعيلية : هو أبو الحسن سنان بن سليمان بن محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الإسماعيلية ، ومقدم الفرق الباطنية بالشام ، وإليه تنسب الطائفة السنانية . وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٨٥ .

على صلاح الدين ، فقُتِلوا دونه . واستمر صلاح الدين محاصراً لحلب إلى مستهل رجب ، ثم رحل عنها ؛ بسبب نزول الفرنج على حمص ، وذلك أن أهل حلب راسلوا قومص[١] صاحب طرابلس ، ووعدوا له بأموال جزيلة ، إن هو رَحَّلَ عنهم السلطان صلاح الدين ، وكان هذا اللعين قد أسره نور الدين معتقلا مدة عشرسنين ، ثم فاداه على مائة ألف دينار وألف أسير من أسارى المسلمين ، وكان لا ينسى ذلك لنور الدين ، فركب قومص ـ لعنه الله ـ من مدينة طرابلس فى جيشه ، فلم يتجاسر على مقابلة صلاح الدين ، بل قصد حمص ؛ ليأخذها[١٩٦ظ] بغتة . وركب إليه السلطان ، وقد أرسل سريةً إلى بلده ، فقتلوا منها وأسروا وغنموا ، فلما اقترب السلطان منه نكص على عقبه ، وكر راجعا إلى بلده ، وتراءى أنه قد أجاب إلى ماسألوا ، فوصل صلاح الدين إلى حماة وسار إلى حمص ، فرحل الفرنج عنها ، وحَصَر قلعتها وملكها فى الحادى والعشرين من شعبان ، ثم سار إلى بعلبك فملكها[٢] ، ولما استقر صلاح الدين فى هذه البلاد أرسل الملك الصالح بن نور الدين إلى ابن عمه سيف الدين غازى صاحب الموصل ؛ يستنجده على صلاح الدين ، فجهز جيشه ، صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى ، وجعل مقدم جيشه اكبر أمرائه ، وهو عز الدين محمود ، ولقبه سلفندار ، ووصلوا إلى حلب ، وانضم إليه عسكر حلب ، وساروا إلى صلاح الدين ، وأرسل صلاح الدين يبذل حمص وحماة ، وأن يقر بيده دمشق ، ويكون فيها نائبا للملك الصالح بن نور الدين ، وإنما فعل ذلك صلاح الدين ؛ لقلة الجيش الذى معه بالنسبة إلى جيش هؤلاء . فامتنع من المصالحة الخادم[سعد الدولة][٣] كمشتكين ، إلا أن يجعل لهم الرحبة[٤] التى بيد ابن عمه ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه ، فقال : ليس لى ذلك ولا أقدر عليه ، فأبوا الصلح ، وأقدَموا على القتال ، فجعل صلاح الدين جيشه كردوساً [٥] واحداً ، وذلك يوم

---

(١) القومص تعريب للكلمة اللاتينية (Comes) والتى سارت فى اللغة الفرنسية (Comte) والمقصود هنا الكونت ريموند الثالث صاحب إمارة طرابلس الصليبية ، ولقبه الصنجيلى فى المراجع الإسلامية . انظر : الكامل فى التاريخ ، ج١٠ ، ص٦٨ .

(٢) ورد هذا النص بتصرف فى السلوك ، ج١ق١ ، ص٥٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١١ ، ص٢٨٩ .

(٣) مابين الحاصرتين إضافة من البداية والنهاية للتوضيح ، ج١١ ، ص٢٩٠ .

(٤) الرحبة : قرية من قرى الشام . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٧٦٢ .

(٥) الكردوسة : طائفة عظيمة من الخيل والجيش . انظر : المعجم الوسيط ماده «كردس» ، وقد فسرها دوزى بأنها الفرقة الحربية الراكبة والجماعة العظيمة من الخيل . Dozy: Supp. Dict. Ar

الأحد التاسع عشر من شهر رمضان ، عند قرون حماة فصبر صبرًا عظيما ، وجاءه فى أثناء الحال ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه ، ومعه أخوه فرخشاه فى طائفة من الجيش ، وقد ترجح دِسْتَهُ عليهم ، وخلص رعبه إليهم ، فانهزموا وولوا مدبرين . وغنم صلاح الدين وعسكره أموالهم ، فأسر منهم من أسر من رؤسائهم ، ونادى أن لا يتبع مدبر ، ولا يذفف[١] على جريح ، ثمَّ أطلق من وقع فى أسرِه منهم ، وسار على الغور حتى نازل حلبَ . فانعكس عليهم الحال ، فبالأمس كان يطلب منهم المصالحة ، واليوم هم طلبوا منه أن يكف عنهم ، ويسير عنهم ، على أن له المعرة[٢] وكفر طاب [٣] وبارين[٤] زيادة على مابيده من أراضى حماة وحمص وبعلبك مع دمشق ، فقبل منهم وكف عنهم ، وحلف أن لا يغزو بعدها الملك الصالح ، وأن يدعُو له على سائر منابر بلاده وممالكه . وشفع فى بنى الداية أخوة مجد الدين ، أن يخرجوا من السجن ، ففعلوا ذلك ، ثم رجع مؤيداً منصوراً .

فلما وصل إلى حماة وصل إليه رسل الخليفة المستضىء بأمر الله ، ومعهم الخلع السنية ، والتشريفات العباسية ، والأعلام السُّود ، وتوقيع من الديوان بالسَلطنة ببلاد مصر والشام ، وأفيضت الخلع على أهله وأقاربه وأصحابه وأصهاره وأعوانه وأنصاره ، وكان يوماً مشهودا .

واستناب على حماة ابن خاله وصهره الأمير شهاب الدين محمود ، ثم سار إلى حمص فأطلقها لابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، كما كانت لأبيه من قبل ، ثم إلى بعلبك ، ثم إلى البقاع[٥] ، ثم إلى دمشق فى ذى القعدة من هذه السنة[٦] .

---

(١) ذف على الجريح ذفًا وذفافاً ، أجهز عليه . انظر ابن منظور ؛ القاموس المحيط ، مادة ذفف .

(٢) المعرة : يقصد بها هنا معرة مصرين وهى بليدة وكورة بنواحى حلب . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٧٤ .

(٣) كفر طاب : بلدة بين المعرة ومدينة حلب . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٨٩ .

(٤) وبارين : بلدة تقع بين حلب وحماة من جهة الغرب . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٤٦٥- ٤٦٦ ؛ وقد أوردها ابن كثير «ماردين» وهو خطأ . انظر : البداية والنهاية ، ج١١ ، ص٢٩٠ .

(٥) البقاع : أرض واسعة بين حمص وبعلبك ودمشق . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٦٩٩ .

(٦) ورد هذا النص بتصرف فى البداية والنهاية ، ج١١ ، ص٢٩٠- ٢٩١ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٣٨- ٦٤٠ .

وفى المرآة[١] : لما دخل السلطان صلاح الدين دمشق من مجيئه من مصر التقاه أهل دمشق بأسرهم ، ونثروا عليه الدراهم والدنانير ، وأحسن[١٩٧و] صلاح الدين إلى ابن المقدم[٢] ، والقاضى ابن الشهرزورى ، ومشى إلى دار كمال الدين ، فانزعج وخرج إلى لقائه ، ودخل صلاح الدين ، فجلس وباسطه ، وقال : يا كمال الدين لما كنت فى الشحنكية[٣] قد كانت بيننا هنَّات ومشاحنات ، وكان كمال الدين يكرهه ، وكان كل واحد منهما ينقض على الآخر أحكامه . فقال له صلاح الدين : «ما مشيت إليك إلا لأزيل ما فى خاطرك من الوهم ، وأعرفك أن ما فى قلبى لك ما تكره ، فطب نفسًا ، وقر عينًا ، فالأمرُ أمرُكُ ، والبلد بلدك . وأكثر الشعراء فى أخذ صلاح الدين دمشق ، ثم كتب إلى الملك الصالح كتابًا تواضع فيه له ، وخاطبه بمولانا ابن مولانا ، ويقول : إنما جئتُ من مصرَ ؛ خدمةً لك لأودى ما يجب من حقوق المرحوم ، فلا تسمع ممن حولك ، فتفسد أحوالك وتختل أمورك ، وما قصدى إلا جمع كلمة الإسلام على الإفرنج» . فعرض كتابه على أرباب دولته ، وفيهم خالد بن محمد بن القيسرانى ، وغلمان أبيه ، وابن العجمى ، فأشاروا إليه[٤] بأن يُكاتِبه بالغلظة ، فكتبَ إليه ينكر عليه ، وينسبه إلى كفر النعمة ، وجَحْدِ إحسان والده ، ووعده وهدده ، وبعث بالكتاب[مع][٥] ينال بن حسان[٦] صاحب منبج[٧] ، فأغلظ لصلاح الدين فى الجواب ، وقال : السيوف التى ملَّكَتْكَ مصرَ هى التى تَرُدُّكَ . وأشار إلى سيفه ، فغضب صلاح الدين ، وقال : والله لولا أنك هنا . . . . من مصر رسول لضربت عنقك[٨] ، والله ما جئت إلى ها هنا شرهًا ولا طمعًا فى الدنيا ، وفى مصر كفاية ، وإنما جئت ؛ لأستنقذ هذا الصبى من يد مثلك و أمثالك ، فأنتم سبب

---

(١) انظر : سبط ابن الجوزى ، المرآة ، ج٨ ، ص٢٠٦ حيث نقل العينى عنه بتصرف .

(٢) هو : محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم ، توفى سنة ٥٨٣هـ مقتولاً على جبل عرفات . انظر : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص٨٧ ؛ وانظر : حادث القتل فى الشذرات ، ج٤ ، ص٢٧٦ . أحداث سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م .

(٣) الشحنكية : ويقال لها الشحنة ، وصاحب الشحنة هو متولى رئاسة الشرطة . انظر : سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص٤٢٧ ؛ Dozy:Supp. Dict. Ar.

(٤) «عليه» فى نسخة ب .

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من المرآة ، ج٨ ، ص٢٠٧ .

(٦) ينال بن حسان : هو قطب الدين ينال بن حسان المنبجى ، بقى بمنبج إلى أن أخذها صلاح الدين منه سنة ٥٧٢هـ/١١٧٧م . انظر : الباهر ، ص١٣٤- ١٣٥ .

(٧) منبج : مدينة كبيرة ذات خيرات كثيرة بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٥٤-٦٥٦ .

(٨) «والله لولا أنك رسول لضربت عنقك» فى نسخة ب . أما فى الأصل فيوجد ثلاث كلمات غير مقروءة .

زوال دولته ، ثم طرده بغير جواب ، فعاد إلى حلب . و استناب صلاح الدين بدمشق أخاه سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين ، وسار إلى حِمص فأخذها ، وفتح حماة ، وسار إلى حلب ، فاستعانوا[١] عليه بالإسماعيلية ، وأعطوهم مالاً وضياعًا ، فأرسلوا إليه جماعة من فُتَّاكهم ، ورآهم ناصر الدين خمار تكين[٢] صاحب أبى قبيس[٣] ففرقهم ؛ لأنه كان مثاغرًا[٤] لهم وأنكر عليهم مجيئهم ، وسبق إلى خيمة صلاح الدين ليخبره ، فأدركوه على باب الخيمة ، ثم أرادوا الهجوم على صلاح الدين ، وكان أمير جنداره[٥] سيف الدين طغرل هناك ، فجذب سيفه ، وقتل واحدًا منهم ، واجتمع الغلمان على الباقين فقتلوهم . ورحل صلاح الدين عن حلب فى أول رجب ، وجاء إلى حمص ، ثم نازل بعلبك ، فأخذها فى رمضان من الخادم يُمن الريحانى ، ووصل عسكر الموصل إلى حلب ، وانضاف إليهم عسكر حلب ، ونزلوا [على][٦] تل السلطان[٧] ، فساق عليهم صلاح الدين ، وبغتهم ، وكان مقدمهم عز الدين مسعود ، أخو سيف الدين غازى ، فكسرهم كسرة عظيمة ، وانهزموا إلى حلب ، وغنم أثقالهم ، وأسر أبطالهم[٨] ، وجاء فحصر حلب ، وهذه هى المرة الثانية من حصار حلب ، والمرة الأولى من كسرة المواصلة . ورجع صلاح الدين ، فنزل[حصن][٩] بارين ، وأخذه من ابن الزعفرانى ، وكان من أكابر أمراء نور الدين ، ولقبه فخر الدين ، واسمه مسعود ، وأعطى مدينة حلب لخاله ، وقيل لابن خاله وصهره ابن شهاب الدين محمود ، وأعطى حمص لناصر الدين محمد ابن أسد الدين [١٩٧ظ] شيركوه[١٠] .

---

(١) «فاستغاثوا» فى المرآة ، ج٨ ، ص٢٠٧ .

(٢) انظر : ترجمته فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦١٣ ؛ سنا البرق الشامى ، ص٨٣ «ناصح الدين» .

(٣) أبو قبيس : حصن مقابل شيزر . معجم البلدان ، ج١ ، ص١٠٣ .

(٤) «منازعًا» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٧ .

(٥) أمير جنداره : هو الأمير الذى يستأذن على دخول الأمراء للخدمة السلطانية ، ويدخل أمامه إلى الديوان . صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٢٠ ؛ العصر المماليكى ، ص٤٠٤ .

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من نسخة ب .

(٧) تل السلطان : موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق ، وفيه خان ومنزل للقوافل ، وهو المعروف بالفنيدق ، كانت به وقعة بين صلاح الدين يوسف بن أيوب وسيف الدين غازى بن مودود بن زنكى صاحب الموصل سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م . معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٦٧ .

(٨) «رجالهم» فى المرآة ، ج٨ ، ص٢٠٨ .

(٩) ما بين الحاصرتين إضافة من المرآة ، ج٨ ، ص٢٠٨ ؛ كما ورد ذكرها فى تقويم البلدان ، ص٢٥٨– ٢٥٩ .

(١٠) هو : ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، توفى سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م . وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٤٨٠ .

وقال ابن أبى طى : بلغ السلطان أن ابن المقدم «نقض»[١] عهد[السلطان][٢] الملك الصالح ، وهو كان السبب فى خروج سيف الدين من الموصل ، واستيلائه على البلاد الشرقية ، ومضايقته للملك الصالح فى ممالكه . وقيل إن ابن المقدّم كاتب إلى السلطان ، ودعاه إلى الخروج . وقيل إنما خرج إلى الشام ؛ خوفًا من حركة تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام ، وشغل بعضهم ببعض . قال : ولما حصل على دمشق وقلعتها ، واستوطن بُقعتها ، نشر علم العدل والإحسان ، وعفّى آثارَ الظلم والعدوان ، وأبطل ما كان الولاة استجدُّوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات ، والمؤن والضرائب المحرمات .

وقال صاحب تاريخ الدولتين[٣] : وكان قد كتب إليه أسامة بن منقذ[٤] قصيدة بعد مصاف عسقلان أولها :

تَـهـنّ يـا أطولَ الـمـلـوكِ يـدًا ... فـى بَسْطِ عـــدلٍ وسَطوةٍ ونَدا

لا تستقلَّ [الذى][٥] صنعت ، فقد ... قمتَ بِفَرْضِ الجهاد مجتهدا

وجُسْتَ أرضَ العِدا وأفنَيتَ من ... أبطالِهم مـا يجـاوزُ العـددَا

ومـا رأينا غـزا الفـرنج من الـ ... ـملوكِ فى عُـقْـرِ دارهم أَحَـدَا

فَسِرْ إلى الشامِ فالملائكةُ الـ ... أبرارُ يلقـاكَ جَـمْـعُـهم مـدَدَا

فـهـو فـقـيـرٌ إليكَ يَأملُ أن ... تُصلح بالعـدلِ مِنْهُ مـا فَـسَـدَا

والله يُعطيك فـيـه عـاقـبـةَ النّـ ... ـصرِ كـمـا فى كـتـابه وَعـدَا

فـمـا حَـبَـاك الورَى وألْهَـمكَ الـ ... ـعدلَ وأعْطَاكَ ما مَلَكْتَ سُدى

ومدح وُحَيش الأسدى[٦] صلاح الدين عند أخذه دمشق ، بقصيدة أولها هو قولهُ :

---

(١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من أ وما أثبتناه من نسخة ب .

(٣) الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٠٥-٦٠٦ .

(٤) أبو المظفر أسامة بن مُرشد بن على بن مقّلد بن نصر بن منقذ الكنانى الكلبى الشيزرى الملقب مؤيد الدولة مجد الدين ، من أكابر بنى منقذ أصحاب قلعة شيزر ، ولد سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م ، وتوفى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م بدمشق . وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٩٥-١٩٩ ترجمة ٨٤ ؛ الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٤٩٨ ، وما بعدها .

(٥) «للذى» فى نسخة أ والمثبت من ب ؛ الروضتين ج١ ق٢ ، ص٦٠٥ .

(٦) وحيش الأسدى : هو سبع بن خلف بن محمد بن عبد الله بن سعيد الأسدى . . . ، ولد سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م . انظر : الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٢٤٢-٢٤٦ .

قد جَاءَكَ النصرُ[١] والتوفيقُ فاصْطَحَبَا　　　فكنْ لأضعافِ هذا النصرِ مُرْتَقِبَا
للهِ أنتَ صلاحُ الدينِ من أسدٍ　　　[أدنى][٢] فريسته الأيام إن وَثَبَا
رأيتَ جلَّق[٣] [ثغرًا][٤] لانظيرَ لَهُ　　　فَجِئتَها عامرًا منها الذى خربا
نادتك بالذل لمَّا قلّ ناصرُها　　　وأزْمَع الخلقُ من أوطانِها هربَا
أحييتها مِثْل ما أحْيَيْتَ مصرَ فقد　　　أَعدْتَ من عَدْلِها ما كان قد ذَهَبَا
هَذا الذى نَصرَ الإسلامَ فاتَّضَحَتْ　　　[سبيلُه][٥] وأهان الكفرَ والصُّلُبَا
ويوم[٦] شاور والإيمانُ قد هُزمت　　　جيوشُه ، كان فيه الجحفلُ اللَّجِبَا
ويومَ دمياط والإسكندرية[٧] قد　　　أصارهم مثلاً فى الأرضِ قد ضُرِبا
والشامُ لو لم تدارك أهلَه اندَرَست　　　آثارهُ وعَفَتْ آياتُهُ حُقُبا[٨]

ولما نزل السلطان صلاح الدين على حلب أشير على ابن نور الدين أن يجمع أهل حلب فى الميدان ، ويقبل عليهم بنفسه ، ويخاطبهم بلسانه ، أنهم الوَزَرُ والملجأ ، فأمر أن ينادى باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق[٩] ، فاجتمعوا حتى غص الميدان بالناس ، فنزل الصالح [١٩٨و] من باب الدرجة ، وصعد من الخندق ، ووقف فى رأس الميدان من الشمال ، وقال لهم : يا أهل حلب أنا ربيبكم ، ونزيلكم ، واللاجئ إليكم ، كبيركم عندى

---

(١) «السعد» فى الخريدة ، ج١ ، ص٢٤٢ .
(٢) «أدى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٠٦ .
(٣) جلَّق : اسم لكورة الغوطة كلها ، وقيل بل هى دمشق نفسها . معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٠٤-١٠٥ .
(٤) «بعزٍّ» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٢٤٢ .
(٥) «سبله» فى الأصل والمثبت بين الحاصرتين من الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٢٤٢ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٠٦ .
(٦) يقصد بشاور هنا الأمير أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار السعدى من بنى هوازن ، وقد سبق التعريف به .
(٧) يشير إلى منازلة الفرنج دمياط بعد تولى صلاح الدين وزارة مصر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م . إذ انهزمت جيوشهم وأساطيلهم ، فارتدوا عنها فى سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠م . أما عن الإسكندرية فالإشارة إلى الحصار هنا ، يقصد بها حصار الفرنج للإسكندرية ، ودفاع صلاح الدين عنها فى عام ٥٦٢هـ/١١٦٧م ، وقد انتهى هذا الحصار بصلح اضطر إليه الفرنج . انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٠٦ ، حاشية ٦ .
(٨) نقل العينى القصيدة من الخريدة والروضتين بالنقص والزيادة . انظر : الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٢٤٢-٢٤٤ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٠٦ .
(٩) باب العراق : أحد أبواب حلب الستة . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٠٨ .

بمنزلة الأب ، وشابكم عندى بمنزلة الأخ ، وصغيركم عندى يحل محل الولد ، قال : وخنقته العبرة ، وسبقته الدمعة ، وعلا نشيجُه ، فافتتن الناس ، وصاحوا صيحة واحدة ، ورموا بعمائمهم ، وضجوا بالبكاء والعويل ، وقالوا : نحن عبيدك ، وعبيد أبيك ، نقاتل بين يديك ، ونبذل أموالنا وأنفسنا لك ، وأقبلوا على الدعاء له ، وعلى الترحم على أبيه ، وكانوا قد اشترطوا على الملك الصالح أن يعيد إليهم شرقية[١] الجامع ، يُصَلُّون فيها على عادتهم القديمة ، وأن يُجهر بحى على خير العمل والأذان ، والتذكير فى الأسواق وقدام الجنائز بأسماء الأئمة الإثنى عشر[٢] ، وأن يصلوا على أمواتهم خمس تكبيرات ، وأن تكون عقود الأنكحة إلى الشريف الطاهر أبى المكارم حمزة بن زهرة الحُسَينى ، وأن تكون العصبية مرتفعة ، وأشياء كثيرة اقترحوها مما كان أبطله نور الدين (رحمه الله) فأجيبوا إلى ذلك . وقال ابن أبى طى : فأذن المؤذنون فى منارة الجامع وغيره بحى على خير العمل ، وصلى أبى فى الشرقية مسبلاً ، وصلى وجوه الحلبيين[٣] خلفه ، وذكروا فى الأسواق وقدام الجنائز بأسماء الأئمة الإثنى عشر ، وصلوا على الأموات خمس تكبيرات ، وأذن للشريف فى أن تكون عقود الحلبيين من الإمامية إليه ، وفعلوا جميع ما وقعت الأيمان عليه .

ذكر بقية الحوادث

منها أنه ظهر رجل من قرية مَشْغَرَا[٤] من معاملة[٥] دمشق ، وكان مغربيًا ، فادعى النبوة ، وأظهر شيئًا من المخاريق والمخاييل والشعبذة والأبواب النيرنجية[٦] ، فافتتن به طوائف من أهل تلك الناحية من الطغام[٧] العوام ، فتطلبه السلطان ، فهرب فى الليل من

(١) يقصد هنا أن يكون لهم شرق الجامع .

(٢) الأئمة الإثنى عشرية : ويقال لهم «القطعية» ، وسموا بالإثنى عشرية لدعواهم أن الإمام المنتظر الثانى عشر من نسل على بن أبى طالب ﷺ . انظر البغدادى : الفرق بين الفرق ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، ص٦٤-٦٥ ، بيروت د .ت .

(٣) ورد فى حاشية الروضتين أن حلب كانت دائمًا مركزًا من مراكز النشاط الإسماعيلى ، والأدلة على ذلك موجودة فى أحداث سنوات ٥٥١هـ/١١٥٦م ، ٥٥٤ هـ/١١٥٩م ، ٥٧٠هـ/١١٧٤م . انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦١٠ حاشية ٢ .

(٤) مشغرا : قرية من قرى دمشق من ناحية البقاع . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٤٠ .

(٥) «مناملة» فى نسخة ب وهو خطأ فى النسخ .

(٦) النِّيرنْج : أَخْذٌ كالسحر وليس به . الجمع : نيرنجات ونيارج . انظر : المعجم الوسيط : مادة «نير» ؛ كما ذكرها الفيروزابادى . وعرفها دوزى بالرقى أو الطلاسم أو السحر . Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٧) الطغام : هم أراذل الناس وأوغادهم . انظر : المعجم الوسيط ، مادة «طغم» .

مشغرا إلى معاملة حلب ، فالتف عليه كل مقطوع الذنب ، وأضل[١] خلقًا من الفلاحين لا المفلحين ، فتزوج امرأة أحبها ، وكانت من أهل البطاح ، فعلمها أن ادعت النبوة ، فأشبها قصة مسيلمة وسجاح ، لعنهما الله[٢] .

ومنها أن الشمس كسفت وقت طلوعها يوم الثلاثاء الثامن[٣] والعشرين من ربيع الآخر ، فبقيت كذلك إلى ضحوة عالية .

ومنها أن وزير الخليفة هرب ، ونهبت داره .

ومنها أن سيف الدين غازى صاحب الموصل استوزر جلال الدين أبا الحسن على[٤] ابن جمال الدين الوزير الأصبهانى[٥] فظهر منه من الكفاية والنهضة وحسن التدبير والكفاءة ما لم يكن من غيره ، وكان عمره خمسًا وعشرين سنة[٦] .

ومنها أن ابن الجوزى قال : فى هذه السنة انتهى تفسيرى للقرآن[٧] على المنبر ، فإنى كنت أذكر فى كل مجلس منه آيات ، ففرغت منه فى هذه السنة ، وسجد على المنبر شكرًا لله تعالى وقال : ما عرفت واعظًا غيرى فسر القرآن كله على المنبر إلا أنا .

قلت : وكان شيْخى أبو الروح عيسى السَرْمادى ـ رحمه الله ـ قد فسر القرآن على المنبر فى عينتاب مرتين كاملتين ، وفى المرة الثالثة لما وصل إلى سورة ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ[٨]﴾ أدركته المنية .

---

(١) «واختل» فى نسخة ب .

(٢) ورد هذا النص فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١١ .

(٣) «الثانى» فى نسخة ب .

(٤) جلال الدين أبو الحسن على ، تولى الوزارة لسيف الدين غازى بن قطب الدين مودود ، وتوفى عام ٥٧٤ هـ/١١٧٨م ، ودفن أولاً بالموصل ثم نقلت رفاته إلى المدينة المنورة . وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٤٦ ـ ١٤٧ ؛ التاريخ الباهر ، ص١٧٧ .

(٥) جمال الدين الوزير الأصفهانى : هو جمال الدين أبو جعفر محمد بن على الأصفهانى وزير صاحب الموصل أتابك زنكى ، وقد وزر أيضًا لسيف الدين غازى ثم لأخيه قطب الدين مدة ، ثم قبض عليه وحبسه حتى مات عام ٥٥٨هـ/١١٦٢م وقيل عام ٥٥٩هـ/١١٦٣م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٤٣ـ ١٤٦ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص١٨٥ ؛ التاريخ الباهر ، ص١٢٧ ، ١٣٠ .

(٦) ورد هذا النص فى التاريخ الباهر بتصرف ، ص١٧٧ .

(٧) «القرآن» فى نسخة ب ؛ انظر المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٣ .

(٨) سورة البروج : آية (١) .

ومنها أن ابن الجوزى[١] قال : وسُلمت إلىَّ المدرسة التى بباب الأزج[٢] ، وكانت دار الوزير ابن جهير ، وكانت بنفشَة[٣] جهة[٤] الخليفة المستضىء بأمر الله قد اشترتها وأوقفتها على أصحاب أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - [١٩٨ظ] وفوضت أمرها إلىَّ ، وأوْقَفَت عليها قرية . وحضر درسى[٥] قاضى القضاة[٦] ، وحاجب[٧] الباب ، وأرباب الدولة ، وخُلِعَ علَىَّ خلعةً نفيسةً ، وذكرتُ دروسًا كثيرة ، وكان يومًا مشهودًا ، وخرجتُ وبين يدى الدُعاة ، وارتفعت الأدعية للخليفة ، ووقفت الناسُ صفوفًا مثل يوم العيدين . قال : وأصاب أهل المذهب - يعنى الحنابلة - من ذلك غم عظيم ؛ لأنهم حسدونى ، وجلستُ تحت المدرسة يومِ الأربعاء في شوال ، فكان الجمع زيادة على خمسين ألفًا ، فازداد غم أهل المذهب . وكان يقول ابن الجوزى[٨] : «والله لولا أحمد والوزير ابن هبيرة لانتقلت عن المذهب ، فإنى لو كُنت حنفيًا[٩] أو شافعيًا لحملنى القوم على رؤسهم» .

ومنها أن السلطان صلاح الدين استخدم فى هذه السنة العماد الكاتب[١٠] ؛ وسببه أنه التقى القاضى الفاضل على حمص ، ومدحه بأبيات من الشعر ، فدخل الفاضل على صلاح الدين وقال له : غدًا يأتيك تراجم الأعاجم ، وما يحلها مثل العماد ، فقال : مالى

(١) المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٤ .
(٢) باب الأزج : محلة كبيرة شرق بغداد بها العديد من الأسواق . معجم البلدان ، ج١ ، ص٢٣٣ .
(٣) بنفشة : هى بنت عبد الله الرومية كانت من خواص سرارى الخليفة المستضىء بالله ، توفيت سنة ٥٩٨هـ/١٢٠٢م . انظر : ابن الساعى ، نساء الخلفاء . ص١١١ ، ١١٥ (ذخائر العرب رقم ٢٨) .
(٤) الجِهَةُ : هى المرأة الجليلة القدر ، كما يكنى الرجل الجليل بالجناب ، انظر : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٥٠٢ .
(٥) «درسى» يقصد بها درس عبد الرحمن بن الجوزى .
(٦) قاضى القضاة : من أجلِّ رتب أرباب العمائم والأقلام ، ويطلق على قاضى القضاة أحيانًا راعى الرعاة ، ويقوم بكل الأمور الدينية كما يشرف على دار الضرب . انظر : الخطط ، ج٢ ، ص٢٤٦ ، مكتبة الآداب ؛ القلقشندى ، ج٤ ، ص٣٤-٣٦ .
(٧) حاجب الباب : وظيفة تركية تلى رتبة نيابة السلطنة ، فحاجب الباب هو القائم مقام النواب فى كثير من الأمور ، إذ كان يقوم بالفصل فى المنازعات التى تقوم بين الأجناد واختلافهم فى أمور الإقطاعات ثم تطور نظام حاجب الباب وصار اسمًا لعدة جماعات من الأمراء ، الخطط ، ج٢ ، ص٢٤٥ ؛ صبح الأعشى ، ج٤ ، ص١٩-٢٠ ، ص١٨٥ ، ص١٨٨ .
(٨) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٦ وقد نقلها السبط بتصرف عن جده ابن الجوزى فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٤-٢١٥ .
(٩) «شافعيًا أو حنفيًا» فى نسخة ب .
(١٠) العماد الكاتب : هو أبو عبد الله محمد بن صفى الدين أبو الفرج محمد بن نفيس الدين أبى الرجا حامد بن محمد بن عبد الله بن على بن محمود بن هبة الله ، المعروف بابن أخى العزيز المعروف بألُهْ الملقب عماد الدين الكاتب الأصبهانى ، توفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م بدمشق . انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٤٧-١٥٣ .

عنك مندوحة ، أنت [كاتبى][١] ووزيرى ، وقد رأيت على وجهك البركة ، فإذا استكتبتُ[٢] غيرك تحدث الناسُ . فقال الفاضل : هذا يحل التراجم ، وربما أغيبُ أنا ولا أقدر على ملازمتك ، فإذا غبتُ قام مقامى فاستكتبهُ . وقال العماد : وأول ما أهديته للفاضل مدحَةً ، حين لقيته بحمص فى شعبان من هذه السنة بقصيدة .

منها قوله :

عاينتُ طَوْدَ سكينةٍ ، ورأيتُ شمـ ـس فضيلةٍ ، ووردتُ بَحْر فواضلِ

ورأيت[٣] سَحْبَانَ[٤] البلاغةِ ساحِبًا ببيانه ذيلَ[٥] الفَخَارِ لوائلِ[٦]

أبصرتُ قُسًّا فى الفصاحةِ معجزًا فعرفْتُ أنى فى فَهَاهَةِ[٧] بَاقِل[٨]

حِلْفُ الحصافةِ والفصاحةَ والسماحة والحماسةِ والتقَى والنائلِ

بحرٌ من الفضلِ الغزير خِضَمُّه طامِى العُبابِ ومالَهُ من ساحلِ

وجميعُ ما فى الأرضِ سبعةُ أبحرٍ وبحورُهُ تسوى بعشرِ أناملِ

فى كفِّه قَلمٌ يُعَجِّلُ جَرْيُهُ ما كان من أجلٍ ورزقٍ آجلِ

ومنها أن أخا السُلطان المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب وصل من اليمن إلى دمشق ، وأقام بها مدة ، ثم حضر إلى الديار المصرية[٩] .

---

(١) «أبى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٨ .

(٢) «سلمت» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٨ .

(٣) «ولقيت» فى الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص٣٧ .

(٤) سَحْبَان : بليغ عربى من وائل يضرب به المثل . انظر : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص٣٧ ، حاشية (٧) .

(٥) «ثوب» فى الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص٣٧ .

(٦) «كوابل» فى نسخة ب .

(٧) «فكاهة» فى نسخة ب .

(٨) باقل : رجل يضرب به المثل فى الْعِىِّ . انظر : لسان العرب ، ج١٣ ، ص٦٧ ، مادة (بقل) .

(٩) ورد هذا الخبر فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٣ نقلاً عن العماد ؛ انظر أيضًا : النوادر السلطانية ، ص٥٢ .

ومنها أن فى غيبة صلاح الدين بالشام اجتمعت بالقاهرة طائفة من جند الأرمن والإسماعيلية وجند المصريين وغلمان العادل أبى بكر ، ونادوا بشعار أبى الطاهر بن العاضد ، فلما سمع العادل بذلك أوقع بهم ، وقتل منهم جماعة ، واعتقل جماعة ، ونفى آخرين . وكان الذى حملهم على ذلك الشريف ابن هانىء[١] .

ومنها أن بهلوان بن أيلدكز ملك مدينة تبريز ، وهى من جملة بلاد آقسنقر الأحمديلى ؛ وسبب ذلك أن البهلوان سار إلى مراغة[٢] وحصرها ، وكان آقسنقر الأحمديلى صاحبها قد مات ، ووصى بالملك لولده فلك الدين ، فقصده البهلوان ونزل على قلعة روندز[٣] وحصرها ، فامتنعت عليه ، فتركها وحصر مراغة ، وسير أخاه[١٩٩و] قزل أرسلان[٤] فى جيش إلى مدينة تبريز فحصرها أيضًا . ولما كان يقاتل أهل مراغة ظفروا بطائفة من عسكره ، فخلع عليهم صدر الدين قاضيها وأطلقهم ، فَحَسُنَ ذلك عند البهلوان ، وسعى القاضى فى الصلح على أن يسلموا تبريزَ إلى البهلوان[٥] ، فأجابوه إلى ذلك ، واستقر الأمر عليه ، وحلف كل منهما لصاحبه ، وتسلم البهلوان تبريز ، وأعطاها أخاه قزل أرسلان ، ورحل بعسكره عنها .

ومنها أن السلطان صلاح الدين بعث العساكر فأغاروا على بلاد الإسماعيلية ، وأحرقوا سرمين[٦] ، ومعرة مصرين ، وضياع جبل السُماق[٧] ، وقتلوا معظم أهله .

---

(١) الشريف ابن هانىء : هو محمد بن هانىء الأندلسى الشاعر المشهور ، ظهر فى بلاط الخليفة المعز لدين الله الفاطمى قبل مجيئه إلى مصر ، وقال الشعر فى مدح الخلافة الفاطمية ويؤخذ على شعره الغلو فى المدح والإفراط المفضى إلى الكفر . توفى فى سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٣م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٤٢١- ٤٢٤ ؛ ابن أيبك الدوادارى : كنز الدرر ، ج٦ ، ص٢٤٠- ٢٤٥ ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٦١م ؛ عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، ص٢٦٥ ، ط القاهرة د . ت .

(٢) مراغة : بلدة مشهورة بأذربيجان . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤٧٦ .

(٣) قلعة روندز : ذكرها ابن الأثير فى الكامل ، ج١٠ ، ص٧٠ ، «رويندز» . وهى قلعة حصينة من أعمال أذربيجان قرب تبريز . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٨٧٥ .

(٤) قزل أرسلان بن ألدكز ملك أذربيجان وإيران وهمذان وأصبهان والرى ، توفى سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٢٠٩ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٨٩ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص٨١ .

(٥) البهلوان : هو محمد بن البهلوان بن ألدكز الأتابك شمس الدين صاحب أذربيجان وعراق العجم ، توفى سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م . انظر : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٦٩ .

(٦) سرمين : بلدة مشهورة من أعمال حلب وأهلها من الإسماعيلية . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٨٣ .

(٧) جبل السُماق : جبل عظيم من أعمال حلب الغربية يشتمل على مدن كثيرة وقرى وقلاع عامتها للإسماعيلية . انظر : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٢١ .

ومنها أنه وصلت النوبة من العراق فى عشرة آلاف فارس وراجل ، فنزلوا مراغة الباب ، فقتلوا ثلاثة عشر ألفًا من الإسماعيلية ، وسبوا نساءهم وذراريهم ، وعادوا إلى العراق ومعهم الغنائم والرؤوس على رماحهم ، وعلى القصب عشرون ألف[1] أُذُن .

وفيها ....[2]

حج بالناس ... ...[3] . وتأخر الناس عن الحج فى هذه السنة ، ثم ساروا من الكوفة إلى عرفات فى ثمانية أيام دومًا ، وهذا لم يسمع قبله بمثله .

ذكر من توفى فى هذه السنة من الأعيان

حامد بن حامد أبو الفضل الحرانى[4] ؛ قدم بغداد وتفقه وناظر وعاد إلى حران[5] ، فأفتى ودرس ، وكان ورعًا ، به وسوسة فى الطهارة ، وروى عن عبد الوهاب شيخ ابن الجوزى ، وتوفى بحران فى هذه السنة .

روح بن أحمد أبو طالب الحديثى قاضى القضاة[6] ؛ توفى يوم الاثنين الخامس عشر من المحرم ، ودفن يومئذ بقراح ظفر[7] ، وكان ولده عبد الملك فى الحج فبلغته وفاته وهو بالكوفة ، فلما دخل بغداد مرض أيامًا ومات ، وكان ينبز بالرفض .

عبد الله بن عبد الصمد بن عبد الرزاق أبو محمد الدهان[8] ؛ سمعَ الحديث ورواه ، وكان شيخًا صالحًا ، ففلج قبل موته ، وتوفى يوم الجمعة ، ودفن بمقبرة أحمد (رحمه الله) .

يحيى بن جعفر أبو الفضل[9] ؛ كان صاحب مخزن المقتفى ، فأقره على ذلك المستنجد ، ولم يغير عليه المستضىء ، ثم استنابه من الديوان ، إذ خلا عن وزير ، فتقلب فى هذه الأحوال عشرين سنة ، وكان يحفظ القرآن ، وسمع الحديث ، وحج حجات

(١) ورد هذا الحدث بتصرف فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٨ .
(٢) بياض فى نسختى المخطوطة أ ، ب بمقدار سطر .
(٣) بياض فى نسختى المخطوطة أ ، ب بمقدار كلمتين .
(٤) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٦ .
(٥) حران : مدينة مشهورة وهى قصبة ديار مضر بينها وبين الرها يومان ، وبين الرقة يومان ، وهى على طريق الموصل والشام والروم . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٣١ .
(٦) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١١ .
(٧) ظَفَرْ : موضع قرب الحَوْءب فى طريق البصرة إلى المدينة . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٥٧٧ . وقد ذكر ياقوت أن القراح اصطلاح بغدادى بمعنى البستان . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤٥ .
(٨) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٦ . وقد أضاف ابن الجوزى إلى هذا الاسم «السلمى» .
(٩) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٧ .

كثيرة ، وتوفى يوم السبت تاسع عشر ربيع الأول منها . وخلف ولدين نجيبين ، فبلغ كل واحد منهما نحو ثلاثين سنة من العمر ، وتهيأ للولايات ، فمات الأكبر ، ثم تبعه أخوه بعد قليل ، ودفنا عند أبيهما[١] . وفى المرآة[٢] : وكان فاضلاً عادلاً منصفًا ، محبًا للعلماء والصالحين ، وكانت داره مأوى لهم . قال السبط : وكان يحب جدى - يعنى ابن الجوزى - ولجدى فيه[٣] مدائح كثيرة ، وله على جدى فضل كبير ، وكان لقبه زعيم الدين .

عمر بن محمد بن عبد الله أبو شجاع البسطامى البلخى[٤] ؛ كان فقيهًا فاضلاً شاعرًا فصيحًا ، وكان ينشد فى مجالس وعظه ، ومن شعره :

لقـــد هَبَّتْ الريحُ من بَلْدَتى[٥] فـيـــا حبَّ ســاكِن ذاك البَلَدْ
فـقُـمتُ إليـهـا وعـانَقْـتُـهـا وَمَـا عـانَقَ الرِّيحَ قـبلى أَحَـدْ

قلت : ومن ها هنا أخذ القائل ، ولعله «أخذه»[٦] من قول القائل :

[١٩٩ظ] هَبَّتْ شـــمـــالاً فَـقَـال يا بلدُ أتَـتْ بـه طـابَ ذلـك الـبـلـدُ/
وَ قَـبَّلَ الريحَ من صـبـابتــه مَـا قَـبَّلَ الريحَ قَـبْلَهُ أَحَـدُ[٧]

أرسـلان شـاه بن طغـرل بن ملكشـاه[٨] ؛ توفى فى هذه السنة ، وجلس بعده فى الملك طغرل شاه ، وكان صغير السن ، والذى تولى أمره محمد بن أيلدكز ويلقب بالبهلوان ، فأقام بهمدان يدبر الأمور ، وبعث أخاه القزل ، فاستولى على أذربيجان ، وبعث البهلوان يطلب من الخليفة السلطنة لطغرل شاه ، فطرد رسوله ، ولم يلتفت إليه .

شَملةُ التركمانى[٩] **صاحب خوزستان** ؛ توفى فى هذه السنة ، وكان قد غلب على بلاد فارس وخوزستان ، وبنى بها قلاعًا ، وقوى على السلجوقية ، وكان يُظهر طاعة الخليفة

---

(١) ورد هذا النص بتصرف فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٧ .
(٢) ورد هذا النص بتصرف فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٩ .
(٣) «فيه» مكررة فى نسخة ب .
(٤) انظر ترجمته فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٩ ؛ الشذرات ، ج٤ ، ص٢٣٨ .
(٥) «بلدى» فى نسخة ب .
(٦) ما بين الأقواس ساقط من ب .
(٧) ورد هذا الشعر فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٩ .
(٨) انظر ترجمته فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٨-٢٠٩ .
(٩) انظر ترجمته فى الكامل ، ج١٠ ، ص٦ ، ص٧١ ؛ العبر ، ج٤ ، ص٢١١ .

مخادعة منه ، فأقام كذلك نيفًا وعشرين سنة ، وكان يباشر الحروب بنفسه . قصده تركمان ، فخرج بنفسه ، فجاءه سهم ، فمات بعد يومين ، وأقام أولاده فى قلاع خوزستان إلى أيام الناصر أبى العباس أحمد بن المستضىء[١] ، فبعث إليهم وزيره ابن القصاب ، فأخرجهم من البلاد ، واستولى على ثلاثين قلعةً ، وبعث بأولادهم إلى بغداد ، فأقاموا بها حتى ماتوا[٢] .

وفى تاريخ ابن كثير : شملة التركمانى تغلب على بلاد فارس ، واستجد بها قلاعًا[٣] ينهب الأكراد والتركمان ، ثم يأوى إليها . نهض إلى قتال بعض التركمان ، فعلموا ذلك ، فاستعانوا بالبهلوان ، فساعدهم بجنوده ، فاقتتلوا ، فأصاب شملة سهم ، ثم أخذ أسيرًا وولده وابن أخيه[٤] ، وتوفى بعد يومين .

قيماز بن عبد الله[٥] ؛ كان مملوكًا للمستنجد بالله ، وارتفع أمره وعلا كثيرًا ، فلما ولى المستضىء بأمر الله زاد أمره ، وصار مقدمًا على الكل ، وكانت الجنود كلها تحت أمره ، وانبسط كثيرًا ، حتى أن المستضىء أراد توليه وزيرًا فمنع من ذلك ، وأغلق باب النوبى[٦] يومين ، وقيل : إنه نوى نية رديئة ، وقصد أن ينهب دار الخلافة ، فصعد الخليفة فوق السطح فى داره ، وأمر العامة بنهب دار قيماز ، فنهبت ، وكان ذلك بإفتاء الفقهاء ، فآل أمره إلى أن خرج من بغداد هاربًا ، فتوفى بناحية الموصل ، وغسل فى سقاية ، ووصل خبره فى ذى القعدة[٧] .

وفى تاريخ بيبرس : ولما أمر الخليفة بنهب داره نهبت ، وأخذ منها أموال لا تعد ولا تحصى ، فمن ذلك أن بيت الطهارة الذى كان له كانت فيه سلسلة من ذهب من السقف

---

(١) هو الخليفة العباسى الناصر لدين الله أحمد أبو العباس بن المستضىء ، ولد سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨م . وبويع له عند موت أبيه سنة ٥٧٥ هـ/١١٧٩م . توفى سنة ٦٢٢هـ/١٢٦٤م . انظر : تاريخ الخلفاء ، ص٤٤٨ـ ٤٥٨ .

(٢) ورد هذا النص فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٩ ؛ المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٦ .

(٣) نقل العينى هذا النص بتصرف من البداية والنهاية ، ج١٢ ص٣١١ .

(٤) «ابن أخته» فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٦ ؛ واتفق العينى مع ابن الأثير فى الكامل ، ج١٠ ، ص٧١ .

(٥) انظر ترجمة قيماز بن عبد الله فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١١ ؛ العبر ، ج٤ ، ص٢١١ .

(٦) باب النوبى : أحد أبواب الثلث الشرقى من مدينة بغداد ، وهو الباب الذى به العتبة التى يُقَبِّلُها الملوك والرسل . صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٣٣٠ـ ٣٣١ .

(٧) ذكر الذهبى وابن الأثير أنه توفى فى «ذى الحجة» . انظر : العبر ، ج٤ ص٢١١ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص٧١ـ ٧٣ .

إلى محاذي وجه القاعد على الخلاء ، وفي أسفلها كرة كبيرة من ذهب مخرمة محشوة عنبرًا ومسكًا ؛ ليشمها إذا قعد ، فتسلق إنسان وقطعها ، ودخل بعض الصعاليك ، فأخذ عدة أكياس مملوءة دنانير ، وبالباب أقوام أقوياء يأخذون ما يخرجونه الناس ، فقصد ذلك الصعلوك المطبخ ، فأخذ قدرًا مملوءة طعامًا ، فوضع الأكياس فيها وحملها ، والناس يضحكون منه ، وخرج وهو يقول : أنا آخذ شيئًا أطعم عيالى اليوم ، فنجى بما معه ، فاستغنى بعد ذلك ، وظهر المال عليه . ولم يبق من نعمة قطب الدين قيماز فى ساعة واحدة قليل ولا كثير . ولما خرج قايماز من البلد تبعه تنامش الملقب بعلاء الدين ، وكان من أكبر أمراء بغداد ، وهو صهر قطب الدين قايماز ، وكذلك تبعه جماعة من الأمراء ، فنهبت دورهم «أيضًا»[١] وأخذت أموالهم ، وأحرق أكثرها . وسار قايماز إلى الحلة[٢] [٢٠٠و] ومعه الأمراء ، فأرسل الخليفة إليه صدر الدين شيخ الشيوخ ، فلم يزل يخدعه حتى سار عن الحلة إلى الموصل على البر ، فلحقه ومن معه عطش عظيم ، فهلك أكثرهم عطشًا ، ومات قايماز قبل وصوله إلى الموصل ، فدفن بظاهر باب العمادى[٣] ، وكان قد ظلم أهل العراق ، وكفر إحسان الخليفة .

ولما مات وصل علاء الدين تنامش إلى الموصل ، وأقام يسيرها ، ثم أمره الخليفة بالقدوم إلى بغداد ، فعاد وأقام بها بغير إقطاع إلى أن مات ، فقال بعض الشعراء فى ذلك[٤] :

إنْ كُنتَ معْتزا[٥] بمُلك زائلٍ ... وحوادث عنقية الإدلاجِ
فَدَعِ العجائِب والتواريخَ الأولى ... وانْظر إلى قيماز وابن قماجِ
عَطَفَ الزمانُ عليهما فسقاهُما ... من كأسِهِ صِرْفًا بغيرِ مزاجِ
فتبدَّلُوا بعد القصورِ وظِلِّها ... ونَعِيمها بمهامِهِ وفجاجِ
فَلْيحذَر الباقون من أمثالِهم[٦] ... نكباتِ دهرٍ خائنٍ مزعاجِ

---

(١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٢) الحلة : مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٢٢ . انظر أيضًا : تقويم البلدان ص٢٩٨ـ ٢٩٩ .
(٣) باب العمادى : يبدو أنه أحد أبواب قلعة العمادية التى بناها عماد الدين إسماعيل بن على بن موسى وهى من أحسن القلاع بجبل الهكارية من أعمال الموصل . انظر : صبح الأعشى ، ج٧ ، ص٢٨٦ ؛ وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٢٠٨ .
(٤) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص٧١ـ ٧٢ .
(٥) «معتبرًا» فى الكامل ، ج١٠ ، ص٧٢ .
(٦) «أمثالها» فى الكامل ، ج١٠ ، ص٧٢ .

إلياس الأُرتقى الملقب شهاب الدين ؛ صاحب البيرة[1] ، توفى فى هذه السنة ، وأوصى إلى الملك الناصر صلاح الدين بولده شهاب الدين محمد .

(١) البيرة : هى قلعة حصينة بين بيت المقدس ونابلس . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٨٧ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الحادية بعد السبعين بعد الخمسمائة★

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضىء بأمر الله ، والسلطان صلاح الدين مقيم بمرج الصُّفر بدمشق ، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهدنة ، فأجابهم السلطان ، بعد أن اشترط عليهم السلطان أمورًا ، فالتزموها . وكان الشام ذلك العام جدبًا ، فأذن السلطان للعساكر المصرية فى الرحيل(١) إلى بلادهم ، وإذا استغلوا[المغل](٢) خرجوا إليه ، وسار معه الفاضل ، واعتمد على العماد فيما كان بصدده ، وواظب السلطان على الجلوس فى دار العدل وعلى الصيد ، ومدحه العماد بقصيدة منها :

سِواكَ لِسَهْمِ العُلا(٣) لن يريشَا ... فنسألُ ربَّ(٤) العُلا أن تعيشَا

مِن الناسِ بالبِرِّ صِدْتَ الكِرامَ ... وبالبأسِ فى البَرِّ صدتَ الوحوشَا

وكَمْ سِرتَ من مصرَ نحو العَرِيش ... فهدّمتَ للمشركينَ العُروشَا

سَرايَاك تَبعَثُ قُدّامَها ... مِنَ الرُّعْبِ نحوَ الأعادى جيوشَا

ويوم حَماةَ تركتَ العداةَ ... كما طَيّرتْ بالفَلا الريحُ ريشَا(٥)

قال العماد : وفى أول هذه السنة وصل إلى دمشق الجماعة الذين خرجوا من بغداد موافقة لقطب الدين قايماز .

قلت : هو الذى عصى على الخليفة ـ على ما ذكرناه ـ فى الوفيات المذكورة فى السنة الماضية .

ومن الذين أتَوْا الشام : حسام الدين نُميرك[بن يونس](٦) ، وعز الدين أقبورى بن أزغش ، وكان صهر السلطان قديمًا فأقطعه فى الديار المصرية . قال العماد(٧) : وكان أقبورى زوج أخت السلطان ، والسلطان خال بنته ، وهى زوجة عز الدين[٢٠٠ظ] فرخشاه ابن أخى السلطان .

★ يوافق أولها ٢٢ يوليو ١١٧٥م .

(١) «بالرحيل» فى نسخة ب .

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة لتوضيح النص . انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١١ .

(٣) «العلى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب ، والمثبت هو الصحيح .

(٤) «فنساءل» ، كذا فى نسخة ب .

(٥) وردت هذه الأبيات من الشعر فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٤٣ ـ ٦٤٤ .

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من سنا البرق الشامى ، ص٩٢ .

(٧) ورد هذا النص فى أبى شامة الذى ينقل عن العماد . انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٤٥ .

ذكر الحرب بين السلطان صلاح الدين وبين غازى ابن مودود[١] صاحب الموصل

وأصل ذلك أن غازى هذا ـ الذى هو ابن أخى نور الدين ـ كتب إلى جماعة الحلبيين يلومهم على ما وقع بينهم وبين السلطان صلاح الدين من المصالحة ، وأرسل رسولاً إلى صلاح الدين ، ودفع له كتابين ، أحدهما : إلى صلاح الدين ؛ ليأخذ منه عهدًا للمواصلة ، ويكشف ماعنده . والكتاب الثانى : إلى الحلبيين ؛ يلومهم «فيه»[٢] على الصلح ، ويخبرهم أنه واصل بعساكر الشرق . ولما دخل الرسول على صلاح الدين غلط ودفع كتاب الحلبيين إليه ، وذلك لسعادة صلاح الدين ، فتأمله صلاح الدين وعلم أن الرسول غلط ، فلم يقل له شيئًا ، وفهم الرسول فقام وخرج من عنده ، ولم يمكنه الاستدراك[٣] . وكتب صلاح الدين إلى مصر ـ إلى أخيه الملك العادل أبى بكر ـ بتجهيز العساكر المصرية إلى الشام سرعة . و جمع غازى العساكر من الجزيرة ، وكان أخوه عماد الدين زنكى صاحب سنجار عاصيًا عليه ، مائلاً لصلاح الدين ، فصالحه ، وكان أخوه عز الدين مسعود وعسكره انهزموا فى العام الماضى لما التقوا بصلاح الدين كما ذكرنا ، فصالح غازى مع أخويه المذكورين ، وجمع عساكره وأنفق فيهم ، واستنجد أيضًا بصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين ، فاجتمع معه عسكر كثير عدته ستة آلاف فارس ، وسار إلى نصيبين فى ربيع الأول ، وأقام بها حتى انقضى الشتاء ، فضجر العسكر وفنيت نفقاتهم ، فصار العود إلى بيوتهم مع الهزيمة أحب إليهم من الظفر . ثم سار غازى وقطع الفرات ونزل عليه ، وبعث إلى أمراء حلب وكمشتكين الخادم ، وتقرر بينهم الأمر ، ثم سار إلى حلب ، والتقاه الملك الصالح بن نور الدين ، فاعتنقه سيف الدين غازى . وبكى ، ونزل بظاهر حلب بعين المباركة[٤] ، وصعد القلعة جريدة ، وكان أمراء حلب يركبون كل يوم إلى خدمته .

---

(١) غازى بن مودود : هو سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد زنكى توفى سنة ٥٧٦هـ/١١٨٧م . انظر : التاريخ الباهر ، ص١٨٠ ؛ الشذرات ، ج٤ ، ص٢٥٧ .

(٢) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٣) ورد هذا النص بتصرف فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٤٧ـ ٦٤٨ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢١٠ ؛ سنا البرق ، ص٩٠ـ ٩١ .

(٤) عين المباركة : ذكرها ابن الشحنة فى الدر المنتخب ، ص٢٥٥ ، وقال إنها فى جملة متنزهات حلب . انظر أيضًا : زبدة الحلب ، ج٣ ، ص٢٥ ، حاشية ٢ ؛ مفرج الكروب ، ج٣ ، ص١٦٧ . حيث يذكر ابن واصل أن «عين المباركة على باب حلب» .

وفى تاريخ النويرى[١] : وكان غازى فى عشرين ألف مقاتل ، ثم رحل إلى تل السلطان ومعه هؤلاء العساكر ؛ عسكر[٢] الشرق وديار بكر[٣] والحلبيون ، وبلغ صلاح الدين وهو بدمشق ، ولم يكن عنده سوى ستة آلاف فارس كذا فى المرآة[٤] .

وفى تاريخ النويرى[٥] : وسار صلاح الدين نحوهم ومعه ألف فارس ، ولكن الجيوش قد خرجت من الديار المصرية فى جحافل كالجبال ، ووصل إلى حماة ونزل بها ، وترك أثقاله بها ، وساق إلى جباب التركمان[٦] ، وجاءه رسول الحلبيين بأنهم يخوفونه بأسهم ، ويأمرونه بالرجوع إلى مصر ، قال رسولهم : فوافيته وهو فى خيمة صغيرة ، وهو على بساط «لطيف»[٧] ، وتحته سجادة ، وبين يديه مصحف ، وهو مستقبل القبلة ، وإلى جانبه زرديته[٨] ، وسيفه بين يديه ، وقوسه وتركاشه[٩] معلق فى عمود الخيمة . قال : فلما رأيته وقع فى خاطرى أنه المنصور ؛ لأنى فارقت سيف الدين غازى والأمراء وهم على طنافس الحرير ، والخمور تُروّق ، وليس فى خيامهم خيمة إلا وفيها أنواع المحرمات ، فأديت إليه الرسالة ، وجاء وقت الظهر فضج العسكر لصوت الأَذَان ، وفى كل خيمة إمام ، فقال لى : «الحق بأصحابك وقل لهم يستعدون [٢٠١و] للقائى ، فإنى عند طلوع الشمس نازل

---

(١) نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٣٧٩ .

(٢) «عساكر» فى نسخة ب .

(٣) ديار بكر : بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل ، وحدها ما غرب من دجلة من بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة ، ومنه حصن كيفا وآمد وميافارقين . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٦٣٦ .

(٤) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢١٠ ـ ٢١١ . وقد علق ابن الأثير على هذا الحدث بأن العماد قصد أن يعظِّم صلاح الدين بأن جعل جيشه البالغ ستة آلاف يهزم جيشًا قوامه «عشرون ألفًا» . انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص٧٥ .

(٥) نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٣٧٨ .

(٦) يبدو أن «جباب التركمان» ، مكان بين حماة وتل السلطان ، ونستشف هذا مما ورد فى المتن ، وفى زبدة الحلب لابن العديم ، ج٣ ، ص٢١٢ ، مع العلم بأن سامى الدهان المحقق أشار إلى أنه لايدرى أين جباب التركمان حاشية١ ـ ولعل المقصود بجباب التركمان جمع لكلمة جُب وهو البئر التى لم تطو ـ أى التى بها ماء . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٧ ـ ١٨ .

(٧) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٨) الزردية : نوع من الدروع ، وهى قميص من الزرد خالى من الصفائح المعدنية ويوجد منها الطويل المسترسل إلى الأرض ويسمى «زرديات سابلة» أو «زرديات مسبلة» وهى تغطى ساقى الفارس . وبعضها كانت قصيرة ولها ياقات عريضة تغطى الرقبة . انظر : ماير : الملابس المملوكية ، ص ٦٦ـ ٦٨ .

(٩) التركاش وجمعها تراكيش :وهى الجعبة التى توضع فيها النشاب وهو معرب عن الكلمة الفارسية تركش .
Dozy: Supp. Dict. Ar.

عليهم ، ويحكم الله بيننا ، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[١] . قال : ففارقته وأنا على بصيرة من نصرته وخذلانهم . وسقت عامة الليل ، فوافيتهم وقت الفجر وهم سكارى ، فطلبت سيف الدين غازى ، فقيل لى : هو نائم . قال : فوالله ما انبسطت[٢] الشمس إلا وأعلام صلاح الدين قد أقبلت ، والكوسات[٣] تخفق ، وأصحابنا نيام ، فقاموا مسرعين ، وكان يوم الخميس العاشر من شوال ، وكانت ملاقاتهم على تل السلطان ، وكان على ميمنة السلطان صلاح الدين ابن خاله شهاب الدين محمود ، وعلى ميسرته صاحب بصرى ، وهو[٤] فى القلب ، وكان فى ميمنة المواصلة مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل ، وعلى ميسرتهم الحلبيون ، وسيف الدين غازى فى القلب .

وفى المرآة[٥] : وكان صلاح الدين قد وقف على تل عال ، فحمل ابن زين الدين فطحن ميسرة صلاح الدين ، وحمل الحلبيون على ميمنته فتعتعوها ، ونزل صلاح الدين من التل ، ورأى أن يباشر الأمر بنفسه وإلا اختل الأمر ، فساق إليهم[٦] ، واتفق وصول العساكر المصرية فى تلك الساعة مع تقى الدين عمر ، وعز الدين فرخشاه ، وناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، فهال ذلك الحلبيين ، من دق الكوسات وحسن الأطلاب[٧] والعُدد الوافرة[٨] والخيل العربية ، فانخذلوا وولوا منهزمين .

وفى تاريخ النويرى[٩] : وحمل السلطان صلاح الدين بنفسه الكريمة فكانت بإذن الله الهزيمة ، فقتلوا من الحلبيين والمواصلة خلقًا ، وأُخذت مضارب سيف الدين غازى وحواصله[١٠] .

---

(١) ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ، سورة الأعراف : آية (٨٧) .

(٢) «والله ما انتظر الشمس» . فى المرآة ج٨ ، ص٢١١ .

(٣) الكوسات : هى صنوجات من نحاس شبه التُرس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع خاص ، ومع ذلك طبول وشَبَّابَة ، يدق بها مرتين فى القلعة فى كل ليلة ، ويدار بها فى جوانبها مرة بعد العشاء الآخرة ، ومرة قبل التسبيح على المآذن ، وتسمَّى الدورة بذلك فى القلعة ، وكذلك إذا كان السلطان فى السفر تدور حول خيامه . ويقال للذى يضرِبُ بالصنوج النحاس بعضها على بعض الكوسى . انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٩ ، ١٣ .

(٤) يقصد صلاح الدين يوسف بن أيوب .

(٥) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢١١ .

(٦) «عليهم» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من المرآة ، ج٨ ، ص٢١١ حيث ينقل عنه العينى .

(٧) الأطلاب ـ مفردها طُلب : وهو لفظ كردى معناه الأمير الذى يقود مائتى فارس فى ميدان القتال ، ويطلق أيضًا على قائد المائة أو السبعين ، وكان أول استخدامه فى العصر الأيوبى ، ثم أصبح يطلق على الكتيبة من الجيش . انظر السلوك ، ج١ ق١ ، ص٢٤٨ ، حاشية ٢ .

(٨) «الواردة» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢١١ . والمثبت كما كتبه العينى متفق مع السياق .

(٩) ورد هذا النص بتصرف فى نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٣٧٩- ٣٨٠ .

(١٠) الحواصل ـ مفردها حاصل : وهى الشراب خاناه والفراش خاناه والسلاح خاناه والركاب خاناه والحوائج خاناه والمطبخ والطبلخاناه . انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٩-١٣ .

وأسر جماعة من رؤسهم ، فأطلقهم السلطان بعد أن خلع عليهم ، وقد كانوا استعانوا بجماعة من الإفرنج فى حال القتال ، وليس هذا من صنيع الصناديد[١] .

وفى تاريخ بيبرس :[٢] وكان غازى قد سبق ووصل صلاح الدين وقت العصر ، وقد تعب هو وأصحابه ، وعطشوا فألقوا نفوسهم على الأرض ليس فيهم حركة ، وأشار على غازى جماعة من أصحابه بقتالهم فى تلك الساعة ، فتأخر إلى الغد فلما التقوا من الغد انهزم[٣] عسكر سيف الدين ، ورجع إلى حلب ، ولم يقتل من الفريقين مع كثرتهم سوى رجل واحد ، وترك سيف الدين أخاه عز الدين مسعود بحلب ، وسار إلى الموصل وهو يظن أنه لا ينجو ، وأن صلاح الدين يعبر الفرات إليه ويقصده بالموصل ، فاستشار وزيره فى مفارقة الموصل والاعتصام بقلعة [عقر][٤] الحميدية ، فمنعه من «ذلك وثبته وشد قلبه»[٥] ، وعزل عز الدين عن إمارة العسكر ، واستعمل مكانه مجاهد الدين قايماز[٦] .

وفى تاريخ النويرى[٧] وغيره : ووجد السلطان صلاح الدين فى مخيم غازى شيئا من الأقفاص التى فيها الطيور المطربة ، وذلك فى مجلس شرابه ، وكيف ينصر من كان هذا مسلكه ومذهبه ؟! فأمر صلاح الدين بردها عليه ، وقال للرسول : قل له : اشتغالك بهذه الطيور أحب إليك من الوقوع فيما رأيت من المحذور . وغنم السلطان من أموالهم شيئا كثيرا ، ففرقه على أصحابه ، وأنعم بخيمة الملك سيف الدين غازى على ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن نجم الدين[٨] أيوب ، وردّ ما كان فى وطاقه[٩] من الجوارى

---

(١) وردت هذه الأحداث بالتفصيل فى الروضتين ، ج١/ ق٢ ، ص٦٥٠-٦٥٣ .

(٢) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص٧٤-٧٥ .

(٣) «انكسر» فى نسخة ب .

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من الكامل ، ج١٠ ، ص٧٥ ، وعَقْر الحُميدية ، قلعة حصينة فى جبال الموصل أهلها أكراد وهى شرَقى الموصل . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٩٦ ؛ تقويم البلدان ، ص٢٧٤ .

(٥) كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . وقد وردت هذه العبارة فى الكامل ، ج١٠ ، ص٧٥ على النحو التالى : «واتفق هو والوزير على شد أزره ، وتقوية قلبه ، فثبت» .

(٦) مجاهد الدين قايماز : هو أبو منصور قايماز بن عبد الله الزينى الملقب مجاهد الدين الخادم توفى فى سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م بقلعة الموصل . وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٨٢-٨٤ .

(٧) يبدو أن العينى نقل هذا النص عن ابن كثير وليس النويرى . انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٢ ؛ كما ورد هذا النص بتصرف فى الروضتين نقلاً عن العماد ، ج١ ق٢ ، ص٦٥١ .

(٨) «نجم الدين بن أيوب» كذا فى نسخة ب . وهو خطأ .

(٩) الوطاق : الخيمة الكبيرة التى تعد للعظماء . انظر : العصر المماليكى ، ص٤٦٢ .

والمغنيات [٢٠١ظ]، وقد كان معه أكثر من مائة مغنية، ورد الأقفاص وآلات اللعب إلى حلب، وقال: قولوا له: هذه أحب إليك من الحرب. ووجِدَ عسكر المواصلة كالحانة من كثرة الخمور والبرابط والملاهى.

وفى المرآة[١]: ولما انهزم غازى ومن معه ساق صلاح الدين وراءهم، وأسر أمراءهم، ونجا غازى بنفسه، وعاد صلاح الدين إلى خيامهم، فوجد سرادق سيف الدين غازى مفروشا بالرياحين. والمغانى جلوس فى انتظاره، والخمور تروق، ومطابخه بقدورها، وفيه أقفاص لطيور فيها أنواع من القمارى والبلابل والهزارات[٢]، ثم فرق صلاح الدين الخزائن والخيل والخيام على أصحابه، وأعطى عز الدين فرخشاه سرادق سيف الدين، وكان عز الدين قد أبلى فى ذلك اليوم بلاءً حسنا.

ذكر ما جرى لصلاح الدين بعد انتصاره

قال النويرى[٣]: لما رجع الحلبيون إلى حلب وهم منهزمون ندموا على نقضهم الأيمان ومخالفتهم لطاعة الرحمن، وشقهم العصا على السلطان، وتحصنوا بالبلد خوفا من وثوب الأسد بن أخى الأسد، وأسرع صاحب الموصل فوصلها، وما صدق حتى دخلها.

وأما السلطان صلاح الدين فإنه لما فرغ من قسمة ما غنم، أسرع المسير إلى حلب، فوجدهم قد حصنوها، والقلعة قد أحكموها، فقال: من المصلحة أن نبادر إلى فتح الحصون التى حول البلد، ثم نعود إليهم، فلا يمتنع علينا أحد منهم. فشرع يفتح الحصون حصنا حصنا، ويهدم من أركان دولتهم ركنا ركنا، ففتح بزاعة[٤] ومنبج، ثم سار إلى أعزاز[٥]، فأرسل[٦] الحلبيون إلى سنان مقدم الفداوية، فأرسل جماعة من أصحابه ليقتلواصلاح الدين، فدخل طائفة منهم فى زى الجند، فقاتلوا أشد القتال، حتى اختلطوا بهم، ثم وجدوا فرصة ذات يوم والسلطان ظاهر للناس، فحمل عليه واحد منهم

---

(١) انظر هذه الأحداث فى المرآة، ج٨، ص٢١١-٢١٢ حيث ينقل العينى عنه بتصرف.

(٢) الهزارات جمع الهزار: طائر حسن الصوت، فارسى معرب. المعجم الوسيط، مادة هزر.

(٣) يبدو أن النص المذكور هنا لابن كثير من البداية والنهاية، ج١٢، ص٣١٢-٣١٣، حيث أنه بنفس ترتيب الأحداث. بينما وردت بعض هذه الأحداث فى النويرى: نهاية الأرب، ج٢٨، ص٣٧٨ - ٣٨٠.

(٤) بزاعة: بلدة من أعمال حلب واقعة بينها وبين منبج. معجم البلدان، ج١ ص٦٠٣.

(٥) أعزاز - ذكرها ياقوت فى معجمه ج٢، ص٦٦٧، عَزَاز وهى بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالى حلب بينهما مسيرة يوم.

(٦) «فأرسلت» فى نسخة ب.

فضربه بالسكين على رأسه ، فإذا هى باللأمة[١] ، فسلمه الله ، غير أن السكين مرت على خده فجرحته جرحًا هينًا ، ثم أخذ الفداوى رأس السلطان ، فوضعه إلى الأرض[٢] ليذبحه و مَنْ حوله قد أخذتهم دهشة ، ثم ثاب إليهم عقلهم ، فبادروا إلى الفداوى ، فقتلوه وقطعوا رأسه ، ثم هجم آخر فى الساعة الراهنة على السلطان ، فَقُتِل ، ثم هجم آخر على بعض الأمراء ، فَقُتِل أيضًا ، وهرب الرابع ، فأُدرك فقُتل ، وبطل القتال ذلك اليوم . ثم صمم السلطان على البلد ففتحه ، وأقطعه ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وقد اشتد حنقه على أهل حلب ؛ لما أرسلوا من الفداوية ، وجاء فنزل تجاه البلد على جبل جوشن[٣] ، وضربت خيمته على رأس الياروقية[٤] ، وذلك فى خامس عشر ذى الحجة من هذه السنة ، وجبى الأموال وأخذ الخراج من القرى ، ومنع أن يدخل البلد شىء أو يخرج منها شىء ، واستمر حصاره إياها حتى انسلخت هذه السنة[٥] .

وفى تاريخ بيبرس : لما انهزم غازى ، وغنم صلاح الدين وعسكره ثقله وثقل عسكره ، سير طائفة إلى بزاعة فحصروها وقاتلوا من بها وأخذوها ، ورتب بها من يحفظها ، وسار إلى منبج ، فملكها عنوة ، وأخذ صاحبها أسيرًا ، وكان بينه وبين[٢٠٢و] صلاح الدين عداوة قديمة ، وهو قطب الدين ينال[بن حسان][٦] المنبجى ، ثم أطلقه فسار إلى الموصل ، فأقطعه سيف الدين غازى الرقة ، ثم دخل إلى أعزاز فنازلها وحصرها ، وهى من أحصن القلاع ، وقتل عليها كثيرًا من العسكر ، ثم ذكر حكاية الفداوية كما ذكرناها .

وفى المرآة[٧] : لما نزل صلاح الدين على منبج[٨] وبها قطب الدين ينال بن حسان فقاتله ، واتفق وقوع ثلمة فى السور ، فطلب الأمان لنفسه ، فأمَّنهُ ، فخرج سليبًا ، وأخذ صلاح الدين من الحصن ثلثمائة ألف دينار ، وعرض عليه المقام عنده فامتنع وسار إلى

---

(١) الَّلأْمَةُ : أداة الحرب كلها من رمح وبيضة ومغفر وسيف ودرع ، والجمع لأْم . انظر : المعجم الوسيط ، ماده لأى .
(٢) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٣) جبل جوشن : يطل على حلب من غربها ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٥٥ .
(٤) الياروقية : محلة كبيرة بظاهر مدينة حلب تنسب إلى أمير من أمراء التركمان . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٠٠١ .
(٥) انظر هذه الأحداث فى الكامل ، ج١٠ ، ص٧٦ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٠ .
(٦) «خان» فى نسختى المخطوطة أ ، ب ، والمثبت بين الحاصرتين من الكامل ، ج١٠ ، ص٧٦ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٥٥ .
(٧) انظر هذه الأحداث فى المرآة ، ج٨ ، ص٢١٢ .
(٨) «ثم سار سيف الدين فنزل على منبج» كذا فى المرآة ، ج٨ ، ص٢١٢ ولعله خطأ من الناسخ ، واتفق ابن الأثير ، وأبو شامة مع ما أورده العينى . انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص٧٦ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٥٦ .

صاحب الموصل كما ذكرناه . ثم سار السلطان ففتح حصن بُزَاعةَ ثم نازل أعزاز ، فأقام عليها ثمانية وعشرين يومًا وفتحه فى ذى الحجة من هذه السنة .

وفى تاريخ الدولتين[1] : وهنأ العماد الكاتب السلطان بقصيدة ، منها :

فالحمدُ للهِ الذى إفْضالُه حُلْوُ الجنا ، [عالى][2] السَّنا ، وَضّاحُه

عادَ العدُوُّ بظُلْمةٍ[3] من ظلمهِ فى ليلِ وَيْلٍ قد خبا مِصْباحُه

وَجَنَى عليه جَهلُه بوقوعهِ فى قبضَةِ البازِى فهِيضَ جناحُه[4]

حَمَلَ السلاحَ إلى القتالِ وما درَى أنّ الذى يَجْنِى عليه سِلاحُهُ

قال : وكان لعز الدين فرخشاه فى هذه الوقعة يد بيضاء . وقال العماد : نظمت فيه قصيدة منها الأبيات[5] :

نصرٌ أنارَ[لِمُلْكِكُم][6] بُرْهانُه وَعلا لذِلَّةِ شانِئيكُم شانُه

ما أسعد الإسلامَ وهو مظفّرٌ وأبو المظفَّرِ يوسفٌ سُلْطانُه

المُلكُ مرفوعٌ لكُم مِقْدارُه والعدلُ موضوعٌ بكُم ميزانُه

والدّهرُ لا يأتى بغيرِ مُرادِكم [فهل][7] القضاءُ لأجلكم جَرَيَانُه

[وكأنما][8] للّه فى أحكامِه فَلَكٌ على إيثارِكُم دَوَرانُه

فخرًا بنى أيوب ، إنَّ فَخَارَكم بذَّ الملوكَ السابقين رهانُه

يكفى حسودَكم اعتقالاً همُّه فكأنما أشْجَانُه أسْجَانُهُ

---

(١) انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٥٢ .

(٢) «على» فى نسختى المخطوطة أ ، ب والمثبت بين الحاصرتين من الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص١٨ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ٦٥٢ .

(٣) «فى» نسخة ب .

(٤) هذا البيت غير موجود بالخريدة .

(٥) «الأبيات» ذكرت فى الهامش اليسار من الصفحة بالأصل .

(٦) «لملكهم» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٥٣ .

(٧) « فعلى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٥٤ .

(٨) «فكأنما» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٥٤ .

الدِّينُ ، عزَّ الدينِ ، عزَّ بنصرِكُم — و الكفرُ ذُلَّ بعونِكُم أعوانُه
قد كان [جيشكُمُ](١) كَبَحرٍ زاخرٍ — و اللابِسُون جواشنًا(٢) حيتانُه .

وقال العماد أيضًا فى فتح منبج قصيدة منها قوله :

نُزولك فى منبج — على الظَفَرِ المُبْهِجِ
ونُجحك فى المرتجَى — وفتحك للمُرْتَجِ
دليل على كل(٣) ما — تحاول أو تَرْتَجِى
أمورك فيما ترو — مُ واضحةُ المَنْهَجِ
وشانيك دامى الشئو — ن منك ، شَقِىٌّ ، شَجِى .

وقال ابن أبى طى(٤) : لما ملك السلطان منبج وتسلم الحصن صعد إليه وجلس يستعرض أموال ابن حسان وذخائره ؛ فكان فى جملة أمواله ثلثمائة ألف دينار ، ومن الفضة والآنية الذهبية والأسلحة والذخائر ما يناهز ألفى ألف دينار . فحان من السلطان التفاتة فرأى مكتوبًا على الأكياس والآنية يوسف ، فقيل له : ولد يؤثره ويحبه اسمه يوسف كان يدّخر هذه الأموال له . فقال السلطان : أنا يوسف وقد أخذت ما خُبِىء لى . فَتُعُجِبَ[٢٠٢ظ] من ذلك .

وقال العماد أيضًا قصيدة فى فتح أعزاز(٥) ، منها :

أعطاهُ ربُّ العالمينَ دولةً — عِزَّةُ أهلِ الدينِ فى إعزازِها
حازَ العُلا ببأسِه وجودِه — وهو أحقُّ الخلقِ باحْتيازِها

---

(١) «جيشهم» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٥٤ .

(٢) الجواشن جمع جوشن : وهى نوع من الدروع . تختلف عن الزردية فى أنها قميص من الزرد مغطى بصفائح معدنية على شكل حلقات وضع بين كل حلقة منها والأخرى قطعة صغيرة من القصدير «التنك» . انظر : الملابس المملوكية ، ص٦٨ ، حاشية ٢ .

(٣) «كلما» فى نسخة ب . وقد نقل أبو شامة هذه الأبيات عن العماد فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٥٦ .

(٤) انظر قول ابن أبى طى فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٥٦ .

(٥) انظر القصيدة فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٥٧ .

إلى أن قال :

تَهَنَّ من فتح عزازٍ نصرة أوقعت العداة فى اعتزازها
واليوم ذُلَّتْ حلبُ ، فإنَّها كانت تنالُ العزَّ من عزازِها
وحلب تنفى كمشتكينها كما انتفت بغدادُ من قيْمازِها

ذكر بقية الحوادث

منها أن فى رمضان قدم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب من اليمن إلى الشام ، وأرسل إلى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله ، وكتب إليه أبياتًا من شعر ابن المنجم المصرى[١] :

وإلى صلاحِ الدينِ أشكو أننى من بَعدِه مُضنَى الجوانحِ مُولَعُ
جزعًا لبُعدِ الدَّارِ منه ولم أكن لولا نواه[٢] لبُعْدِ دارٍ أجْزَعُ
فلأركَبَنَّ إليه مَتْنَ عزائمى ويخبُّ بى رَكْبُ الغرامِ ويوسعُ[٣]
ولأقطعنَّ منَ النهارِ هَوَاجرًا قلبُ النَّهارِ بحَرِّها يتقطَّعُ
ولأسْرِينَّ الليلَ لا يَسْرى به طيفُ الخيالِ ولا البُرُوق اللُّمَّعُ
وأُقَدمَنَّ إليه قلبى مُخْبِرًا أنى بجِسْمى من قريبٍ أتبعُ
حَتَّى أُشارِفَ[٤] منهُ أسعدَ طلعةٍ من أُفْقِها صُبحُ السَّعادةِ يطلُعُ

قال العماد : وفى سابع شوال وصل شمس الدولة أخو السلطان من اليمن إلى دمشق[٥] . وذكر ابن شداد[٦] : أنه قدم فى ذى الحجة .

---

(١) ابن المنجم المصرى : هو نشؤ الملك أبى الحسن على بن مفرج المعروف بابن المنجم المصرى الأصل المصرى الدار والوفاة ، توفى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م . انظر : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص١٦٨-١٦٩ ؛ انظر : وفيات الأعيان ج٧ ، ص٢٠٧-٢٠٨ .
(٢) «هواه» كذا فى الكامل ، ج١٠ ، ص٧٩ .
(٣) «يوضع» كذا فى الكامل ، ج١٠ ، ص٧٩ .
(٤) «أشاهد» فى الكامل ، ج١٠ ،ص ٧٩ .
(٥) ورد هذا الخبر فى سنا البرق الشامى ، ص٩٧ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٦٣ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢١٢ .
(٦) انظر : النوادر السلطانية ، ص٥٢ .

ولما سمع السلطان بقدومه أرسل إليه[١] بالمثال[٢] الفاضلى كتابًا أوله : ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾[٣] . وقال فى آخره : «ولقد أحسن عدنان المبشر إذ طلع علينا طلوع الفجر قبل شمسه ، وغرس فى القلوب ما يسرّنا ويسرّه جنى غرسه»[٤] .

وقال ابن أبى طى : كان سبب خروجه من اليمن كراهية البلاد ، والشوق إلى أخيه الملك الناصر ، وأن يرى ملوك الشام وغيرها .[وأمر العساكر][٥] بما أنعم الله به عليه من النعم والأموال .

وفى تاريخ الدولتين[٦] : لما تحدث الناس بخروج شمس الدولة من اليمن كان باليمن رجل يقال له عباس ، وكان صهر ياسر بن بلال الحبشى[٧] صاحب عدن ، وكان بين ياسر وعباس عداوة ، فافتعل عباس كتابًا على لسان ياسر وزوّر عليه علامته إلى زيد ابن عمرو بن حاتم صاحب صنعاء يقول فيه : «إن شمس الدولة سائر إلى أخيه الملك الناصر إلى الشام ، وسبب خروجه ضعفه عن اليمن ، فأمسكوا ما كنتم تحملون إليه من الإتاوة والرشوة ، «تبقى لكم»[٨] . واحتال حتى وصل الكتاب إلى شمس الدولة ، وكان نازلاً على حصن يعرف بالخضراء[٩] [٢٠٣و] يحاصره .

فلما وقف شمس الدولة على الكتاب استدعى ياسرًا وقال له : هذا خطك وعلامتك؟ قال : كأنه هو . قال : فبأى شىء استحققت منك هذا ، وقد قرَّبتُ منزلتك ، وأبقيتُ عليك بلادك ، ورفعت بضبعك[١٠] على أهل إقليمك . وأراه الكتاب . فلما وقف عليه

---

(١) «السلطان» فى نسخة ب .

(٢) المثال : الجمع مثالات ، وهو أول ما يكتب من الأوراق الرسمية بموافقة السلطان . انظر : صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص١٥٣ـ ١٥٥ .

(٣) سورة يوسف : آية (٩٠) .

(٤) انظر هذا النص فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٣ .

(٥) «أمراء العساكر» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٣ .

(٦) انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٣ـ ٦٦٥ .

(٧) كان ياسر بن بلال بن جرير الحبشى وزيرًا للأخوين منصور وأبى سعود ولدى عمران المكرم من أسرة بنى زريع الإسماعيلية التى سيطرت على عدن منذ سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م حتى سقطت فى أيدى الأيوبيين . انظر : زامباور : معجم الأنساب ، ج١ ، ص١٨١ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٤ حاشية ١ .

(٨) «ويبقى لكم» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٤ .

(٩) حصن الخضراء : حصن فى اليمن فى جبل وصاب من عمل زبيد . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٥١ .

(١٠) الضَّبْعُ : العضد كلها وأوسطها بلحمها أو الإبط أو ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاه . القاموس المحيط ج٣ ، ص٥٣ـ ٥٤ .

ياسر حلف أنه ما كتبه ، ولا يعرفه ، ولا أملاه لأحد ، ولم يعلم خبره . فلم يصدقه شمس الدولة ، وأمر به فقتل صبرًا بين يديه ، فهاب شمس الدولة مُلوكُ اليمن وحملوا إليه الأموال وحلفوا له على الطاعة .

ثم إن شمس الدولة خرج الى تهامة[١] وتوجه إلى الشام واستخلف على تهامة سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ ، وعثمان بن على الزنجيلى على عدن ، وتوجه إلى حضرموت ففتحها ، واستناب عنه بها رجلاً كرديًا يسمى هرون ، واستمر الكردى بها مدة .

ثم إن صاحب حضرموت تحرك وجمع ، فقتل ، وعاث هرون فى تلك البلاد ، واستقام أمره . وولى شمس الدولة ثغر تعز[٢] مملوكه ياقوت وجعل إليه أمر الجند ، وولى قلعة[تعكر][٣] مملوكه قايماز .

قال صاحب تاريخ الدولتين[٤] : وكان وصول شمس الدولة إلى السلطان قبل وقعة المواصلة وكسرتهم ، وكان شمس الدولة هو سبب الظفر ، وأعطاه السلطان سرادق سيف الدين صاحب الموصل بما كان فيه من الفرش والأثاث والآلات ، وولاه دمشق وأعمالها والشام ، وأمره أن يكون فى وجه الفرنج لأن السلطان خاف من الحلبيين أن يكاتبوا الفرنج على عادتهم .

ومنها أن تقى الدين عمر ابن أخى السلطان أنفذ مملوكه بهاء الدين قراقرش فى جيش إلى بلاد المغرب ، ففتح بلادًا كثيرة هناك ، وغنم أموالاً جزيلة ، ثم عاد إلى مصر ، وطابت له ، وترك تلك البلاد[٥] .

---

(١) تهامة : تقع من الناحية الجنوبية من الحجاز ، وعرفت بتهامة لشدة حرها وركود ريحها . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٦٠٣ ؛ تقويم البلدان ، ص٧٨ .

(٢) تعز : قلعة مشهورة من قلاع اليمن العظيمة . معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٥٤ .

(٣) «بعكر» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب ، والمثبت بين الحاصرتين من معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٥٥ ؛ الهمذانى : صفة جزيرة العرب ، ص١٢٥ ، طبعة مصر ١٩٥٣ . وتعكر : قلعة حصينة باليمن من مخلاف جعفر مطلة على ذى جَبْلَة ليس باليمن قلعة أحصن منها .

(٤) الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٥ .

(٥) انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٣ .

وقال ابن أبى طى[١] : لما ملك شمس الدولة اليمن سمتْ نفس ابن أخيه تقى الدين إلى المُلك وجعل يرتاد مكانًا يحتوى عليه ، فأُخبِرَ أنَّ قلعة أزْبرى[هى][٢] فم درب المغرب ، وكانت خرابًا فأشير عليه بعمارتها ، وقيل له متى عُمِّرَت وسكنها أجنادٌ أقوياء شجعان مُلكَتْ برقة ، وإذا مُلِكَتْ برقة مُلكَت ما وراءها . فأنفذ مملوكه بهاء الدين قراقوش فقدَّمهُ على جماعة من أجناده ومماليكه ، فصاروا إلى القلعة المذكورة وشرعوا فى عمارتها .

واجتمع بقراقوش رجل من المغرب فحدَّثهُ عن بلاد الجريد وفزان[٣] ، وذكر له كثرة خيرها ، وغزارة أموالها ، وضعف أهلها ، ورَغَّبَهُ فى الدخول إليها . فأخذ جماعة من أصحابه وسار فى حادى عشر محرم[من][٤] هذه السنة ، فكان يكمن النهار ويسير [الليل][٥] مدة خمسة أيام ، وأشرف على مدينة أوْجَلة[٦] فلقيه مالكها وأكرمه واحترمه ، وسأله المقام عنده ليعتضد به ويزوِّجه بنته ويحفظ البلاد من العرب ، وله ثلث ارتفاعها . ففعل قراقوش ذلك فَحُصِّل له من ثلث الارتفاع ثلاثون ألف دينار ، فأخذ عشرة آلاف لنفسه وفرق على رجاله عشرين ألفًا .

وكان إلى جنب أُوجلة مدينة يقال لها [الأرزاقية][٧] ، فبلغ أهلها صنيع قراقوش فى أوْجلة ، وأنه حرس غلالهم ، فصاروا إليه ووصفوا له بلدهم وكثرة خيره وطيب هوائه ، ورغّبوه فى المصير إليهم على أنهم[٢٠٣ظ] يملِّكونه عليهم . فأجاب إلى ذلك ، واستخلف على أوجلة رجلاً من أصحابه يقال له صباح ومعه تسعة[فوارس][٨]من أصحابه ، فَحُصِّل لقراقوش أموال كثيرة .

واتّفق أن صاحب أَوْجله مات ، فقتل أهل أوجلة أصحاب قراقوش ، فجاء قراقوش وحاصرها حتى افتتحها عنوة وقتل من أهلها سبعمائة رجل ، وغنم أصحابه منها غنيمة عظيمة ، واستولى على البلد .

---

(١) انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٥ .

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة لازمة لتوضيح النص من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٥ .

(٣) فزان : ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس الغرب . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٨٩٠ .

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٦ .

(٥) «بالليل» كذا فى نسختى أ ، ب .والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٦ .

(٦) أوْجَلَة : جنوبى برقة نحو الغرب منها ، وهذا اسم للناحية أما مدينتها فتسمى أرزاقية . معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٩٧ .

(٧) «الأزرافية» فى نسختى المخطوطة أ ، ب والمثبت من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٦ .

(٨) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين لتوضيح النص ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٦ .

ثم إن أصحابه[رغبوا][١] فى الرجوع إلى مصر وخشى قراقوش أن يقيم وحده فرجع معهم . فلما حصل بمصر طاب له المقام وثقل عليه العود ، وزوَّجه تقى الدين بإحدى جواريه . وكان استناب بأوجلة وقال لأهلها أنا أمضى إلى مصر لتجديد رجال وأعود إليكم[٢] .

ومنها ما قال ابن الأثير[٣] : وفى ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين استوزر سيف الدين صاحب الموصل جلال الدين أبا الحسن على بن جمال الدين الوزير ، ومكّنه فى ولايته ، فظهرت منه كفاية لم يظُنَّها الناس ، وبدا منه معرفة بقواعد الدول وأوضاع الدواوين ، وتقرير الأمور والاطلاع على دقائق الحسابات ، والعلم بصناعة الكتابة الحسابية والإنشاء حيّرت العقول ، ووضع فى كتابة الإنشاء وضعًا لم يعرفوه .

وكان عمره حين ولى الوزارة خمسًا وعشرين سنة ، ثم قُبض عليه فى شعبان سنة ثلاث وسبعين وشفع فيه كمال الدين بن [نيسان[٤]] وزير صاحب آمد وكان قد زوجه بنته ، فأُطلق وسار إليه . وبقى بآمد يسيرًا مريضًا ، ثم فارقها ، وتوفى بدُنَيْسِر[٥] سنة أربع وسبعين ، وحُمل إلى الموصل فدفن بها ، ثم حُمل منها فى موسم الحج إلى المدينة ودفن عند والده . وكان من أحسن الناس صورة ومعنى ، رحمه الله .

ومنها[٦] أنه قدم إلى دمشق الواعظ الكبير أبو الفتوح عبد السلام بن يوسف بن محمد بن مقلد التنوخى ، الدمشقى الأصل البغدادى المنشأ ، ذكره العماد فى الخريدة ، وقال : كان صاحبى[٧] ، وجلس للوعظ فحضر عنده السلطان صلاح الدين ، وأورد له مقطّعات من أشعاره ، فمن ذلك ما كان يقول فى مجلسه :

---

(١) «رغبوه» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ . ص٦٦٦ .

(٢) إلى هنا توقف نص ابن أبى طى ، فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٦٦ .

(٣) نقل العينى هذا النص عن أبى شامة نقلاً عن ابن الأثير ، انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٦ـ ٦٦٨ ؛ راجع أيضًا : الباهر ، ص١٧٧ .

(٤) «سنان» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الباهر ، ص١٧٧ .

(٥) دُنَيْسرُ : بلدة عظيمة مشهورة من نواحى الجزيرة قرب ماردين ، ولها اسم آخر يقال لها قوچ حصار . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٦١٢ .

(٦) انظر ترجمته فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٧ـ ٦٦٨ .

(٧) «صديقى» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٨ .

يا مالِكًا مُهْجَتى ، يا مُنْتَهى أمَلى	يا حاضرًا شاهدًا فى القلب والفِكَر
خلقتنى من تراب أنت خالقُهُ	حتى إذا صرتُ تمثالاً من الصُّوَرِ
أجريتَ فى قالَبى روحًا منوّرةً	تمرُّ فيه كَجَرْى الماء فى الشجرِ
جمعتَ بين صفَا رُوح منوَّرةٍ	وهيكلٍ صُغْتَه من معدنٍ كدرِ
إنْ غبتُ فيك فيا فَخرى ويا شَرفى	وإنْ حضرتُ فيا سَمْعى ويا بصرى
أو احتَجَبْتُ فَسِرِّى منك فى وَلَهٍ	وإنْ خطَرْتُ فقَلْبِى مِنْكَ فى خطرِ
[تبدو][1] فتمحُو رسُومى ثُمَّ تثبتُها	وإنْ تَغَيبتَ عنِّى عشتُ بالأثرِ[2]

ومنها أنه حملت إلى أمير المؤمنين من قرية قريبة من بغداد ، يقال لها الوقت ، بقرتان [٢٠٤و] قد ولدتا برأسين ورقبتين وأربع أيدى وبطن واحدة وفرج ذكر وفرج أنثى ، ولكل واحدة رجل ، قيل إنها ولدت حية ثم ماتت[3] .

ومنها ما قال ابن الجوزى[4] : تكلمتُ يوم عرفة ، وكان مجلسًا عظيمًا ، تاب فيه خلق كثير ، وقُطعَت شعورٌ كثيرة ، وكان الخليفة حاضرًا .

ومنها أن الخليفة عزل الخادم صندل المقتفوى عن الأستادارية[5]

وفيها ....[6] .

وفيها حج بالناس طاشتكين . وكان فى مكة أمير يقال له مُكثر[7] ، عزله الخليفة[8] وأمر أن يُولَّى أخوه داود مكانه ، وكان قد بنى قلعة على جبل أبى قبيس ، فاختلف الناس ،

(١) «وتبدو» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين حتى لا يختل الوزن ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص١٤ .
(٢) ورد هذا الشعر فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٦٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٣-٣١٤ .
(٣) ورد هذا الخبر فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٢٠ .
(٤) المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٢٣ .
(٥) انظر هذه الحادثة فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٨ .
(٦) يوجد بياض بالأصل بمقدار سطر ونصف .
(٧) «مكبر» فى نسخة ب . وهو الأمير مُكثِّر بن عيسى بن فليته وقد ولى إمرة مكة مرتين المرة الأولى سنة ٥٧١-٥٧٢هـ/١١٧٥-١١٧٦م وعزل منها بداود بن عيسى . والمرة الثانية من سنة ٥٨٤-٥٩٣ هـ/١١٨٨-١٩٩٧م . انظر زامباور : معجم الأسرات ج١ ص٣١ ؛ وانظر : الكامل ، ج١٠ ، ص٧٧ .
(٨) هو الخليفة العباسى المستضىء بأمر الله الحسن أبو محمد بن المستنجد بالله [٥٣٦هـ-٥٧٥هـ/١١٤١-١١٧٩م] . انظر : السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٤٤٤-٤٤٨ .

وتشوش الحجاج ، ولم يرم الناس من الجمار إلا قليلاً ، ونُهب كثير من الحاج ، وأخذوا أموال التجار المقيمين بها . ومن أعجب ما تم أن إنسانًا زرَّاقًا أحرق دارًا بقارورة نفط لأيتام ، ثم أخذ قارورة أخرى ليحرق بها دارًا أخرى ، فأتاه حجر فأصابِ القارورة فكسرها ، فاحترق هو بها ، وبقى ثلاثة أيام يُعَذَّبُ بالحريق إلى أن مات[١] .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

المبارك بن الحسن أبو النجم بن القابلة الفرضى ؛ سمع أبا الحسين بن الفراء وغيره ، وكان عالمًا[٢] بعلم الفرائض والمواقيت ، وتوفى فى جمادى الأولى منها ، ودفن بمقبرة الزادمان ، قرية قريبة من بغداد[٣] .

مسعود بن الحسين بن سعد أبو الحسين البزدى[٤] القاضى ؛ أحد الكبار الحنفية ، ولد سنة خمس وخمسمائة ، وتفقه وأفتى ، وناب فى القضاء ، ودَرَّسَ بمدرسة أبى حنيفة رضي الله عنه ومدرسة السلطان ، ثم خرج إلى الموصل ، فأقام مدة يدرس هناك ، وينوب فى القضاء ، فتوفى بها فى جمادى الآخرة من هذه السنة ، رحمه الله .

الحافظ ابن عساكر[٥] على بن أبى محمد الحسنى بن أبى الحسن هبة الله بن عبد الله بن الحسين ، المعروف بابن عساكر الدمشقى الملقب ثقة الدين ؛ كان محدث الشام فى وقته ، ومن أعيان الفقهاء الشافعية ، غلب عليه الحديث فاشتهر به ، وبالغ فى طلبه إلى أن جمع منه ما لم يتفق لغيره ، رحل وطَوَّفَ وجاب البلاد ، ولقى المشايخ ، وكان رفيق الحافظ أبى سعد عبد الكريم بن السمعانى فى الرحلة ، وكان حافظًا دينًا ، جمع بين معرفة المتون والأسانيد ، سمع ببغداد فى سنة عشرين وخمسمائة من أصحاب

---

(١) انظر هذه الحادثة فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٢٤ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص٧٧ .

(٢) كذا فى الأصل . وفى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٢٥ ؛ وفى الشذرات ، ج٤ ، ص٢٤٠ «عارفًا» .

(٣) انظر : المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٢٥ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٤٠ .

(٤) «البزودى» فى نسخة ب والمثبت من النسخة أ ومن المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٢٥ ، وهو نسبة إلى بزدة ويقال بَزْدَوَة . والنسبة إليها بزدى وبزدوى . وهى قلعة حصينة على ستة فراسخ من نَسف من بلاد ما وراء النهر . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٦٠٤ .

(٥) انظر ترجمته فى الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٢٧٤ـ ٢٨٠ ؛ المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٢٥ ؛ المرآة ج٨ ، ص٢١٢ـ٢١٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٤ـ ٣١٥ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٣٩ .

البـرمكى والتنوخى والجـوهرى ، ثم رجع إلى دمـشق ، ثم رحل إلى خـراسـان ، ودخل نيسابور وهَرَاةُ [١] وأصفهان والجبال[٢] ، وصنّف التصانيف المفيدة ، وخرّج التخاريج ، وكان حسن الكلام على الأحـاديث ، مـحظوظًا فى الجـمع والتـأليف ، صنف التـاريخ الكبـير لدمشق فى ثمانين مجلدة ، أتى فيه بالعجائب ، وهو على نسق تاريخ بغداد ، وله شعر لا بأس به ، ومن المنسوب إليه :

أيا نَفْسُ وَيْحكِ جـاءَ المـشـيبُ ... فـمـاذا التَّـصـابى ومـاذا الغَـزَلْ

تَوَلَّى شَـبَـابى كـأن لم يَكُنْ ... وجـاء مَـشِـيـبِى كـأن لم يَزَلْ

كـأنِّى بنفـسِى على غِـرَّةٍ ... وخَطْبُ المَنُونِ بهـا قـد نزلْ

فـيـالَيتَ شِعـرِى مِـمَّنْ أكـونُ ... ومـا قـدَّرَ اللهُ لى فى الأزلْ[٣]/ [٢٠٤ظ]

وقد التزم فيها ما لا يلزم[٤] ، وهو الزاى قبل اللام[٥] .

وفى المرآة : وصنف كتبًا كثيرة ؛ منها «تاريخ دمشق» ثمانمائة جزء فى ثمانين مجلدًا[٦] ، وكتاب «الإشراف[على][٧] معرفة الأطراف» ، وكتاب «فضل[٨] أصحاب الحديث» ، وكتاب «الجهاد» ، و «الأربعين» ، و «فضائل مكة والمدينة والبيت المقدس» ، و «فضل قريش والأنصار» ، و «فضائل أهل البيت» ، و «فضائل الصحابة» ، و «مسند أبى حنيفة رضي الله عنه » ، وكتاب «الزلازل[٩]» ، وغير ذلك .

وذكره العماد فى الخريدة[١٠] : وقال : سمعتُ عليه من التاريخ الذى صنفه . ومن أنواع ما ألفه وأنشدنى لنفسه بقرية المِزَّة غربى دمشق «أيا نفس» إلى آخره .

---

(١) هَرَاةُ : مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٩٥٨ .

(٢) الجبال : جمع جبل اسم علم للبلاد المعروفة باصطلاح العجم وهى ما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٥ .

(٣) كذا فى الأصل وفى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٣١٠ «بالأزل» .

(٤) «ما لم» فى نسخة ب .

(٥) ورد هذا الشعر فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٤ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ص٢١٣ .

(٦) «جلد» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢١٣ .

(٧) «فى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من حاجى خليفة : كشف الظنون ج١ ص١٠٣ ؛ الزركلى : الأعلام ، ج٤ ، ص٢٧٣ .

(٨) «وصل» فى المرآة ، ج٨ ، ص٢١٣ .

(٩) إلى هنا يتوقف نقل العينى من المرآة .

(١٠) انظر : الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٢٧٤- ٢٧٥ .

وقال ابن خلكان[١] : قال لى شيخنا الحافظ زكى الدين عبد العظيم المنذرى ، حافظ مصر ، وقد جرى ذكر تاريخ ابن عساكر ، وأخرج لى منه مجلدًا ، وطال الحديث فى أمره واستعظامه ، وقال : ما أظن هذا الرجل إلا عَزَمَ على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسه ، وشرع فى الجمع من ذلك الوقت ، وإلا فالعمر يقصر عن أن يجمع الإنسان فيه مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال . ولقد قال الحق ، ومن وقف عليه عرف حقيقة هذا الكتاب ، ومتى يسع الإنسان الوقت حتى يضع مثله ، وهذا الذى ظهر هو الذى اختاره ، وما صح له هذا إلا بعد مسودات ما يكاد ينضبط حصرها[٢] .

وقال ابن كثير : وله «أطراف السنن الأربعة»[٣] و «الشيوخ النُبل» ، و «تبيين كذب المفترى على أبى الحسن الأشعرى» . وقال ابن الجوزى[٤] : وكان شديد التعصب لأبى الحسن الأشعرى ، حتى صنف كتابًا سماه : «تهذيب المفترى على أبى الحسن الأشعرى» .

وفى المرآة[٥] : وكان ولده أبو محمد القاسم يقول : سمع أبى من ألف شيخ وثلثمائة شيخ وبضع وثمانين امرأة ، وسمع منه الحافظ أبو العلاء الهمدانى ، وهو أكبر منه ، وذكر ابنه القاسم أنه صنف ستين كتابًا ، وكانوا يفضلونه على الخطيب ، ولأجله بنى نور الدين دار الحديث بدمشق ، وعاش ابنه القاسم إلى سنة ستمائة ، وتوفى بها[٦] . وقال السبط[٧] : توفى الحافظ ابن عساكر ليلة الاثنين حادى عشر رجب من هذه السنة ، وقد بلغ من العمر اثنين وسبعين سنة وستة أشهر وعشرة أيام ، وصُلى عليه بجامع دمشق وميدان «الحصا»[٨] صلى عليه القطب النيسابورى ، وحضر السلطان صلاح الدين صلوٰته .[٩]

(١) انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٣١٠- ٣١١ .
(٢) إلى هنا توقف العينى عن النقل من ابن خلكان .
(٣) كذا فى الأصل ، وفى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٤ ، «أطراف الكتب الستة» .
(٤) انظر : المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٢٤- ٢٢٥ .
(٥) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢١٣- ٢١٤ .
(٦) أبو محمد القاسم الملقب بهاء الدين ابن الحافظ توفى سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م بدمشق . انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٣١١ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٣٤٧ .
(٧) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢١٣ .
(٨) ميدان الحصا : ميدان قبلى دمشق . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٩٥ .
(٩) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢١٣ .

وقال ابن خلكان[١] : ودفن عند والده وأهله بمقابر باب الصغير[٢] ، وتوفى ولده القاسم الملقب بهاء الدين فى التاسع من صفر سنة ستمائة بدمشق ، ودفن من يومه خارج باب النصر ، ومولده بها ليلة النصف من جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، وكان أيضًا حافظًا .

(١) وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٣١١ .
(٢) باب قبلى دمشق . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٩٥ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثانية والسبعين بعد الخمسمائة★

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضىء بأمر الله ، والسلطان صلاح الدين صاحب مصر والشام محاصر حلب ، وقد ضجر الناس من طول الحصار ، فترددت الرسل بينهم ، وتقررت القاعدة بين صلاح الدين والملك الصالح بن نور الدين وسيف الدين غازى صاحب الموصل وصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين ، وتحالفوا أن يكونوا كلهم عونًا على الناكث الغادر .

وقال ابن كثير(١) : وكان صلاح الدين قد أشرف على أخذ حلب[٢٠٥و] فسألوه الصلح ، فصالحهم على أن تكون حلب [وأعمالها](٢) للملك الصالح بن نور الدين فقط ، وكتب بذلك الكتاب . فلما كان المساء بعث الملك الصالح إلى صلاح الدين يسأل منه زيادة قلعة عَزاز ، وأرسل بأخت له صغيرة وهى الخاتون(٣) بنت نور الدين ؛ ليكون ذلك أدعى إلى قبول السلطان سؤاله ، فحين رآها صلاح الدين قام قائمًا ، وقبل الأرض ، وأجابها إلى سؤالها ، وأطلق لها من الجواهر والتحف شيئًا كثيرًا .

ذكر رحيل صلاح الدين من حلب

ولما تعاقدوا على ما ذكرنا ؛ رحل صلاح الدين عن حلب يوم الجمعة لعشر بقين من المحرم ، وقصد بلد الإسمعيلية الذين اعتدوا عليه ، فحاصر حصنهم مِصياث(٤) ، فَقَتَلَ وخرَّب وسبى حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماة ؛ لأنهم جيرانه ، فقبل شفاعته ، وقد أحضر إليه نائب بعلبك الأمير شمس الدين محمد ابن عبد الملك بن [المقدم](٥) ـ الذى كان نائب دمشق ـ جماعة من أسارى الإفرنج

★ يوافق أولها ١٠ يوليو ١١٧٦م .

(١) نقل العينى هذا النص بتصرف من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٥ .

(٢) «وعملها» فى نسختى المخطوطة أ ، ب والمثبت من ابن كثير حيث ينقل عنه العينى ، انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٥ .

(٣) الخاتون : هى السيدة عريقة الأصل ، وجمعها «خاتونات» . انظر : محمد التونجى ، المعجم الذهبى ، ج١ ، ص٢٣٠ ، بيروت ١٩٨٠ م .

(٤) مصيات : ذكرها ياقوت مصياب . وأنها حصن حصين مشهور للإسماعيلية بالساحل الشامى قرب طرابلس ـ ويقال لها مصياف . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٥٦ ؛ انظر أيضًا : تقويم البلدان ، ص٢٢٩ـ ٢٣٠ .

(٥) «مقدم» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الكامل ، ج١٠ ، ص٨١ . انظر أيضًا : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٦٩ ؛ سنا البرق الشامى ، ص١٠٦ـ١٠٧ .

الذين عاثوا بالبقاع فى غيبة السلطان ، واشتغاله بحصار مصيابات ، فجدد له العزم على غزو الإفرنج ، فصالح الإسمعيلية أصحاب سنان ، ثم كر راجعًا إلى دمشق .

وفى تاريخ الدولتين[1] : وكان الأسرى أكثر من مائتى أسير . وقال ابن أبى طى :وكان أكبر الدواعى فى مصالحةصلاح الدين لسنان مقدم الإسمعيلية وخروجه من بلادهم ، خوفه من الفرنج أن يهيجوا فى الشام الأعلى ، وهو بعيد عنه ، فربما ظفروا من البلاد بطائل ، فصالح سنانًا ، وعاد إلى دمشق .

قال العماد : وكان خرج شمس الدولة أخو السلطان من دمشق حين سمع أن الإفرنج على الخروج ، وباسطهم عند عين الجَرّ[2] ، فى تلك المروج ، ووقع من أصحابه عدة فى الإسار ، منهم سيف الدين أبو بكر[بن][3] السلار . ووصل السلطان إلى حماة ، واجتمع فيها بأخيه شمس الدولة ثانى صفر ، وهو أول لقائه بعدما أزمع عنه إلى اليمن السفر ، وتعانق الأخوان فى المخيم بالميدان ، وكان قد وصل إلى السلطان من أخيه هذا عند مفارقته بلاد اليمن كتاب ضمنه أبياتًا من شعر ابن المنجم المصرى ، أولها :

الشـــوقُ أولعُ بالقلوبِ و أوْجَعُ ... فـعــلامَ أدفعُ منه مــا لا يُدفعُ

وحَملتُ من وجْدِ الأحبّةِ مُفردًا ... مـا ليسَ تحـملُهُ الأحِبّـةُ أجـمعُ

لا يَسـتـقـرُّ بى النَّوى فى مـوضعٍ ... إلا تَقَاضـانِى التَّـرحُّلُ[4] مـوضعُ

فـإلى صـلاحِ الدينِ أشكو أننى ... مِن بُعـده مُضْنَى الجوانح مُوجَعُ

وقد ذكرنا بقية الأبيات عن قريب .

قال العماد : فسألنى السلطان أن أكتب فى جوابها على رَوِيّها ووزنها ، فقلت . فذكر قصيدة منها :

---

(١) الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٩ .

(٢) عين الجَرّ : موضع معروف بالبقاع بين بعلبك ودمشق . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٧٦٠ .

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين الذى ينقل عنه العينى ، ج١ ق٢ ، ص٦٧٠ .

(٤) «الترجل» كذا فى نسخة ب .

مَولاىَ شمسُ الدولةِ الملكُ الذى ... شمسُ السيادةِ من سناهُ تَطْلُعُ
مالى سواكَ من الحوادثِ ملجأٌ ... مالى سواكَ من النَّوائبِ مفْزَعُ
وَ لأنْتَ فخرُ الدينِ فخْرِى فى العُلا ... وملاذُ آمالى ، ورُكنى الأمنَعُ
إلا بِخدمتك المجلة موقعى ... والله ما للملكِ عندى موقعُ/ [٢٠٥ظ]
وبغيرِ قُربك كُلُّ ما أرجوهُ من ... دَرْكِ المُنَى متعذّر متمنّعُ
النصر[١] إن أقبلتَ نحوى مُقْبلٌ ... واليُمْنُ إن أسرعتَ نحوى مسرعُ

قال : ثم سرنا إلى دمشق ، ووصلنا إليها سابع عشر صفر ، وفَوّض ملك دمشق إلى أخيه الملك المعظم شمس الدولة ، وعزم إلى مصر السفر[٢] فى صفر .

منها وقف صلاح الدين قرية حزمُ باللوى من حوران على الزاوية الغزالية[٣] ، ومن يشتغل بها من العلوم الشرعية وما يحتاج إليه الفقيه ، وجعل النظر لقطب الدين النيسابورى مدرسها .

وفى هذا الشهر تزوج صلاح الدين بالست خاتون[٤] عصمة الدين بنت معين الدين أُنَر ، وكانت زوجة الملك نور الدين الشهيد (رحمه الله) فأقامت بعده فى القلعة محترمة مكرمة ، وولى تزويجها منه أخوها الأمير سعد الدين مسعود بن أنر ، وحضر القاضى ابن أبى عصرون العقد ومعه جماعة من العُدول ، وبات السلطان عندها تلك الليلة والليلة التى بعدها ، ثم سافر إلى مصر بعد يومين من الدخول بها[٥] .

---

(١) «للنصر» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ص٦٧١ .

(٢) إلى هنا توقف العينى عن النقل من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٧٠ .

(٣) الزاوية الغزالية : بالجامع الأموى بدمشق . كرد على ، خطط الشام ، ج٦ ، ص١٤٣ .

(٤) خاتون عصمة الدين بنت معين الدين أُنَر : كانت من أحسن النساء وأعفهن وأكبرهن صدقة ولها أوقاف كثيرة - توفيت سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م . انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ص٣١٧-٣١٨ ؛ الشذرات ، ج٤ ص٢٧٢ .

(٥) الروضتين ج١ ق٢ ، ص٦٧٥-٦٧٦ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ص٢١٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ص٢٩٥ .

ذكر توجه صلاح الدين من دمشق إلى مصر

خرج من دمشق يوم الجمعة الرابع من ربيع الأول ، ونزل بمرج الصُّفَّر ، ثم رحل عنه قبل العصر إلى قريب الصنمين[١] . قال العماد : وخرجت معه وقلبى مروع[٢] إلى أهلى ، فما نزلت منزلاً «إلا نظمت أبياتًا[٣]» فقلت يوم المسير وقد عبرت بالخيارة[٤] :

أَقُـــولُ لركبٍ بالخِـــيـــارةِ نُزّلُ ... أشيروا ؛ فمالى فى المقامِ خيارُ
هُمُ[٥] رحلوا عنك الغداةَ وما دَرَوْا ... بأنهمُ قـــد خَلّفـــوك وســـاروا
حَليفَ اشتياقٍ [لا ترى من تحبُّه][٦] ... وفى القلبِ مِنْ نار الغـــرامِ أُوارُ
أَجِيروا من البَلْوى فؤادِى فعندكُم ... ذِمَـــامٌ له يا ســـادتى وجِـــوارُ

وقلت وقد نزلنا بالفُقيع[٧] :

رَأَيتُنى بالفَـــقـــيعِ منفـــردًا أَضْـ ... ـيعُ من فـقعِ قاعـهـا[الضـائعِ][٨]
بعتُ بمــصــرَ دمــشقَ عن غَـــررٍ ... مِنِّى فـيـا غـبن صـفـقـة البـائعِ
صَبْرِىَ والقلبُ عـاصـيـان ، ومـا ... غَـيـرَ همـومى وأَدْمُـعِى طائِعى

وقلت بالفُوّار[٩] :

تحـدّرَ بالفـوّارِ دمْـعى على الفَـوْرِ ... فقُلتُ لجيرانى أجيروا [مِنَ الْجَوْرِ][١٠]
وأصـعـبُ مـا لاقـيتُ أنّى قـانعٌ ... من الطيفِ مُـذْ بنْتُم بزورٍ من الزورِ

---

(١) الصنمان : قرية من أعمال دمشق فى أوائل حَوْران بينها وبين دمشق مرحلتان . معجم البلدان . ج٣ ص٤٢٩ .
(٢) «يروع» فى نسخة ب .
(٣) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٤) الخِيَارَةُ : قرية قرب طبرية من جهة عكا قرب حطين بها قبر شُعيب النبى ﷺ . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٠٣ .
(٥) «هموا» فى نسخة ب وهو خطأ . والمثبت من نسخة أ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٧٩ .
(٦) «لايرى من يحبه» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ٦٧٩ .
(٧) يتضح من الشعر أن الفقيع مكان صحراء يقع فى شرق الأردن . انظر : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص٧ .
(٨) «الصنائع» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٧٩ .
(٩) الفُوّار : اسم ماء . انظر : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص٧ ، حاشية (٣) .
(١٠) «لمن يجور» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت هو الصحيح من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٠ .

وقلت بالزرقاء[١] :

وَلَمْ أنسَ بالزرقــاءِ يومَ وَداعِنا	أنامل تدْمى حيــرةً للتّندُّمِ
أعـدْتُك يا زرقـاءَ حـمراءَ ، إننى	بكيتُك حتى شِيبَ ماؤكَ بالدَّمِ
تأخَّـرَ قلبى عندهُم مُـتخلِّفًـا	وخالفْتُهم فى عَزْمتى والتقدُّمِ
فيا ليتَ شِعرِى هل أعود إليهمُ	وهل ليت شِعرِى نافعٌ لِلمُتيَّمِ

قال : وقلت وقد عبرنا على مسالك قريبة من قلعة الشوبك ، وفيها تخطف الإفرنجُ القاصدين إلى مصر :

طريقُ مصـرَ ضيّقُ المسْلكِ	ســالكُهُ لاشكَّ فى مَـهلكِ/	[٢٠٦و]
وحُبُّ مصر صارَ[جُبًّا][٢] لمنْ	أوقَـعَـهُ فى شبكِ «الشوبك»
لكِنّمـا مِنْ دونهـا كـعـبـةٌ	محجوجةٌ مبرُورةُ المنسكِ
بهـا صلاحُ الدينِ يُشكى الذى	إليـه من أيامـهِ يشْتكِى

قال ونظمت فى طريق مصر قصيدة مشتملة على ذكر المنازل وهى :

هجرتُكمُ لا عَنْ مَلالٍ ولا [غدْرِ][٣]	ولكن لِمَقْـدُورٍ أُتيحَ منَ الأمـرِ
وأَعلمُ أنِّى مخطىءٌ فى فِراقِكُم	وعُذْرِىَ فى ذنْبِى ، وذَنبِىَ فى عُذرِى
أرى نُوَبًا للدهرِ تُحْصَى ولا أَرى	أَشدَّ من الهِجْرانِ فى نُوبِ الدهرِ

إلى أن قال :

أسيرُ إلى مصر وقلبِى أسيرُكُم	ومِنْ عَجَبٍ أسْرِى وقَلبِىَ فى أَسْرِ

وهى قصيدة طويلة[٤] .

---

(١) الزرقاء : يقصد بها نهر الزرقاء الواقع شرق الأردن وهو على درب حجاج الشام . انظر : تقويم البلدان ، ص٢٤٧ ؛ الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص٧ .

(٢) «حبا» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٠ .

(٣) «عُذر» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص٦ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٠ .

(٤) انظر القصيدة كاملة فى الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص٦ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٠ـ ٦٨١ .

ذكر دخول صلاح الدين القاهرة

دخل السلطان صلاح الدين القاهرة يوم السبت السادس عشر من ربيع الأول ، وتلقاه أخوه الملك العادل سيف الدين[١] إلى عند بحر القلزم ، ومعه من الهدايا والتحف شيء كثير ، ولا سيما من المآكل المتنوعة[٢] . قال العماد : وتوفرنا على الاجتماع فى المغانى لاستماع[٣] الأغانى ، والتنزه فى الجزيرة والجيزة ، والأماكن العزيزة ، ومنازل العز والروضة ، ودار الملك والنيل والمقياس ، ومرامى[٤] السفن ومجارى الفلك[٥] والقصور بالقرافة[٦] ، وربوع الضيافة ، ورواية الأحاديث النبوية ، والمباحثة فى المسائل الفقهية ، والمعانى الأدبية .

قال : واقترحنا على القاضى ضياء الدين بن الشهرزورى أن يفرجنا فى الأهرام ، فقد كنا شغُفنا بأخبارها فى الشام ، فخرج بنا إليها ، ودُرْنا تلك البرابى والبرارى ، والرمال والصحارى ، وهَالَنا أبو الهول ، وضاق فى وصفه مجال القول ، وتداولنا الحديث فى الهرم ومَنْ بناه ، فكلٌّ يأتى فى وصفها بما نقله[٧] ، لا بما عقله ، واجتهدوا فى الصعود إليه فلم يُوجد من توَقَّله[٨] ، وحارت العقول فى عقوده ، وطارت الأفكار عن توهُّم حدوده ؛ فيالَهُ مِنْ مولود للدهر قبل الطوفان ، انقرضت القرون الخالية على آبائه وجدوده ، وسمّار الأخبار تذكر حديث أحداث عَادِه[٩] وثَمُودِه ، ويدُل إحكامُه وعلوّه على علو همة بانيه فى بأسه وجوده . وإن فى الأرض الهرمين كما [أنّ][١٠] فى السماء الفرقدين .

---

(١) لمعرفة المزيد انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ؛ ص٧٤-٧٩ .
(٢) إلى هنا توقف العينى عن النقل من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٦ .
(٣) «لسماع» فى نسخة ب .
(٤) كذا فى نسختى أ ، ب . أما فى الروضتين «مراسى» . والمرمى هو مقصد السفينة . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة «رمى» ، ج١٩ ، ص٢٥ .
(٥) «الملك» فى نسخة ب وهو خطأ فى النسخ .
(٦) «فى القرافة» فى نسخة ب .
(٧) «إلا» فى نسخة ب ، وهو خطأ .
(٨) «وَقَلَ» أى صعد الجبل انظر : الفيروزآبادى : القاموس المحيط ، ج٤ ، ص٦٦ .
(٩) يقصد هنا قوم عاد وثمود .
(١٠) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٥ ، حيث ينقل عنه العينى قول العماد بتصرف .

ثم ذكر العماد جماعة ممن كان يقيم الضيافة له ولمثله من الفضلاء الأعيان ؛ فذكر منهم الناصح مؤدب أولاد السلطان ، وله دار مشرفة على النيل ، وذكر منهم اللّسان الصوفى البلخى ، وكانت له صحبة قديمة بنجم الدين أيوب والد السلطان ، وله دار أيضًا على شاطىء النيل برسم[ضيافة][١] من نزل به .

ذكر ما صدر من صلاح الدين بعد دخوله القاهرة

من ذلك أنه أمر ببيع الكتب فى القصر كل أسبوع يومان ، وهى تباع بأرخص الأثمان ، وكانت كتبًا كثيرة جدًا ، قالوا : إنها كانت أكثر من مائة ألف مجلد .

وكان فيها من الكتب الكبار ، وتواريخ الأمصار ، ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين مجلدًا[٢] ، وكانت خزائن مملوءة بها فى القصر ، [٢٠٦ظ] وكان الحاكم على القصر ومتولى أموره الأمير بهاء الدين قراقوش . ولما حضرت الناس للشراء كان الدلالون يخرجون عشرة عشرة من كل فنّ كتبًا[مبترة][٣] وتُباع بالهُون ، وتُسام بالدون ، وربما كان دلال يشارك مع واحد فَتُقَوّمُ عليه بعشرة ، ثم بعد ذلك يبيعونه بمائة .

قال العماد : لما رأيت الأمر حضرت[القصر][٤] ، واشتريت كما اشتروا ، واستكثرت من ذلك . ولما عرف السلطان بذلك ، وكان[٥] بِمئين[٦] ، أنعم بها علىّ ، وأَبْرأَ ذمتى من ثمنها ؛ ثم وهب لى أيضًا من خزانة القصر ما عيّنتُ عليه من كتبها .

ودخلت عليه يومًا وبين يديه مجلدات كثيرة ، انتُقِيَتْ له من القصر ، وهو ينظر فى بعضها ، وقال : كنتَ طلبت كُتُبا عَيَّنْتها ، فهل فى هذه منها شىء؟ فقلت : كُلّها ، وما استغنى عنها ، فأخرجتها من عنده بحمّال ، وكان هذا بالنسبة إلى جوده أقلَّ نوال .

ومن ذلك أنه أمر ببناء سور على مصر والقاهرة ، ودَوْر السور تسعة وعشرون ألفًا وثلثمائة ذراع بالهاشمى[٧] .

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة لازمة للسياق من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٦ .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن تلك الكتب ، انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٦-٦٨٧ .

(٣) «مميزة» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٦ ؛ سنا البرق الشامى ، ص١١٦ وهو الأصح . ومبترة أى هالكة أو متفرقة .

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة لازمة للإيضاح من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٧ .

(٥) «كان» مكررة فى نسخة ب .

(٦) مئين : المقصود بها ما بين الثلاثة إلى العشرة . انظر : لسان العرب مادة «مائة» فصل الميم حرف الواو والياء .

(٧) الذراع الهاشمى : هو قياس خاص بالأراضى والأقمشة وهو أكبر من الذراع الزيادى الذى طوله ذراع وثلث بذراع اليد ، وقد وجد فى عصر الدولة العباسية . انظر : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٤٦-٤٤٧ .

وفى تاريخ الدولتين[١] : ولما تملك السلطان مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل [واحدة][٢] منهما سور لا يمنعها ، وقال :[إن][٣] أفردت كلّ [واحدة][٤] بسور [احتاجت][٥] إلى جند مفرد يحميها ، وإنى أرى أن أدير عليهما سورًا واحدًا من الشاطىء إلى الشاطىء .

وأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة[٦] على جبل المقطم ، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج فى المقسم[٧] ، وانتهى به إلى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظم . قال العماد : ومبلغ السور وهو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل ، تسعة وعشرون ألفًا وثلثمائة[ذراع][٨] ، وذراعان ؛ من ذلك ما بين قلعة المقسم على شاطىء النيل والبرج بالكوم الأحمر[٩] بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع ، ومن القلعة بالمقسم إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلثمائة واثنان وتسعون ذراعًا ، ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع ، ودائر القلعة بجبل مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع . وذلك طول قوسه فى أبدانه ، وأبراجه[١٠] من النيل إلى النيل ، على التحقيق والتعديل ، وذلك بالذراع الهاشمى ، بتولى الأمير[بهاء الدين][١١] قراقوش الأسدى .

---

(١) انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٧ .
(٢) «واحد» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٧ .
(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٧ ، حيث ينقل عنه العينى .
(٤) «واحد» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ج١ ق٢ ، ص٦٨٧ .
(٥) «احتاج» فى نسختى المخطوطة أ ، ب والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٧ .
(٦) مسجد سعد الدولة ، لمعرفة المزيد عنه انظر : الخطط ، ج٢ ، ص٢٠٢ ، طبعة بولاق .
(٧) يقصد بذلك برج المقس . وقد ذكر المقريزى أن قلعة المقس كانت برجًا مطلاً على النيل فى شرقى جامع المقس . انظر ، الخطط ، ج١ ، ص٣٧٩ـ ٣٨٠ .
(٨) ما بين الحاصرتين إضافة من مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٥٢ .
(٩) الكوم الأحمر : يقع فى بر الخليج الغربى ، وكان النيل يصل إلى هذا الكوم . وهو تجاه خط بين الزقاقين ، وهو عند المنطقة المسماة فم الخليج قريبًا من نهاية شارع قصر العينى حاليًا ، أى قريبًا من مجرى العيون . انظر : الخطط ، ج٢ ، ص١٤٦ .
(١٠) «أبراجه وأبدانه» فى نسخة ب .
(١١) «شهاب الدين» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . وهو خطأ . والمثبت بين الحاصرتين من مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٥٣ ؛ وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٩١ـ ٩٢ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص١٧٦ ؛ السلوك ، ج١ ق١ ، ص١٥٨ .

وبنى القلعة على الجبل ، وقطع الخندق ، وحفر واديه . وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة ، فاشتملت القلعة عليها ودخلت فى الجملة . وحفر فى رأس الجبل بئرًا[١] ينزل فيها بالدّرج المنحوتة من الجبل إلى الماء المعين .

وتوفى السلطان وقد بقى من السّور مواضع ، والعمارة [فيه][٢] مستمرة ، ووظائف نفقاتها مستدرّة .

ومن ذلك أن السلطان (رحمه الله) أمر ببناء المدرسة بالتربة المقدسة الشافعية[٣] ، ورتب قواعدها ، وتولاها الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشانى[٤] ، وأمر أيضًا باتخاذ دارٍ فى القصر بيمارستانا للمرضى ، ووقف على المدرسة والبيمارستان وقوفًا كثيرة .

ذكر خروج صلاح الدين [٢٠٧ و] إلى الإسكندرية

ثم إن السلطان صلاح الدين خرج من القاهرة يوم الأربعاء الثانى والعشرين من شعبان ، واستصحب معه ولديه الأفضل عليًا والعزيز عثمان ، وجعل طريقه على دمياط ، فأقام بظاهرها يومين ، ثم وصل إلى ثغر الإسكندرية .

قال العماد[٥] : وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبى طاهر أحمد بن محمد السِّلَفى[٦] ، وسمعنا عليه ثلاثة أيام ، الخميس والجمعة ، والسبت ، رابع شهر رمضان . قال : وشاهدنا ما استجده السلطان من السور الدائر ، وما انصرفنا حتى أمر بإتمام الثغور وتعمير الأسطول .

---

(١) هذه البئر من العجائب ، حفرها قراقوش ، تدور البقر من أعلاها ، فتنقل الماء من نقالة فى وسطها ، وتدور أبقار فى وسطها تنقل الماء من أسفلها . وجميعها حجر منحوت . ويُنزل إلى هذه البئر بدرج نحو ثلثمائة درجة . انظر : الخطط ، ج٢ ، ص٢٠٤ .

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة لازمة للإيضاح من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٨ .

(٣) هذه المدرسة بجوار قبة الإمام الشافعى بقرافة مصر . انظر : الخطط ، ج٢ ، ص٤٠٠-٤٠١ ، ص٤٤٤ .

(٤) نجم الدين الخبوشانى : هو أبو البركات محمد بن الموفق بن سعيد بن عبد الله ؛ شافعى المذهب ، قدم مصر للمرة الأولى سنة ٥٦٥هـ /١١٧٠م من خبوشان بناحية نيسابور . وتوفى سنة٥٨٧هـ/١١٩١م . انظر : طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص١٩٠ ؛ وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٣٧٤ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٩٥ [ط . وادى النيل ، ١٢٨٧هـ] ؛ معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٠٠ .

(٥) انظر قول العماد فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٩ .

(٦) الحافظ أبى طاهر أحمد بن محمد السِّلفى الأصبهانى ، دخل ثغر الإسكندرية سنة ٥١١هـ/١١١٧م وأقام بها ، وقصده الناس من الأماكن البعيدة ولد سنة ٤٧٢هـ/١٠٨٠م بأصبهان ، وتوفى سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م بالإسكندرية . ونسبه سِلَفى إلى جده إبراهيم .وسِلَفَة بكسر السين المهملة وفتح اللام والفاء وفى آخره الهاء ، وهو لفظ أعجمى معناه بالعربى ثلاث شفاه ؛ لأن شفته الواحدة كانت مشقوقة فصارت مثل شفتين غير الأخرى الأصلية . انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٠٥ - ١٠٧ .

وقال ابن أبى طى[١] : ولما نوى السلطان المقام بالإسكندرية ؛ ليصوم فيها ، رأى أنه لا يُخلى نفسه من ثوابٍ يقوم له مقام القَصْد إلى بلاد الكفار والجهاد فى المشركين ، فرأى الأسطول وقد أخْلقت[٢] سُفُنه ، وتغيّرت آلاته ، فأمر بتعمير الأسطول ، وجَمع له من الأخشاب والصُّناع أشياء كثيرة . ولما تم عملُ المراكب أمر بحمل الآلات ، فنقل من السِّلاح والعُدد ما يحتاج الأسطول إليه ، وشحنه بالرِّجال ، وولّى فيه أحد أصحابه ، وأفرد له إقطاعًا مخصوصًا وديوانًا مُفْردًا ، وكتب إلى سائر البلاد المصرية بقبول قول صاحب الأسطول[٣] ، وأن لا يُمنع مِنْ أخذ رجاله وما يحتاج إليه ، وأمر صاحب الأسطول أن لا يبارح البحر ويغزى إلى جزائر البحر[٤] .

قال العماد : وقُلتُ فى معنى تنقلى فى البلاد :

يَومًا بِجَىٍّ[٥] ، ويومًا فى دمشق ، وبالْـ ـفُسْطَاطِ يومًا ، ويومًا بالعـراقَـيْنِ

كأنَّ جِسمِى وقَلْبى الصَّبَّ ما خُلقَا إلا ليُـقْـتَسَـمَـا بالشَّوقِ والبَـيْنِ

وقلت يوم الخروج من القاهرة :

يا باخِـــلاً عندَ الوَداعِ بوقْـــفَـــةٍ لَوْ ســامَنِى رُوحِى بهـــا لم أبْخَلِ

مــا كـــان ضَـرَّكَ لَوْ وقـفتَ لِسـائلٍ تـركَ الفـــؤادَ بِدائِهِ فـى المنزلِ

إنْ أَسرِ مُرْتَحِلاً[ففى][٦] أسْرِ الهوَى قلبى لديك ، مُـقَـيَّـدٌ لم يَرْحَلِ

عَذُبَ العذابُ لدى فُؤادِى[٧] المُبَتَلَى إذ كُنتَ أنت مُـعـذِّبى والـمُبْـتَلِى

---

(١) انظر قول ابن ابى طى فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٩- ٦٩٠ .

(٢) أخلق الشىء وخَلُق أو خَلِق ، أى بَلِىَ . انظر : أحمد بن فارس : مقاييس اللغة ، ج٢ ، ص٢١٤ ، ط . أولى ، القاهرة ١٣٦٦هـ .

(٣) «يقول القول قول صاحب الأسطول» كذا فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩٠ .

(٤) ورد هذا النص بتصرف فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٦ .

(٥) جَىٌّ بالفتح ثم التشديد ، اسم مدينة ناحية أصبهان القديمة ، وسميت عند العجم «شهرستان» . انظر ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٨١ .

(٦) «فى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بن الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩٠ .

(٧) «فؤاد» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩٠ .

قال : ونزلنا بين مُنْية غمر[١] ومُنْية سمنود[٢] ، فقلتُ :

نَزلتُ بأرضِ المُنْيتَيْنِ ومُنْيَتى　　لِقَاؤكمُ الشَّافِى ووصْلُكم المُجْدِى
سأبْلَى ولا تَبْلى سَرِيرةُ وُدِّكم　　وَتؤنسُنِى إنْ مِتُّ فى وحشةِ اللَّحْدِ

قال : وعدنا من الإسكندرية فى شهر رمضان ، فصمنا بقية الشهر فى القاهرة .

قال : ومن مدائحى للسلطان ما أنشدتهُ إياه فى سادس شوال :

فَدَيتُكَ من ظالمٍ مُنْصفٍ　　وناهيكَ من باخِلٍ [مُسْعِفِ][٣]
أيبلغ دَهْرِىَ قَصْدِى وقدْ　　قصدْتُ بمصر ذُرَى[٤] يوسفِ
ويوسفُ مصرَ بغيرِ التُّقَى　　وبَذلِ الصنائِعِ لم يوصَفِ/ [٢٠٧ظ]
فَسِرْ وافْتَح القُدْسَ واسْفِكْ به　　دماءً متى تُجْرِها ينظف
وخلِّص من الكُفْرِ تلك البلادَ　　يخلِّصْك اللهُ فى المَوْقِف[٥]

ذكرُ مجىء الرسل إلى صلاح الدين

وفيها وصلت الرسل إلى السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وهم رسول سيف الدين صاحب الموصل ، ورسول صاحب حصن كيفا[٦] ، ورسُول صاحب ماردين ، فأولاً جاءوا إلى دمشق ، فاستوثقوا بتحليف أخى السلطان صلاح الدين ، وهو شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ، ثم قصدوا مصر ، ووقع رسول صاحب الحصن فى الأسر .

---

(١) منية غمر : من القرى القديمة . وهى الآن ميت غمر ، من أعمال الشرقية . انظر : القاموس الجغرافى ، ج١ ق٢ ، ص٢٦٣ . وحاليًا تتبع الدقهلية .
(٢) منية سمنود : من القرى القديمة . من أعمال الدقهلية . انظر : القاموس الجغرافى ، ج١ ق٢ ، ص١٧٦ .
(٣) « مسرف» فى نسختى المخطوطة أ ، ب ؛ والروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٩١ . والمثبت بين الحاصرتين من الخريدة . قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص١٥ .
(٤) ذرى : بمعنى ظله ونعمته . انظر : الخريدة ،ج١ ، قسم شعراء مصر ، ص١٧ ، حاشية ٢ .
(٥) وردت هذه الأبيات فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩١ .
(٦) حصن كيفا : هو قلعة عظيمة تشرف على نهر دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٧٧ .

وقال ابن أبى طىّ[1] : وصل رسول صاحب الموصل[2] القاضى عماد الدين بن كمال الدين الشهرزورى بهدية وقود ، فخرج الموكب إلى لقائه ، وأكرمه السلطان واحترمه . وقدم بعده رسول نور الدين[محمد بن][3] قرا أرسلان ، ورسول صاحب ماردين[4] بهدايا ، واجتمعوا فى دمشق ، وخرجوا إلى السلطان بمصر ، فاعترضهم الفرنج ، فأسر رسول صاحب الحصن ، ولم يزل فى الأسر حتى فتح السلطان بيت الأحزان[5] ، فأطلقه وأحسن إليه .

ذكر خروج صلاح الدين إلى مرج فاقوس[6] من أعمال مصر

قال العماد[7] : ثم خرج السلطان إلى مرج فاقوس من أعمال مصر الشرقية ؛ لإرهاب العدو وهو يركب للصيد والقنص ، ويتطلع إلى أخبار الفرنج لانتهاز الفرص . واقترح علىَّ أن أمدح عز الدين فرخشاه[8] بقصيدة موسُومة ، ألزم فيها الشين قبل الهاء ، فعملت ذلك قبل[9] ذى الحجة ، «فقلت»[10] :

---

(١) انظر قول ابن أبى طىّ فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩١-٦٩٢ .

(٢) صاحب الموصل هو سيف الدين غازى الثانى بن مودود . حكم بين سنتى ٥٦٤- ٥٧٢ هـ/ ١١٦٨-١١٧٦م . انظر : زامباور : معجم الأنساب ، ج٢ ، ص٣٤١ .

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح من الباهر ، ص١٥٢ ، وقد حكم محمد بن قرا أرسلان بين سنتى ٥٦٢-٥٨١هـ/١١٦٧- ١١٨٥م . انظر : زامباور : معجم الأنساب ، ج٢ ، ص٣٤٤ .

(٤) هو نجم الدين ألبى بن تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق - حكم من سنة ٥٤٨ - ٥٧٥هـ/١١٥٣- ١١٧٩م . انظر : التاريخ الباهر ، ص١٠٦ ، ١٢٣ ؛ زامباور : معجم الأنساب ، ج٢ ، ص٣٤٥ .

(٥) بيت الأحزان : بلد بين دمشق والساحل . وذكر ياقوت أنه سمى بذلك لأنهم زعموا أنه كان مسكن يعقوب عليه السلام أيام فراقه ليوسف عليه السلام . وكان الإفرنج عمروه وبنوا به حصنًا حصينًا . وفى سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م . فتحه صلاح الدين يوسف بن أيوب وأخربه . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٧٥ .

(٦) فاقوس : من المدن القديمة بمحافظة الشرقية فى مصر . انظر القاموس الجغرافى ، ق٢ ج١ ، ص١١٦-١١٧ ؛ معجم البلدان ، ج٣ ، ص٨٤٥-٨٤٦ .

(٧) انظر قول العماد فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩٢ .

(٨) عز الدين فرخشاه ، هو ابن شاهنشاه بن أيوب وهو أخو تقى الدين عمر صاحب حماة ، وفرخشاه صاحب بعلبك هو والد الملك الأمجد بهرام شاه ، وفى الوقت نفسه هو ابن أخ السلطان صلاح الدين ، حكم من سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م . وتوفى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٦٧ ؛ معجم الأنساب ، ج١ ، ص١٥٢-١٥٣ . انظر أيضًا : العماد : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص٥٤ حاشية ٣ .

(٩) «أواخر ذى الحجة» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩٢ .

(١٠) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

مَـولاى عِـزّ الدينِ فـرّخْـشَـه	الدّهر[مَنْ][1] يَرْجُك لا يخشَهْ
تَلقـاه سَـمْحَ الكفّ ، دفّـاقَـهـا	طَلْقَ المـحـيّـا كـرمًـا ، بَشَّـه
إنْ شِـئتَ فـوتًا بالرّدَى فـالْقَـهْ	أو شئتَ[فوزًا][2] بالعُلا فاغْشَه
يُديـم بـالأيـدِى و بـالأيـد[3] فـى	[خـزى لـهـاه والعِـدا بطشَـه][4]
كـم ملـكٍ عـــادَاكُمُ لـم يَبِتْ	إلا جَـعلتُم عــرشَـهُ نَعْـشَـه
خوَّفْتُمُ الشركَ ، فـلا «قَـمْصَـهُ»	أمَّنتُم يومًــا ولا «فُنْشَـــه»
أوْرَثَك السُؤددَ يا ابن [العُـلا][5]	والـدَّكَ السـيـدُ شـاهِنْشَـه

وقال فى الخريدة[6] : [كنّا][7] مخيمين على مرج فاقوس ، مصممين على الغزاة إلى غزة ، وقد وصلت أساطيل ثغرى دمياط والإسكندرية[بسبى][8] الكُفّار ، وقد أوفت على ألف رأس ، عدّة من وصل فى قيد الأسار .

وسنذكر خروجه إلى[9] الغزاة فى السنة الآتية إن شاء الله .

وفى هذه السنة أبطل صلاح الدين[المكس][10] الذى كان يؤخذ من الحج بجدة ، مما يحمل فى البحر ، وعَوَّضَ صاحب مكة عنها فى كل سنة ثمانية آلاف إردب قمحًا ، تُحمل إليه فى البحر ، ويحمل مثلها فتفرق فى أهل الحرمين .

---

(١) «متى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩٢ حيث ينقل عن العماد .
(٢) «نورا» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩٢ .
(٣) الأيدْ : القوة . انظر : القاموس المحيط «أود» .
(٤) «حَربى لهاه والعدى بطشه» فى نسخة أ ، «حربى لهام والعدا بطشه» فى نسخة ب . والمثبت من الروضتين نقلاً عن العماد . انظر : ج١ق٢ ، ص٦٩٢ .
(٥) «العلى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والتصحيح من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩٢ .
(٦) انظر : الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٤٩١ .
(٧) «كما» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الخريدة ، ج١ ، ص٤٩١ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٩١ .
(٨) «تسبى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الخريدة ، ج١ ، ص٤٩١ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٩١ حيث ينقل العينى عنهما .
(٩) «فى» فى نسخة ب .
(١٠) ما بين الحاصرتين إضافة لازمة من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩٣ .

ذكر بقية الحوادث

منها أن صاحب المرآة[١] ذكر أن فى هذه السنة كانت نوبة الكنز، مقدم السودان بالصعيد، جمع كل أسود بالصعيد، وسار إلى [٢٠٨و] القاهرة فى مائة ألف؛ ليعيد الدولة المصرية، فخرج إليه الملك العادل سيف الدين أبو بكر، وأبو الهيجاء[٢] الهكارى، وعز الدين موسك[٣]، والتقوا فقتل الكنز ومن معه، ويقال إنهم قتلوا منهم ثمانين ألفًا وعادوا إلى القاهرة.

ومنها ما ذكره ابن الجوزى[٤] فقال: كتب إلىَّ بعض الوعاظ أن امرأة تقول: كان رجل إذا رآنى فى الطريق مشى إلى جانبى ويتعرض لى[٥]، فقلت له: أنا لا أوافق إلا على الحلال، فتزوج بى عند الحاكم، وقضيت معه مديدة يأتينى كما يأتى الرجل المرأة، ثم عظمت بطنه، وقال لى: قد حبلت فاعملى لى دواء الإسقاط، فعملتُ له فولد، وقد حضرت المجلس أنا وهو فما حُكمنا؟ فقال الواعظ: هذا النكاح ما صح؛ لأنه بالولادة انكشف أنه امرأة، وتعجب الناس من حال هذا الخنثى الذى كان يأتى ويؤتَى.

ومنها ما ذكره أيضًا وقال: حدثنى طلحة بن مظفر العَلَثِى[٦] الفقيه أنه وُلد عندهم بالعَلَثِ[٧] فى رمضان مولود لستة أشهر، فخرجت له أربعة أضراس[٨].

قال: ووصل الخبر فى ذى القعدة بأن بلادًا كثيرة تزلزلت، وخسفت ببعضها، وذكر فيها الرَّى[٩] وقزوين[١٠].

---

(١) ذكر سبط ابن الجوزى فى مرآة الزمان، ج٨، ص٢١٤. نوبة الكنز فى أحداث سنة ٥٧٢هـ. وهو خطأ حيث أن هذه الحادثة سبق ذكرها فى جميع المصادر فى سنة ٥٧٠ هـ. وقد سبق لنا تحقيقها فى تلك السنة. انظر تفاصيل حادث الكنز فى الروضتين، ج١ ق٢، ص٦٠٠-٦٠٢، وانظر ما سبق من تحقيقنا ص١٩٤ وما بعدها.

(٢) أبو الهيجاء السمين، حسام الدين، كردى الأصل، وكان مقدمًا للأمراء. انظر: زبدة الحلب، ج٣، ص١٣٤.

(٣) عز الدين موسك: قريب السلطان صلاح الدين. وكان خيرًا يحفظ القرآن الكريم ويواظب على تلاوته. ويحب أهل العلم والصلاح. مات بدمشق سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٨م. الخطط، ج٢، ص١٤٧.

(٤) انظر: المنتظم، ج١٨، ص٢٣١-٢٣٢.

(٥) «بى» كذا فى نسخة ب.

(٦) هو أبو محمد طلحة بن مظفر بن غانم الفقيه العلثى توفى سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م. انظر: معجم البلدان، ج٣، ص٧١١.

(٧) العلث: قرية على دجلة بين عكبرا وسامراء. معجم البلدان، ج٣، ص٧١١.

(٨) انظر: المنتظم، ج١٨، ص٢٣٠.

(٩) الرَّىُّ: مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات. وهى محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال. انظر: معجم البلدان، ج٢، ص٨٩٢.

(١٠) انظر: المنتظم، ج١٨، ص٢٣٠. وقزوين مدينة مشهورة بينها وبين الرى سبعة وعشرون فرسخًا. انظر: معجم البلدان، ج٤، ص٨٨.

ومنها ما ذكره أيضًا أن فى يوم الخميس حادى عشر صفر دخل رجل إلى جامع المنصور[١] ببغداد ليأكل خبزًا ، فمات فى مكانه ، ومات آخر فى باب البصرة ، وامرأة فى تلك الساعة ، ودخل رجل من السَّواد إلى مسجد العتابيين[٢] ، وترك جماعة على الباب ، فمات الرجل .

ومنها ما ذكره وقال : وفى ربيع الآخر أخرج المجذمون[٣] من بغداد ، ونفوا إلى تحت البلد .

ومنها ما ذكره فى المرآة[٤] : أنه خرج الفرنج إلى بقاع بعلبك ، وكان شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم بها ، فخرج وكمن لهم فى الشعارى والغياض ، وأوقع بهم ، وقتل وأسر نحو مائتى رجل .

ومنها أن الروم قصدت بلاد قليج أرسلان بن مسعود فى جمع من الحشود ، فالتقاهم وكسرهم ، وقتل منهم جماعة ، وأسر أسرى كثيرين ، وبعث برؤوس القتلى وببعض الأسرى إلى الإمام المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين ، وقال فى ذلك ابن التعاويذى[٥] الشاعر من قصيدة يمدح بها الخليفة ، ويذكر بلاء قليج أرسلان وإيقاعه الروم فى يوم الجمعة ، مطلعها :

خَجِلَتْ من عطائك الأنواءُ ... وتَجَلّتْ بوجْهكَ الظلْماءُ

ولقد سَرَّ آنفًا خَبرٌ ... جاءَتْ على رقبةٍ به الأنباءُ

فهو فى الرومِ والكنائِس رُزءٌ ... وهو فى الشامِ والعراقِ هناءُ

---

(١) جامع المنصور ببغداد : بناه الخليفة العباسى المنصور بالله أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس ـ ثانى الخلفاء العباسيين . انظر تفاصيل هذا الجامع فى البغدادى : تاريخ بغداد ، ج١ ، ص١٠٧ـ١٠٨ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج١ ، ص٦٨٣ .

(٢) «العباس» فى نسخة ب ، والمثبت من أ ، ومن المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٢٧ .

(٣) المخنثون» فى نسخة ب .

(٤) لم يرد هذا النص فى مرآة الزمان حوادث سنة ٥٧٢هـ و إنما ذكره ابن الأثير بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص٨١ـ٨٢ .

(٥) هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله الكاتب المعروف بابن التعاويذى ـ كان شاعر وقته . توفى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م . والتعاويذى نسبة إلى كتبة التعاويذ وهى الحروز . وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٤٦٦ـ ٤٧٣ ؛ الشذرات ، ج٤ ، ص٢٨١ـ ٢٨٢ .

وقْعةٌ بالثغورِ أضحَى لكلبِ الرومِ فيها من الزئيرِ عواءُ
فرماهُ على اللُّقانِ ابن مسعود بنحْسٍ غداة جدٌّ اللقاءُ
زَفّت النصرَ حينَ أوفتْ على أعْوادِها فى بلادِكَ الخُطباءُ

ومنها أنه عصى شهاب الدين محمد بن نزار[1] صاحب شهرزور على سيف الدين غازى ، وكان فى طاعته وتحت حكمه ، وكان سبب ذلك أن مجاهد الدين قايماز كان متوليًا[2] مدينة إربِل ، وكان بينه وبين ابن نزار عداوة ، فأرسل إليه وزير سيف الدين كتابًا [٢٠٨ظ]حسنًا ؛ يأمره بالعود إلى الطاعة ، والرجوع عن المخالفة والمعصية . فلما وصل الكتابُ إليه بادر إلى الحضور للخدمة السيفية بالموصل ، فأوجب ما جرى من ابن نزار[3] .

ومنها أن ابن ملكشاه بن محمود الذى كان بخوزستان[4] عند ابن شملة وصل إلى البندنيجين[5] فخربها ونهبها وسبى حريمها . ووصل عسكر الحلة من بغداد وواسط صحبة طاشتكين أمير الحاج[6] وقزاغلى ، وساروا نحوه ، فلما سمع بوصولهم فارق مكانه ، وعاد ومعه من التركمان خلق كثير ، فنهبهم عسكر بغداد ، ورجعوا من غير أمرٍ لهم بالعَود ، فأنكر عليهم ذلك ، فرجعوا إلى مواقعهم ، ووقعت بينهم وبين ابن أرسلان «شاه»[7] وقعة ثم افترقوا . ففارق المذكور ولاية العراق ، وعاد عسكر بغداد إليها[8] .
وفيها ....[9]

وفيها حج بالناس الأمير طاشتكين ، وحج من الشام قايماز النجمى .

---

(١) «بوزان» كذا فى الباهر ، ص١٧٨ ؛ «يزان» فى الكامل ، ج١٠ ص٨٢ .
(٢) «متولى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب .
(٣) انظر هذه الأحداث فى ، الكامل ، ج١٠ ، ص٨٢ .
(٤) خوزستان ، إحدى بلاد الفرس ، ويقال لها الخوز وتعنى بلاد الخوزستان ، وأرضها أشبه شىء بأرض العراق وهى قريبة من البصرة . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٩٤- ٤٩٧ .
(٥) هى بلدة مشهورة من طرف النهروان من ناحية الجبل من أعمال بغداد . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٧٤٥ .
(٦) طاشتكين أمير الحاج العراقى ويلقب بمجير الدين ؛ حج بالناس ستًا وعشرين سنة ، وتوفى سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥هـ بالعراق . انظر : شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٨ .
(٧) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٨) ورد هذا الحدث بتصرف فى ، الكامل ، ج١٠ ، ص٨٣- ٨٤ .
(٩) بياض فى نسختى المخطوطة أ ، ب بمقدار سطر .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

على بن العساكر بن المرحب بن العوام أبو الحسن البطائحى[١] المقرىء اللغوى ؛ سمع الحديث وأسمعه ، وكان حسن المعرفة بالنحو واللغة ، ووقف كتبه بمسجد ابن جَردة[٢] ببغداد ، وتوفى فى شعبان من هذه السنة ، وقد نيف على الثمانين[٣] .

محمد بن سعيد بن محمد أبو سعد بن الرزاز ؛ كان من المعدلين ، وسمع الحديث من ابن برهان[٤] وغيره ، وكان ينظر فى التركات ، ويقول شعرًا مطبوعًا ، كتب إليه بعض الناس مكاتبة تتضمن شعرًا ، فكتب فى جوابها :

يا مَنْ أياديه تُعْيى[٥] مَنْ يُعدِّدُها　　　وليس يُحْصِى مدَاها مَنْ لها يَصِفُ
عجزتُ عن شُكْرِ ما أَوْلَيْتَ من كرمٍ　　　وصِرتُ عبدًا ولِى فى ذلكَ الشَّرفُ
أهديتَ مَنظُومَ شعرٍ كلُّهُ دُرَرٌ　　　فكُلُّ ناظم عِقْدٍ دُونَه يقفُ
إذا أتَيْتَ [بِبَيْت][٦] مِنْهُ كان لنا　　　قصرًا ودُرُّ المعالى فوقَهُ شَرفُ
وإنْ أتيتُ أنا بيتًا يناقِضُهُ　　　أتيتُ لكِنْ ببيتٍ سَقفُهُ يَكِفُ
ما كنتُ[٧] منهُ ولا مِنْ أهْلِهِ أبدًا　　　وإنَّما حينَ أدْنو مِنهُ أقتطِفُ

مسلم بن ثابت بن زيد بن القاسم بن أحمد أبو عبد الله بن جوالق[٨] ؛ الفقيه ، سمع الحديث ، وتفقه على أبى بكر الدِّينَورى ، وناظر ، وعلت سِنُّه ، وتوفى فى ذى القعدة منها ، ودفن بمقبرة أحمد ، رحمه الله[٩] .

---

(١) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٣٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٦-٣١٧ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص٢٤٢ .
(٢) «جودة» فى نسخة ب ، «ابن جرارة» فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٦-٣١٧ .
(٣) المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٣٣ .
(٤) «برهان» فى نسخة ب .
(٥) «يعيا» فى ابن الجوزى ، المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٣٣ .
(٦) «بيتًا» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت هو الصحيح من المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٣٣ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص٨٠ .
(٧) «لا كنت» فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٣٣ .
(٨) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٣٤ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٤٣-٢٤٤ .
(٩) يقصد بها تربة الإمام أحمد بن حنبل ، وهى توجد بقطيعة أم جعفر فى مقبرة باب حرب خارج مدينة بغداد ، انظر البغدادى : تاريخ بغداد ، ج١ ، ص١٢١ ؛ معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٨٧ ، انظر ترجمة أحمد بن حنبل فى المنتظم ، ج١١ ، ص٢٨٦-٢٨٩ .

مختار الخادم[١] ؛ كان من خواص الخليفة ، وكان يتدين ، وعلت سِنُّهُ ، توفى فى آخر شعبان منها ، ودفن فى الترب بالرصافة[٢] .

على بن منصور أبو الحسن السروجى ؛ الأديب مؤدب أولاد الأتابك زنكى[٣] ، مات فى هذه السنة ، ومن شعره يذكر فصل الربيع ، وفضل دمشق ، ويمدح نور الدين محمود ابن زنكى بقصيدة مطلعها[٤] :

فصلُ الربيع زمانٌ نَوْرُهُ نُورُ ... وَنشرُ[٥] أزهارِه مِسْكٌ وكافُورُ

[٢٠٩و] تظلُّ تشْدو به الأطيارُ من طربٍ ... فذا هزارٌ وقُمرىٌّ وشَحْرورُ[٦]/

كأن أصواتَها فوق الغصون ضُحًى ... زيرٌ[٧] ويَمٌّ ومِزمَارٌ وطنْبورُ

يا لائمى فى دمشق إنَّ لَوْمَكَ لى ... لؤمٌ وتشبيهُكِ الزَّورَا بها زورُ[٨]

تكامل الحُسْنُ فيها مثلما كَمَلَتْ ... أوصافُ مولى بنشرِ العدْلِ مشْهورُ

مولاىَ يا خيرَ من يُدْعى لمَكْرُمةٍ ... وخيرَ من زانَه عقلٌ وتوقيرُ

عِشْ وابقَ واسْلَمْ ومُرْ واحكُم ودُم أبدًا ... ما سحَّ[٩] غيثٌ وما هَبّتْ أعَاصِيرُ

محمد[١٠] بن مسعود أبو المعالى بن القَسَّام الأصفهانى ؛ توفى فى هذه السنة ، وكان أديبًا ، ومن شعره يذم قاضيًا :

وَلمَّا أَنْ توليتَ القَضايا ... وفاضَ الجَوْرُ من كَفَّيْكَ فَيْضَا

ذبحتَ بغيرِ سكينٍ وإنِّى ... لأرجو الذبحَ بالسِّكينِ أيضَا

---

(١) انظر ترجمته فى ، المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٣٤ .

(٢) بناها الخليفة المنصور العباسى سنة ١٥١هـ/٧٦٨هـ وعمل لها سورًا وخندقًا وميدانًا وبستانًا وأجرى لها الماء ، وهى توجد فى الجانب الشرقى من بغداد وبها مقابر خلفاء بنى العباس . انظر : تاريخ بغداد ، ج١ ، ص٨٢ ؛ معجم البلدان ، ج٢ ، ص٧٨٣-٧٨٤ .

(٣) هو عماد الدين زنكى والد نور الدين محمود .

(٤) انظر هذه الأبيات فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢١٥ .

(٥) «وأنفاس» فى المرآة ، ج٨ ، ص٢١٥ .

(٦) «وزرزور» فى المرآة ، ج٨ ، ص٢١٥ .

(٧) «بنب» فى المرآة ، ج٨ ، ص٢١٥ .

(٨) «زور ويشهد لزورانه زور» فى المرآة ، ج٨ ، ص٢١٥ .

(٩) سَحَّ : سال من فوق إلى أسفل . والسح هو الصب الكثير . انظر : المصباح المنير ، ج١ ، ص٣١٧ .

(١٠) «محمود» فى نسخة ب .

وفى المرآة : خرج إلى الحج ، وتوفى بفَنْد[١] .

القاضى الشريف أبو محمد عبد الله العثمانى الديباجى ؛ من ولد الديباج محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضي الله عنه ويعرف بابن أبى إلياس[٢] ، من بيت القضاء والعلم ، وكان واسع الباع فى علم الأحاديث ، كثير الرواية ، قيمًا بالأدب ، متصرفًا فى النظم والنثر ، إلا أنه مقل من النظم أوحد عصره فى علم الشروط ، قوله المقبول على كل العدول ، مات فى هذه السنة بالإسكندرية .

شمس الدين ابن الوزير أبى المضاء[٣] خطيب الديار المصرية ، وابن وزيرها ؛ كان أول من خطب بديار مصر للخليفة المستضىء بأمر الله العباسى ، بأمر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم حظى عنده حتى كان قد جعله سفيرًا بينه وبين الملوك والخلفاء ، وكان رئيسًا مطاعًا كريمًا ممدحًا ، توفى فى هذه السنة ، وجعل مكانه فى السفارة وأداء الرسائِل ضياء الدين ابن قاضى القضاة الشهرزورى بمرسوم سلطانى ، وكانت وظيفة مقررة[٤] .

وقال العماد الكاتب[٥] : وفى ليلة الجمعة الثانى عشر من صفر ونحن فى طريق الوصول إلى دمشق توفى شمس الدين ابن الوزير بدمشق .

قاضى القضاة الشهرزورى ، أبو الفضل محمد بن أبى محمد عبد الله بن أبى أحمد القاسم الشهرزورى ؛ الملقب كمال الدين ، الفقيه الشافعى ، قاضى القضاة بدمشق ، وكان فاضلاً دينًا أمينًا ثقة ورعًا ، ولى القضاء بدمشق لنور الدين محمود بن زنكى . واستوزره أيضًا فيما حكاه ابن الساعى قال : وكان يبعثه فى الرسائل ، كتب مرة على أعلى القصة «إلى الخليفة المقتفى»[٦] محمد بن عبد الله الرسول ، فكتب الخليفة تحت ذلك صلى الله عليه وسلم .

---

(١) «بقند» فى المرآة ج٨ ، ص٢١٥ . ولعل ماأثبتناه هو الصواب من ابن عبد الحق البغدادى : مراصد الإطلاع ، ج٣ ، ص١٠٤٤ حيث أن فَنْد : بالفتح ثم السكون وآخره دال ؛ جبل بين مكة والمدينة قرب البحر .

(٢) «ابن أبى اليابس» فى شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٤١-٢٤٢ . والمثبت من الأصل وكما فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩٥ .

(٣) اتفقت نسختى المخطوطة أ ، ب مع الروضتين فى أن اسمه «أبو المضاء» . أما البداية والنهاية فقد ورد الاسم «أبو الضياء» . انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٩٢-٤٩٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٧ .

(٤) إلى هنا انتهى العينى من النقل من ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٧ .

(٥) انظر قول العماد فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٧١-٦٧٢ .

(٦) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

وقال ابن كثير[١] : وقد فوض إليه نور الدين نظر الجامع ودار الضرب ، وعَمَّر له المارستان والمدارس وغير ذلك من الأمور المهمة . وقال ابن خلكان[٢] : وكانت ولادته سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة بالموصل ، وتوفى يوم الخميس سادس المحرم من سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة بدمشق ، ودفن من الغد بجبل قاسيون . وقال : ولما ملك صلاح الدين الشام أَقَرَّه على ما كان عليه فى أيام نور الدين .

وكان شهما جسورًا كثير الصدقة والمعروف ، وقف أوقافًا كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق ، وبنى بالموصل مدرسة للشافعية ، ورباطًا بمدينة الرسول (ﷺ) . وتولى القضاء بالموصل أيضًا ، وله نظم جيد ، فمن ذلك قوله :

[٢٠٩ظ] ولقَدْ أَتَيْتُكَ والنجومُ رَوَاصِدٌ والفجرُ وَهْمٌ فى ضميرِ المشرقِ/

وركبتُ [م الأهوال][٣] كُلَّ عظيمةٍ شوقًا إليك لعلّنا أنْ نلتقِى[٤] .

وفى المرآة[٥] : قدم بغداد وتفقه على أسعد الميهنى[٦] بالنظامية[٧] ، وسمع الحديث ببغداد والموصل ، وكان رئيس أهل بيته ، وولى قضاءَ القضاة بدمشق وحمص وحماة وحلب وجميع الشام فى أيام نور الدين ، وكان إليه أمر المدارس والمساجد والأوقاف والحسبة والأمور الدينية والشرعية ، وكان صاحب القلم والسيف . وكانت شحنكية دمشق إليه ، ولىَّ فيها بعض غلمانه ، ثم ولاها نور الدين لصلاح الدين ، وكانت بينهما

---

(١) نقل العينى هذا النص من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٧ .

(٢) وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٢٤١ـ ٢٤٥ . ترجمة رقم ٥٩٨ .

(٣) «من أهوال» فى نسختى المخطوطة أ ، ب .والمثبت بين الحاصرتين من وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص٢٤٣ حيث ينقل العينى عنه .

(٤) إلى هنا توقف العينى عن النقل من وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص٢٤٣ .

(٥) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢١٥ـ ص٢١٦ .

(٦) أسعد الميهنى : هو أبو الفتح أسعد بن أبى نصر بن أبى الفضل الميهنى ، الفقيه الشافعى الملقب محى الدين ، توفى سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م ، وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص٢٠٧ـ ٢٠٨ .

(٧) المدرسة النظامية ببغداد : بناها الوزير نظام الملك أبو على الحسن بن على بن إسحاق بن العباس ، وزير السلطان ملكشاه السلجوقى ، وهو أول من أنشأ المدارس فاقتدى به الناس ، وقد شرع فى عمارة هذه المدرسة ببغداد سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٥م . وفرغت عمارتها فى سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٧م . انظر : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٩ ، ص٥٥ ؛ وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ص ١٢٨ـ ١٢٩ .

مضاغنة وكل واحد منهما ينقض حكم الآخر ، فلما كتب إليه صلاح الدين بأن[1] يساعده على أخذ دمشق أعانه وفتح له أبوابها . فلما دخلها صلاح الدين مشى إلى دار كمال الدين وطيب قلبه ، وجاء إلى الشيخ أحمد والد الشيخ أبى عمر شيخ الحنابلة - وأحمد أول من سكن منهم قاسيون - فزاره ومعه ألف دينار ، فدفعها للشيخ أحمد فامتنع من أخذها . فاشترى كمال الدين قرية الهامة بوادى بَرَدَىَ[2] ، ووقف نصفها على الشيخ أحمد والمقادسة ، والنصف الآخر على الأسارى ، وهى باقية إلى هلم جرا .

ولما مرض كمال الدين وهو بدمشق بلغ ابن أبى عصرون وهو بحلب ، فقدم دمشق ودخل على القاضى كمال الدين وعانقه وبكيا ، فلما توفى كمال الدين تولى ابن أبى عصرون أمره ، وخرج فى جنازته ماشيا هو وجميع الملوك مشاة ؛ سيف الإسلام وتقى الدين عمر وشمس الدولة وغيرهم . وصلى عليه بجامع دمشق ، وحمل إلى قاسيون ، فدفن بسفحه قريبا من الجادة عند مسجد البصار[3] . ولم يكن عنده من أولاده أحد وإنما كان عنده ابن أخيه ضياء الدين أبو الفضائِل[4] ، وكان كمال الدين قد تصدق بجميع ما كان عنده وأوصى بماله ، ووقف أوقافًا كثيرة على أبواب البر ، وقيل إنه لم يكن له كفن فكفن فى إحرامه . وأوصى بالقضاء إلى ابن أخيه ضِياء الدين مع وجود ولده ، وكان لكمال الدين ولد اسمه محمد[5] بن محمد بن عبد الله ولقبه محى الدين ، وكان[أبو][6] ضياء الدين قاضيا على حلب ، وهو تاج الدين الشهرزورى .

وفى تاريخ الدولتين[7] : ولما مات كمال الدين كان عمره ثمانين سنة .

---

(١) «أن» فى المرآة ، جـ ٨ ، ص٢١٦ .

(٢) بَرَدَى : أعظم نُهر دمشق ، مخرجة من قرية قَنَوَا من كورة الزبدانى ، ويمر بمدينة دمشق فى ظاهرها فيشق ما بينها وبين العقيبة حتى يصب فى بحيرة المرج فى شرقى دمشق . انظر : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٥٥٦ - ٥٥٧ .

(٣) «البصار» فى نسختى المخطوطة أ ، ب ، ولعله مسجد البيطار إذ ذكر ابن عساكر : أن مسجد البيطار من مساجد دمشق بناه ابن البيطار ، ولم تذكر المصادر التى وقعت بين أيدينا اسم مسجد «البصار» . انظر ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، مجلد٢ ق١ ، ص٥٦ .

(٤) هو ضياء الدين أبو الفضائل القاسم ابن القاضى تاج الدين أبى طاهر يحيى بن عبد الله . توفى سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٣م . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٥) هو القاضى أبو حامد محمد بن القاضى كمال الدين بن الشهرزورى . توفى سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ٢٤٦ - ٢٤٨ .

(٦) «أبوه» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٢٤٥ . والمقصود هنا ضياء الدين أبو الطاهر يحى أخو كمال الدين الشهرزورى ، توفى بالموصل سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م .

(٧) الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٦٧١ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثالثة والسبعين بعد الخمسمائة★

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضىء بأمر الله العباسى ، والسلطان صلاح الدين مخيم بمرج فاقوس ، ثم عاد إلى القاهرة وأقام بها ، ثم قصد أن يسير إلى غزة وعسقلان .

ذكر غزو صلاح الدين عسقلان والرملة

وفى[1] جمادى الأول ، سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى ساحل الشام لغزو الإفرنج ، فوصل إلى عسقلان والرملة فى الرابع والعشرين من الشهر ، فنهب ، وتفرق عسكره فى [الأعمال][2] ، وبقى السلطان فى بعض العسكر فلم يشعر إلا بالفرنج قد طلعت عليهم ، فقاتلهم .

وكان لتقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ولد اسمه أحمد ، حسن الصورة ، كما بدت لحيته ، فأمره أبوه تقى الدين بالحملة على الفرنج ، فحمل عليهم وقاتلهم ، وأثَّر فيهم أثرًا كثيرًا ، فعاد سالمًا ، فأمره أبوه بالعود إليهم ثانية ، فحمل عليهم ، فقُتل شهيدا .

وتمت الهزيمة على المسلمين ، وقاربت حملات الفرنج [٢١٠و] للسلطان ، فمضى منهزما إلى مصر على البرية ، ومعه من سلِم ، فلقوا فى طريقهم مشقة وعطشًا شديدًا ، وهلك كثير من الدواب . وأخذت الفرنج العسكر الذين كانوا تفرقوا للإغارة أسرى ، وأُسر للملك المظفر تقى الدين عمر ولده شاهنشاه ، فبقى عندهم سبع سنين ، وقُتل ابنه الآخر ـ كما ذكرنا ـ فحزن على المقتول والمفقود ، وصبر تأسيًا بأيوب ، وناح كما ناح داود . وكذلك أسر الفقيهان الأخوان ضياء الدين عيسى[3] ، وظهير الدين ، وكانا من أكبر

★ يوافق أولها ٣٠ يونيو ١١٧٧م .

(١) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٨٥ـ ٨٦ ؛ الروضتين ، جـ ١ق٢ ، ص٦٩١ـ ٧٠٠ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣١٧ـ ٣١٨ .

(٢) «الإغارة» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الكامل ، جـ ١٠ ، ص٨٥ ؛ الروضتين ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٧٠٠ .

(٣) ضياء الدين عيسى الهكارى : هو أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد . . . أحد أمراء الدولة الصلاحية ، كبير القدر وافر الحرمة ، يؤخذ برأيه فى الأمور الهامة ، توفى سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م بمنزلة الخروبة . انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص٤٩٧ـ ٤٩٨ .

أصحاب السلطان صلاح الدين ، فافتداهما السلطان بعد سنتين بسبعين[1] ألف دينار ، ووصل السلطان إلى القاهرة فى نصف جمادى الآخرة .

وفى المرآة[2] : خرج صلاح الدين فى جمادى الآخرة من مصر بالعساكر ، ونزل على عسقلان ثم رحل[3] يريد تل الصافية[4] ، فازدحمت العساكر على الجسر تريد العبور ، فلم يشعروا إلا وقد خالطهم الفرنج ، فثبت تقى الدين عمر وقاتل ثم غُلب ، وقُتل من المسلمين خلق كثير ، وانهزمت عساكر الإسلام وأسر كثير ، منهم الفقيه عيسى وغيره . لولا أن [الليل][5] حجز بينهم لم يبق من المسلمين أحد . وسار صلاح الدين فى الليل إلى مصر من غير دليل ولا ماء ولا زاد .

وكانت هذه الوقعة من أعظم الوقائع ، ونكب صلاح الدين نكبة شديدة ، وكاد يتلف جوعًا وعطشًا ، ونهبت خزائنه وقتل رجاله وأسر أبطاله[6] . وكان مقدم الفرنج أرناط[7] ، وكان من أكبر ملوك الإفرنج . وما أتلف عسكر المسلمين إلا أنهم [كانوا][8] تفرقوا فى الغارات ، وكانوا زيادة على عشرين ألفًا ، ووقعت الكسرة ومعظمهم لم يعلم ، فلما رجعوا من الغارات لم يجدوا صلاح الدين ، ولم يكن لهم حصن يأوون إليه ، فدخلوا الرمل وتبعهم الفرنج قتلاً وأسرًا ، ومن سلِم منهم مات جوعًا وعطشًا ، وكان يومًا عظيما على الإسلام لم يجبره إلا وقعة حطين ، ورجع أرناط بجمعه إلى حماة ـ كما نذكره ـ إن شاء الله الآن .

وقال ابن الأثير[9] : كتب صلاح الدين بخط يده إلى أخيه توران شاه نائبه بدمشق ؛ يذكر له الوقعة وفى أوله :

---

(١) «ستين» فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٨٥ـ ٨٦ ؛ وفى الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٧٠١ «بستين أو سبعين» ؛ وفى البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣١٨ ، «بتسعين» .
(٢) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢١٧ .
(٣) «نزل» فى نسخة ب .
(٤) تل الصافية : حصن من أعمال فلسطين قرب بيت جبرين من نواحى الرملة . انظر : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص٨٦٧ .
(٥) «الملك» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من نسخة ب ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢١٧ .
(٦) ورد هذا النص بتصرف فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢١٧ .
(٧) أرناط : هو البرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك ، أسر فى وقعة حطين عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، ثم قتله صلاح الدين بيده . انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٧ ، ص١٩٣ .
(٨) ما بين الحاصرتين ساقط من نسخة أ ، والمثبت من ب .
(٩) انظر : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٨٦ .

ذَكَـرْتُكَ والخَطِّىُّ يخطِرُ بَينَنا وقد نَهَلتْ مِنّا المُثَقَّفَةُ السُّمْرُ

ويقول فيه : لقد أشرفنا على الهلاك غير مرّة ، وما [أنجانا الله][1] سبحانه و«تعالى»[3] منه إلا لأمر «يريده»[2] سبحانه و«تعالى»[3] .

ذكرُ[4] حَصر الفرنج حماة

وذلك أنه وصل من الفرنج كند[5] كبير فى البحر ، فرأى صلاح الدين وقد عاد منهزمًا إلى مصر ، فاغتنم خلو البلاد ؛ وليس بها إلا شمس [الدولة][6] توران شاه بن أيوب ، نائبًا عن أخيه ، وليس عنده كثير من العسكر ، فجمع الكند مَنْ بالشام من الفرنج ، وفرق فيهم الأموال ، وسار إلى مدينة حماة وبها شهاب الدين محمود بن تكش الحارمى ، خال صلاح الدين ، وهو يومئذ بمرض شديد ، وكانت طائفة من العسكر الصلاحى بالقرب منها فدخلوا إليها وأغاثوا مَنْ بها ، وقاتلوا الفرنج قتالاً شديدًا ، ودخل الفرنج البلد ، فاجتمع العسكر وأهل البلد وقاتلوهم حتى أزاحوهم منها ، وأخرجوهم إلى ظاهرها . فساروا إلى حارم ، واتفقت وفاة شهاب الدين الحارمى على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

قال العماد[7] : ومن شرط هدنة الفرنج أنه متى جاء ملك من ملوكهم [أو][8] كبير «لا»[9] يمكنهم دفعه ، فإنهم يقاتلون معه ، ويؤازرونه ، وينصرونه ، فإذا انصرف عنهم

---

(١) «وما نجانا إلا الله» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الكامل ، حيث ينقل عنه العينى ، جـ ١٠ ، ص٨٦ .

(٢) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٣)(٣) ما بين الأقواس زيادة على نص ابن الأثير .

(٤) ما زال العينى ينقل تلك الأحداث عن الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٨٦ - ٨٧ ؛ أيضا انظر هذا النص بالتفصيل فى الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص ٧٠٦ .

(٥) كُند كبير أو الكونت تعريب اللفظ اللاتينى Comes وبالفرنسية Comte وبالإنجليزية Count ، انظر : السلوك ، جـ١ ق٣ ، ص ٩٦٦ ، حاشية ٢ ؛ مفرج الكروب ، جـ٤ ، ص ٩٨ ، حاشية ٣ . كما أن المقصود بالكند الكبير هنا Philip of Flanders ، وقد قدم مع امبراطور بيزنطة وأصحاب الإمارات اللاتينية فى مهاجمة مصر . انظر أيضا : الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٧٠١ ، حاشية ٢ . «وقمس» بضم القاف وتشديد الميم ، انظر الجواليقى ، المعرب ، ص٣٠٦ .

(٦) «الدين» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٨٦ . وهو الصحيح .

(٧) انظر الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص ٧٠٦ ؛ وانظر أيضا : البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ٣١٨ .

(٨) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٧٠٦ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٢٩٧ . وذلك لاستقامة النص .

(٩) ما بين الأقواس ساقط من ب .

عادت الهدنة كما كانت . [٢١٠ظ] فقصد هذا الملك وجملة الفرنج معه مدينة حماة ، وصاحبها شهاب الدين مريض ، ونائب دمشق ومن معه من الأمراء مشغولون بلذاتهم[١] ، فكادوا يأخذون البلد ، ولكن هزمهم الله تعالى بعد أربعة أيام ، فانصرفوا إلى حارم ، فلم يتمكنوا من أخذه ، وكشفهم عنه الملك الصالح صاحب حلب ، وقد دفع إليهم من الأموال والأسارى ما طلبه الكفرة النصارى . وقال العماد[٢] أيضًا : ووصل فى هذه السنة إلى الساحل من البحر كند كبير ، يقال له أقلندس[٣] . أكبر طواغيت الكفر . قلتُ : هذا هو الذى ذكرناه الآن ، الذى جرى منه ما جرى .

ذكرُ توجه صلاح الدين إلى الشام

لما سمع السلطان بنزول الفرنج على حارم برز من الديار المصرية قاصدًا إلى بلاد الشام ؛ لغزو الفرنج ونزل فى البركة[٤] حتى خرجت العساكر ، ورحل من البركة يوم عيد الفطر بعساكره ، ووصل إلى أيلة فى عاشر الشهر ، واستناب بمصر أخاه الملك العادل ، وأقام بها أيضا القاضى الفاضل بنيَّة الحج ، وسافر العماد معه .

ووصل السلطان إلى دمشق فى الرابع والعشرين من شوال[٥] ، وبها أخوه شمس الدولة مشغولاً بلذاته ولهوه ، وكان قد بعث إلى الفرنج بمال مُصَانَعة ، فعز على صلاح الدين ولامه وقبح فعله ، وقال : أنت مشغول باللعب وتُضيع أموال المسلمين ، وأقام صلاح الدين فى دمشق .

---

(١) «بذاتهم» فى الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٧٠٦ ؛ كذلك ورد فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٨٦ «الانهماك فى اللذات» .

(٢) انظر ، الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٧٠٦ ، حيث ينقل عن العماد .

(٣) هو Philip of Flanders وكان قد قدم للتعاون مع Manuel Comnenus امبراطور بيزنطة ، وأصحاب الإمارات اللاتينية ، فى مهاجمة مصر . وفشل هذا الهجوم كفكرة بسبب النزاع حول الوصاية على ملك القدس الطفل Baldwin V ، فتحولت الحملة بعد انصراف البيزنطيين عنها إلى هجوم محلى على حماة ، ثم على حارم . انظر : الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٧٠٦ حاشية ٢ ؛ راجع أيضًا The Crusaders In The East,pp. 214-216.

(٤) المقصود بالبركة هنا : بركة الحجاج وتقع فى الجهة البحرية من القاهرة وقد عرفت أولاً «بجب عميرة» ثم قيل لها «أرض الجب» ثم عرفت إلى زمن المقريزى «ببركة الحاج» من أجل نزول حجاج البر بها عند مسيرهم من القاهرة . انظر : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٦٣ .

(٥) أورد أبو شامة هذه الرواية بتصرف فى الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٧٠٧ - ٧٠٨ .

قال العماد[١] : وخرج السلطان صلاح الدين للصيد فى ذى الحجة نحو قارا[٢] ، فشكوتُ ضرسى ، فرجعت مع عز الدين فرخشاه لحُمَّى عرتْهُ ، فشكا منها ، أن لا تزور إلا نهارًا جهارًا ، ولا تفارق بعرق ، بالضد من الحُمَّى التى وصفها أبو الطيب المتنبى . فنظمت فيه كلمة طويلة أولّها :

يَمينُك دأبُها بَذلُ اليسَار ... وَكفُّكَ صوبُها بِدَر النُّضارِ
وإنَّك من ملوكِ الأرْض طُرًّا ... بمنزلِة اليمين مِنَ اليسارِ
وأنتَ البحرُ فى بَثِّ العطَايَا ... وأنتَ الطَّودُ فى بادى الوقارِ

ومنها فى وصف الحُمى :

وزائرةٌ وليسَ [بها][٣] حياءٌ ... فليْسَ تزورُ إلا فى النَّهَار
أَتتْ والقلبُ فى وَهَجٍ[٤] اشْتِياقٍ ... ليظهَرَ ما أُوَارِى مِنْ أُوارِى[٥]

إلى أن قال :

أَيَا شَمسُ الملوكِ ، بقيتَ شمسًا ... تنيرُ على الممالكِ والدّيارِ

ذكر قبض الملك الصالح صاحب حلب على كُمُشْتِكين مدبر دولته

قال العماد[٦] : وقعت المنافسة بين الحلبيين مدبرى الملك الصالح ، واستولى على أمره العدل ابن العجمى أبو صالح . وكان سعد الدين كمشتكين الخادم مقدم

---

(١) انظر الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٧١٢ - ٧١٣ ، حيث ينقل أبو شامة عن العماد .
(٢) قارة : هى قرية كبيرة بين حمص ودمشق على نحو منتصف الطريق ، وهى منزلة للقوافل . انظر : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص١٢ - ١٣ ؛ تقويم البلدان ، ص ٢٢٩ .
(٣) «لها» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من ديوان أبى الطيب المتنبى ، جـ٤ ، ص١٤٦ ، تحقيق مصطفى السقا ، الطبعة الثانية ١٩٥٦م ؛ الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٧١٣ ؛ سنا البرق الشامى ، ص٢٨٣ .
(٤) «وضح» فى نسخة ب .
(٥) الأُوار : حَرُّ الشمس والنار .
(٦) الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٧٠٤ - ٧٠٥ .

العساكر[١] ، وأمير المعشر ، وهو صاحب حصن حارم ، وقد حسده أمثالُه[٢] من الأمراء والخدام ، فسلّموا لابن العجمى الاسْتبداد بتدبير الدولة ، فقفز عليه الإسماعيليّة يوم الجمعة بعد الصلاة فى جامع حلب فقتلوه .

واستقل كمشتكين بالأمر ، فتكلم فيه حسّادُه ، وقالوا للملك الصالح : ما قتل وزيرك ومُشيرَك ابن العجمى إلا كمشتكين فهو الذى حسّن ذلك للإسماعيليّة . وقالوا له : أنت السلطان وكيف يكون لغيرك حُكمٌ أو أمر! فما زالوا به[٣] حتى قبض عليه ، وطالبوه بتسليم قلعة [٢١١و] حارم . فكتب إلى نوابه بها «فنبَوْا»[٤] وأبَوْا ، فحملوه ووقفوا به تحت القلعة ، وخوّفوه بالصرعة ، فلما طال أمره ، قصر عمره ، ونزل عليه الإفرنج ، ثم رحلوا بقطيعة بذلها لهم الملك الصالح واستنزل عنها أصحاب كمشتكين ، وولى بها مملوكا لأبيه يقال له [سرخك][٥] .

وقال ابن الأثير[٦] : سار الملك الصالح من حلب إلى حارم ومعه كمشتكين ، فعاقبه ليأمُرَ مَنْ بها بالتسليم ، فلم يجب إلى ما طلب منه ، فعُلق[٧] منكوسا ، ودُخِّنَ تحت أنفه فمات . وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها . ثم إنه أخذها بعد ذلك[٨] .

قال ابن شداد[٩] : أما الملك الصالح فإنه تخبَّط أمره ، وقبض على كمشتكين صاحب دولته ، وطلب منه تسليم حارم إليه ، فلم يفعل ، فقتله . ولما سمع الفرنج بقتله نزلوا على حارم ، طمعا فيها ، وذلك فى جمادى الآخرة ، و قاتل عسكر الملك الصالح العساكر الإفرنجية . ولما رأى أهل القلعة خطرها من جانب الفرنج ، سلموها إلى الملك

---

(١) مقدم العسكر : تعنى كلمة مقدم قائد الجيش المرابط عند الحدود .انظر : ابن الكردبوس : تاريخ المسلمين فى الأندلس ، ص٤٢ .
(٢) «أولاده» فى نسخة ب .
(٣) «عليه» فى نسخة ب .
(٤) ما بين قوسين ساقط من نسخة ب .
(٥) «سرجك» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٨٨ ؛ الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٧٠٥ .
(٦) انظر : التاريخ الباهر ، ص ١٧٨ .
(٧) «فعلقوه» فى نسخة ب .
(٨) كرر الناسخ فى نسخة ب جملة «ثم أخذها بعد ذلك» .
(٩) انظر : النوادر السلطانية ، ص٥٣ .

الصالح فى العشر [الأواخر][1] من رمضان . ولما [علم][2] الإفرنج ذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم ، ثم عاد الصالح إلى حلب ولم يزل أصحابه على [اختلاف][3] ، يميل بعضهم إلى جانب السلطان صلاح الدين (رحمه الله)[4] .

ذكر بقية الحوادث

منها أنه خُطب للسلطان طغرل بن أرسلان شاه المقيم عند أيلدكز بهمذان ، بحكم وفاة والده أرسلان شاه[5] .

ومنها أنه[6] وصل يُتَامِش الذى عصى على الخليفة ، وقاتل مع قطب الدين قايماز إلى تحت التاج ، وبيده سيف وكفن وقبل الأرض مرارًا ، وطلب العفو ، فعفا الخليفة عنه وأعيد إلى إمرته وأحسن إليه .

ومنها أنه وقعت ببغداد واقعة وهى : أنه كان لرجل عبد وأَمَةٌ ، فعتقهما وزوج العبد بالأمة ، فأولدها أولادا وأقام أربعين سنة على ذلك ، ثم تبين أن الأَمَة أخت العبد لأمه وأبيه . الجواب لا إثم عليهما فيما مضى ؛ لعدم العلم بحالهما ، ويفرق بينهما للأخوة ، وتعتد لاحتمال أن تكون حاملاً منه ، فإذا فرق بينهما حرمت عليه ، ويجوز له النظر إليها ؛ لأنها أخته إلا أن يخاف على نفسه[7] .

ومنها[8] أنه اجتمعت طائفة من الإفرنج ، وقصدوا أعمال حمص ، فقتلوا وأسروا وسبوا ، فسار ناصر الدين محمد بن شيركوه إليهم وسبقهم ، ووقف على طريقهم مكمنًا لهم ، فلما وصلوا [إليه][9] خرج عليهم هو والكمين ، ووضع السيف فيهم ، فقتل أكثرهم ، ومن سلم منهم لم يفلت إلا مثخنًا بالجراح ، واسترجع منهم جميع ما أخذوه ، ورده على أصحابه .

---

(١) «الأخير» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من النوادر السلطانية ، ص٥٣ ، حيث ينقل العينى عنه .

(٢) «عرف» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من النوادر السلطانية ، ص٥٣ ، حيث ينقل العينى عنه .

(٣) «الاختلاف» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من النوادر السلطانية ، ص٥٣ ، حيث ينقل العينى عنه .

(٤) إلى هنا توقف العينى عن النقل من النوادر السلطانية ، ص٥٣ .

(٥) انظر تفاصيل هذا الخبر فى المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص٦٠ .

(٦) انظر هذا الخبر فى المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٣٥ .

(٧) عن تلك الفتوى انظر المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٣٧ ـ ٢٣٨ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢١٧ .

(٨) انظر هذا الخبر فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٨٩ ـ ٩٠ .

(٩) ما بين الحاصرتين إضافة من الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٠ ، وذلك لاستقامة النص .

وفيها : ....(١)

وفيها : حج بالناس الأمير طاشتكين .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أحمد بن محمد بن بكروش(٢) **الحمامى أبو العباس** ؛ ولد سنة اثنتين وخمسمائة ، وقرأ القرآن على أبى القاسم بن الحصين وغيره ، وتفقه على أبى بكر الدينورى شيخ ابن الجوزى ، وكان يكثر الصوم والصلاة ، وتوفى يوم الثلاثاء خامس صفر ، ودفن بمقبرة الإمام أحمد . قال السبط(٣) : وزوجه جدى أكبر بناته ، يقال لها ست العلماء .

صدقة بن الحسين بن الحسن أبو [الفرج](٤) **الحداد** ؛ ولد سنة سبع وتسعين وأربعمائة ، فقرأ القرآن ، وسمع الحديث ، وتفقه وأفتى ، وقال الشعر ، ونظر فى الكلام وناظر ، وله تاريخ ذيَّل فيه على شيخه ابن الزاغونى ، وفيه غرائب وعجائب . [٢١١ظ] وقال ابن الساعى : وكان شيخا عالما فاضلا ، وكان فقيرا يأكل من أجرة النسخ ، وخط عليه ابن الجوزى(٥) فى منتظمه ، ورماه بالعظائم ، وأورد من أشعاره ما فيه مشابهة لابن الراوندى(٦) فى الزندقة ، قال : وقرأ «الشفاء» لابن سينا ؛ وكُتب الفلاسفة ، وتغير اعتقاده ، وكان يبدر من فلتات لسانه ما يدل على سوءِ عقيدته ، وتارة يسقف من جنس ابن الراوندى ، وتارة يشير إلى عدم بعث الأجساد ، وتارة يعترض على القضاءِ والقدر . قال : وقال لى يوما : أنا لا أخاصم إلا من فوق الفلك . وقال : ما أدرى من أين جئنا؟! وإلى أى مطبق(٧) يريدون أن يحملونا . قال : فلما تحقق هذا عندى هجرته سنين ، ولما مات

---

(١) بياض بمقدار سطر فى النسختين .

(٢) «بكروس» فى المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٤٣ ؛ شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص٢٤٤ . انظر ترجمته أيضًا فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢١٨ .

(٣) انظر مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢١٨ .

(٤) «أبو الفريح» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٤٣ ؛ وفيات الأعيان ، جـ ٦ ، ص٢٥٣ ؛ شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص٢٤٥ .

(٥) انظر : المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

(٦) ابن الراوندى : هو أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندى ، توفى سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م . وفيات الأعيان : جـ١ ، ص٩٤ـ٩٥ ؛ إبراهيم مدكور : فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق ، ص٩٦ـ ١٠٠ ، مكتبة دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٤٧م .

(٧) «مضيق» فى المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٤٣ . والمُطْبِقُ : السجن تحت الأرض ، المعجم الوسيط ، جـ ٢ ، ص٥٥٧ ، مادة «طبق» .

ما صليت عليه . ومع هذه الفواحش والاعتقاد السَّيِّىء كان يُظهر الفقر ويطلب من الناس ، فلما مات وجدوا له ثلثمائة دينار ، ومات فى ربيع الآخر ، ودفن بباب حرب . وقال ابن [الجوزى][1] : يوم السبت ثالث عشر ربيع الآخر .

محمد بن أسعد بن محمد بن أبى منصور[2] العطارى المعروف بحفدة ؛ ولد بطوس[3] ، وكانت له معرفة جيدة بالخلاف[4] ، وأَنِسَ بالتفسير ، وكان يعظ بتبريز ، وناظر طويلا ودرس وأفتى ، وقدم بغداد بعد الستين وخمسمائة فناظر بها ، وتوفى بتبريز فى رجب منها .

محمد بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن الزيتونى أبو الثناء[5] ؛ سمع الحديث ووعظ وانقطع فى مسجده ، وتوفى فى رمضان من هذه السنة ببغداد .

محمد بن أبى نصر ، أبو سعد بن المعوج[6] ؛ حاجب الباب . ضربه الباطنية يوم قتل الوزير أبى المظفر ، كما نذكره الآن ، وحمل إلى داره بنهر معلى[7] ، فدفن بها .

محمد بن أحمد بن عبد الجبار أبو المظفر الحنفى المعروف بالمشطب[8] ؛ كان من الفضلاءِ المشاهير ، تفقه ودرس وأفتى وناظر ، وتوفى فى هذه السنة ، وقد جاوز الثمانين ، وذكر فى طبقات الحنفية أنه من أهل سِمنان[9] ، ورحل إلى مرو ، وتفقه على أبى الفضل الكرمانى وجال فى بلاد خراسان ، ثم دخل بغداد واستوطنها ، وولى التدريس بمدرسة زيرك بسوق العميد ، وحَدَّث عن أبى عبد الله الحسين بن محمد بن فرحان

---

(١) «ابن كثير» فى الأصل وهو خطأ . والصحيح ما أثبتناه بين الحاصرتين . لأن ابن الجوزى هو الذى ذكر هذه العبارة تحديدًا . أما ابن كثير فإنه لم يذكر سوى أن وفاته فى ربيع الآخر من هذه السنة . انظر : المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٤٥ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ٣١٩ .

(٢) انظر ترجمته فى المنتظم ، جـ ١٨ ، ص ٢٤٦ . حيث ينقل العينى عنه .

(٣) طوس : هى مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ . معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص٥٦٠ .

(٤) الخلاف : يقصد المسائل الخلافية المختلف عليها . انظر : المنجد ، مادة خلف ، ص ١٨٩ .

(٥) انظر ترجمته فى المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٤٧ حيث ينقل عنه العينى .

(٦) انظر ترجمته فى المنتظم ، جـ١٨ ، ص٢٤٧ .

(٧) نهر معلى : من أنهار بغداد . وينسب إلى المُعلى من كبار قواد الرشيد . انظر : تاريخ بغداد ، جـ ١ ، ص ٩٦ .

(٨) انظر ترجمته فى المنتظم ، جـ ١٨ ، ص ٢٤٦ .

(٩) سِمْنَان : بلدة بين الرى ودامغان . معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص١٤١ .

السمنانى ، وأبى نصر أحمد بن الحسين بن رجب السمرقندى ، سمع منه عمر بن على القرشى ، وكان مولده فى سنة أربع وتسعين وأربعمائة بسمنان ، وتوفى يوم السبت الحادى عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، ودفن بمقبرة الخيزران[(١)] . ومن إنشاده :

يا أَيُّها الباحثُ عن مقْصِدِى ليَقْتَدِى فيه بمِنْهَاجِى
مِنهاجِى العقْلُ وقَمْعُ الهوَى فَهَلْ لمِنْهَاجِى مِنْ هَاجِ

عَضُدُ الدولة أبو الفرج الوزير محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر [ابن][(٢)] رئيس الرؤساءِ ، أبى القاسم بن المسلمة[(٣)] ؛ وزير الخليفة المستضىء ، ولد فى جمادى الآخرة سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وكان أبوه أستاذ دار[(٤)] المقتفى ، وتولى المستنجد فأقره على ذلك ، فلما آلت الخلافة إلى المستضىء بأمر الله استوزره ، وكان يحفظ القرآن ، وسمع الحديث ، وله مروءة وإكرام للعلماءِ والفقراءِ ، خرج من بيته إلى الحج يوم الثلاثاءِ رابع ذى القعدة ، فضربه الباطنية[(٥)] [٢١٢و] أربع ضربات على باب قطفتا[(٦)] ، فحمل إلى داره هناك ، ولم يتكلم إلا أنه قال : الله الله . وقال : ادفنونى عند أبى ، ثم مات بعد الظهر ، ودفن عند أبيه بمقبرة الرباط عند الجامع .

وفى المرآة[(٧)] : لما ولى المستضىء استوزره ، وشرع ظهير الدين أبو بكر صاحب المخزن فى عداوته ، فغير قلب الخليفة عليه ، فطلب الحج فى هذه السنة ، فأذن له ، فتجهز جهازا عظيما ؛ اشترى ستمائة جمل لحمل المنقطعين وزادهم ، وحمل معه

---

(١) مقبرة الخيزران : من أقدم المقابر التى بالجانب الشرقى من بغداد . وتنسب إلى الخيزران أم موسى وهارون ابنى المهدى . وبها قبر أبى حنيفة . انظر : تاريخ بغداد ، جـ ١ ، ص١٢٥ .

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة لازمة من الكامل ، جـ١٠ ، ص ٨٨ ؛ وفيات الأعيان ، جـ ٦ ، ص٢٤١ .

(٣) انظر ترجمته فى المنتظم ، جـ١٨ ، ص ٢٤٦ـ ٢٤٧ ؛ الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٨٨ ـ ٨٩ .

(٤) أستاذ دار : وظيفة من وظائف أرباب السيوف ، يتولى صاحبها شئون بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان ، وله مطلق التصرف فى استدعاء ما يحتاجه كل من فى بيت السلطان من النفقات والكسوة . انظر : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص٢٠ ؛ جـ ٥ ، ص٤٥٧ .

(٥) الباطنية : فرقة من فرق الشيعة . وقد لقبوا بكلمة الباطنية لأنهم قالوا بأن للقرآن ظواهر وبواطن تجرى من الأخبار مجرى اللب من القشر . انظر : أبو حامد الغزالى : فضائح الباطنية ، الباب الثانى ، ص١١ ، ط . الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩١٤م .

(٦) «قطعنا» فى نسخة ب . وقطفتا : محلة كبيرة بها أسواق بالجانب الغربى من بغداد ، بجوار قبر الشيخ معروف الكرخى بمقبرة الدير . انظر : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص٣٧٤ . (ط . دار صادر) .

(٧) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٠ـ ٢٢١ .

جماعةً من العلماءِ والزهاد ، ومارستانا فيه جميع ما يحتاج إليه ، ومن الروايا والقرب والزاد وغيره ما لم يحمله وزير . فلما كان يوم الأربعاءِ رابع ذى القعدة ركب فى شبارة[١] وعبر فى دجلة إلى الجانب الغربى ، وجميع أهل بغداد من الجانبين يدعون له ويبكون عليه ؛ لأنه كان محسنًا إليهم بماله وجاهه ومروءته ، قريبا من الناس ، ولما صعد من الشبارة عند [القلعة][٢] ركب وأرباب الدولة بين يديه ، وخدم الخاصة ، والنقيبان[٣] ، وقاضى القضاة ، ما عدا ظهير الدين بن العطار ، فإنه لم يودعه . فلما ركب ضُرب البوق على عادة الوزراء ، فلما وصل إلى باب قطفتا خرج عليه رجل صوفى وبيده قصة[٤] ، فقال : مظلوم ، فقال الغلمان : هات قصتك ، فقال : ما أسلمها إلا إلى الوزير ، فقال : دعوه تعال . فجاءَ إليه ، فوثب عليه وضربه بسكين فى خاصرته ، فصاح الوزير : قتلنى ، وسقط من دابته ، وانكشف رأسه ، فغطاه بكمه ، وبقى على قارعة الطريق ملقى ، وتفرق من كان معه إلا حاجب الباب ابن المعوج ، «فإنه»[٥] رمى بنفسه عليه ، فضربه الباطنى بسكين فجرحه ، وظهر له رفيقان ، فقتلوا وأحرقوا ، وحمل الوزير إلى داره بقطفتا وحمل الحاجب إلى داره . وكان الوزير قد رأى فى تلك الليلة فى منامه كأنه يعانق عثمان بن عفان(رضي الله عنه) وكان قد اغتسل قبل أن يخرج من داره ، وقال : هذا [غسل][٦] الإسلام ، وأنا مقتول بغير شك . ولم يسمع منه لما جُرِح غير قوله : الله الله ، ادفنونى عند أبى . وكانت وفاته يوم الخميس ، فغسل وكفن وحمل إلى جامع المنصور[٧] ، «وصلى عليه ولده الأكبر ، ودفن

---

(١) شبارة : ج . شبارات . وهى سفينة نهرية صغيرة . أكثر ما تستعمل فى العراق بنهر دجلة . انظر : السفن الإسلامية ، ص٧٢ - ٧٣ .

(٢) «القرية» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٢٠ . حيث ينقل عنه العينى .

(٣) النقباء : جمع نقيب ، وهو ممن يعملون عند السلطان أو الأمير ، ويقوم بتأدية الخدمات الصغيرة لسيده . صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص٢١ - ٢٢ ؛ السلوك ، جـ ١ ق٣ ، ص٨٣٧ ، حاشية ٢ .

(٤) القصة : هى طلب أو التماس ، يقدمه صاحب الحاجة أو الشكوى إلى السلطان عن طريق موظف خاص اسمه قصه دار . انظر : صبح الأعشى ، جـ ٢ ، ص٣٥٢ ، جـ ١٣ ، ص١٥٤ ؛ سنا البرق الشامى ، ص٢٨٥ ، تحقيق رمضان ششن .

(٥) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٦) «رسل» فى نسختى المخطوطة أ ، ب ؛ ومرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٠ . وهو خطأ فى النسخ ، والمثبت بين الحاصرتين هو الأقرب للسياق .

(٧) جامع المنصور : ينسب إلى مشيده أبو جعفر المنصور بناه بجوار قصره المعروف بقصر الذهب ، انظر : تاريخ بغداد ، جـ١ ، ص١٠٧ .

عند أبيه ، مقابل جامع المنصور»[١] . وحضر أرباب الدولة بأسرهم ، وابن العطار صاحب المخزن ، وجلس أولاده للعزاء يوم الجمعة . واختلفوا فى سبب قتله ، فقال قوم : أن يتامش واطأ[٢] الإسماعيلية على قتله لِما كان بينهما ، فبعث الخليفة فقبض على يتامش ، وأخذ أمواله وحبسه فى التاج[٣] . وقال آخرون : إنما وضع الإسماعيلية عليه ابن العطار صاحب المخزن وهو الظاهر ، أسند الوزير الحديث عن أبى القاسم بن الحصين[٤] وغيره . وكان فاضلاً عادلا ، وخرج ولده إلى الشام ، وهو على بن محمد ، فأحسن إليه صلاح الدين .

الأمير شهابُ الدين محمود بن تكش الحارمى ؛ خال السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . كان من خيار الأمراء وشجعانهم ، وقد أقطعه ابن أخته حماة حين فتحها ، وقد حاصره الفرنج هناك وهو مريض ، وكادوا يأخذون البلد ، ولكن هزمهم الله بعد أربعة أيام ـ كما ذكرنا ـ فانصرفوا خائبين[٥] ، وتوفى شهاب الدين المذكور بعد ذلك فى هذه السنة ، وأعطى صلاح الدين حماة لناصر الدين منكورش بن خمارتكين صاحب صهيون[٦] ، وقيل : إنما أعطاها لتقى الدين عمر ، وكان ناصر الدين نائبا عنه ، والله أعلم .

كمشتكين الخادم ؛ خادم نور الدين محمود بن زنكى ، وكان من [٢١٢ظ] أكابر خدامه ، ولاه قلعة الموصل نيابة عنه ، فلما مات نور الدين هرب إلى حلب ، وأقطعه الملك الصالح حَارِمَ ، وأقام بها وعصى عليه ، فلما حصره الفرنج صالحه ـ كما ذكرناه ـ ثم قتله الملك الصالح كما ذكرناه .

فاطِمَةُ بنت نصر بن العطار[٧] ؛ توفيت يوم الأربعاء السادس عشر من رمضان منها ، ودفنت عند أبيها ، وشاع عنها الذكر الجميل والزهد فى الدنيا ، ما خرجت من بيتها فى عمرها إلا ثلاث مرات لضرورة ، وما كانت تلتفت إلى زينة الدنيا ، رحمها الله .

---

(١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٢) واطأ : بمعنى وافق . انظر : المصباح المنير ، مادة «وطىء» .

(٣) التاج : اسم لدار مشهورة ببغداد ، وضع أساسها وسماها بهذه التسمية الخليفة المعتضد . معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٨٠٦ ـ ٨٠٩ .

(٤) عن أبى القاسم بن الحصين . انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٦ ، ص١٧١ ، ضمن ترجمة ابن سعدون القرطبى .

(٥) ورد هذا النص بتصرف فى البداية و النهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣١٩ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٢ .

(٦) صهيون : حصن حصين من أعمال حمص . انظر : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٤٣٨ .

(٧) انظر : ترجمتها فى المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٤٥ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣١٩ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الرابعة والسبعين بعد الخمسمائة★

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضىء بأمر الله ، والسلطان صلاح الدين بالشام ، وجاءه كتاب من القاضى الفاضل وهو بالديار المصرية ؛ يهنئه بوجود مولود له ، وهو أبو سليمان داود ، وهو مُوَّفٍ لاثنى عشر ولدا ، وقد ولد «له»[١] بعده عدة ذكور أيضا ، فإنه توفى[٢] عن سبعة عشر ولدًا ذكرًا وابنة صغيرة ، وهى مؤنسة خاتون ، التى تزوجها ابن عمها الملك الكامل محمد ابن الملك العادل ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى ، وذكر هذا فى تاريخ الدولتين[٣] فى السنة الماضية نقلا عن عماد الكاتب .

وفى رمضان وصلت الخلع السنية من الخليفة إلى السلطان صلاح الدين وهو بدمشق ، وزيد فى ألقابه معز أمير المؤمنين ، وخلع أيضا على أخيه توران شاه ، ولقب بمصطفى أمير المؤمنين[٤] .

وفى هذه السنة أسقط صلاح الدين المكوس والضرائب عن الحجاج بمكة ، وقد كان يؤخذ منهم[٥] شىء كثير ، ومَنْ عجز عن أدائه حبس ، وربما فاته الوقوف بعرفة ، وعوض السلطان أميرها بمال يُحمل إليه من مصر ، وبغلال فى كل سنة ثمانية آلاف إردب ، ليكون عونًا له ولأتباعه ، وقرر أيضا قدر ذلك للمجاورين ، يحمل إليهم كل سنة .

ذكر عِصيَان ابن المقدم على صلاح الدين رحمه الله

وفيها عصى شمس الدين بن المقدم[٦] ببعلبك ، وكان صلاح الدين قد أعطاه إياها ، وقدم صلاح الدين إلى دمشق ، فأرسل إليه يطلبه ، فاعتذر خوفا من شمس

★ يوافق أولها ١٩ يونيو ١١٧٨م .
(١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٢) يقصد بذلك وفاة صلاح الدين الأيوبى .
(٣) انظر : الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص ٧٠٩ ؛ انظر أيضا : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣١٨ .
(٤) انظر : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٠ .
(٥) يقصد بذلك حجاج المغرب ولمعرفة المزيد انظر : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٠ ؛ الروضتين ، جـ٢ ق١ ، ص٧ .
(٦) انظر : تفاصيل هذه الحادثة فى الروضتين ، جـ٢ ق١ ، ص٣ ؛ الكامل ، جـ١٠ ، ص٩١-٩٢ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٢٠ .

الدولة ؛ لأنه طلب منه بعلبك فامتنع ، فخرج صلاح الدين من دمشق ، ونزل على بعلبك ، وأقام سبعة أشهر يحاصرها ، فنفذ ما عنده ، فأرسل إلى السلطان يطلب العوض ، فأعطاه بَارين[١] وكفر طاب[٢] ، وخرج شمس الدين بن المقدم إليها ، وسَلَّمَ صلاح الدين بعلبك إلى أخيه شمس الدولة .

وقال ابن كثير[٣] : وكان صلاح الدين نازلا على ظاهر حمص ، ولم يجيء إلى خدمته ابن المقدم المذكور ؛ لأنه بلغه أن أخاه توران شاه طلب بعلبك منه فأطلقها له ، فامتنع ابن المقدم من الخروج إليه لذلك . وجاء السلطان إلى دمشق ، ثم حضر إلى بعلبك بنفسه ، فحصره فيها من غير قتال ، حتى جاءت الأمطار والثلوج والبرد ، فعاد إلى دمشق فى رجب ، ووكل بالبلد من يحصره بغير قتال ، ثم حصل التعويض ، فخرج كما ذكرنا .

ذكر تجهيز صلاح الدين ابن أخيه فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب لغزو الإفرنج

وفى هذه السنة جهز صلاح الدين المذكورَ بين يديه ؛ لقتال الفرنج الذين قد عزموا على قتال المسلمين ، وعاثوا فى نواحى دمشق وقراها بالفساد ، وأمره أن يداريهم حتى يتوسطوا البلاد ، ولا يقاتلهم حتى يقدم عليه ، فلما التقوا عاجلوه بالقتال ، فكسرهم وقتل من ملوكهم صاحب الناصرة[٤] ، وهو [الهنفرى][٥] [٢١٣و] ، وكان من أكابر ملوكهم ، وركب صلاح الدين (رحمه الله) فى إثر ابن أخيه ، فما وصل إلى الكسوة حتى تلقته الرؤوس على الرماح والغنائم والأسرى .

---

(١) بارين هى بعرين : مدينة حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب . معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٤٦٦ .

(٢) كفر طاب : بلدة بين المعرة ومدينة حلب . معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٢٨٩ .

(٣) انظر : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٠ .

(٤) الناصرة : قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلاً ، ولد فيها السيد المسيح عيسى بن مريم ، ومنها اشتق اسم النصارى . معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٧٢٩ .

(٥) «الكنفرى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، جـ٢ ق١ ، ص١٥ ؛ الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٣ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٠ .
والهنفرى هو (Honfroi) صاحب حصن بانياس جنوب غربى دمشق . انظر : السلوك ، جـ ١ ، ص٦٧ حاشية ٢ ؛ كذلك انظر Lane- Poole, Saladin, p. 157 حيث ورد الاسم : (Humphrey of Toron) .

وفى المرآة :[١] بلغ صلاح الدين أن الهنفرى يريد أن يغير على دمشق ، فبعث عز الدين فرخشاه ابن أخيه بعساكر دمشق ، [إلى قرن الحرة][٢] وقال له يقيم عند مرج عيون[٣] ، فإن جاؤوك فارسل كتب الطيور إلىَّ ، ولا تواقعهم[٤] حتى آتيك ، فسار ونزل مرج عيون ، فلم يشعر إلا بطلائع الهنفرى قد خالطته ، ووقع القتال ، فلم يقدر فرخشاه على إعلام صلاح الدين ، فقاتلهم بنفسه ، وجرح الهنفرى جراحة موثقة[٥] ، فأخذوه وانهزموا ، وغنمهم فرخشاه ، ومات الهنفرى بعد أيام ، وجاء صلاح الدين فنزل قصر يعقوب[٦] ، وبعث السرايا والغلات إلى بلد الإفرنج .

ذكر بناء الإفرنج قلعة عند بيت الأحزان[٧]

وفى هذه السنة بنت الإفرنج ـ لعنهم الله ـ قلعة عند بيت الأحزان للداوية[٨] ، فجعلوه مرصادًا لحرب المسلمين وقطع طرقاتهم عليهم ، ونقضت ملوكهم العهد التى كانت بينهم وبين صلاح الدين ، وأغاروا على نواحى البلدان من كل جانب ؛ ليشغلوا المسلمين عنهم وتتفرق جيوشهم ، فلا تجتمع فى بقعة واحدة . فرتب السلطان ابن أخيه تقى الدين عمر بثغر حماة ، ومعه شمس الدين بن المقدم ، وسيف الدين على بن أحمد المشطوب . وبثغر حمص ابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، وبعث

---

(١) انظر هذا النص فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٣ .

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٣ ، حيث ينقل العينى عنه .

(٣) مرج عيون : بسواحل الشام قريبة من شقيف أرنون ، انظر : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٤٨٨ ؛ زبدة الحلب ، جـ ٣ ، ص ١٠٨ .

(٤) «توافيهم» فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٣ ، والمثبت من نسختى أ ، ب . حيث يتناسب مع السياق .

(٥)عن اصابات الهنفرى بالتفصيل . انظر : الروضتين ، جـ ٢ ق١ ، ص١٥ .

(٦) «بيت يعقوب» فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٥ ؛ «مشهد يعقوب» فى البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٤ .

(٧) بيت الأحزان : بلد بين دمشق والساحل ، سميت بذلك لاعتقادهم أنه كان مسكن يعقوب عندما فارق يوسف (عليه السلام) . انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٧٧٥ .

(٨) الداوية : تطلق على جمعية فرسان المعبد Templiers وقد أسسها Hugh de Payns عام ١١١٩م وذلك لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس . King: Knight Hospitallers.PP. 1- 33.

إلى أخيه سيف الدين أبى بكر ، وهو الملك العادل نائب مصر[١] ، يأمره أن يرسل إليه بألف وخمسمائة فارس يستعين بهم على قتال الإفرنج . وكتب إلى الإفرنج يأمرهم بتخريب هذا الحصن الذى بنوه للداوية ، فامتنعوا إلا أن يبذل لهم ما غرموه عليه ، فبذل لهم [ستين][٢] ألف دينار ، فلم يقبلوا ، فوصَّلهم إلى مائة ألف دينار ، فأبوا ، فقال له ابن أخيه تقى الدين عمر : ابذل هذه فى أجناد المسلمين ، وسر إلى هذا الحصن ، ففعل ذلك[٣] .

ثم استهلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، وكان السلطان صلاح الدين نازلا بجيشه على تل [القاضى[٤]] بِبَانِياس ، ثم قصده الإفرنج بقضهم وقضيضهم ، فنهض إليهم فالتقاهم ، فما هو إلا أن تواجه الفريقان حتى أنزل الله تعالى نصره ، فانهزمت الإفرنج وقتل منهم خلق كثير ، وأسر منهم جماعة من ملوكهم ، منهم : مقدم الداوية ، ومقدم الاستبارية ، وصاحب الرملة ، وصاحب طبرية ، وقسطلان[٥] يافا ، وآخرون من ملوكهم ، وخلق من شجعانهم وأبطالهم ، ومن فرسان القدس جماعة كثيرون قريبًا من ثلثمائة أسير[٦] من أشراف[٧] النصارى .

وفى تاريخ بيبرس : وكان فيمن أسر بادين بن بارْزان[٨] ، وأود[٩] ، [و][١٠] ابن القمصية[١١] ، وأخو صاحب جبيل[١٢] ، فحملوا إلى قلعة دمشق ، فاعتقلوا بها . فأما ابن بارزان فاستفك نفسه بجملة عظيمة وبألف أسير ، واستفك ابن القومَصية أيضًا ، ومات أُوْد فى السجن[١٣] .

---

(١) ورد هذا الحدث فى سنا البرق الشامى ، ص٣٢٢ .

(٢) «بستين» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، جـ ٢ ق١ ، ص٢١ .

(٣) ورد هذا النص بتصرف فى البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢١ ؛ الروضتين ، جـ٢ ق١ ، ص٢١ .

(٤) «تل العاصى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٣ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ق١ ، ص٢٢ .

(٥) قسطلان : معرب اللفظ اللاتينى (Castellanus) ومعناه مستحفظ القلعة ويقابله فى الفرنسية Châtelain والمقصود بالقسطلان هنا : صاحب المكان . السلوك . جـ١ ق٢ ، ص٥٢٤ حاشية ٣ .

(٦) لمعرفة المزيد من التفاصيل انظر : الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٥-٩٦ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ق١ ، ص٢١ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٢١ . ومن الجدير بالملاحظة أن العينى أثناء حديثه عن بيت الأحزان خلط بين أحداث ٥٧٤هـ ، ٥٧٥هـ نتيجة لنقله من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٥ .

(٧) «فرسان» فى نسخة ب .

(٨) بادين بن بارزان ، هو باليان إبلين ، انظر الروضتين ، جـ ٢ ق١ ، ص٢٢ .

(٩) أودو سانت أماند . انظر رانسمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٧٨ .

(١٠) ما بين الحاصرتين إضافة ضرورية من الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٢٢ .

(١١) هو ريموند الثالث Raymond III .

(١٢) جبيل : بلد فى سواحل دمشق شرقى بيروت . انظر : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص٣٢ .

(١٣) لمعرفة المزيد عن هذا الحدث انظر : الروضتين ، جـ ٢ ق١ ، ص٢٣ ؛ السلوك : جـ ١ ق١ ، ص ٦٨ .

وقال العماد الكاتب : لما أُسِرَ هؤلاءِ استعرضهم السلطان فى الليل ، حتى أضاءَ الفجر ، وصلى يومئذ الصبح [٢١٣ ظ] بوضوءِ العشاءِ . وقد كان السلطان جالسًا ليلتئذ[١] فى نحو العشرين ، وهم فى هذه العدة ، فسلمه الله منهم ، ثم أرسلهم[٢] إلى دمشق ، ليُعْتَقَلوا[٣] بقلعتها ، فافتدى ابن بارزان صاحب الرملة نفسه بعد سنة بمائة ألف دينار ، وخمسين ألف دينار صورية[٤] ، وإطلاق ألف أسير من بلاده . وكذا افتدي جماعة منهم أنفسهم بأموال جزيلة وتحف جليلة . ومنهم من مات فى السجن فانتقل منه إلى سجِّين[٥] . واتفق أنه فى اليوم الذى ظفر فيه السلطان على الفرنج بمرج عيون هذا ، ظفر الأصطول على بَطسَة[٦] للإفرنج فى البحر وأخرى معها ، فغنموا منها ألف أسير من السبى ، وعاد إلى الساحل مؤيدًا منصورًا .

وقد امتدح الشعراء السلطانَ فى هذه الغزوة بمدائح كثيرة ، وكتب بذلك إلى بغداد ، فدقت البشائر بها فرحًا وسرورًا . وقد كان الملك المظفر تقى الدين عمر غائبا عن هذه الوقعة ، مشتغلا بما هو أعجب منها ؛ وذلك أن ملك الروم قليج أرسلان بعث يطلب حصن رَعْبَان[٧] ، وزعم أن نور الدين محمود اغتصبه منه ، وأن ولده قد أغضى[٨] له عنه ، فلم يجبه إلى ذلك السلطان . فبعث صاحب الروم عشرين ألف مقاتل يحصرونه ، فأرسل السلطان تقى الدين عمر فى ثمانمائة[٩] فارس ، منهم سيف الدين على بن أحمد

---

(١) تقديم وتأخير فى نسخة ب .

(٢) «أرسله» فى نسخة ب .

(٣) «ليعتقل» فى نسخة ب .

(٤) الدنانير الصورية أو المشخصة أو الإفرنتية ، هى الإفرنجية وتتميز عن الدنانير المصرية الإسلامية ، فى العصور الوسطى ، أن صور ملوكها منقوشة على وجوهها . انظر : صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص٤٤١ .

(٥) سجِّين : واد فى جهنم . انظر : المعجم الوسيط ، جـ١ ، ص٤٢٠ .

(٦) بطسة : يطلق عليها كذلك بطشة ، وهى مركب حربية كبيرة . راجع درويش النخيلي : معجم السفن الإسلامية ، ص١٤ ـ ١٧ ، القاهرة ١٩٧٩م .

(٧) حصن رَعْبَانُ : مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدودة فى العواصم ، وهى قلعة تحت جبل . معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص٧٩١ .

(٨) أى أنعم به عليه . انظر : الروضتين ، جـ٢ ق١ ، ص٢٥ .

(٩) فى الروضتين نقلاً عن العماد «فى ألف مقاتل» ، وقد حدد العينى قبل قليل أنه ينقل عن العماد . أما الذى ذكر أن السلطان أرسل ثمانمائة فارس فهو ابن أبى طى ، ولكن العينى لم يستكمل قول ابن أبى طى حيث ذكر أن تقى الدين عمر عندما قارب حصن رعبان «أخذ معه جماعة من أصحابه مقدار مائتى فارس» وهكذا يصبح مجموع العسكر الذى قاتل به تقى الدين عمر «ألف مقاتل» . انظر تفصيل قول كل من العماد وابن أبى طى فى الروضتين ، جـ ٢ ق١ ، ص٢٥ ؛ الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٧ . حيث يؤيد ما ذكره العماد «ألف فارس» .

المشطوب ، فالتقوا بهم ، فهزموهم بإذن الله . فاستقرت يد الملك الناصر صلاح الدين على حصن رعبان ، وقد كان مما عُوِّضَ به ابن المقدم عن بعلبك . وكان تقى الدين عمر يفتخر بهذه الوقعة ، ويرى أنه قد هزم عشرين ألفا ، وقيل : ثلاثين ألفا بثمانمائة . وكان السبب فى ذلك أنه بَيَّتَهُم وأغار عليهم وهم غارّون[١] ، فما لبثوا أمامَه ، بل فروا منهزمين عن آخرهم ، فأكثر فيهم القتلى ، واستحوذ على جميع ما تركوه فى خيامهم .

ثم ركب صلاح الدين فى جحافله إلى الحصن الذى كانت الفرنج قد بنوه فى سنة أربع وسبعين وخمسمائة ، وحفروا فيه بئرًا ، وسلموه إلى الداوية ، فقصده السلطان فحاصره ونقبه من جميع جهاته ، وألقى فيه النيران ، فجعله دكًا وخربه إلى الأساس ، وغنم ما فيه من الحواصل ، فكان فيه مائة ألف قطعة من السلاح ومن المأكل كل شىءٍ ، وأخذ منه سبعمائة أسير ، فقتل بعضا ، وأرسل إلى دمشق الباقين ، ثم عاد إلى دمشق مؤيدا منصورا . غير أنه مات من أمرائه عشرة ؛ بسبب ما نالهم من الحر والوباء فى مدة الحصار ، وكانت أربعة وعشرين يومًا[٢] .

وعاد الناس إلى زيارة مشهد يعقوب (عليه السلام) على العادة القديمة ، وكان الحصن المذكور الذى بناه الإفرنج قريبا من صفد ، وكان عرض سوره عشرة أذرع ، وارتفاعه أربعون ذراعا[٣] ، وكان بيت الأحزان - الذى يزعمون أن يعقوب - (عليه السلام) - كان - ينفرد فيه ويبكى على يوسف[٤] - كنيسةً ، فجعله السلطان مسجدًا . وقد امتدحه الشعراء ، فقال بعضهم وهو أحمد بن نقادة الدمشقى :

هَلاكُ الفرنجِ أَتَى عاجِلاً وَقدْ آنَ تَكْسِيرُ صُلْبانِها
ولو لم يكُنْ قدْ دَنا حَتْفُها لما عمَّرَتْ بيتَ أحْزانِها[٥]

---

(١) «قارون» فى الروضتين ، جـ ٢ ق ١ ، ص٢٦ .

(٢) ورد فى الروضتين ، والبداية والنهاية ، والسلوك أن مدة مقام السلطان على الحصن من حصاره إلى فتحه «أربعة عشر يومًا» . انظر : الروضتين ، جـ٢ ق١ ، ص٣٠-٣١ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٤ ؛ السلوك ، جـ ١ ق ١ ، ص٦٧ (طبعة ١٩٣٤) .

(٣) انظر تفصيل وصف الحصن فى الروضتين ، جـ ٢ ق ١ ، ص٣٥ .

(٤) توجد كلمة «عليه» فى الأصل وقد حذفت لاستقامة النص . وتوجد تخريجة فى هامش نسخة أ ولكنها غير واضحة القراءة .

(٥) انظر : تفاصيل تخريب هذا الحصن فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٦ .

ذكر الأمور المزعجة

منها كان غلاء شديد بسبب قلة المطر[١] ، وعَمَّ العراق والشام وديار مصر ، واستمر إلى سنة خمس وسبعين ، فجاءَ المطر ، ورخصت الأسعار ، ولكن تعقب ذلك وباء شديد ، وعم البلاد مرض واحد هو [السرسام][٢] ، فما ارتفع إلا فى سنة ست وسبعين ، فمات فى ذلك الوباء خلق كثير ، وأمم لا يعلم عددهم إلا الله عز وجل .

وفى المرآة[٣] : وفى هذه السنة [٢١٤و] وقع الغلاء ببغداد والوباء ، فأكل الناس أولادهم ، وماتوا على الطرق .

ومنها أنه زلزلت أرمينية وبلاد إربل ، وتصادمت الجبال بحيث كان بين الجبلين مسافة ، فتقلعهما الزلزلة فيصطدمان ، ثم يعودان إلى مكانهما .

ومنها أنه انكسف القمر بعد ثلث الليل الأخير ، ليلة النصف من ربيع الأول[٤] ، فبقى على حاله إلى أن غاب بعد طلوع الشمس .

وانكسفت الشمس يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ربيع الأول وقت العصر ، فبقيت إلى وقت الغروب .

وقال ابن الجوزى[٥] : وحكى لى ثقات أن الأرض زلزلت بعد العصر يوم السبت ثانى عشر ذى القعدة أربع مرات ، ولم أحس أنا بذلك .

ومنها أن امرأة ولدت فى بطن واحد ثلاثة أولاد ، ابن وبنتان ، فعاشوا بعض يوم ، وذلك فى جمادى الأولى ، قاله ابن الجوزى[٦] ، وذكر أنها فى جيرانهم .

---

(١) انظر تفاصيل هذا الغلاء فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٢ .

(٢) «البرسام» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٢ ؛ الروضتين ، جـ٢ ق١ ، ص١٣ . والسرسام :ورم فى حجاب الدماغ تحدث عنه حمى دائمة . وتتبعها أعراض رديئة كالسهر واختلاط الذهن . ويبدو أنه الحمى الشوكية . انظر : المعجم الوسيط ، جـ١ ، ص ٤٢٨ .

(٣) انظر هذه الأحداث فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٤ .

(٤) «ربيع الآخر» فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٣ .

(٥) انظر المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٥٢ .

(٦) المنتظم ، جـ ١٨ ، ص ٢٤٨ .

ذكر بقية الحوادث

منها أن تاريخ ابن الجوزى انتهى فى هذه السنة ، وهو الذى سماه «كتاب المنتظم فى تاريخ الأمم» .

ومنها أن الفرنج قصدوا مدينة حماة ، وكثر جمعهم من الفرسان والرجالة ، طمعا فى النهب والغارة ، فشنوا الغارة ونهبوا وأحرقوا وأسروا وقتلوا . فلما سمع العسكر المقيمون بحماة ساروا إليهم ، متوكلين على الله تعالى لأنهم كانوا عدة قليلة ، وصدقوا القتال ، فنصرهم الله ، وانهزمت الإفرنج ، وكثر القتل والأسر ، واستردوا منهم ما غنموه . ووصل صلاح الدين إلى حماة ، وأمر بإحضار الأسارى وقتلهم ، فأحضروا وقتلوا[١] .

ومنها أن فى سلخ ذى القعدة خطب المستضىء لولده أبى العباس أحمد الناصر بإشارة جهة الخليفة بنفشة ، وكان الخليفة قد مرض فى شوال .

ومنها أن السلطان ختن ولده الملك العزيز عثمان ، فاتخذ له يوسف بن الحسين ـ ويعرف بابن المجاور ـ معلما[٢] ، وتسلم فرخشاه بعلبك .

..................................[٣]

وفيها حج بالناس من العراق طاشتكين ، ومن الشام صفى الدين بن القايض ، وزير صلاح الدين الملك .

ذكر من توفى فى هذه السنة من الأعيان

أحمد بن عيسى بن أبى غالب أبو العباس الأبروزى الضرير[٤] ؛ قرأ القرآن ، وسمع الحديث ، وتفقه ، وناظر ، وكان فيه دين ، توفى يوم الجمعة عاشر رجب ، ودفن بمقبرة أحمد بن حنبل ـ (رضي الله عنه) ـ .

---

(١) انظر تفاصيل هذا الخبر فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٩١ ؛ السلوك ، جـ١ ق١ ، ص٦٦ .

(٢) أورد المقريزى هذه المناسبة فى أحداث سنة ٥٧٥هـ . انظر : السلوك جـ١ ق١ ، ص٧٠ .

(٣) بياض بمقدار سطر وكلمة فى نسختى المخطوطة أ ، ب .

(٤) انظر ترجمته فى المنتظم ، جـ١٨ ، ص٢٥٣ .

أسعد بن بلدرك[١] **أبو أحمد الجبريلى** ؛ سمع الحديث ، وكان شيخًا ظريفا حسن الذاكرة ، جيد البادرة ، سريع المبادرة ، توفى فى هذه السنة عن مائة سنة وأربع سنين .

محمد بن نسيم بن عبد الله أبو عبد الله الخياط ؛ عتيق الرئيس أبو الفضل بن [عبسون][٢] ، سمع الحديث ، وقارب الثمانين ، سقط من درجة ، فمات ، رحمه الله .

أبو الحسن على ، الملقب جلال الدين[٣] **بن أبى جعفر محمد** ، الملقب جمال الدين بن على بن منصور ، وكان جمال الدين هذا وزير صاحب الموصل . وقد ذكرنا ترجمته فى سنة تسع [٤] وخمسين وخمسمائة . وأما جلال الدين أُبو الحسن هذا فهو ابن جمال الدين ، كان من الأدباء والفضلاء البلغاء الكرماء ، وله ديوان رسائل أجاد فيه ، جمعه ابن الأثير الجزرى صاحب «جامع الأصول» ، وسماه «كتاب الجواهر واللآلىء من الإملاء المولوى الوزيرى الجلالى» . وكان ابن الأثير فى أول أمره كاتبا بين يديه ، يملى رسائله وإنشاءه[٢١٤ظ] عليه ، وقد أشار إلى ذلك فى أول كتابه هذا ، وبالغ فى وصف جلال الدين المذكور ، وفَضَّلَهُ على من تقدمه من الفصحاء ، وكان جلال الدين وزير سيف الدين غازى بن قطب الدين[مودود[٥]] بن عماد الدين زنكى ، وتوفى فى هذه السنةبمدينة دنيسر ، وحمل إلى الموصل ، ثم نقل إلى المدنية النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - ودفن فى تربة والده . ودُنَيْسَر بضم الدال المهملة وفتح النون وسكون الياء آخر الحروف ، وفتح السين المهملة وفى آخره راء . وهى مدينة بالجزيرة الفراتية بين نصيبين ورأس عين ، يطرقها التجار من جميع الجهات وهى مجمع[٦] الطرقات ، ولهذا قيل لها دُنيسَر ، وهو لفظ مركب عجمى ، وأصله دُنْياسر ، ومعناه رأس الدنيا ، وعادة العجم فى الأسماء المضافة أن يؤخروا المضاف عن المضاف إليه ، وسَرْ بالعجمى «رأس» [٧] .

---

(١) انظر ترجمته فى البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢١ .
(٢) «ابن عبشون» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . وما أثبتناه بين الحاصرتين من البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٢ .
(٣) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٤٣ـ ١٤٧ .
(٤) «سبع» فى نسخة ب .
(٥) «ممدود» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الباهر ، ص١٨٠ ؛ وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص٤ .
(٦) «ومجمع» فى نسخة ب .
(٧) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

حَيصَ بَيصَ [١] **الشاعر؛ أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن الصيفى** التميمى، الملقب شهاب الدين، المعروف بحيص بيص الشاعر المشهور، وكان فقيها شافعى المذهب، تفقه بالرى على القاضى محمد بن عبد الكريم الوزان، وتكلم فى مسائل الخلاف، إلا أنه غلب عليه الأدب ونظم الشعر، وأجاد فيه مع جزالة لفظه، وله رسائل فصيحة بليغة. ذكره الحافظ أبو سعد بن السّمعانى فى كتاب «الذيل»، وأثنى عليه، وحدث بشيء من مسموعاته، وقرئ عليه ديوانه ورسائله، وأخذ عنه الناس أدباً وفضلا كثيرا، وكان من أخبر الناس بأشعار العرب واختلاف لغاتهم، ويقال إنه كان فيه تيه وتعاظم، ولا يخاطب أحدا إلا بالكلام العربى، وكان يلبس زى العرب ويتقلد سيفاً، وكان يزعم أنه من تميم، فسُئل أبوه عن ذلك، فقال: ماسمعته إلا منه، فقال بعض الشعراء يهجوه فيما ادعاه من ذلك:

كم تُطيلُ الطَّراطِيرَ وما ... فيك شَعْرةٌ من تميم[٢]

فكُل الضَّبَّ وابلع[٣] الحنْظلَ اليا ... بِسَ واشرَبْ إن[٤]شئْتَ بَولَ الظَّليمِ[٥]

ليسَ ذا وجهُ مَنْ يُضيفُ ولايُقْ ... ـرِى ولا يدْفَع الأَذَى عن حريمِ

ومن شعر حيص بيص المستجاد:

سلامةُ المرءِ سَاعةً عجبُ ... وكل شيء [لِحَتْفِهِ][٦] سبَبُ

يَفِرُّ والحادثاتُ تَطلبُهُ ... يَفرُّ مِنْها ونحوَها الهربُ

وكيفَ يبْقَى على تَقلبِهِ ... مسَلَّمًا مَنْ حياتُه عطبُ[٧]

---

(١) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان، جـ٢، ص٣٦٢ ـ ٣٦٥؛ الكامل، جـ ١٠، ص٩٣؛ البداية والنهاية، جـ ١٢، ص٣٢١ ـ ٣٢٢.

(٢) كم تبادى وكم تطول طرطو ... رك؟ ما فيك شعره من تميم

هكذا ورد البيت الأول فى وفيات الأعيان، جـ ٢، ص٣٦٤؛ البداية والنهاية، جـ ١٢، ص٣٤١.

(٣) «واقْرطِ» فى وفيات الأعيان، جـ ٢، ص٣٦٤.

(٤) «ما» فى وفيات الأعيان، ج٢، ص٣٦٤.

(٥) الظليم: ذكر النعام. والجمع ظُلمان. انظر: المعجم الوسيط، جـ٢، ص٥٨٣.

(٦) «لحقه» فى نسختى المخطوطة أ، ب. والمثبت من البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٢٢.

(٧) «العطَب» فى البداية والنهاية، جـ ١٢، ص٣٢٢.

ومن شعره أيضا :

لا تلبس الدهرَ على غِــرَّةٍ　　فيها[1] لموتِ الحيِّ مِن بُدِّ
ولا يُخادعْكَ طويلُ البَقاَ　　فتحسبَ الطولَ من الخُلدِ
يقرُبُ ما كانَ لهُ آخرٌ　　ما أقْرَبَ المهْدَ مِنَ اللَّحْدِ

وقال ابن خلكان[2] : وإنما قيل له حيص بَيْص لأنه رأى الناس يوما فى حركة مزعجة وأمر شديد ، فقال : ما للناس فى حيص بيص ، فبقى عليه هذا اللقب ، ومعنى هاتين الكلمتين الشدة والاختلاط . تقول العرب : وقع الناس فى حيص بيص ، أى فى شدة واختلاط . وتوفى ليلة الأربعاء سادس عشر شعبان سنة أربع وسبعين وخمسمائة ببغداد ، ودفن فى مقابر قريش .

شُهْدَة بنت أحمد بن الفرج بن عمر الإبرى[3] ؛يقال لها فخر النساء الكاتبة[٢١٥و] سمعت الحديث الكثير ، وكتبت الخط الحسن ، وكانت مخالطة لدار الخلافة ، وكان لها برٌّ ومعروف وصدقات ، وكانت جليلة القدر ، توفيت ليلة الاثنين الرابع عشر من محرم هذه السَّنة ، وصلى عليها بجامع المنصور ، وأزيل الشباك الذى فى مقصورة الخطابة ، فيقال أن الخليفةصلى عليها وشهدها أرباب الدولة ، ودفنت بباب أبرز ، سمعت مشايخ العراق وجعفر بن أحمد السراج ، وروت عنه مصارع العشاق ، وسمعت من طراد الزينبى وغيرهما ، وقرىء عليها الحديث سنين ، وعمّرت حتى قاربت المائة ، وذكرها ابن الجوزى[4] فى مشيخته وقال : أخبرتنا شُهدة الكاتبة بقراءتى عليها فى صفر سنة سبع وخمسين وخمسمائة . وقال السبط[5] : وروى لنا عنها جماعة ، وكانت صالحة ثقة .

---

(١) «فما» فى البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٢ .
(٢) انظر وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ص٣٦٥ .
(٣) وردت ترجمتها فى المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٥٤ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٤ ؛ وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ص٤٧٧ ـ ٤٧٨ .
(٤) انظر : المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٥٤ .
(٥) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٤ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الخامسة والسبعين بعد الخمسمائة*

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضىء ، ولكنه توفى فى هذه السنة .

ذكر وفاة الخليفة

والكلام فيه على أنواع :

الأول فى ترجمته : هو أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن أمير المؤمنين ، يوسف المستنجد بالله بن أمير المؤمنين ، أبى عبد الله محمد المقتفى لأمر الله[١] ، وباقى النسب قد ذكرناه غير مرة ، وأمُّه أم ولد تدعى خاتون ـ كذا فى عيون المعارف .

وقال ابن كثير[٢] : وأمُّه أرمنيَّة تدعى غضة[٣] ، وكان مولده فى شعبان سنة ست وثلاثين وخمسمائة . بويع له بالخلافة يوم مات أبوه ، وجلس بكرة يوم الأحد تاسع ربيع الآخر سنة ستين وخمسمائة .

الثانى فى سيرته : كان جوادا عادلا ، شريف النفس ، حسن السيرة ، ليس للمال عنده قدر ، حليمًا مشفقًا على الرعيَّة ، أسقط المكوس والضرائب ، وكان متواضعا .

وقال ابن كثير[٤] : وكان من خيار الخلفاء ، أمَّارًا بالمعروف ، نَهَّاءً عن المنكر ، دَرَّاءً عن الناس البِدعَ والمصائب ، وكان حليما وقورا كريما .

وفى تاريخ ابن العميد : كان عادلا جوادا مؤثرًا للخير ، أكثر من الخير والعدل ببغداد مالم يُرَ مثله فى الزمن المتطاول ، ونادى برفع المكوس والمظالم ، وردَّ أملاكا كثيرة كانت قد اغتصبت ، وفرق أموالا جزيلةً على بنى هاشم والفقهاء والصوفيّة وغيرهم ، خطب له بالديار المصرية والشامية واليمن .

---

* يوافق أولها ٨ يونيو ١١٧٩م .

(١) انظر ترجمته فى شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص٢٥٠ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٢٨١ ؛ الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٧ ؛ تاريخ الخلفاء ، ص٤٤٤ .

(٣) «عصمت» فى البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٢٨١ .

(٤) انظر البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٢٥ .

الثالث فى وفاته : توفى ليلة الأحد ثانى ذى القعدة من هذه السَّنة . وقال ابن كثير[١] : ولما كان يوم السَّبت سلخ شوال من هذه السنة مات الخليفة المستضىء بأمر الله ، وكان مرضه بالحمّى ، ابتدأ بها فى يوم عيد الفطر ، ولم يزل الأمر يتزايد به حتى استكمل فى مرضه شهراً ، فمات فى سلخ شوال ، وله من العمر تسع وثلاثون سنة .

وكانت مدة خلافته تسع سنين وثلاثة أشهر[٢] وسبعة عشر يوماً ، وغُسل وصلى عليه من الغد ، ودفن بدار القصر التى بناها ، وذلك عن وصيته التى أوصى بها ، وترك من بعده ولدين ، أحدهما : ولىُّ العهد عدة الدين والدنيا أبو العباس أحمد الناصر لدين الله ، والآخر : أبو منصور هاشم .

وفى تاريخ ابن العميد : وفى سنة خمس وسبعين لثلاثة مضين من جمادى الآخرة كانت وفاة المستضىء بأمر الله ، فكانت مدة خلافته تسع سنين وثمانية أيام ، أولها [٢١٥ظ] يوم الجمعة وآخرها يوم السبت ، لتتمة خمسمائة وأربع وسبعين سنة وتسعة أشهر وستة وعشرين يوما للهجرة ، ولتمام ست آلاف وستمائة وإحدى وسبعين سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام للعالم شمسية .

وفى المرآة[٣] : وتوفى المستضىء فى ثانى ذى القعدة عن ست وثلاثين سنة ، وكانت خلافته تسع سنين وستة أشهر وعشرين يوما ، ودفن فى داره ، ثم نقل بعد ذلك إلى تربته المجاورة لجامع عز الدولة ، وقد وزَّر له جماعة من الرؤساء .

ذكر خلافة الناصر لدين الله

أبى العباس أحمد بن المستضىء بأمر الله ، وهو الرابع والثلاثون من خلفاء بنى العباس ، بويع له يوم توفى أبوه فى سلخ شوال منها ، بايعه الأمراء والوزراء والخاصة والعامة ، وكان قد خُطب له فى حياة أبيه على المنابر قبل موته بيسير ، فقيل إنما عهد إليه قبل موته بيوم . وقيل بأسبوع ، ولكن قدَّر الله عز وجل أنه لم يختلف عليه اثنان ، ولقب بالخليفة الناصر لدين الله .

---

(١) انظر : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٥ .

(٢) ذكر ابن الأثير أن مدة خلافته «نحو تسع سنين وسبعة أشهر» ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٧ ؛ وسبط ابن الجوزى ذكرها «تسع سنين وستة أشهر وعشرين يومًا» مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٦ .

(٣) انظر : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٦ .

وقال ابن كثير[١] : ولما توفى المستضىء أرادت زوجته الجهة بنفشا أن تكتم ذلك ، فلم تُمكَّن منه ، ووقعت فتنة كبيرة ببغداد ، ونهبت العامة دورا كثيرة وأموالاً جزيلة ، فلما كان يوم الجمعة الثانى والعشرين من شوال خطب لولى العهد أبى العباس أحمد بن المستضىء ، وهو الخليفة الناصر لدين الله ، وكان يوما مشهودا ، نثر الذهب على الخطباء والمؤذنين ومن حضر ذلك عند ذكره على المنبر والتنويه باسمه .

وفى المرآة :[٢] وكانت بيعته يوم الاثنين ثانى ذى القعدة وله ثلاث أو اثنان وعشرون سنة ، وتولى أخذ البيعة له ظهير الدين بن العطار[٣] صاحب المخزن على الرغم منه ؛ لأنه كان يميل إلى أخيه الأمين أبى منصور ، خائفا من أبى العباس ، وحضر القضاة والأشراف وبنو هاشم وغيرهم ، وأخوه أبو منصور ، وضياءُ الدين بن الشهرزورى ، رسول السلطان صلاح الدين ، وبايعوه . وقبض فى ذلك اليوم على سعد الشرابى ، وكان المستضىء أراد أن يعهد إلى الأمير أبى منصور ، فقالت له بنفشا : الله الله أن تعدل عن أبى العباس ، فرأى لها ذلك ، وبعث شيخ الشيوخ عبد الرحيم وصندل الخادم إلى صلاح الدين بالبيعة . وفى يوم الجمعة سابع ذى القعدة قبض على ظهير الدين بن العطار صاحب المخزن ، وعلى مسعود النقيب .

وفى تاريخ المؤيد[٤] : وكان قد حكم فى دولة المستضىء ظهير الدين أبو بكر منصور ابن نصر المعروف بابن العطار بعد قتل عضد الدين الوزير ، فلما مات المستضىء قام ظهير الدين بن العطار وأخذ البيعة لولده الإمام الناصر لدين الله . ولما استقرت البيعة للناصر حكم أستاذ الدار مجد الدين أبو الفضل ، فقبض فى سابع ذى القعدة على ظهير الدين بن العطار ، ونُقل إلى التاج ، وأُخرج ميتا على رأس حمال ليلة الأربعاء [ثانى عشر ذى القعدة][٥] ، فثارت به العامَّة وألقوه عن رأس الحمال ، وشدُّوا فى ذكره حبلا وسحبوه

(١) انظر : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٥-٣٢٦ .

(٢) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٥ ـ ص٢٢٦ .

(٣) هو : ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر ـ المعروف بابن العطار ـ المتوفى سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م . وسترد ترجمته بعد قليل .

(٤) انظر : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ٦٢ .

(٥) «الثانى والعشرين من ذى القعدة» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص٦٢ ؛ أما ابن الأثير فيذكر أنها «ليلة الأربعاء ثامن عشر ذى القعدة» . انظر : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٩٨ .

فى البلد ، وكانوا يضعون فى يده مغرفة ، يعنى أنها قلم ، وقد غَمَس تلك المغرفة فى العذرة ،ويقولون : وقِّعْ لنا ياмولانا ، هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم ، وكفه عن أموالهم ، ثم خلص منهم ودُفِن .[٢١٦و]

وفى المرآة[١] : ابن العطار هو صاحب المخزن ، ونائب الوزارة ، واسمه منصور بن نصر بن الحسين أبوبكر ، ويلقب بظهير الدين ، وكان هو الذى تسبب[٢] لقتل الوزير ابن رئيس الرؤساء ، وكان فى عزمه أن يولى الخلافة أبا منصور ، فانخرمت عليه القاعدة ، فلما بويع الإمام الناصر لمَ يحضر واعتذر بالمرض ، وإنما كان به مرض القلب ، حيث تيقن الهلاك ، وقبض عليه الخليفة فى السابع من يوم بيعته ، ووكل به فى حجرة فى داره ، وقبض على أصحابه ، ونهبت دورهم ، ونهبت العامة داره وأحرقوا سقوفها ، وكانت على دجلة . فلما كانت ليلة السبت ثامن ذى القعدة نُقل إلى التاج وقُيِّد ، وأُخرج ليلة الأربعاء حادى عشر ذى القعدة ميتا ، وفيه آثار الضرب ، فسلم إلى [أخيه فغسله وكفنه][٣] . فلما كان وقت الفجر من يوم الأربعاء أخرج فى تابوت على رؤوس الحمالين ؛ ليذهبوا به إلى قبر أحمد بن حنبل ، وبلغ التابوت إلى [عقد][٤] الحديد ، فصاح بعض الناس ياعوام هذا ابن العطار الذى سلط عليكم مسعود النقيب ، فأخذ أموالكم وفعل وفعل ، ورجمه بآجُرَّة وتتابع الآجُر ، فرمى الحمالون وانهزموا ، فجردوه من الكفن ، وجعلوا فى رجله شريطا وشحطوه[٥] فى دروب بغداد ، وصاحوا عليه ياعجيل بن عجيل ، وشوهوا به[٦] ومثلوا به أقبح مثله ، وكان مسيئا إلى الخلق الخاص والعام والعسكر والرعية ، ثم أنهم جمعوا له حطباً ليحرقوه ، بعد أن قطعوه قطعا قطعا ، فركب فطرس شحنة بغداد وأراد أن يخلصه منهم ، فرجموه وقاتلوه إلى الليل ، فحجز الليل بينهم[٧] ، وبقى من لحمه قطعة ، فجاء [الناس][٨] فحملوها إلى مقابر أحمد ، فدفنوها بها .

---

(١) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٢٨ ؛ انظر أيضًا : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص٨٥ .

(٢) «سببًا لقتل» فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٢٨ .

(٣) «أخته فغسلته وكفنته» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٨ .

(٤) «عند» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٢٨ حيث ينقل العينى عنه .

(٥) «فشحططوه» فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٢٩ .

(٦) «وشبهوا» فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٢٩ .

(٧) «فحجز بينهم الليل» فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٢٩ .

(٨) «ناس» فى نسخة أ ؛ «وأناس» فى نسخة ب ، والمثبت بين الحاصرتين من مرآة الزمان حيث ينقل العينى عنه ، جـ٨ ، ص ٢٢٩ .

وظهير الدين[هذا][١] هو ابن الشيخ نصر بن العطار الحرانى[٢] صاحب الصدقات ، والمعروف بالبر والصلات والفضائل والكرامات .

ذكر بقية الحوادث

منها أن فى ذى القعدة نزل توران شاه أخو السلطان صلاح الدين عن بعلبك ، وطلب عوضها الإسكندرية ، فأجابه السلطان صلاح الدين إلى ذلك ، وأقطع بعلبك لعز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، فسار إليها فرخشاه ، وسار شمس الدولة توران شاه إلى الإسكندرية ، وأقام بها إلى أن مات بها [٣] .

ومنها أنه كانت زلزلة عظيمة انهدم بسببها قلاع كثيرة وقرى ، ومات خلق كثير ، وسقط من رؤوس الجبال صخور كبار ، وصارت بين الجبال فى البرية مع بعد مابينها من الأقطار[٤]

ومنها أنه أصاب الناس غلاء شديد وفناء عظيم ، فلله الأمر من قبل ومن بعد . . . . [٥]

وفيها حج بالناس طاشتكين من العراق ، ومن الشام صفى الدين بن القايض وزير صلاح الدين [٦] .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

إبراهيم بن على أبو إسحق السلمى ؛ الفقيه الشافعى المعروف بابن الفراء الآمدى[٧] ثم البغدادى ، كان فقيها بارعا فاضلا مناظرا فصيحا بليغا شاعرا مطبقا ، مات فى هذه السنة عن أربع وسبعين[٢١٦ظ] سنة ، وصلى عليه أبو الحسن القزوينى مدرس النظامية[٨] .

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٢٩ ، حيث ينقل العينى عنه .

(٢) هو : أبو بكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار ، لمعرفة المزيدعنه انظر : الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٧- ٩٨ .

(٣) نقل العينى هذا الخبر عن : المختصر ، جـ ٣ ، ص٦٢ ؛ انظر أيضًا الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٩٨ - ٩٩ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٤ .

(٤) انظر : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٥ ، حيث نقل العينى هذا الخبر عنه بتصرف .

(٥) بياض بمقدار سطر ونصف فى النسختين .

(٦) «صفى الدين بن القابض» فى الروضتين ، جـ ٢ ق١ ص٤٢ .

(٧) «الأموى» فى البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٥ .

(٨) عن المدرسة النظامية ببغداد ، انظر السبكى : طبقات الشافعية ، جـ ٣ ، ص ١٣٦ .

إسحق وإسماعيل ابنا أبي منصور موهوب بن الجواليقى ؛ فأما إسحق ، فكنيته أبو طاهر ، ولد فى سنة تسع عشرة وخمسمائة ، وقرأ عليه ابنه الأدب والحديث ، وسمع من [ابن][1] الحصين وغيره ، ومات فى رجب ، ودفن فى باب حرب . وأما إسماعيل : فكنيته أبومحمد ، ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وقرأ عليه ابنه الأدب ، وبرع فيه ، وسمع من [ابن][1] الحصين ، وابن السمرقندى وغيرهما ، وأقرأ الأدب بعد أبيه ، وروى عنه جماعة منهم عبد العزيز بن الأخضر ، وكان يثنى عليه ويقول : هو فى النسك والعبادة أبلغ من أبيه .

وقال ابن كثير[2] : لقب إسماعيل المذكور حجة الإسلام ، أحد أئمة اللغة فى زمانه ، والمشار إليه من بين أقرانه بحسن الدين ، وقوة اليقين ، وعلم اللغةوالنحو ، وصِدْق اللهجة ، وخلوص النية ، وحسن السيرة .

المبارك بن على بن الحسين[3] بن عبد الله بن محمد أبو محمد بن الطباخ البغدادى ؛ نزيل مكة ومجاورها ، وحافظ الحديث بها ، والمشار إليه بالعلم فيها ، مات فى هذه السنة ، وكان يوم جنازته يوما مشهودا .

محمد بن الحسين أبو الفرج الهيتى ؛ وُلد بهيت[4] سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، وسكن بغداد ، وكان فاضلا ، له نظم ونثر ، فمن النظم :

يارَاقِـداً أَسْـهَـرَ لى مُـقلةً ... [عَـزِيزةً][5]عندى وأبْكاها
مـاآن للهـجـران أَنْ ينقَـضىِ ... عن مُـهْـجـةٍ هَجْـرُك أضنَاها
إنْ كُنتَ مـاترحَـمنى فَـارتَقِبْ ... ياقَـاتِلى فى قَـتْلِى اللَّهَ

---

(١) (١) «أبى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٢٦ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ١١ ، ص٣٢٥ ؛ شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص ٢٤٩ـ ٢٥٠ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٢٦ .

(٣) «الحسن» فى البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٢٦ ؛ انظر ترجمته أيضًا فى الشذرات ، جـ ٤ ، ص٢٥٣ـ ٢٥٤ ؛ الذهبى : العبر ، جـ ٤ ، ص ٢٢٦ .

(٤) هِيتُ : سميت هيت لأنها فى هوة من الأرض . وهى بلدة على الفرات من نواحى بغداد فوق الأنبار . وبها قبر عبدالله بن المبارك . انظر : معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص٤٢٠ ـ ٤٢١ (ط بيروت ـ دار صادر) .

(٥) «غريرة» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٢٧ .

ومن النثر : من كان الصمت شجرته ، كانت السلامة ثمرته . فى احتراز اللبيب مايغنيه عن الطبيب . من ترك المِرا استمال الورى . وكانت وفاته فى شعبان ، ودفن بباب حرب ، سمع عبد الوهاب الأنماطي وغيره ، وروى عنه مشايخ السبط[١] .

محمد بن محمد بن عبد الكريم أبو الفرج بن الأنبارى ؛ كاتب الإنشاء بديوان الخليفة ، ولد سنة سبع وخمسمائة ، وهو من بيت الرئاسة والكتابة ، ناب فى الديوان من حين توفى والده سديد الدولة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة إلى هذه السنة ، وكانت وفاته فى ذى القعدة ، وصلى عليه بجامع القصر ، ودفن عند والده بمقابر قريش ، سمع أبامحمد بن أحمد السمرقندى وطبقته ، وكان فاضلا عاقلا نزها عفيفا .

محمد بن على بن أحمد بن على بن محمد أبو الفتح الدامغانى بن قاضى القضاة [أبى الحسن][٢] ؛ من بيت الرئاسة والفضل والقضاء ، استنابه أبوه فى القضاء ، وكان فاضلاً نزها عفيفاً ، توفى وهو شاب فى شوال ، ودفن بنهر القلائين ، وبها كانت منازلهم .

علم بنت عبد الله بن المبارك ؛ زوجة الزبيدى شيخ الوزير ابن هبيرة ، كانت تضاهى رابعة العدوية ، تقرأ القرآن ، ولاتفتر من الذكر ، ولم يكن فى زمانها مثلها ، وكانت صابرة على الفقر ورعة ، توفيت ببغداد ، وعمرها[٣] مائة سنة وست سنين ، لم يتغير عليها من حواسها شىء ، بل كأنها يوم ولدت . وفى المرآة[٤] : مرض ولدها أحمد بن الزبيدى ، فاحتضر ، وجاء وقت الصلاة فقالت : يابنى ادخل فى الصلاة ، فدخل وكبر فمات ، فخرجت إلى النساء وقالت : هنيننى . قلن : بماذا؟ قالت : مات ولدى فى الصلاة ، رضى الله عنها وعن ولدها .

---

(١) نقل العينى هذه الترجمة من مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص٢٢٧ .

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة للإيضاح من مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٢٨ .

(٣) «لها» فى نسخة ب .

(٤) انظر مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص٢٢٧ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص٨٥ .

[٢١٧و] فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة السادسة والسبعين بعد الخمسمائة*

استهلت هذه السنة والخليفة هو الإمام الناصر لدين الله العباسى ، وسلطان مصر والشام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وصاحب حلب الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود ، وصاحب الروم - صاحب قونية وأقصراى - قليج[١] أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان ، وصاحب مملكة العجم ابن بهلوان ، وصاحب الغورية ابن سام ، وصاحب الموصل والجزيرة غازى بن مودود ، وصاحب خلاط شاهرمَنْ ، وصاحب ماردين أيلغازى بن نجم الدين إلبى ، وصاحب حصن كيفا وآمد نور الدين محمد بن قرا أرسلان ، وصاحب إربل زين الدين يوسف بن على كوجك ، وصاحب مكة الأمير داود بن عيسى بن محمد بن أبى هاشم ، وصاحب الغرب أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وصاحب غزنة شهاب الدين الغورى .

ذكر ماجريات صلاح الدين رحمه الله

منها أنه سار بعساكره إلى أن وصل [إلى][٢] رَعْبَانَ ؛ منجداً نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا على قليج أرسلان«بن»[٣] مسعود ملك الروم ، وسبب ذلك أن نور الدين بن قرا أرسلان تزوج بابنة قليج أرسلان ، ثم أحب مغنية وتركها[٤] نسيا منسيا ، فشكت حالها إلى أبيها ، فعزم على قصد بلاده ، فأرسل نور الدين إلى صلاح الدين ؛ يستنجده ويسأله كف يد قليج أرسلان ، فأرسل صلاح الدين إلى قليج أرسلان فى ذلك ، فأعاد الجواب : إننى كنت عند تزويجه ابنتى دفعت إليه عدة حصون ، ولابد من إعادتها إلىَّ . وكان صلاح الدين قد هادن الفرنج ، فسار فى عساكره نحو بلاد قليج أرسلان ، وهى ملطية وسيواس وقونية ومابينها ، فلما سمع قليج أرسلان بقربه منه ، أرسل

---

* يوافق أولها ٢٨ مايو ١١٨٠م .

(١) «قلج» فى الكامل ، جـ١٠ ، ص١٠١ .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من نسخة أ . والمثبت من نسخة ب .

(٣) ما بين الأقواس ساقط من ب .

(٤) يذكر ابن الأثير : «أنه أحب مغنية فتزوجها ، ومال إليها ، وحكمت فى بلاده وخزائنه ، وأعرض عن ابنة قلج أرسلان ، وتركها نسيًا منسيًا» . الكامل ، جـ١٠ ، ص١٠١ .

إلى بعض أمرائه ، وذكر له بعض الحديث الذى جرى منه ، فقال صلاح الدين للرسول : قل لصاحبك : لئن لم يرجع عن بلاده ، لأسيرن إلى ملطية ، ولا أنزل عن فرسى إلا فى البلد[١] . وكان الرسول قد عاين جيشا عظيما ، وكان عاقلا أديبًا ، فقال لصلاح الدين : أريد أقول للسلطان كلاما لم يرسلنى به أستاذى ، فقال له : قل ، فقال : تعطينى الأمان . فقال : قل وأنت آمن . فقال : يامولانا أمَا هو قبيح بمثلك ، وأنت أعظم السلاطين قدرًا وأكبرهم شأنًا ، أن يسمع الناس عنك أنك صالحت الفرنج ، وتركت الغزو ومصالح المملكة ، وأعرضت عن كل مافيه صلاح لك ولرعيتك وللمسلمين عامة ، وخسرتَ أنت وعسكرك الأموال العظيمة ؛ لأجل قحبة مغنية ، مايكون عذرك عند الله تعالى ، ثم عند الخليفة وملوك الإسلام وكافة العالم؟ وهَبْ أن أحداً مايواجهك بهذا ، أمَا يعلمون أن الأمر كذا ، ثم احسب أن قليج أرسلان مات ، وهذه ابنته قد أرسلتنى إليك ؛ تستجيرُك وتسألك أن تنصفها من زوجها ، فإن فعلتَ فهو الظن ، وإن لم يكن أفيَحْسُنُ بك أن تردَّها . [٢١٧ظ] فقال صلاح الدين : الحق بيدك ، وإن الأمر لكما تقول ، ولكن هذا الرجل دخل على ، واستجار بى ، ويقبح بى تركه ، ولكنى أجتمع به وأصلح الحال بينكم على ماتحبون ، وأعينكم عليه[٢] ، ووعد من نفسه بكل جميل . واجتمع الرسول بنور الدين بن قرا أرسلان ، وتردد القول بينهم ، فاستقر له أنه يخرج المغنية بعد سنة ، وإن لم يفعل ينزل صلاح الدين عن نصرته ، ويكون هو وقليج أرسلان عليه .

ولما تقرر الحال على ذلك قصد صلاح الدين بلاد ابن لاون ، وذلك أنه كان قد استمال قوماً من التركمان ، وبذل لهم الأمان[٣] ، وأمرهُم أن يرعوا مواشيهم فى بلاده ، وهى بلاد حصينة منيعة كثيرة الوعر ، ثم غدر بهم ، وسبى حريمهم ، وأخذ أموالهم ، وأسر رجالهم ، وقتل منهم جماعة ، فنزل صلاح الدين على النهر الأسود[٤] ، وبث بلاده ، فخاف ابن لاون على حصن له على رأس جبل أن يؤخذ ، فخرّبه وأحرقه ، وهو يسمى

---

(١) «الباب» فى نسخة ب .

(٢) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٠١-١٠٢ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٤٧ ؛ سنا البرق الشامى ، ص٣٤٥-٣٤٦ .

(٣) «الأموال» فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص١٠٣ .

(٤) النهر الأسود : هو نهر قريب من النهر الأزرق فى طرف بلاد المصيصة وطرسوس . معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص٨٣٢ .

حصن النَّقِير[١] ، وسمع صلاح الدين بذلك فأسرع السير ، فأدركه قبل أن ينقل مافيه من ذخائر وأقوات فغنمها ، وانتفع المسلمون بما غنموه ، فأطلق ابن لاون من عنده من أسرى التركمان ، وأعاد السبى والأموال .

وعاد صلاح الدين وتوجه إلى مصر ومعه الملك الظاهر غازى والملك العزيز ولداه ، واستخلف على الشام ودمشق عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أخيه [٢] .

ومنها أن فى رجب قدمت رسل الخليفة الناصر لدين الله ومعهم خلع وهدايا إلى الملك الناصر صلاح الدين ، فلبس السلطان خلع الخليفة بدمشق ، وزينت له البلاد ، وكان يوما مشهودًا[٣] .

وفى المرآة[٤] : وفيها وصل شيخ الشيوخ وصحبته رسول الخليفة إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ومعهما خلع وهدايا فلبس السلطان الخلع بدمشق ، وزينت له المدينة ، وكان يوماً مشهودا .

ومنها أن السلطان سار من الشام إلى الديار المصرية ، لينظر فى أحوالها وأمورها ، ويصوم بها رمضان ، ومن عزمه أن يحج عامه ذلك إلى بيت الله الحرام ، واستناب على الشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب . وكتب القاضى الفاضل عن الملك العادل أبى بكر نائب مصر إلى أهل اليمن ومكة ؛ يعلمهم بعزم السلطان على الحج فى هذا العام إلى المسجد الحرام ، ليتأهبوا للملك ، ويهتموا به . واستصحب السلطان معه صدر الدين أبا القاسم عبد الرحيم شيخ الشيوخ ببغداد ، الذى قدم فى الرسلية من جهة الخليفة ؛ ليكون فى خدمته إلى الديار المصرية ، وفى صحبته إلى الحجاز الشريف ، فدخل السلطان مصر ، وتلقاه الجيش ، وكان يوما مشهودا . وأما صدر الدين فإنه لم يقم بها إلا قليلا ، حتى توجهه إلى الحجاز الشريف فى البحر ، فأدرك الصيام بالمسجد الحرام[٥] .

---

(١) «قلعة شامخة تعرف بالمانقير» فى الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص ٤٨ . وبالرجوع إلى القواميس الجغرافية لم نعثر له على ذكر سواء تحت لفظ النقير أو المانقير .

(٢) ورد هذا النص بتصرف فى الروضتين ، جـ ٢ ق١ ، ص٥٩ ؛ النوادر السلطانية ، ص٥٤ .

(٣) انظر : البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٢٧ .

(٤) انظر : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٢٩ .

(٥) ورد هذا النص بتصرف فى الروضتين ، جـ ٢ ق١ ، ص ٥٨ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٧-٣٢٨ .

وفى المرآة[١] : وإنما ركب شيخ الشيوخ البحر من مصر ، ومضى إلى مكة ؛ لنذر كان عليه ، وأقام إلى أيام الموسم ، وحج وعاد إلى بغداد[٢] .

ذكر بقية الحوادث

منها أن عرب سُليم[٣] نافقت [٢١٨و] بالبحيرة ، واجتمعوا فى ستة آلاف فارس ، فخرج إليهم أبو الهيجاء السمين فى ألفى فارس ، فكسرهم ونهبهم .

ومنها أن أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن[٤] سار إلى إفريقية ، وملك قَفْصَة[٥] ، وكان سبب ذلك أن صاحبها على بن المعز بن المعتز لما رأى دخول الترك إلى إفريقية واستيلاءهم على بعضها ، وانقياد العرب [إليهم][٦] ، طمع فى الانفراد عن يوسف ، والاستبداد دونه ؛ لأنه كان فى طاعته ، فأظهر ما فى نفسه وخالفه ، وأظهر العصيان ، ووافقه أهل قفصَة ، فقتلوا كل من كان عندهم من الموحدين أصحاب أبى يعقوب ، وكان ذلك فى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، [فأرسل والى بجاية][٧] إلى يوسف[٨] بن عبد المؤمن [يخبره][٩] باضطراب أمور البلاد واجتماع العربان إلى قراقوش التركى ، ودخوله إفريقية ، واستيلائه ، فشرع يوسف[١٠] فى سَد الثغور التى يخافها بعد مسيره ، ثم تجهز وجمع العساكر ، وسار إلى إفريقية ، ونزل على مدينة قفصة وحصرها ثلاثة أشهر ؛ لأنها مدينة حصينة ، وأهلها أنجاد ، وقطع أشجارها . ولما اشتد على صاحبها على بن المعتز الأمر ، خرج منها مختفيا لم يدر به أحد من أهل البلد ، وسار إلى خيمة يوسف ، وعرَّف

---

(١) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٢٩ .

(٢) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٢٩ .

(٣) عرب سُلَيْم : بطن من جُذام ، من القحطانية ، انظر عمر كحالة : معجم قبائل العرب ، ج٢ ، ص٥٤٠ .

(٤) هو أبو يعقوب يوسف بن أبى محمد عبد المؤمن بن على القيسى الكومى صاحب المغرب ، تولى زعامة الدولة الموحدية من سنة ٥٥٨هـ - ٥٨٠هـ/١١٦٣- ١١٨٤م ، توفى سنة ٥٨٠هـ . وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص١٣٠- ١٣٨ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٣٧١ حاشية ٤ .

(٥) قفصة : بلدة صغيرة فى طرف إفريقيا من ناحية المغرب من عمل الذاب الكبير ، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام . معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص١٥١ .

(٦) «إليها» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الكامل ، ج١٠ ، ص١٠٣ .

(٧) «فأرسلوا إلى بجاية» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والتصحيح من الكامل ، ج١٠ ، ص١٠٣ ، وهذا يتسق مع النص التاريخى .

(٨) «أبى يوسف» فى نسخة ب .

(٩) «يخبرونه» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الكامل ، ج١٠ ، ص١٠٣ .

(١٠) «أبو يوسف» فى نسخة ب .

الحاجب أنه قد حضر إلى أمير المؤمنين ، فدخل الحاجب وأعلم يوسف به ، فعجب منه كيف أقدم على الحضور عنده بغير عهد ! ، وأمر بإدخاله عليه ، فدخل وقبَّل يده ، وقال : قد حضرت إلى أمير المؤمنين ؛ أطلب العفو عنى وعن أهل بلدى ، وأن يفعل ماهو أهله ، واعتذر إليه ، فَرَقَّ له وعفا عنه وعن أهل البلد ، وتسلمها أول سنة ست وسبعين ، وسير على بن المعز صاحبها إلى بلاد المغرب ، فكان فيها مكرماً عزيزاً ، وأقطعه ولاية كبيرة ، ورتب يوسف بقفصة طَائفة كبيرة من أصحابه ، وحضر مسعود بن زمام أمير العرب إليه ، فعفا عنه وسيره إلى مراكش[١] ، وسار يوسف إلى المهدية[٢] ، فأتاه بها رسول صاحب صقلية ؛ يلتمس الصلح منه ، وهادنه عشر سنين ، وعاد يوسف إلى المغرب مسرعاً ، لأن بلاد إفريقية كانت مجدبة ، فتعذر القوت والعلف على عسكره ، فرحل عنها[٣] .

ومنها أن امرأة قدمت إلى القاهرة وهي عديمة اليدين ، وكانت تكتب برجليها كتابة حسنة ، فحصل لها مال جزيل من الملوك والخواتين[٤] ، فقال العماد الكاتب :

أُخْمِلتُ[٥] فى مِصر ومَنْ يلتمسْ		غِناهُ فى غربتِه يخْمُلِ
كتابتى قَدْ كَسَدتْ سُوقها		وحِيلَتى بارَتْ ولم أعْطُلِ[٦]
كيف يَبِينُ الفضْلُ فى بلدةٍ		نِساؤُها يكتُبْن بالأَرْجُلِ

ومنها أن قراقوش التقوى سار إلى بلاد المغرب ، فحاصر قابس[٧] وقلاعا كثيرة حولها ، واستحوذ على أكثرها ، فاتفق أنه أسر من بعض الحصون غلاماً أمرد[٨] ، فأراد

---

(١) مَرّاكُشُ : أعظم مدينة بالمغرب ، فى وسط بلاد البربر ، أول من اختطها يوسف بن تاشفين من الملثمين فى حدود سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م ، بينها وبين جبل دَرَن ثلاثة فراسخ ، وهو فى جنوبها . معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٤٧٨ .

(٢) المَهْدِيّة : فى موضعين ، إحداهما بإفريقية والأخرى اختطها عبد المؤمن بن علىّ قرب سلا ، والتى بإفريقية منسوبة إلى المهدى ، وبينها وبين القيروان مرحلتان ، والقيروان فى جنوبها على ساحل البحر المتوسط ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٩٣ .

(٣) نقل العينى هذا النص بتصرف من الكامل ، ج١٠ ، ص١٠٤ .

(٤) نقل العينى هذا النص بتصرف من النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٨٦ .

(٥) خمل : أى لم يعرف أو يذكر ، انظر مادة «خمل» ، المعجم الوسيط ، ج١ ، ص٢٥٦ .

(٦) «أغطل» فى نسخة ب .

(٧) قابسُ : مدينة بين طرابلس وصفاقص ثم المهدية ، على ساحل البحر من أعمال إفريقية . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣ .

(٨) كذا فى الأصل والروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٦٣ ؛ «أسود» فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٣٢٨ .

قتله ، فقال له أهل الحصن : لا تقتله ، وخذ لك عشرة آلاف دينار ، فأبى ، فوصّلوه إلى مائة ألف دينار ، فأبى إلاقتله فقتله ، فلما قتله نزل صاحب الحصن وهو شيخ كبير «ومعه مفاتيح ذلك الحصن ، فقال له : خذ هذه فإنى شيخ كبير»[١] وإنما كنت أحفظه لأجل هذا الصبى الذى قتلته ، ولى أولاد أخى أكره أن يملكوه بعدى ، فأقره فيه ، وأخذ أموالا كثيرة[٢] .

ومنها أن الخليفة ابتدأ فى هذه السنة بعمارة المسناة [٣] فى الجانب الغربى من بغداد ، وهى قائمة إلى هلم جرا .

ومنها أنه ابتدأ بعمارة تربة المستضىء المجاورة لجامع فخر الدولة . وتولى عمارتها ابن الصاحب أستاذ الدار ، ونقل تابوته إليها .

وفيها ....[٤] .

وفيها حج بالناس من العراق طاشتكين ، ومن الشام سيف الدين على المشطوب .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

مبارك بن على بن الحسين بن الطباخ أبو محمد البغدادى[٥] ؛ نزيل مكة ، أقام بها أربعين سنة يؤم الناس ، حطيم لا يراه أحد فى غير المحرم ، ويعتمر كل يوم ويتعبد ولايراه أحد ، فتوفى فيها بشوال ، ودفن بالمعلى ، سمع أبا القاسم بن الحصين وطبقته ، وكان صالحاً ثقة .

[سعيد][٦] بن عبد الله بن القاسم : أخو كمال الدين الشهرزورى قاضى الشام ، وهذا أصغر أخوة كمال الدين ، ولد سنة ست وخمسمائة ، وكنيته أبو الرضى ، قدم بغداد وتفقه بها ، وسمع شيوخها ، وخرج إلى خراسان ، فأقام عند محمد بن يحيى النيسابورى[٧] مدة

---

(١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٢) ورد هذا النص فى الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٦٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٣٢٨ .

(٣) «المسماة » فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٢٩ . وقال السبط أنها تسمى دار بير .

(٤) بياض بمقدار سطر .

(٥) انظر ترجمته فى شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٥٣ ـ ٢٥٤ ، فى وفيات سنة ٥٧٥هـ .

(٦) «سعد» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص٨٥ ، ص٣١٢ ؛ طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص٤١ ، ط . المطبعة الحسينية المصرية . وهو القاضى فخر الدين أبو الرضى سعيد بن عبد الله بن القاسم ابن المظفر الشهرزورى .

(٧) هو : أبو سعد محمد بن يحيى بن أبى منصور النيسابورى الملقب محى الدين الفقيه الشافعى ، توفى فى رمضان سنة ٥٤٨هـ/١٠٥٦م . وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٢٢٣ـ ص٢٢٤ .

فكان يحترمه ويقول : هذا من بيت الرياسة والفضل ، ثم عاد إلى الموصل ، وقد برع وصار أَوجَهَ أهل بيته ، وقدم رسولا من الموصل إلى بغداد مراراً ، وتوفى بالموصل ، وكان ثقة جليلا نبيلا .

أحمد بن محمد أبو المظفر البغدادى ؛ ولد سنة عشر وخمسمائة فى شعبان ، وسمع الحديث الكثير ورواه ، وبنى مسجدا ببغداد فى درب الرياحين يعرف به ، وهو قائم إلى هلم جرًّا ، وتوفى بالمخزن محبوسا بعدما ذهب بصره ، ودفن بباب حرب ، سمع أبا القاسم بن الحصين ، وابن السَّمرقندى ، وقاضى المارستان ، وغيرهم ، وكان صالحاً ثقة .

السِّلَفى أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم سِلَفة الأصفهانى ، الملقب صدر الدين أبو الطاهر السلفى[1] ؛ أحد الحفاظ المكثرين ، رحل فى طلب الحديث ، ولقى أعيان المشايخ ، وكان شافعى المذهب ، ورد بغداد واشتغل بها على الكيَا أبى الحسن «على»[2] الهراسى[3] فى الفقه ، وعلى الفقيه الخطيب أبى زكريا يحيى بن على التبريزى اللغوى فى اللغة ، وروى عن أبى محمد جعفر بن السراج وغيره من الأئمة الأماثل ، وجاب البلاد ، وطاف الآفاق ، ودخل ثغر الإسكندرية فى ذى القعدة سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وكان قدومه إليها فى البحر من مدينة صُور ، وأقام بها ، وقصده الناس من الأماكن البعيدة ، وسمعوا عليه وانتفعوا به ، ولم يكن له مثل فى آخر عمره فى عصره ، وبنى له العادل أبو الحسن على بن سلار ـ وزير الظافر العبيدى صاحب مصر ـ فى سنة ست وأربعين وخمسمائة مدرسة بالثغر المحروس المذكور ، وفوضها إليه ، وهى معروفة به إلى الآن[4] .

وقال ابن خلكان[5] : أدركتُ جماعة من أصحابه بالشام والديار المصرية ، وسمعت عليهم وأجازونى ، وكان كتب الكثير ، ونقلتُ من خطه فوائد جَمة ، ومن جملة مانقلت من خطه لأبى عبد الله محمد بن عبد الجبار الأندلسى [٢١٩و] عن قصيدة :

---

(١) هو أبو طاهر السلفى الحافظ أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الأصبهانى الحروانى ، وحروان محلة بأصبهان . وسِلفة بكسر السين المهملة لقب جده أحمد ومعناه شقوق الشفة . وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص١٠٥ ـ ١٠٧ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٢٨ـ ٣٢٩ ؛ شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص٢٥٥ .

(٢) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٣) انظر ترجمته فى وفيات٨ الأعيان ، جـ ٣ ، ص٢٨٦ .

(٤) ينقل العينى هنا عن وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص١٠٥ .

(٥) وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص١٠٥ .

لَوْلا اشْتغالى بالأميرِ ومَدْحِه لأَطلْتُ فى ذاكَ الغزالِ تَغَزُّلِى
لَكنَّ أَوصافَ الجلالِ عَذُبْنَ لِى فَتَركتُ أوصافَ الجمالِ بمَعْزِلِ

وكان كثيراً [ما][1] ينشد :

قالوا نفوسُ الدَّارِ سكانُها وأنتم عندى نفوسُ النُفوسِ[2]

وأماليه وتعاليقه كثيرة ، وكانت ولادته سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة تقريبا بأصفهان ، ويقال : مولده سنة ثمان وسبعين . والله أعلم ، وتوفى ضحوة نهار الجمعة ، وقيل : ليلة الجمعة خامس شهر ربيع الآخر سنة ست وسبعين وخمسمائة بثغر الإسكندرية ، ودفن فى وَعْلة[3] ، وهى مقبرة داخل السور عند الباب الأخضر ، فيها جماعه من الصالحين كالطرطوشى وغيره (رضى الله عنهم) . وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر فى تاريخه ترجمةً حسنةً وإن كان قد مات قبله بخمس سنين ، فذكر رحلته فى طلب الحديث ، ودورانه للأقاليم ، وأنه كان يتصوف أولا ، ثم أقام بالإسكندرية ، وتزوج امرأة ذات يسار ، فحسنت حاله ، ووقفت عليه مدرسة هنالك[4] ، وذكر طرفاً من أشعاره ، منها قوله :

أَتأْمنُ إلمامَ المنيةِ بغْتةً وأمْنُ الفَتَى جُهلٌ ولو[5]خَبَرَ الدَّهرَا
وليسَ يحُابِى الدَّهرُ فى دَورَانه أراذِلَ أهليه ولا السادةُ الزُّهْرا
وكيفَ وقد ماَت النبى[ﷺ] وصَحبُه وأزواجُه طرًا وفاطمةُ الزهْرَا

ومن شعره الذى أورده ابن عساكر قوله :

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٠٦ ، حيث ينقل العينى عنه .
(٢) أورد ابن خلكان هذه الأبيات فى وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٠٦ .
(٣) وَعْلة : بفتح الواو وسكون العين المهملة وبعدها لام ثم هاء ، ويقال إن هذه المقبرة منسوبة إلى عبد الرحمن ابن وعلة السَّبَئِيُّ المصرى صاحب ابن عباس . انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٠٦ .
(٤) راجع ترجمته فى : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٥٥ .
(٥) «وأمن الفتى جهلها وخبر الدهرا» كذا فى نسخة ب .

ياقاصِداً علمَ الحديثِ يَذُمُّهُ إذْ ضَلَّ عن طُرُقِ الهدايةِ وَهْمُهُ
إنَّ العلومَ كما عَلِمْتَ كثيرةٌ وأجَلُّهَا فِقْهُ الحديثِ وعِلْمُهُ
مَنْ كانَ طالِبُه وفيه تَيَقُّظٌ فأتمُّ سَهْمٍ فى المعانى سَهْمُهُ
لَوْلاَ الحديثُ وأهلُه لم يسْتَقِمْ دينُ النبىِّ وَشَذَّ عَنَّا حُكْمُهُ
وإذا اسْتَرابَ بقولِنا مُتَحَذْلِقٌ فَأَكَلُّ[1] فَهْمٍ فى البسيطةِ فَهْمُهُ

والسِّلَفِىّ بكسر السين المهملة وفتح اللام وكسر الفاء ، نسبة إلى سلفة ، لقب جده إبراهيم . وفى المرآة[2] : لقب جده أحمد كان يعرف به ، ويلقب به ؛ وذلك لأن شفته الواحدة كانت مشقوقة ، فصارت مثل الشفتين ، غير الأخرى الأصلية ، فقالوا له بالعجمية : سِه لَبَهْ ، فلفظ سه هو الثلاثة بالعَجمى ، ولب هو الشفة ، فلما عربوه قالوا : سِلفَة . أسقطوا الهاء من سه ، وأبدلوا الباء فى لبه فاءً ، فقالوا : سلفة . والنسبة إليه السلفى[3] . وَوَعْلَة بفتح الواو وسكون العين المهملة وبعدها لام وفى آخرها هاء ، وهى مقبرة منسوبة إلى عبد الرحمن بن وَعْلة السبئى المصرى صاحب ابن عباس ، وقيل غير ذلك .

سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى بن آقسنقر ؛ صاحب الموصل ، تقلد المملكة بعد وفاة أبيه مودود ، وهو والد سنجر شاه ، صاحب جزيرة ابن عمر[4] ، أقام فى الملك عشر سنين وشهوراً ، وأصابه مرض مزمن ، وتوفى يوم الأحد ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة ، وتولى بعده أخوه عز الدين مسعود[5] .

---

(١) «فاء كل» فى نسخة ب .

(٢) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٣٠ .

(٣) ورد هذا النص بتصرف فى وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص ١٠٧ .

(٤) جزيرة ابن عمر : مدينة صغيرة على دجلة من غربيها وشمالى الموصل . انظر : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٧٩ ؛ تقويم البلدان ، ص٢٨٣ .

(٥) ورد هذا النص بتصرف فى الروضتين ، جـ٢ ق١ ، ص٥٢ ـ ٥٥ ؛ الباهر ، ص١٨٠ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٣١-٢٣٢ .

[٢١٩ظ] وقال ابن كثير[١] : وكان سيف الدين غازى المذكور شابا حسنًا مليح الشكل تام القامة ، مدور اللحية ، مكث فى الملك عشر سنين ، ومات عن ثلاثين سنة ، وكان عفيفا فى نفسه ، مهيبا وقوراً ، لا يلتفت إذا ركب ولا إذا جلس ، غيوراً لا يدع أحداً من الخدام يدخل على النساء ، وكان لا يقدم على سفك الدماء ، وينسب إلى شىء من البخل ، فأجلس مكانه فى المملكة أخاه عز الدين مسعود ، وجعل مجاهد الدين قيماز نائبه ومدبر مملكته . وجاءت رسل الخليفة يلتمسون من صلاح الدين أن يبقى سروج[٢] والرها والرقة ، وحران والخابور ونصيبين فى يده ، كما كانت فى يد أخيه ، فامتنع السلطان من ذلك ، وقال : هذه البلاد هى حفظ [ثغور][٣] الإسلام ، وإنما كنت تركتها فى يده ؛ ليساعدنا على غزو الإفرنج ، فلم يكن يفعل ذلك ، وكتب إلى الخليفة يعرفه بذلك .

وفى تاريخ بيبرس : وكان مرض غازى السِل ، وأراد أن يعهد بالملك إلى ابنه الأكبر معز الدين سنجرشاه ، وكان عمره حينئذ اثنتى عشرة سنة ، فخاف من صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ولم يجبه أخوه مسعود إلى ذلك ، فأشار عليه أكابر دولته بأن يجعل الملك فى أخيه عز الدين مسعود ، وأن يجعل لولديه بعض البلاد ، وأن يكون مرجعهما إلى عز الدين عمهما ، والمتولى لأمرهما مجاهد الدين قيماز ، ففعل ذلك ، وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه ، وقلعة الحميدية[٤] لولده الصغير ناصر الدين ، وكان مجاهد الدين قيماز الحاكم فى الجميع .

وقال ابن الأثير[٥] : كان قد علق به سل ، وطالت علته ، وأجدبت البلاد قبل موته ، وخرج الناس يستسقون ، وخرج سيف الدين معهم ، فاستغاث إليه الناس ، وقالوا : كيف يستجاب لنا والخمور والخواطىء والمظالم بيننا؟! فقال : قد أبطلتها . ورجعوا إلى البلد

---

(١) ورد هذا النص بتصرف فى البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٦ ؛ الباهر ، ص١٨٠ ؛ الروضتين جـ ٢ ق١ ، ص٥٤ ـ ٥٥ .

(٢) سروج : بلدة قريبة من حران من ديار مضر . معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٨٥ .

(٣) «ثغر» فى نسخة أ ، والمثبت من نسخة ب .

(٤) قلعة الحميدية : قلعة حصينة فى جبال الموصل ، أهلها أكراد ، وتقع شرقى الموصل . انظر : معجم البلدان جـ ٣ ، ص٦٩٦ ؛ تقويم البلدان ، ص٢٧٤ ؛ الباهر ص ٤٨ حاشية (٥) .

(٥) انظر : الباهر ، ص١٨٠ ـ ١٨١ ؛ كما ورد النص بتصرف فى الروضتين ، جـ ٢ ق١ ، ص٥٣ ـ ٥٤ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٣١ ـ ٢٣٢ .

وفيهم رجل صالح يقال له : أبو الفرج الدقاق ، فأحرق الخمور لاغير ، ونهب العوام دكاكين الخمارين ، فاستدعى الدقاق والى القلعة ، وقال له : أنت جَرَّأْتَ العوام على السلطان . وضرب على رأسه ، فانكشفت رأسه ، وأطلق ونزل مكشوف الرأس ، فقيل له : غطى رأسك ، فقال : لا والله لا غطيتها حتى يُنتقم لى ممن ظلمنى . فمات الدزدار[1] والذى ضربه بعد قليل ، ومرض سيف الدين وتوفى .

ذكر حكايته مع الشيخ أبى أحمد الحداد الزاهد :

كان أبو أحمد قد انقطع فى قرية من بلد الموصل ، يقال لها الفضلية[2] ، ومنها أصله ، وهى على فراسخ من الموصل .

قال السبط[3] : حدثنى أبوبكر القديمى وإسماعيل الشعار ، وكانا قد صحبا الشيخ أبا أحمد ، « قالا : كان سيف الدين يزور الشيخ أبا أحمد»[4] ، فقال له يوما : «يا» [5] سيف الدين أى فائدة فى زيارتك وأنت تشرب الخمر ، وتبيح المحرمات ، وتمكس[6] المسلمين؟ فإن كنت تدع هذا وإلا فلا تجىء إلى عندى . فقال : ياسيدى أنا تائب إلى الله من جميع ماقلت ، وترك الجميع وعاد إلى ماكان عليه . وكان للشيخ طاقة على باب الزاوية ، ينظر من يجىء من دمشق ، قال : فبينما نحن عنده يوما ، إذا بسيف الدين قد أقبل ، وصعد على الدرج ، فقال : ياأبابكر أغلق الباب فى وجهه وقل له مالك عندى شغل ، وادفعه إلى أسفل الدرج . قال أبو بكر القديمى : فخرجت فاستحييت منه ، فقال لى سيف الدين[٢٢٠و] : ياشيخ أفعل بى ما أمرك الشيخ وأدار ظهره إلىَّ ، فدفعت فى ظهره ، حتى أنزلته إلى أسفل الدرج ، فقعد يبكى ، وصاح الجند بأسرهم ، فأشار لهم[7] أن

---

(١) الدزدار : هو حافظ القلعة ، أى والى القلعة ، ودز بالعجمى القلعة ، ودار الحافظ أى حافظ القلعة ، انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٧ ، ص١٤٢ .

(٢) الفضلية : قرية كبيرة كالمدينة من نواحى شرقى الموصل وأعمال نينوى . معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص٩٠٣ .

(٣) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٣٢ .

(٤) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٥) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب

(٦) المكس : جمعها المكوس . وهى الضريبة غير الشرعية .

(٧) «إليهم» فى نسخة ب .

اسكتوا ، ثم قال لى : ياشيخ أبو بكر اصعد إلى الشيخ ، وقل له : فما لى توبة؟ قال : فصعدت إليه وأخبرته ، فقال : قل له يجوز ، قد أذنت له . قال : فخرجت وقلت له : بسم الله ، فدخل على الشيخ ، فبكى وقبَّل يده ، وتاب إلى الله تعالى ، وعاد إلى الموصل ، وأقام مدة يسيرة ، ومات يوم الأحد ثالث صفر ، ولم يبلغ ثلاثين سنة ، وكانت ولايته عشر سنين وشهوراً . وأراد أن يعهد إلى ابنه سنجر شاه ، فامتنع أخوه عز الدين مسعود من ذلك ، وقال له مجاهد الدين قيماز وأكابر الأمراء : قد علمت استيلاء صلاح الدين على البلاد وقربه منا ، وسنجر شاه صبى لا رأى له ، وأخوك عز الدين كبير السن ، صاحب رأى وشجاعة ، فاعهد إليه واجعله وصياً على أولادك ، ففعل . وكانت الرعية قد خافت من عز الدين مسعود ؛ لإقدامه على سفك الدماء وحدَّته . فلما ولى تغيرت أخلاقه ، فصار رفيقاً بالرعية ، قريبًا منهم ، محسنا إليهم . ولما مات سيف الدين كان صلاح الدين فى حدود الروم ، فأرسل إليه مجاهد الدين قيماز الفقيه أبا شجاع بن الدهان البغدادى[١] ، فطلب منه أن يكون مع عز الدين ، كما كان مع أخيه سيف الدين ، ويبقى عليه الجزيرة ومابيده من حران والرها والرقة وخابور ونصيبين وقاطع الفرات ، فقال صلاح الدين : أما ماخلف له من بلاد الموصل فهو باق على حاله ، وأما ماذكره من بلاد الجزيرة فإنما كانت بيده بشفاعة الخليفة ، على شرط أن يقوى ثغور المسلمين بالمال والعساكر ، أما الآن فالخليفة قد فوَّض أمرها إلىَّ ، لا أفعل «فيها»[٢] إلا مأراه من المصلحة .

الملك المعظم توران شاه ؛ مات فى هذه السنة . وقال ابن كثير[٣] : السلطان الأكبر الملك المعظم شمس الدولة[٤] توران شاه بن أيوب ، الذى افتتح بلاد اليمن عند أمر أخيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فمكث فيها حينًا ، واقتنى

---

(١) أبو شجاع بن الدهان : هو أبو شجاع محمد بن على بن شعيب المعروف بابن الدهان ، والملقب فخر الدين ، البغدادى الفرضى ، توفى سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م . انظر : وفيات الأعيان جـ ٥ ، ص١٢ـ١٣ .

(٢) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٣) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٧ .

(٤) « شمس الدين توران شاه» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص٣٠٦ ؛ البداية والنهاية جـ ١٢ ، ص ٣٢٧ ؛ الروضتين جـ٢ ق١ ، ص٥٦ ـ ٥٨ ؛ زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، جـ١ ، ص ١٥٨ .

منها أموالا جزيلة ، ثم استناب فيها ، وأقبل نحو أخيه إلى الشام ؛ شوقا إليه . وكان قدومه إليه فى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة كما ذكرنا ، فشهد معه مواقف مشهودة وغزوات محمودة ، واستنابه على دمشق مدّة ، ثم سار إلى مصر فاستنابه على الإسكندرية(١) فلم توافقه ، وكان يعتريه القُولَنج(٢) فمات بها فى هذه السنة ، فدفن فيها . ثم نقلته أخته ست الشام بنت أيوب فدفنته بتربتها التى بالشامية البرانية(٣) بدمشق ، فقبره القبلىّ ، والوسطانى قبر زوجها ابن عمها ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، صاحب حمص والرحبة ، والمؤخر قبرها ، رحمها الله . والتربة الحسامية منسوبة إلى ولدها حسام الدين عمر بن لاجين ، وهى إلى جانب المدرسة من غربيّها ، وقد كان الملك تورانشاه كريما جوادا ممدَّحا شجاعا باسلاً ، عظيم [الهيبة](٤) ، كبير النفس واسع الصدر . وقال فيه ابن سعدان الحلبى :

هو المَلكُ إنْ تَسْمَع بكسرى وقيصر ... فإنهما فى الجودِ والبأسِ عَبْدَاهُ/ [٢٢٠ظ]

وماحاتمٌ(٥) ممَّن يُقاسُ بمثلِه ... فخُذْ ما رأيناه ودَعْ ما رويناهُ

ولُذْ بِذُرَاهُ مستجيراً فإنَّه ... يجُيرُكَ مِنْ جَوْرِ الزمانِ وعَدْواهُ

ولا(٦) تتحَمَّلْ للسحائبِ مِنَّةً ... إذا هطلت(٧) جُوداً سَحَائبُ جَدْواهُ

ويُرسِلُ كَفَّيْه بما اشْتُق منْهُما ... فَلِليُمْنْ يمناه(٨) ولِلْيُسْرِ يُسْراهُ

ولما بلغ خبر موته إلى أخيه السلطان صلاح الدين ، وهو مخيم بظاهر حمص ، حزن حزنا شديدًا عليه ، وجعل ينشد باب المراثى من الحماسة ، وكانت محفوظته .

---

(١) «إسكندرية» فى نسخة ب .

(٢) القولنج : مرض وصفة الخوارزمى بأنه اعتقال الطبيعة لانسداد المعى المسمى قولون . انظر : النوادر السلطانية ، ص٥٥ ، حاشية ٣ .

(٣) هذه المدرسة توجد بالعقيبة بدمشق ، وقد بنتها ست الشام بنت نجم الدين أيوب بن شاذى بن مروان ، أخت الملك الناصر صلاح الدين ، وهى من أكبر المدارس وأعظمها وأكثرها أوقافًا . انظر الدارس ، جـ ١ ، ص٢٧٧- ٢٧٩ .

(٤) «الهيئة» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من البداية والنهاية ،جـ ١٢ ، ص٣٢٧ حيث ينقل العينى عنه هذا النص .

(٥) «حتم» فى البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٧ .

(٦) «فلا» فى الروضتين ، جـ٢ ق١ ، ص٥٦ .

(٧) «هللت» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين جـ ٢ ق١ ، ص٥٦ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٢٧ .

(٨) «يملاه» فى نسخة ب .

وقال ابن خلكان[١] : وكانت وفاة تورانشاه يوم الخميس مستهل صفر ، ويقال : خامس صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة . وتورانشاه بضم التاء المثناة من فوقها[٢] وسكون الواو وبعدها راء مهملة ، ثم بعد الألف نون ساكنة ، وبعدها شين معجمة وألف ساكنة وهاء ، ومعناه ملك الشرق ، وشاه لفظ أعجمى ومعناه الملك . وتوران اسم لبلاد الترك ، والعجم يسمون الترك تركان ، ثم حرفوه [٣] فقالوا : توران . وقد علم أن المضاف إليه يقدم على المضاف فى لغتهم . فافهم .

(١) انظر : وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص٣٠٦ـ ٣٠٩ .
(٢) « فوق» فى نسخة ب .
(٣)«حرموه» فى نسخة ب .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة السابعة والسبعين بعد الخمسمائة★

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، وأصحاب البلاد على حالهم ، غير أن الملك الصالح بن نور الدين محمود مات فى هذه السنة .

ذكر وفاة الملك الصالح بن نور الدين صاحب حلب

والكلام فيه على أنواع :

الأول فى ترجمته : هو السلطان الملك الصالح إسماعيل ابن السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى ، صاحب حلب وماوالاها ، وكان أبوه نور الدين ـ رحمه الله ـ قد عهد بالملك له ، وعمره يوم مات أبوه إحدى عشرة سنة ، وكان مولده فى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وقد ذكرنا أنه انتقل من دمشق إلى حلب ، ودخل قلعتها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة سبعين وخمسمائة ، وخرج السلطان صلاح الدين من مصر ، وملك دمشق وغيرها من بلاد الشام ، ولم يبق عليه سوى مدينة حلب .

الثانى فى سيرته : قال ابن خلكان[١] : كان محسنا محمود السيرة . وقال النويرى[٢] : وكان من أعف الملوك ، ومن يشابه أباه فما ظلم . وصف له الأطباء فى مرضه شرب الخمر ، فاستفتى بعض الفقهاء فى شربها تداويا فأفتاه بذلك ، فقال له : أيزيد مشربها فى أجلى أوينقص منه شيئا؟ قال : لا . قال : فوالله لا أشربها وألقى الله وقد شربتُ ماحرمه علىَّ . وفى تاريخ بيبرس[٣] : أفتاه بذلك فقيه من مدرسى الحنفية ، فقال : أرأيت إن قَدَّر اللهُ قرب الأجل ، أيؤخره شرب الخمر؟ فقال الفقيه : لا . فقال له ماذكرنا .

★ يوافق أولها ١٧ مايو ١١٨١م .

(١) انظر : وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ١٨٨ .

(٢) انظر : نهاية الأرب ، ج٢٧ ، ص١٧١ـ ١٧٢ .

(٣) اتفقت معظم المصادر فى ذكر هذه القصة . انظر : الروضتين ، ج٢ ق١ ص ٦٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٢٩ .

وذكر ابن الأثير[1] : أنه لما اشتد به المرض وضعف ، وصف له الأطباء قليل خمر ، فقال : لا أفعل حتى أسأل الشافعية . فأفتوه بالجواز ، وسأل العلاء الكاشانى فأفتاه أيضا ، فلم يفعل . وقال السّبط[2] : أخطأ الكاشانى فإن الخمر لا يباح عند أبى حنيفة - رضي الله عنه - وجميع أصحابنا للتداوى ، وكذا عند مالك وأحمد[٢٢١ و] ، وعند الشافعى يجوز للضرورة ، وعندنا أن الله لم يجعل شفاء الأمة فيما حُرِّم عليها .

وفى تاريخ المؤيد[3] : وكان حليما عفيف اليد والفرج واللسان ، ملازما لأمور الدين ، لا يعرف له شيء مما يتعاطاه الشباب .

الثالث فى وفاته : وقال ابن خلكان[4] : توفى يوم الجمعة الخامس والعشرين من رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، وذكروا أنه لم يبلغ عشرين سنة ، ودفن فى المقام الذى بالقلعة ، ثم نقل إلى رباطه المعروف به تحت القلعة ، وهو مشهور هناك .

وفى المرآة[5] : وكان مرضه القولنج ، بدأ به فى تاسع رجب . وقال المؤيد فى تاريخه[6] : فى رجب توفى الملك الصالح وعمره تسع عشرة سنة ، ولما اشتد به مرض القولنج وصف له الأطباء الخمر ، فمات ولم يستعمله .

وفى تاريخ ابن كثير[7] : وكانت وفاته بقلعة حلب ، ودفن بها ، وكان سبب وفاته فيما قيل أن الأمير علم الدين سليمان بن جندر سقاه سُما فى عنقود عنب فى الصيد . وقيل : بل سقاه ياقوت الأسدى فى شراب . وقيل : فى خشكنانكة[8] فاعتراه قولنج فمازال كذلك حتى مات . وهو شاب حسن الصورة بهى المنظر ، ولم يبلغ عشرين سنة ،

---

(١) انظر : الباهر ، ص١٨٢ ؛ الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٠٦-١٠٧ .
(٢) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص٢٣٣ .
(٣) انظر : المختصر ، ج ٣ ، ص٦٣ .
(٤) نقل العينى قول ابن خلكان بتصرف . انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ١٨٨ .
(٥) انظر : المرآة ، ج ٨ ، ص٢٣٣ .
(٦) انظر : المختصر ، ج ٣ ، ص٦٣ .
(٧) البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٩-٣٣٠ .
(٨) خشكنانكة : نوع من الفطير المصنوع من الزبد والسكر والجوز أو الفستق . انظر : التاريخ الباهر ، ص ٧٩ ، حاشية ٦ ؛ مفرج الكروب ، ج١ ، ص١٠٢ ، حاشية ٣ .

ولما يئس من نفسه استدعى الأمراء فحلفهم لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل ؛ لقوة سلطانه وتمكنه ، ليمنعها من صلاح الدين . وخشى أن يبايع لابن عمه الآخر عماد الدين زنكى صاحب سنجار ـ وهو زوج أخته وتربية والده ـ فلايمكنه حفظها من صلاح الدين .

فلما مات استدعى الحلبيون عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود صاحب الموصل ، فجاء إليهم فدخل حلب فى أبهة عظيمة ، وكان يوما مشهودا ، وذلك فى العشرين من شعبان من هذه السنة ، فتسلم خزائنها وحواصلها ومافيها من السلاح .

وكان تقى الدين عمر بمدينة منبج ، فهرب إلى حماة ، فوجد أهلها قد نادوا بشعار عز الدين صاحب الموصل . وأطمع الحلبيون عز الدين مسعود فى أخذ دمشق لغيبة صلاح الدين بالديار المصرية ، وأعلموه بمحبة أهل الشام لهذا البيت الأتابكى ، فقال : بيننا وبينه أيمان وعهود ، وأنا [لا][1] أغدر به . فأقام بحلب شهورا ، وتزوج بأم الملك الصالح فى شوال ، ثم سار الى الرقة فنزلها ، وجاءته رسل أخيه عماد الدين ؛ يطلب منه أن يقايضه من حلب إلى سنجار ، وألح فى ذلك ، وتمنّع أخوه ثم رضى على كره منه ، فسلم إليه حلب ، وسلمه عماد الدين سنجار والخابور والرقة وسروج ، وغير ذلك من البلاد .

وعاد عز الدين مسعود إلى حلب[2] ، ولما سمع السلطان صلاح الدين بهذه الأمور ركب من الديار المصرية فى عساكره ، فسار حتى أتى[3] الفرات .

وفى تاريخ بيبرس : تسلم عماد الدين ، صاحب سنجار ، حلب عوضا عن سنجار ، وذلك أنه لما رحل عز الدين مسعود إلى الرقة جاءته رسل أخيه عماد الدين ؛ يطلب أن يسلم إليه حلب ، ويأخذ عوضا عنها سنجار ، فلم يجبه إلى ذلك . فقال : إن لم تسلموا إلىَّ حلب ، وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين . فأشار الأمراء على عز الدين بتسليم حلب إليه ، فاستقر الأمر على تسليمها لعماد الدين ، وأخذ سنجار عوضا عنها . وبلغ

(١) ما بين الحاصرتين إضافة لتوضيح المعنى من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٠ .
(٢) إلى هنا توقف العينى عن النقل من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٠ .
(٣) «إلى» فى نسخة ب .

ذلك صلاح الدين ، فخاف على دمشق ، وبرز من مصر وسار إلى الشام فى محرم السنة الآتية ، على مانذكره إن شاء الله تعالى [١] .

ذكر ماجريات صلاح الدين

منها أنه لما استهلت هذه السنة كان صلاح الدين مقيما بالقاهرة ، مواظبا على سماع الأحاديث ، وجاء كتاب من نائبه[٢٢١ظ] بالشام عز الدين فرخشاه ؛ يهنئه بما مَنَّ الله تعالى به على الناس من كثرة ولادة النساء من التوأم ، جبراً لما كان أصابهم فى العام الماضى من الوباء والفناء ، وبأن الشام مخصب بإذن الله ، جبراً من الله تعالى لما كان أصابهم فى العام الماضي من الجدب والغلاء [٢] .

ومنها أن فى شوال منها توجه صلاح الدين إلى الإسكندرية ، و[خيم بظاهرها عند عمود السوارى] [٣] ، فشاهد ما أمر به من تحصين سورها وعمارة أبراجها وقصورها ، وسمع موطأ الإمام مالك(رحمه الله) على الشيخ أبى طاهر بن عوف عن الطرطوشى ، وسمع ذلك معه العماد الكاتب ، وأرسل القاضى الفاضل إلى السلطان صلاح الدين رسالة ؛ يهنئه بهذا السماع [٤] .

ومنها أن صلاح الدين ولى أخاه سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب نيابة اليمن ، فملَّكه عليها وأرسله إليها ؛ وذلك لاختلاف نوابها واضطراب أصحابها بعد وفاة الملك المعظم توران شاه أخى السلطان صلاح الدين ، الذى كان افتتحها ، فسار طغتكين إليها فوصلها فى سنة ثمان وسبعين ، فسار فيها أحسن سيرة ، وأكمل بها المعدلة والسريرة ، فاحتاط على أموال [حِطَّان] [٥] بن منقذ [الكنانى] [٦] نائب زَبيد ، وكانت

---

(١) ورد هذا الحدث بتصرف فى الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٦٧- ٦٨ ؛ البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص٣٣٠ .

(٢) ورد هذا النص بتصرف فى الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٦٤ ؛ البداية والنهاية ، ج٢ ، ص ٣٢٩ .

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من نسخة أ . ومثبت فى ب ، وهو عمود أحمر منقط من الصوان ، كان حوله ٤٠٠ عمود كسرها قراجا والى الإسكندرية فى أيام السلطان صلاح الدين . ولمعرفة المزيد عن هذا الموضوع انظر المقريزى : الخطط ، ج١ ، ص٢٥٧- ٢٦١ ، طبعة (مكتبة الآداب) .

(٤) الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٧٦ .

(٥) «خطاب» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الكامل ج١٠ ، ص ١٠٦ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٧٩ ؛ وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص١٤٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٠ .

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من الكامل ، ج١٠ ، ص١٠٥ .

تقارب ألف ألف دينار . وأما نائب عدن فخر الدين عثمان الزنجيلى[(١)] ؛ فإنه خرج من اليمن قبل قدوم طغتكين فسكن الشام ، وله أوقاف مشهورة باليمن ومكة ، وإليه تنسب المدرسة الزنجيلية[(٢)] ، خارج باب توما ، تجاه الطعم[(٣)] ، وكان قد حصل منها أموالا [جزيلة][(٤)] . وفى تاريخ بيبرس : وفيها سير صلاح الدين[(٥)] جماعة من أمرائه منهم صارم الدين خُتْلُجُ[(٦)] وغيره إلى اليمن ؛ لاختلاف نواب شمس الدولة بها ، وكان الاختلاف بين عز الدين عثمان الزنجيلى وحطان بن منقذ ، وجرت بينهما حرب ، ورام كل واحد منهما أن يتغلب على مابيد الآخر ، فاتفقت وفاة ختلج ، وتولى[(٧)] حطان بن منقذ إمارة زبيد ، وأطاعه الناس لجوده وشجاعته ، وقبض صلاح الدين على سيف الدولة مبارك بن منقذ الكنانى ؛ لأنه كان نائبا عن شمس الدولة باليمن ، فترك أخاه حطانًا بها ، وجاء إلى شمس الدولة إلى مصر . فلما اتفقت وفاة شمس الدولة صار إلى صلاح الدين ، فقيل له أنه أخذ مال اليمن وأدخل ، فاعتقله صلاح الدين ، ثم صالحه على ثمانين ألف دينار ، فأخذها منه وأطلقه . قلت : حطان المذكور هو ابن كامل بن منقذ الكنانى من بيت صاحب شيزر .

ومنها أنه ولد لصلاح الدين ولدان وهما : الملك المعظم توران شاه ، والملك المحسن أحمد ، وكان بين ميلادهما سبعة أيام ، فزينت البلاد واستمر الفرح والسرور[(٨)] .

وفى تاريخ الدولتين[(٩)] : الملك المحسن أبو العباس أحمد ظهير الدين ولد بمصر فى ربيع الأول من هذه السنة ، وهو لأم الأشرف . والملك المعظم أبو منصور توران شاه فخر

---

(١)« الزنجبيلى» الكامل ، جـ ١٠ ، ص١٠٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٠ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٩١ . وقد أجمعت المصادر على أنه «عز الدين» بينما انفرد ابن كثير بذكره «فخر الدين» .

(٢) المدرسة الزنجيلية : ويقال المدرسة الزنجارية أنشأها الأمير عز الدين أبو عمرو عثمان بن على الزنجيلى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م خارج باب توما أحد أبواب مدينة دمشق . الدارس فى تاريخ المدارس ، ج١ ، ص٥٢٦ - ٥٢٩ .

(٣) «المطعم» كذا ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٠ .

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط من نسخة أ ومثبت فى نسخة ب .

(٥) انظر الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٨٠ .

(٦) «صارم الدين قطلغ أبه» فى الكامل ، ج١٠ ، ص١١١-١١٢ ؛ وذكره أبو شامة «صارم الدين خطلبا» فى الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٨٠ .

(٧) «تولى» مكررة فى نسخة ب .

(٨) انظر الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٨٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣١ .

(٩) الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٨٤ .

الدين ، ولد فى مصر في ربيع الأول من هذه السنة ، ومات سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وهي السنة التى أخرب العدو - من التتار - مدينة حلب وغيرها .

ذكر بقية الحوادث

منها [١] أن الإفرنج غدرت ونقضت عهودهم ، وقطعوا السبل على المسلمين برا وبحرا ، سرا وجهرا ، فأمكن الله من بطسة عظيمة ، لهم فيها نحو من ألفين وخمسمائة نفس من رجالهم المعدودين ، منهم من ألقاهم الموج إلى ثغر دمياط قبل خروج السلطان صلاح الدين من مصر ، فأحيط بها ، فغرق بعضهم ، وحصل فى الأسر [نحو][٢] ألف وسبعمائة منهم[٣] .

ومنها أن قراقوش سار إلى بلاد إفريقية ففتح بلاداً كثيرة ، وقاتل عسكر[ابن] [٤]عبد المؤمن ، واستفحل أمره هنالك ، وهو من جملة مماليك تقى الدين عمر ابن أخى السلطان صلاح الدين ، ثم عاد إلى الديار المصرية فأمره صلاح الدين بأن يتمم السور المحيط بالقاهرة ومصر ، وذلك قبل خروجه منها فى هذه السنة ، وكان ذلك آخر عهده بها حتى توفاه الله - عز وجل - وذلك بعد أن أراه بلوغ مناه قبل حلول[٢٢٢و] الوفاة ، فأقر عينه من أعدائه ، وفتح على يديه بيت المقدس وماحوله وماحواه . ولما خيم بارزاً من مصر أحضر أولاده حوله فجعل يشمهم ويقبلهم ويضمهم ، فأنشد بعضهم :

تَمَتَّعْ من شَمِيم[عُرَارِ نَجْدٍ[٥]] فما بعدَ العَشِيَّة من عُرارِ

فكان الأمر كما قال ؛ لم يعد إلى مصر بعد هذا العام ، بل كان مقامه بالشام .

---

(١) ورد هذا النص فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٠- ٣٣١ ؛ أيضا : راجع الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٨٤ .

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣١ .

(٣) نقل العينى عدد الأسرى من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣١ ؛ أما الكامل والروضتين فقد ذكرا أن عدد الأسرى «ألفا وستمائة وستة وسبعين» . انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص١١٢ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٨٤ .

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣١ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٨٤ .

(٥) «عن أرض نجد» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣١ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص٦٤ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٨٧ ؛ زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٥٥ .

ومنها[١] أن فرخشاه بن أخى السلطان صلاح الدين ونائبه بدمشق سار إلى أعمال كرك ونهبها ؛ لما بلغه أن الفرنج تطرقوا لأن يسيروا إلى مكة وإلى المدينة - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - فجمع العساكر الدمشقية ، وسار إلى بلدهم ونهبه وخَرَّبه ، وعاد إلى طرف بلاد الإسلام ، وأقام بها ليمنع البرنس[٢] من التعرض إلى المسلمين . وأما الذين سيرهم الفرنج إلى الحجاز ؛ فأهلك اللّه تعالى جميع من سيروا ، وقتلوا وأسروا .

ومنها أنه تواصف الناس كثرة الفأر ، وشكى أهل الزراعات جائحتهم[٣] به ، وأنه كان يرحل من بقعة إلى بقعة ، فيغطى الأرض ويجور على مواضع مملوءة زروعاً[٤] ، فلا يترك منها شيئا ، ويمر بأخرى فيتركها قاعا صفصفاً .

ومنها أنه استوت عدة جيش صلاح الدين على ثمانية آلاف وستمائة وأربعين طواشية ، وقرا غلامية[٥] .

ومنها أن صاحب ماردين حصر قلعة البيَرة ، وكانت لشهاب الدين الأرتقى[٦] ، وهو ابن عم قطب الدين إيلغازى بن ألبى بن تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق صاحب ماردين[٧] ، وكان فى طاعة نور الدين محمود بن زنكى ، فمات شهاب الدين الأرتقى ، وملك القلعة بعده ولده ، وصار فى طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل ، فلما كان فى هذه السنة أرسل صاحب ماردين إلى عز الدين[مسعود][٨] يستأذنه فى حصر البيرة وأخذها ، فأذن له ، فسار ، فنزل سُمَيْسَاط[٩] وكانت له ، وأرسل عسكره[إلى البيرة][١٠] فحصرها ، فسير

---

(١) ورد هذا النص فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٠٤ .

(٢) يقصد الأمير أرناط . انظر هذه الأحداث فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٠٥ .

(٣) الجائحة : لغة هى إهلاك المال واستئصاله . انظر : المعجم الوسيط ، مادة «جوح» ، ج١ ، ص١٤٥ .

(٤) «زرعا» فى نسخة ب .

(٥) القرا غلامية : هم جماعات الضبطية ، وعملهم مراقبة الطرق أثناء سير الجيوش . انظر : السلوك ، ج١ ق٢ ، ص٧٥ ، حاشية ٣ (ط . أولى ١٩٣٤) .

(٦) هو : شهاب الدين محمود بن إلياس بن إيلغازى بن أرتق . انظر : التاريخ الباهر ، ص١٤٥ .

(٧) انظر : تفصيل هذا الخبر فى الكامل ، ج١٠ ، ص ١٠٨ .

(٨) ما بين الحاصرتين ساقط من نسخة أ . ومثبت من نسخة ب .

(٩) «شميصاط» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب ، وقد فضلنا ما اتفقت عليه المصادر الجغرافية فى رسم اسمها «سُمَيْسَاط» وقد سبق التعريف بها . راجع معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٥١-١٥٢ .

(١٠) «إليها» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الكامل ، ج١٠ ، ص ١٠٨ لتصحيح النص .

صاحبها إلى صلاح الدين ، يطلب منه أن ينجده ، «فسير رسولا فشفع فيه»[(١)] ، فرحل صاحب ماردين عن البيرة .

ومنها[(٢)] أن المسلمين فتحوا الشقيف[(٣)] من الفرنج ، وذلك أن الفرنج لما بلغهم مسير صلاح الدين من مصر إلى الشام ، جمعوا له ، وحشدوا الفارس والراجل ، واجتمعوا بالكرك بالقرب من الطريق لعلهم يظفرون منه بفرصة ، فخلت بلادهم من ناحية الشام ، فسمع فرخشاه الخبر ، فجمع عساكر الشام ، ثم قصد بلاد الفرنج ، وأغار عليها ، ونهب دَبُّورِية[(٤)] ومايجاورها من القرى ، وأسر الرجال وسبى النساء وغنم الأموال ، وفتح منهم الشقيف ، وأرسل إلى صلاح الدين بالبشارة .

ومنها أن رباط المأمونية[(٥)] ببغداد فتحت فى هذه السنة ، [وكانت] [(٦)] دار سنقر المستنجدى[(٧)] ، قُبض عليه وأخذ منه من العين مائة ألف دينار ، ومن المتاع والخيل والأثاث ماقيمته أكثر من ذلك وعُملت رباطا للصوفية .

ومنها[(٨)] أنه كان بالمِزة [(٩)]خطيب يقال[٢٢٢ظ] له العالم . زَوَّرَ على صلاح الدين خطاً بزيادة فى جامكيته ، ووقف عليه فرخشاه ، فهَّم بالإيقاع به فهرب إلى القاهرة ، واستجار بالسلطان فأجاره ، وقال : ما أخيب قصدك . وكتب له توقيعا بما طلب .

---

(١) العبارة بين الأقواس بها لبس من العينى . ولإيضاح المقصود نذكر ما أورده ابن الأثير فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٠٨ : «ويُرَحِّل العسكر الماردانى عنه ، ويكون هو فى خدمته كما كان أبوه فى خدمة نور الدين ، فأجابه إلى ذلك ، وأرسل رسولاً إلى صاحب ماردين يشفع فيه ، ويطلب منه أن يرحّل عسكره عنه ، فلم يقبل شفاعته» .

(٢) نقل العينى هذا النص بتصرف من الكامل ، ج١٠ ، ص١١٠- ١١١ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٧١ - ٧٢ .

(٣) الشقيف يقصد بها شقيف أرنون ، وهى بين دمشق والساحل بالقرب من بانياس . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٠٩ ؛ تقويم البلدان ، ص٢٤٤- ٢٤٥ .

(٤) دَبُّورِيَةُ : بليد قرب طبرية من أعمال الأردن . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٤٦ .

(٥) المأمونية : منسوبة إلى المأمون أمير المؤمنين عبد الله بن هارون الرشيد ، وهى محلة كبيرة طويلة عريضة ببغداد بين نهر المعلى وباب الأزج . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٣٩٨ .

(٦) «كان» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت هو الصحيح .

(٧) «المستنجد» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٣ .

(٨) ورد هذا الخبر فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٣ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٨٣ .

(٩) المِزَّةُ : قرية كبيرة غناء فى وسط بساتين دمشق ، بينها وبين دمشق نصف فرسخ . انظر : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص٥٢٢ .

ومنها[١] أن البرنس صاحب الكرك ـ لعنه الله ـ عزم على قصد تيماء من أرض الحجاز ؛ ليتوصل منها إلى المدينة النبوية ـ على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ـ فجهزت له سرية من دمشق تكون حاجزة بينه وبين أرض الحجاز ، فصده ذلك عن قصده ، لعنه الله .

وفيها ....[٢]

وفيها حج بالناس طاشتكين .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أبو البركات عبد الرحمن[٣] بن أبى الوفاء محمد بن[عبيد[٤]] الله بن محمد ابن [عبيد الله][٥] بن أبى سعيد بن الحسن [بن سليمان الأنبارى][٦] ، الملقب كمال الدين ، النحوى ؛ كان من الأئمة المشار إليهم فى علم النحو ، وسكن بغداد من صباه إلى أن مات ، وتفقه على مذهب الإمام الشافعى ، بالمدرسة النظامية ببغداد ، وتصدر لإقراء النحو على أبى منصور الجواليقى ، وصحب أبا السعادات هبة الله بن الشَّجرى ، وأخذ عنه وانتفع بصحبته ، وتبحر فى علم الأدب ، واشتغل عليه خلق كثير وصاروا علماء . وصنف فى النحو كتاب« أسرار العربية» ، وله كتاب« الميزان» فى النحو أيضا ، وله كتاب فى «طبقات الأدباء» ، جمع فيه المتقدمين والمتأخرين مع صغر حجمه ، وكُتُبه كلها نافعة . «وكانت نَفْسُه مباركة»[٧] مايقرأ[٨] عليه أحد إلا تميز[٩] . وانقطع فى آخر عمره فى بيته مشتغلا بالعلم والعبادة ، وترك الدنيا ومجالسة أهلها ، ولم يزل على سيرة جيدة[١٠] ،

---

(١) انظر هذه الحادثة بالتفصيل فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٠٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٠ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٧١ .
(٢) بياض بمقدار سطر فى النسختين أ ، ب .
(٣) انظر : ترجمته فى طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص ٢٤٨ ؛ وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ١٣٩ـ ١٤٠ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣١ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٤ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص ٢٥٨ـ ٢٥٩ .
(٤) «عبد» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ١٣٩ .
(٥) «عبد بن أبى سعيد» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ١٣٩ .
(٦) «بن سليمان بن الأنبارى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والصحيح ما أثبتناه من وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ١٣٩ .
(٧) كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . أما فى وفيات الأعيان فقد وردت العبارة «وكان نَفَسه مباركًا» . انظر : ج٣ ، ص ١٣٩ .
(٨) «ما قرأ» فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ١٣٩ .
(٩) «وتميز» فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ١٣٩ .
(١٠) «حميدة» فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ١٣٩ .

وتوفى فى تاسع[١] شعبان من سنة سبع وسبعين وخمسمائة ببغداد ، ودفن بباب أبرز بتربة الشيخ أبى إسحق الشيرازى ، وخلت بغداد عن مثله .

وفى المرآة [٢] : وكان إماما فى كل فن مع الزهد والورع والعبادة ، والصبر على الفقر مع القدرة ، ولا يقبل بر أحد ، وكان يحضر دعوة الخليفة فى كل سنة مرة ، فيبعث إليه بالخلع والذهب ، فيرد الجميع ، وكان [يستديم][٣] الصوم ويفطر على أى شىء كان ، وبابه مفتوح لطلاب العلم لايرد أحدا ، رحمه الله تعالى .

---

(١) انفرد أبو شامة بذكر وفاته فى الثامن من شعبان . انظر : الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٨٤ ـ ٨٥ .

(٢) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٤ .

(٣) «يسرد» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٤ . حيث ينقل عنه العينى .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثامنة والسبعين بعد الخمسمائة*

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، وأصحاب البلاد على حالهم ، والسلطان صلاح الدين خرج من مصر إلى الشام فى خامس المحرم من هذه السنة ، وكان ذلك آخر عهده بمصر ، لم يعد إليها بعد ذلك .

وفى تاريخ المؤيد[١] : وفى خامس المحرم سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى الشام ، ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة وخرجت أعيان الناس لوداعه ، أخذ كل منهم يقول شيئا فى الوداع وفراقه ، وفى الحاضرين[٢٢٣و] معلمٌ لبعض أولاد السلطان ، فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد :

تَمتَّعْ من شَمِيمِ عُرارِ نجد		فما بعدَ العشِيَّة من عُرارِ

فتطيَّر صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه ، وتنكد المجلس على الحاضرين ، فلم يعد صلاح الدين«بعدها» [٢] إلى مصر مع طول المدة ، وسار السلطان وأغار فى طريقه على بلاد الفرنج ، وغنم ووصل إلى دمشق فى حادى عشر صفر من هذه السنة[٣] .

وفى المرآة [٤] : وفى خامس المحرم من هذه السنة خرج صلاح الدين من مصر ، ونزل البِرْكة قاصداً إلى الشام ، وخرج أرباب الدولة لوداعه ، وأنشد الشعراء أبياتا فى الوداع ، فسمع قائلا يقول فى ظاهر الخيم : تمتع[٥] إلى آخره . وطلب القائل ، فلم يوجد ، فوجم السلطان وتَطَيَّر الحاضرون ، فكان كما قال اشتغل السلطان بالشرق والإفرنج ، ولم يعد بعدها إلى مصر .

---

* يوافق أولها ٧ مايو ١١٨٢م .

(١) المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص٦٣- ٦٤ .

(٢) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٣) إلى هنا توقف العينى عن النقل من المختصر ، جـ ٣ ، ص٦٣- ٦٤ .

(٤) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٣٥ ؛ راجع أيضا هذا النص فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص١١٠- ١١١ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ق١ ، ص ٢٨ .

(٥) «تسمَّع» فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٣٥ . وهو خطأ فى النسخ .

وسار السلطان على أيلة والحسا[١] ووادى موسى[٢] ، وكان فرخشاه بدمشق ، فبلغه أن الفرنج قد اجتمعوا عند الكرك ؛ لقصد السلطان ، فخرج من دمشق فنزل طبرية وعكا ودَبُّورية ، فقصدوه فالتقاهم وكسرهم ، وقتل منهم ألوفًا ، وأسر وساق عشرين ألفا من الأنعام وغيرها ، وفتح حصنا مشرفًا على السواد على شقيف ، يقال له حصن جلدك ، وقتل من فيه ، وأسكنه المسلمين وجعلهم طلائع ، وساق إلى بُصْرى ، فالتقى السلطان عندها فسُرَّ به ، ودخلا دمشق فى صفر .

وفى تاريخ ابن كثير[٣] : أغار صلاح الدين فى طريقه على أطراف بلاد الفرنج بأرض الكرك ، وجعل أخاه تاج الملوك[٤] بورى بن أيوب على الميمنة يسير ناحية عنه ، ليتمكنوا من بلاد العدو ، فالتقوا على الأزرق [٥] بعد سبعة أيام ، ووصل السلطان إلى دمشق فى حادى عشر صفر منها ، وقيل فى سابع [عشر][٦] .

ذكر ماجريات صلاح الدين من الغزوات وغيرها بعد دخوله دمشق

منها أنه خرج من دمشق فى العشر الأول من ربيع الأول ، ونزل قرب طبرية ، وشن الإغارة على بلاد الإفرنج مثل بيسان [٧] وجينين[٨] والغور [٩] ، فغنم منها وقتل جماعة . وقال ابن كثير[١٠] : واقتتل مع الفرنج تحت حصن كوكب [١١] ، فقتل خلق من الفريقين ،

(١) الحسا : موضع بالشام . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٠٢ .
(٢) وادى موسى : ينسب إلى موسى بن عمران ، وهو واد فى قبلى بيت المقدس بينه وبين أرض الحجاز . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٨٧٩ .
(٣) انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ٣٣١ . حيث نقل العينى هذا النص عنه بتصرف .
(٤) «تاج الدين» فى نسخة ب .
(٥) يقصد به «النهر الأزرق» وهو أحد نهيرات الفرات الأعلى ، ويجرى بين بَهَسْنا وحصن منصور فى طرق بلاد الروم من جهة حلب . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٨٣٤ ؛ السلوك ، ج١ ، ص٢٤٨ ؛ زبدة الحلب ، ج٣ ، ص٢١٧ .
(٦) «عشرة» كذا فى الأصل . والصحيح ما أثبتناه .
(٧) بَيْسَان : مدينة بالأردن بالغور الشامى وهى بين حوران وفلسطين . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٧٨٨ .
(٨) جينين : بليدة حسنة بين نابلس وبيسان من أرض الأردن . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٨٠ .
(٩) الغور : هو غور الأردن بالشام بين بيت المقدس ودمشق ، وهو منخفض عن أرض دمشق وأرض بيت المقدس ، ولذلك سمى الغور وفيه نهر الأردن ، انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٨٢٢ .
(١٠) نقل العينى هذا النص من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣١ .
(١١) حصن كوكب : اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية تشرف على الأردن . انظر : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص٣٢٨ .

ولكن كانت الدائرة للمسلمين ، ثم رجع مؤيدا منصورا إلى دمشق ، ثم سار إلى بيروت وحصرها وأغار على بلادها ، ثم عاد إلى دمشق .

وفى تاريخ بيبرس : وفيها سار صلاح الدين من دمشق إلى بيروت فحاصرها ونهب ماوجد ، وأمر أسطول مصر أن ينزلوا عليها ويحاصروها ، فكان وصوله لها قبل وصولهم ، وكان عازما علي حصارها إلى أن يفتحها ، وأتاه الخبر بأن بُطسةً عظيمة ألقاها البحر إلى دمياط ، خرج مَن فيها من الفرنج للحج إلى بيت المقدس ، فأسروا من بها ، فكانت[١] عدة الأسرى ألفا وستمائة وستة [وسبعين][٢] أسيراً ، فضربت بذلك البشائر .

ومنها أنه سار إلى البلاد الحلبية والجزرية ؛ [٢٢٣ظ] ليأخذها ، وذلك أن المواصلة والحلبية قد كاتبوا الفرنج حتى تغزوا على أطراف البلاد ؛ ليشغلوا السلطان صلاح الدين بنفسه عنهم ، فكان سَيْرُه على بلاد البقاع ، ثم إلى حماة ثم إلى حلب ، فحاصرها ثلاثاً ، ورأى أن العدول إلى غيرها أولى به ، فسار حتى قطع الفرات من البيرة ، وصار معه مظفر الدين كوكبورى صاحب حران . وكاتب ملوك تلك الأطراف واستمالهم ، فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا ، وصار معه ، ونازل السلطان مدينة الرُّها وحاصرها وملكها وسلمها إلى مظفر الدين كوكبورى .

ثم سار إلى الرقة وأخذها من قطب الدين ينال بن حسان المنبجى ، فسار هو إلى عز الدين مسعود صاحب الموصل ، ثم سار صلاح الدين إلى خابور وملكها ، وملك أيضا قرقيسيا [٣] ، وماكسين[٤] ، وعربان [٥] ، واستولى على الخابور جميعها ، ثم سار إلى نصيبين وحاصرها وملك المدينة ، ثم ملك القلعة وأقطعها أميراً كان معه يقال له أبو الهيجاء السمين .

(١) «كان» فى نسخة ب . وقد ورد هذا الخبر بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١١٢ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٩٣ .
(٢) «سبعون» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والصحيح ما أثبتناه .
(٣) قرقيسيا : بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ ، وعندها مصب الخابور فى الفرات . معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٩٦ .
(٤) ماكسين : بلد بالخابور قريب من رحبة مالك بن طوق من ديار ربيعة . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٩٦ .
(٥) عَرَبَانَ : بليدة بالخابور من أرض الجزيرة . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٣٢ .

ثم سار عن نصيبين وقصد الموصل ، وقد استعد صاحبها مسعود ومجاهد الدين قيماز للحصار ، فأقام عليها منجنيقا ، وأقاموا عليه من داخل المدينة مجانيق ، وضايق الموصل ، فلما رأى طول الحصار رحل عنها إلى سنجار وحاصرها وملكها ، واستناب بها سعد الدين بن معين الدين ، وكان من أكبر الأمراء .

ثم سار صلاح الدين إلى حران ، وعزل عن نصيبين فى ـ طريقه ـ أبا الهيجاء السمين ، ثم عاد إلى حلب وقد استحوذ على بلاد الجزيرة كلها ، وخضعت له الملوك هناك .

ولما وصل إلى حلب تسلمها من صاحبها عماد الدين زنكى ، وقد كان قايض أخاه عز الدين مسعود بها إلى سنجار كما ذكرنا فى العام الماضى ، فاستوسقت[1] له الممالك شرقا وغربا وبُعدا وقربا ، وتمكن حينئذ من قتال أعدائه من الفرنج ـ لعنهم الله ـ وتملكه حلب وغيرها إنما كان فى السنة الآتية على مانذكره إن شاء الله تعالى[2] .

وفى تاريخ بيبرس : عبر صلاح الدين الفرات وملك الديار الجزرية ، وسبب ذلك أن مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين على بن بكتكين ـ مقطع حران ـ أرسل إلى صلاح الدين ؛ يعلمه أنه معه وأنه محب لدولته ، ووعده النصر ، وأنه إذا عبر الفرات يعينه ويعرفه أخذ البلاد ، فرحل عن بيروت ، وَرُسُل مظفر الدين متواترة إليه ؛ تحثه على القدوم ، فجدَّ السير يُظهر أنه يريد حصر حلب . ولما قارب الفرات سار إليه مظفر الدين واجتمع به ، فقصد البيرة ، وكان صاحبها مع صلاح الدين وفى طاعته ، فعبر هو وأصحابه من الجسر الذي عند البيرة .

وكان عز الدين مسعود ومجاهد الدين قايماز ، لما بلغهما وصول صلاح الدين إلى الشام ، قد جمعا العسكر وسارا إلى نصيبين ، ليكوناً على أهبة لئلا يتعرض صلاح الدين إلى حلب ، ثم تقدما إلى دارا[3] فنزلا[٢٢٤و] عندها ، فجاءهما أمر لم يكن فى

---

(١) استوسق الأمر : انتظم . المعجم الوجيز ، ص ٦٦٩ ، مادة «وسق» .

(٢) وردت هذه الأحداث بتصرف فى زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٥٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٢ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص١١٢ ـ ١١٤ .

(٣) دارا : بلدة فى لحف جبل بين نصيبين وماردين ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٥١٦ .

الحساب ، فلما بلغهما عبور الفرات عادا إلى الموصل ، وأرسلا إلى الرها عسكرا يحميها ويمنعها ، فلما سمع صلاح الدين ذلك قوى طمعه فى البلاد ، وكاتب الملوك أصحاب الأطراف ووعدهم وبذل لهم البذول على نصرته ، فأجابه نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا ؛ لقاعدة كانت بينهما لما كان عنده بالشام ، فقصد آمد وحصرها وقاتلها أشد القتال ، وكان بها مقطعها الأمير فخر الدين «مسعود»[1] الزعفرانى ، فطلب الأمان وسلم البلد ، وصار فى خدمة صلاح الدين ، ولما ملك المدينة زحف إلى القلعة ، فسلمها إليه الدزدار الذى بها على مال أخذه . ولما ملكها صلاح الدين سلمها إلى مظفر الدين كوكبورى مع حران .

ثم سار إلى الرقة وبها مقطعها قطب الدين ينال المنبجى ، فسار عنها إلى عز الدين مسعود وملكها صلاح الدين ، وسار إلى الخابور ، وقرقيسيا ، وماكسين ، وعربان ، فملك جميع ذلك . فلما استولى على الخابور جميعه سار إلى نصيبين فملك المدينةلوقتها ، وحصر القلعة أياما ، فملكها وأقام بها ؛ ليصلح شأنها ، ثم أقطعها أبا الهيجاء السمين ، وسار عنها .

ومنها أنه لما ملك نصيبين جمع أمراءه وأرباب المشورة ، فاستشارهم بأى البلاد يبدأ ، بالموصل أو بسنجار أو بجزيرة ابن عمر؟ [2] فاختلفت آراؤهم ، فقال له مظفر الدين : لاينبغى أن نبدأ بغير الموصل ، فإنها فى أيدينا لامانع لها ، وأن عز الدين مسعود ومجاهد الدين قيماز متى سمعا بمسيرنا إليها تركاها وسارا عنها إلى بعض القلاع [الجبلية][3] ، ووافقه ناصر الدين محمد بن شيركوه ، وكان قد بذل لصلاح الدين مالا كثيرا ؛ ليقطعه الموصل إذا ملكها ، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك ، فأشار بهذا الرأى لما فى نفسه ، وسار صلاح الدين إلى الموصل ، وكان عز الدين صاحبها ومجاهد الدين نائبه قد جمعا عسكرا كثيرا من فارس وراجل ، وأظهرا من آلات الحصار ماحارت له الأبصار ،

---

(١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٢) ورد هذا الحدث بالنص فى ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص١١٤ ؛ وذكره بتصرف ابن العديم فى زبدة الحلب ، ج٣ ، ص ٥٩ - ٦٠ ؛ أيضا ذكره أبو شامة بتصرف فى الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص١٠٣ - ١٠٤ .

(٣) «الحلبية» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الكامل ، ج١٠ ، ص١١٤ حيث ينقل العينى عنه هذا النص حرفيًا .

وبذلا الأموال الكثيرة ، وشحنا مابقى بأيديهم من البلاد كالجزيرة ، وسنجار ، وغيرها ، بالرجال والسلاح والأموال ، ولما قارب صلاح الدين الموصل ترك عسكره ، وانفرد هو ومظفر الدين وناصر الدين ابن عمه ، ومعهم نفر من أعيان دولته ، وقربوا من البلد ، فرأى ماهاله من عظم البلد ، ورأى السور قد مُلِيء من الرجال ، وليس فيه شُرافة إلا وعليها مقاتل سوى من عليه من عامة البلد ، فعلم أنه لا يقدر عليه ، وأنه متى نازله وعاد عنه انكسر ناموسه ، ثم رجع إلى معسكره وصبح البلد ، فنازله وضايقه ، ونزل محاذيا باب كندة ، وأنزل صاحب الحصن بباب الجسر ، وأنزل أخاه تاج الملوك عند الباب العمادى ، وأنشب القتال ، فلم يظفر ، وأقام أياما ولم ينل منها شيئاً .

[٢٢٤ظ] وترددت الرسل إلى عز الدين مسعود ومجاهد الدين فى الصلح ، فطلب عز الدين إعادة البلاد التى أخذت منهم ، فأجاب صلاح الدين إلى ذلك بشرط تسليم حلب إليه ، فامتنع عز الدين ومجاهد الدين ، ولم ينتظم صلح ولا تم أمره ، فلما رأى صلاح الدين أنه لاينال من الموصل غرضا ، وأن من بسنجار من العساكر الموصلية يقطعون طريق من يقصده من عساكره وأصحابه ، سار عن الموصل إليها ، وسنذكر ماجرى بعد ذلك فى السنة الآتية إن شاء الله تعالى[١] .

ذكر بقية الحوادث

منها أن البرنس صاحب الكرك ، عليه اللعنة ، عمل مراكب فى بحر القلزم ؛ ليقطعوا الطريق على التجار والحجاج ، وذلك لما عجز عن إيصال المسلمين الأذى فى البر ، فوصلت أذيتهم إلى عيذاب ، وخاف أهل المدنية النبوية من شرهم ، فأمر العادل أبو بكر ابن أيوب ـ أخو صلاح الدين ـ نائب مصر ، الأمير حسام الدين لؤلؤ صاحب الأسطول ، أن يعمل مراكب فى بحر القلزم ، لمحاربة برنس ، ففعل ذلك ، فظفروا بهم فى كل موطن ، قتلوا منهم وحرّقوا وغرّقوا وسبوا وقهروا وأسروا فى مواطن كثيرة ومواقف هائلة ، وأمن البر والبحر بإذن الله[٢] . وأرسل صلاح الدين إلى أخيه العادل أبى بكر يشكر من مساعيه ، وأرسل إلى ديوان الخليفة يعرفهم بما أنعم الله به عليهم من الفتوحات برًا وبحرًا .

(١) أورد ابن الأثير هذه الأحداث بالتفصيل فى الكامل ، ج١٠ ، ص١١٤ ـ ١١٥ .

(٢) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١١٧ ـ ١١٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٢ ؛ الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١١٣ ـ ١١٤ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٥ .

وفى المرآة[١] : فى هذه السنة كانت وقعة الحاجب لؤلؤ مع الفرنج ، خرج إبرنس صاحب الكرك إلى أيلة ، فأقام بها ومعه الأخشاب على الجمال والصناع ، فعمل المراكب ، وكان قصده مكة والمدينة والغارات فى البحر ، فلما تم عملها ركب فيها ووصل إلى عيذاب فى بحر القلزم ، فأخذ مراكب التجار ، ونهب وقتل وأسر ، وسار يريد جدة . وبلغ الخبر إلى سيف الدين العادل أخى السلطان ، فأمر [الحاجب حسام الدين لؤلؤا][٢] فركب فى بحر القلزم ، وسار خلفهم ، وساعده الريح فأدركهم وقد أشرفوا على مدينة النبى (ﷺ) ، فهرب بعضهم فى البر ، وأسر الباقين ، فأخذ مائة وسبعين أسيرا ، وخَلَّصَ أموال التجار وردها عليهم ، واستولى على مراكبهم ، وعاد إلى القاهرة . وكتبوا إلى صلاح الدين بذلك ، فقال : تُضرب رقاب الأسرى بعضهم بالقاهرة ، وبعضهم بمكة ، وبعضهم بالمدينة ، ففعلوا . وكتبوا بذلك إلى الخليفة .

وفى تاريخ المؤيد[٣] : وكان حسام الدين لؤلؤ مُظَفَّرًا فيه شجاعة ، فسار فى طلبهم مُجِداً وأوقع بالذين يحاصرون أيلة ، فقتلهم وأسرهم ، ثم سار فى طلب الفرقة الثانية ، وكانوا قد عزموا على الدخول إلى الحجاز ومكة والمدينة ، وسار «لؤلؤ» [٤] يقفو أثرهم فبلغ رابغ[٥] فأدركهم بساحل الحوراء[٦] ، وتقاتلوا أشد القتال ، فَظَفَّرَهُ الله بهم وقتل لؤلؤ أكثرهم وأخذ الباقين أسرى ، وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها ، وعاد بالباقين إلى مصر فقتلوا عن آخرهم .[٢٢٥و]

وفى تاريخ بيبرس : قال ابن [الذروى][٧] يمدح لؤلؤ بأبيات منها :

مَرَّ يومٌ من[٨] الزمانِ عجيبٌ ... كاد يُبْدِى فيه السُّرورَ الجمادُ
قُلتُ بعدَ التكبيرِ لما تَبدَّى ... هَكَذَا هَكَذَا يكونُ الجهادُ!!

---

(١) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص٢٣٥ ؛ كما ورد النص فى الروضتين ج٢ ق١ ، ص١١٤ .
(٢) «حسام الدين الحاجب لؤلؤ» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١١٣ وهو الصحيح .
(٣) المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص ٦٥ .
(٤) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٥) رَابغ : واد يقطعه الحاج بين البزواء والجُحْفة . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٧٢٧ .
(٦) حَوْرَاء : كورة من كُوَر مصر القبلية فى آخر حدودها ، من جهة الحجاز ، وهى على البحر فى شرقى القلزم . معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٣٥٦ .
(٧) «الدورى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من خريده القصر ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص١٨٧ . وهو الوجيه بن الذروى أبو الحسن على بن يحيى المتوفى سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م . انظر أيضا الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص١١٤ .
(٨) «فى» كذا فى نسخة ب .

ومنها[١] أن عز الدين صاحب الموصل اجتمع هو [وشاه أرمن][٢] صاحب خلاط على قتال صلاح الدين ؛ وسبب ذلك أن رسل عز الدين ترددت إلى شاه أرمن تستنجده وتستنصره على صلاح الدين ، فأرسل شاه أرمن إلى صلاح الدين عدة رسل فى الشفاعة بالكفِّ عن الموصل ، ومايتعلق بعز الدين ، فلم يجبه إلى ذلك ، وغالطه ، فأرسل إليه أخيراً مملوكا له ، يقال له سيف الدين بكتمر الذى ملك خلاط بعده[٣] ، فأتاه وهو يحاصر سنجار يطلب إليه أن يتركها ويرحل عنها ، وقال له : إن رحل عنها وإلا فتهدده بقصده ومحاربته ، فأبلغه بكتمر الشفاعة ، فَسَوَّفَ فى الإجابة رجاء أن يفتحها ، فلما رأى بكتمر ذلك أبلغه الرسالة بالتهديد ، وفارقه غضبان ، ولم يقبل منه خلعة ولاصلة ، وأخبر[٤] صاحبه الخبر ، فسار إلى ماردين ، وصاحبها قطب الدين بن ألبى ، وهو ابن أخت شاه أرمن ، وابن خال عز الدين وحموه ، وحضر صحبة شاه أرمن دولة شاه صاحب بَدْليس[٥] وأرزن[٦] ، وسار عز الدين من الموصل فى عسكره جريدة من الأثقال . فلما سمع صلاح الدين باجتماعهم سير إلى ابن أخيه تقى الدين وهو بحماة يستدعيه ، ورحل إلى رأس عين ، فلما سمعوا برحيله تفرقوا ، فعاد شاه أرمن إلى خلاط ، واعتذر بأنه يجمع العساكر ويعود ، وعاد عز الدين إلى الموصل ، وأقام قطب الدين بماردين ، وسار صلاح الدين فأقام تحت ماردين أياما[٧] .

وفيها ....[٨] .

وفيها : حج بالناس من العراق طاشتكين[٩] .

---

(١) ورد هذا النص فى الكامل ، ج١٠ ، ص١١٦- ١١٧ .

(٢) «ساهر من » فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الكامل ، ج١٠ ، ص١١٦ ، كذلك مما ورد من أحداث بعد ذلك فى نص العينى الذى بين أيدينا .

(٣) يقصد هنا أن سيف الدين بكتمر ملك خلاط بعد شاه أرمن . الكامل ، ج١٠ ، ص١١٧ .

(٤) «أبلغ» فى نسخة ب .

(٥) بدليس : بلدة من نواحى أرمينية قرب خلاط . معجم البلدان ، ج١ ، ص ٥٢٦ .

(٦) أرزن : مدينة مشهورة قرب خلاط ولها قلعة حصينة وكانت من أعمر نواحى أرمينية . معجم البلدان ، ج١ ، ص٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٧) إلى هنا توقف العينى عن النقل من الكامل ، ج١٠ ، ص١١٦ - ١١٧ .

(٨) بياض بمقدار سطر ونصف فى النسختين .

(٩) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٧ .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أحمد بن محمد بن على أبو طالب الفقيه الحنفى المعروف بابن الكجلو[(١)] ؛ من أهل المدائن . قال ابن النجار : كان يتولى الخطابة بها مدة ، ثم قدم بغداد واستوطنها ، وكان يسكن بمدرسة سعادة على شاطىء دجلة ، وكان أديبا فاضلا له شعر حسن ، وحدَّث عن أبى غالب محمد بن الحسن الماوردى بيسير ، وتوفى يوم الخميس لسبعة عشر خلت من ذى الحجة من هذه السنة ، ومن أشعاره من قصيدة :

لَهِيبُ فُؤادٍ حَرُّه ليس يَبْرُدُ ... وذائِبُ دمْع بالأسى ليس يَجْمُدُ

وماكُلُّ مرتاحٍ إلى المجدِ ماجدٌ ... ولا كُلُّ من يهوَى السيادَة سَيِّدُ

وَمَنْ يزرع المَعْروفَ بَذْرًا فإنَّه ... على قدْر ماقَدْ قَدَّمَ البذْرَ يحْصُدُ

والكُجْلُو بضم الكاف وسكون الجيم وضم اللام وبعدها واو .

القطب النيسابورى ، واسمه مسعود بن محمد بن مسعود أبو المعالى الفقيه الشافعى[(٢)] ؛ ولد سنة خمس وخمسمائة بنيسابور ، وأبوه من طُرَيْثيث[(٣)] ، وتفقه القطب بنيسابور ، وسمع الحديث ، ودرَّس[٢٢٥ظ] بالنظامية« التى بنيسابور»[(٤)] نيابة عن [الجُوينى][(٥)] ، وقدم دمشق فى سنة أربعين وخمسمائة ، ووعظ بها ، وما كان الوعظ من فنه ، وحضر نور الدين مجلسه ، ودرَّس بالمجاهدية[(٦)] ، ثم بالزاوية الغربية فى الجامع بعد وفاه نصر المقدسى[(٧)] ، ثم سافر إلى حلب ودرس بالمدرستين اللتين لنور الدين وأسد الدين ، ثم عاد إلى دمشق فحَّدث ودرَّس بها ، فتوفى يوم عيد الفطر ، وصلى عليه بجامع

---

(١) انظر ترجمته فى الجواهر المضية فى طبقات الحنفية ، ج١ ، ص١١٢ ، طبعة أولى ، حيدر آباد ، د .ت .

(٢) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص١٩٦ ـ ١٩٧ ؛ شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص٢٦٣ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٣٧ـ ٢٣٨ ؛ الدارس ، جـ ١ ، ص١٨٣ـ ١٨٤ .

(٣) طريثيث : ناحية بنيسابور . انظر : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص٥٣٤ .

(٤) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٥) «ابن بنت الجوينى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص١٩٦ .

(٦) المجاهدية : هى المدرسة المجاهدية الجوانية ، وقفها الأمير مجاهد الدين أبو الفوارس بزان بن يامين الكردى أحد مقدمى الجيش بالشام فى دولة نور الدين . انظر : الدارس ، جـ ١ ، ص٤٥١ .

(٧) يقصد أبا الفتح نصر الله المصيصى . انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ١٩٦ .

دمشق ، وكان «يوما» [١] مشهودًا ، ودفن بمقابر الصوفية عند المنيبع[٢] ، وتزوج الفخر بن عساكر بنته ، وذكره ابن عساكر وأثنى عليه ، وقال[٣] : إنه رأى أبا نصر بن القشيرى والمشايخ .

ممدود الذهبى البغدادى[٤] ؛كان مجاب الدعوة ، اتهم بسرقة ، وأتى به إلى باب النوبى ، ومُد ليضرب ، فرفع النقيب يده ليضربه ، فيبست يده ، فقال له حاجب الباب : مالك؟ فقال : قد يبست يدى ، فرفعوه من الأرض ، فعادت يده صحيحة ، فمدوه ، وعاد النقيب ليضربه ، فيبست يده ، فعلوا به ذلك ثلاث مرات ، فلما كان فى المرة الثالثة بكى حاجب الباب ، وقام له وأجلسه إلى جانبه واعتذر له ، وكتب إلى الخليفة فأخبره ، فأمره أن يحسن إليه ، وكانت وفاته فى هذه السنة .

أبو منصور هاشم بن المستضىء[٥] ، **أخو الإمام الناصر لدين الله** ؛ مات فى هذه السنة ، وكان شابا حسنا دينًا ، وأشار ابن العطار بتوليته الخلافة ، فلم يتم ذلك ، فتوفى فى شعبان ، ودفن عند أبيه المستضىء .

فخر الدولة بن الحسن بن هبة الله بن محمد بن على بن المطلب أبو المظفر ؛ وكان أبوه أبو المعالي وزيرا ، وأخوه أبو المكارم على أستاذ الدار ، وكان فخر الدولة فاضلا سديد الرأى ، كثير الصدقات دائم المعروف سخيا ، ذا مروءة ظاهرة ، وله ببغداد آثار جميلة منها ؛ جامعهُ المعروف بفخر الدولة غربى بغداد ، غرم عليه أموالاً عظيمة ، ومنها رباطه شرقى بغداد عند عقد المصطنع عند دار الذهب ، ووقف عليهما أوقافا كثيرة . وكانت وفاته فى شوال ، ودفن بجامعه غربى بغداد ، وله شباك يشرف على دجلة[٦] . وقال السبط[٧] : قد رأيت هذا الجامع فى سنة خمس وأربعين وخمسمائة ، وقد استولت دجلة عليه ، فأخربت بعضه والظاهر أنها تخرب الباقى .

---

(١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٢) المنيبع : محلة غربى دمشق . انظر : الدارس ، ج١ ، ص٣٥٥ ، حاشية «٥» .
(٣) «قيل» فى نسخة ب .
(٤) انظر ترجمته فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص ٢٣٨ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٦٣ .
(٥) انظر ترجمته فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص ٢٣٨ .
(٦) نقل العينى هذه الترجمة بتصرف من مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص٢٣٧ . انظر أيضًا : الكامل ، ج١٠ ، ص ١١٨ .
(٧) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص٢٣٧ .

ابن بَشْكُوال ، أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال[١] بن يوسف بن داحَة بن داكة بن نصر بن عبد الكريم بن وافد الخزرجى القرطبى ؛ كان من علماء الأندلس ، وله التصانيف المفيدة ، منها «كتاب الصلة» الذى جعله ذيلا على«تاريخ علماء الأندلس»تصنيف القاضى أبى الوليد عبد الله المعروف بابن الفرضى[٢] ، وقد جمع فيه خلقا كثيرا . وله تاريخ صغير فى أحوال الأندلس ، وما أقْصَر فيه ، وكتاب «الغوامض والمبهمات» ذكر فيه من جاء ذكره فى الحديث مبهماً وعينه ، ونسج فيه على منوال الخطيب البغدادى فى كتابه الذى وضعه على هذا الأسلوب ، وجزء لطيف ذكر فيه من روى «الموطأ» عن مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ ورتب أسماءهم على حروف المعجم ، فبلغت عدتهم ثلاثة[٣] وسبعين رجلا ، ومجلد لطيف سماه «[كتاب][٤] المستغيثين بالله تعالى عند [المهمات][٥] والحاجات» ، وغير ذلك من المصنفات . وتوفى ليلة الأربعاء لثمانية خلون من شهر رمضان من هذه السنة [٢٢٦و] بقرطبة ، ودفن يوم الأربعاء بعد صلاة الظهر بمقبرة ابن عباس ، بالقرب من قبر يحيى بن يحيى .

وداحة : بفتح الدال المهملة وبعد الألف حاء مهملة أيضا مفتوحة ثم هاء ساكنة .

وداكة : مثلها إلا أن عوض الحاء كاف .

وبشكوال : بفتح الباء الموحدة وسكون الشين المعجمة وضم الكاف وبعد الواو ألف ولام .

وتوفى والده أبو مروان عبد الملك بن مسعود صبيحة يوم الأحد ، ودفن عشاء يوم الاثنين لأربعة بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائه ، وعمره نحو ثمانين سنة .

---

(١) انظر : ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٢٤٠ ـ ٢٤١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٣ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص٦٦ .

(٢) انظر : ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص١٠٥ ـ ١٠٦ .

(٣) «ثلاثا» فى نسختى المخطوطة أ ، ب والصحيح ما أثبتناه .

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٢٤٠ حيث ينقل العينى عنه .

(٥) «الملمات» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٢٤٠ ؛ كشف الظنون ، ج٢ ، ص١٦٧٤ .

الشيخ أحمد بن الرفاعي ؛ هو أبو العباس أحمد بن أبى الحسن على بن أبى العباس أحمد المعروف بابن الرفاعى ، كان رجلا صالحا شافعى المذهب ، وكان متواضعًا سليم الصدر ، مجرداً من الدنيا ، وماادخر شيئا قط . وقال ابن خلكان[١] : أصله من العرب ، وسكن فى البطائح[٢] ، بقرية يقال لها أم عبيدة ، وتبعه خلق كثير من الفقراء ، فتسموا بالرفاعية البطائحية ، ولأتباعه أحوال عجيبة ؛ من أكل الحيات وهى حية ، والنزول إلى التنانير وهى تتضرم بالنار فيطفئونها . ويقال : إنهم فى بلادهم يركبون الأسود وغير ذلك . ولم يكن له عقِب وإنما العقب لأخيه ، وأولاده يتوارثون المشيخة .

وفى المرآة[٣] : ويتسلق أحدهم فى أطول[٤] النخل ، ثم يلقى نفسه إلى الأرض ولا يتألم ، ويجتمع عنده فى كل سنة فى المواسم خلق عظيم . حكى لى بعض أشياخنا قال : حضرت عنده ليلة نصف شعبان وعنده نحو من مائة ألف إنسان .

وقال ابن خلكان[٥] : ولهم مواسم يجتمع عندهم من الفقراء عالم لايعد ولايحصى ، ويقومون بكفاية الكل .

قلت : ولطائفتهم موسم عظيم فى كل سنة يسمونه المحَيى ، بموضع يقال له تريب ، بين عينتاب والبيرة التى على الفرات ، يجتمع هناك كل سنة أمم لا يحصون ، وينضم إليهم من أهل تلك البلاد أناس كثيرون ، فتقام هناك أسواق عظيمة فيها بيع وشراء ، وينصبون الخيام والأخصاص ونحوها ، فأخبرنى أناس أن طائفة منهم يأكلون الحيات وهى حية ، ويأكلون جمرات النار ، ويحمون الصفائح الحديد ويقعدون عليها ، ويجعلون فى أعناقهم أطواقًا من حديد محماة مثل النار ، ونحو ذلك من الأشياء الخارقة للعادة ، ويقيمون هناك سماعاً ورقصا بأنواع الشهيق والزفير والبعبعة ، مع [تزبد][٦] أفواههم ، ونحو ذلك من الأشياء المنكرة المبتدعة .

---

(١) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٧١ ـ ١٧٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٣ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٦ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ .
(٢) البطائح : أرض واسعة بين واسط والبصرة ، وهى مجموعة قرى متصلة . معجم البلدان ، ج١ ، ص ٦٦٨ـ ٦٧٠ .
(٣) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٦ .
(٤) «أصول» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٦ .
(٥) وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٧٢ .
(٦) «تزيد» فى نسخة أ . والمثبت من نسخة ب ، حيث يتفق مع السياق .

وقال ابن خلكان[١] : وكان للشيخ ـ مع ماكان «عليه»[٢] من الاشتغال بعبادته ـ شعر ، فمنه :

إذا جَنَّ ليلى هامَ قلبى بذكْرِكُمُ	أنُوح كما ناحَ الحمامُ المطَوّقُ
وفَوْقى سحابٌ يمطر الهمَّ والأسَى	وتحتى بحارٌ [بالأسى][٣] تتدفَّقُ
سَلُوا أمَّ عمرو كيف بات أسيرُها	تُفَكُّ الأسارى دونَه وهو مُوثَقُ
فَلاَ هُوَ مَقْتُولٌ فَفى القَتْل راحَةٌ	ولاهُوَ ممنونٌ عليه فَيُطْلَقُ

وفى المرآة[٤] : وكان سبب وفاته أن عبد الغنى بن محمد بن نقطة[٥] الزاهد مضى إلى [٢٢٦ظ] زيارته ، فأنشده أبياتاً منها : إذا جن ليلى هام قلبى بذكركم . إلى آخر ماذكرناه ، فبكى الشيخ ومرض ، وكانت وفاته يوم الخميس ثانى عشر جمادى الأولى ، وقد جاوز تسعين سنة[٦] ، وكانت وفاته بأم عبيدة بفتح العين المهملة وكسر الباء الموحدة وسكون الياء آخر الحروف وبعد الدال المهملة المفتوحة هاء .

والبطائح : بفتح الباء الموحدة ، عدة قرى مجتمعة فى وسط الماء بين واسط والبصرة ، ولها شهرة بالعراق .

والرِفاعى : بكسر الراء نسبة إلى رِفاعة[٧] ، إما إلى أجداده ، وإما إلى رفاعة اسم قبيلة . فافهم .

الملك المنصور عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ؛ صاحب بعلبك ، ونائب السلطان صلاح الدين على دمشق ، وهو عمه ، ووالد الملك الأمجد[٨] بهرام شاه ،

---

(١) وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٧٢ .
(٢) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٣) «للأسى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص١٧٢ ، حيث ينقل العينى عنه .
(٤) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص ٢٣٦ .
(٥) هو : عبد الغنى بن شجاع ، أبو بكر البغدادى الحنبلى المعروف بابن نقطة ، توفى سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٣٩٣ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص ٢٧٨ .
(٦) إلى هنا توقف العينى عن النقل من مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٣٦- ٢٣٧ .
(٧) وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٧٢ .
(٨) الملك الأمجد مجد الدين أبو المظفر بهرام شاه بن فروخ شاه ، توفى مقتولاً بيد أحد مماليكه فى داره بدمشق سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٤٥٣ .

صاحب بعلبك أيضا بعد أبيه ، وإليه تنسب المدرسة الفرخشاهية[١] بالشرف[٢] الشمالى ، وإلى جانبها التربة الأمجدية لولده ، وهما للحنفية والشافعية ، وقد كان فرخشاه شهماً شجاعا بطلا ذكيا فاضلا كريما ممدّحاً ، امتدحه الشعراء لجوده وفضله وإحسانه ، وكان من أكبر أصحاب الشيخ تاج الدين أبى اليمن الكندى ، عرفه من مجلس القاضى الفاضل . ومن محاسنه صحبته لتاج الدين المذكور ، وله فيه مدائح ، ومن شعره قوله :

أنا فى أسْرِ السَّقَامِ   مِنْ هَوَى[٣] هذا الغلامِ
رَشَأٌ ترشقُ عَيْنا   هُ فُؤادى بسِهَامِ
كُلَّمَا أَرْشَفنى فَا   هُ على حَرِّ الأوامِ
ذُقْتُ منه الشَّهْدَ   فى الثلْجِ المُصَفَّى بالمُدامِ

وكان ابنه الأمجد شاعرا جيدا ، وقد ولاه عم أبيه ـ صلاح الدين ـ بعلبك بعد موت أبيه ، واستمر فيها مدة طويلة[٤] .

وفى المرآة [٥] : وكان فرخشاه من الأفاضل الأماثل ، كثير الصدقات متواضعا سخيا جوادا مقداما متنصلا من المظالم ، وكان شاعرا فصيحا . قال العماد : أنشدنى فى قلعة دمشق ، ونحن بين يدى صلاح الدين :

إذَا شِئْتَ أن تُعطِى الأمُور حُقوقَها   وَتُوقِع حُكْمَ العَدْلِ أحْسَن موقِعهْ
فَلاَ تَصْنَع المعروفَ مَعَ غَيْر أهْلِه   فَظُلْمُك وضعُ الشىء فى غيرِ مَوْضِعِهْ[٦]

وقال فى وصف دمشق :

---

(١) المدرسة الفرخشاهية : وقفتها حظ الخير خاتون ابنة إبراهيم بن عبد الله والدة عز الدين فرخشاه . وهى زوجة شاهنشاه بن أيوب أخى صلاح الدين ، وذلك فى سنة ٥٧٨هـ/١١٩١م ، وهذه المدرسة فى زقاق الصخر عند مدخل دمشق الغربى . انظر : الدارس ، جـ ١ ، ص٥٦١ ـ ٥٦٤ .

(٢) الشرف : هو المكان العالى ، والمشارف من قرى العرب ما دنا من الريف وواحدها شرف . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٢٧٧ .

(٣) «هذى» فى نسخة ب .

(٤) ورد هذا النص بتصرف فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٢ ـ ٣٣٣ .

(٥) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٧ .

(٦) وردت هذه الأبيات فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٧ .

دِمشقُ سقاكِ الله صوبَ غمامةٍ	فما غائِبٌ عنها لدىَّ رشيدُ
عسى مُسْعِدًا لى أَنْ أبيتَ بأرضِها	ألاَ إنَّنى لوصَحَّ لى لَسَعِيْدُ[١]

وله أشعار كثيرة مدونة . وكانت وفاته بدمشق فى جمادى الأولى من هذه السنة ، ودفن بقبته على الميدان فى الشرف الشمالى .

[قال المؤلف[٢]] : انتجز توريق هذا الجزء على يد مُسَطِّره ، ومؤلفه العبد الفقير إلى رحمة ربه الغنى أبى محمد محمود بن أحمد العينى يوم الاثنين الثامن من شهر رمضان عام إحدى وثلاثين وثمانمائة بالقاهرة المحروسة ، بداره المجاورة لمدرسته البدرية بحارة كتامة ، بالقرب من الجامع الأزهر ، يتلوه الجزء الذى أوله : (فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة التاسعة والسبعين بعد الخمسمائة من الهجرة النبوية) ، على يد أفقر عبيد الله وأحوجهم إلى عفوه ومغفرته محمد بن أحمد بن محمد الأخميمى الأنصارى الخزرجى الحنفى ، عامله الله والمسلمون بلطفه الجَلىّ والخفىّ ، فى يوم الثلاثاء المبارك السابع والعشرين من شهر صفر الأغر ، ختم بالنصر والظفر سنة ثمان وتسعين وثمانمائة ، حامدا لله تعالى ، ومصليا على رسوله ومسلماً ومحمدلاً ومحسبلاً ومحوقلاً .

---

(١) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٧ .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من نسخة أ ومثبت من نسخة ب .

كشافات الكتـــاب

كشاف الأعلام★

أ

★ قام بإعداد هذا الكشاف الدكتورة/ لبيبة إبراهيم مصطفى ، الباحثة/ تماضر زكريا غنام .

ت

ث

ج

ح

ز

س

غ

ف

ك

ل

م

كشاف الأمم والشعوب والقبائل والفرق والجماعات★

أ

★ قام بإعداد هذا الكشاف الدكتورة/ لبيبة إبراهيم مصطفى ، الباحثة/ تماضر زكريا غنام .

ق

ك

م

ن

و

ى

كشاف الأماكن والمدن والشوارع والأسواق والحارات والخطط والرباع والمساجد والجوامع والخوانق والخانات والأنهار والترع والجسور

أ

(★) قام بإعداد هذا الكشاف الباحثة نعمات عباس محمد ، الباحثة نفيسة محمد محمد صميدة .

ت

ج

ر

ز

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ى

كشاف الألفاظ الإصطلاحية وأسماء الدواوين والوظائف والرتب والألقاب وأنواع الضرائب وأدوات الحرب والملبوسات والمحاصيل والمقاييس والأعياد والملاهى

أ

(*) قام بإعداد هذا الكشاف الباحثة/ نعمات عباس محمد ، الباحثة/ نفيسة محمد محمد صميدة .

ث

ج

ح

خ

ذ

ر

ض

ط

ظ

ع

غ

ف

ك

ل

م

ن

هـ

و

ى

كشاف بأسماء الكتب الواردة فى النص★

الصفحة

★ قام بإعداد هذا الكشاف الدكتورة/ لبيبة إبراهيم مصطفى ، الباحثة/ تماضر زكريا غنام .

مصادر التحقيق

ابن أبى يعلى الفراء : (محمد بن محمد ، أبو الحسين) ت : ٤٥٨هـ/ ١٠٥٦م .

- طبقات الحنابلة

ط . دار المعرفة ، بيروت ، د . ت .

ابن الأثير : (أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد) ت : ٦٣٠هـ/ ١٣٢٢م

- التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية .

تحقيق عبد القادر محمد طليمات ، القاهرة ١٩٦٣ .

- الكامل فى التاريخ . بيروت ١٩٨٧ .

ابن أيبك الدوادار : (أبو بكر عبد الله بن أيبك) ت ٧٣٥هـ / ١٣٣٣م .

- كنز الدرر وجامع الغرر ، المعروف بالدرة المضيّة فى أخبار الدولة الفاطمية .

تحقيق صلاح المنجد ، القاهرة ١٩٦١م .

ابن بطوطة : (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتى) ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م .

- تحفة النظار فى غرائب الأمصار .

تحقيق طلال حرب . ط . بيروت ١٩٨٧م .

ابن تغرى بردى : (أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى) ت٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩م .

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . القاهرة ١٩٦٣م .

ابن الجوزى : (أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد) ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م .

- المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك .

ط ١ . حيدر أباد ١٣٥٨ هـ .

ابن خرداذبة : (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله) ت : فى حدود ٣٠٠ هـ/ ٩١٢م .

- المسالك والممالك ، بغداد ١٨٨٩م .

ابن خلكان : (شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم) ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م .

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . تحقيق إحسان عباس .

ط . دار صادر ، بيروت ١٩٧٨م .

ابن دقماق : (غرس الدين إبراهيم بن محمد) ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م .

- الجوهر الثمين فى سيرة الملوك والسلاطين ، بيروت ١٩٨٥ .

ابن الساعى : (على بن أنجب الخازن) ت ٦٧٤ هـ/ ١٢٧٦م .
- الجامع المختصر فى عنوان التواريخ وعيون السير .
ط . المطبعة السريانية الكاثوليكية ،بغداد ١٩٣٤م .

ابن شاكر الكتبى : (محمد بن شاكر بن أحمد الحلبى) ت ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٣م .
- فوات الوفيات . تحقيق إحسان عباس . ط . دار صادر ، بيروت ١٩٧٣م .

ابن شاهنشاه الأيوبى (الملك المنصور ناصر الدين محمد بن تقى الدين عمر) ت٦١٧هـ/ ١٢٢٠م .
- مضمار الحقائق وسر الخلائق . تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٨م .

ابن شداد : بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم) ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م .
- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، المعروف بسيرة صلاح الدين ، تحقيق جمال الدين الشيال . ط . أولى ، القاهرة ١٩٦٤م .

ابن عبد الحق : (صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق) ت ٧٣٩ هـ/ ١٣٣٨م .
- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع .
تحقيق محمد على البجاوى ، دار المعرفة - بيروت ١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٤م .

ابن العديم : (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد) ت ٦٦٠ هـ/ ١٢٦٢م .
- زبدة الحلب من تاريخ حلب . تحقيق سامى الدهان ، دمشق ١٩٥٤ .

ابن عربى :
- الفتوحات المكية ، السفر الأول ، القاهرة ١٩٨٥ .

ابن عساكر : (أبو القاسم على بن محمد) ت ٥٧١ هـ/ ١١٧٥م .
- تاريخ مدينة دمشق . بيروت ١٩٧٩ .

ابن العماد الحنبلى : (أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى) ت ١٠٨٩ هـ .
- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب .
ط . بيروت ، د . ت .

ابن الفرات : (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن على المصرى) ت ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤م
- تاريخ الدول والملوك ، المعروف بتاريخ ابن الفرات . بيروت ١٩٣٦م .

ابن قتيبة : (أبو محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة) ت٢٧٦هـ/ ٨٨٩م .
- المعارف .
تحقيق ثروت عكاشة ، القاهرة ١٩٦٠م .

ابن القلانسى : (أبو يعلى حمزة بن أسد الدمشقى) ت٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م .

ـ ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ .

ابن كثير : (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر) ت ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢م .

ـ البداية والنهاية . تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرين . بيروت ١٩٨٧ .

ابن مماتى : (شرف الدين أبو المكارم بن أبى سعيد مهذب بن مينا بن زكريا) ت ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩م .

ـ قوانين الدواوين . تحقيق عزيز سوريال عطية . القاهرة ١٩٤٣م .

ابن منظور : (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى) ت٧١١ هـ/ ١٣١٢م .

ـ لسان العرب . تحقيق عبد الله على الكبير وآخرين .

ط . دار المعارف . القاهرة . د . ت .

ابن واصل : (جمال الدين محمد بن سالم) ت ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٨م .

ـ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب . تحقيق جمال الدين الشيال .

القاهرة ١٩٥٧م .

أبو شامة : (عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان) ت٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧م .

ـ تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، المعروف بالذيل على الروضتين .

تحقيق عزت العطار الحسينى .

ط . أولى . القاهرة ١٩٤٧ .

ـ الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية .

تحقيق محمد حلمى محمد أحمد .

القاهرة ، ١٩٦٢م .

أبو الفدا : (إسماعيل بن الأفضل على بن محمود بن عمر بن شاهنشاه) ت٧٣٢ هـ/ ١٣٣١م .

ـ المختصر فى أخبار البشر .

ط . بيروت . د . ت .

الإصطخرى : (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى ، المعروف بالكرخى) ت ٣٤٠ هـ/ ٩٥١م .

ـ المسالك والممالك .

تحقيق محمد جابر عبد العال الحينى ـ مراجعة شفيق غربال . القاهرة ١٣٨١ هـ/ ١٩٦١م .

البغدادى : (أبو منصور عبد القاهر بن طاهر) ت٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧م .

- الفرق بين الفرق .

تحقيق محى الدين عبد الحميد . بيروت . د . ت .

البندارى : (الفتح بن على البندارى) من مؤرخى القرن ١٣م .

- سنا البرق الشامى .

تحقيق فتحية النبراوى ط . الخانجى بمصر ، ١٩٧٩م .

الجاحظ : (أبو عثمان عمرو بن بحر) ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨م .

- البخلاء .

تحقيق طه الحاجرى . ط . دار المعارف بالقاهرة ١٩٨١م .

حاجى خليفة : (مصطفى كاتب چلبى) ت ١٠٦٧ هـ/ ١٦٥٧م .

- كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون .

ط . مكتبة المثنى ، بغداد د . ت .

الخطيب البغدادى : (الحافظ أبو بكر أحمد بن على) ت ٤٦٢ هـ/ ١٠٧١م .

- تاريخ بغداد .

صححه السيد محمد سعيد الفرقى . بيروت د . ت .

الخوارزمى : (أبو عبد الله محمد بن أحمد) .

- كتاب مفاتيح العلوم . القاهرة ١٣٤٤ هـ .

الذهبى : (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان) ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧م .

- العبر فى خبر من غبر .

تحقيق أبو عامر محمد . ط . بيروت ١٩٨٥م .

سبط ابن الجوزى : (أبو المظفر يوسف بن قزأوغلى) ت ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٧م .

- مرآة الزمان . ج٨ . ط . شيكاغو ١٩٠٧م .

السبكى : (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى) ت٧٧١ هـ/ ١٣٦٩م .

- طبقات الشافعية .

تحقيق عبد الفتاح الحلو ، محمود الطناحى .

القاهرة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م .

السلمى (أبو عبد الرحمن السُّلمى) ت ٤١٢ هـ/ ١٠٢١م .
- طبقات الصوفية .
تحقيق نور الدين شريبة . ط . أولى ، القاهرة ١٩٥٣م

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٥م .
- تاريخ الخلفاء . ط . مصر ١٩٥٩ .

الشهرستانى : (أبو الفتح محمد بن عبدالكريم بن أحمد الشافعى) ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣م .
- الملل والنحل .
تحقيق محمد سيد كيلانى . القاهرة ١٩٦١م .

شيخ الربوة : (شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى طالب الأنصارى الصوفى الدمشقى) ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م .
- نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر .
ط . ليبزج ١٩٢٣م .

عبد القادر الرستمى .
- مختصر كتاب الفرق بين الفرق .
نشر فيليب حتى . مصر ١٩٣٤م .

العماد الكاتب : (أبو عبد الله محمد بن أبى الرجاء) ت ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١م .
- خريدة القصر وجريدة العصر . قسم الشام تحقيق شكرى فيصل . دمشق ١٩٥٩م .
قسم مصر تحقيق شوقى ضيف وآخرون . القاهرة ١٩٥١م .
- الفتح القسى فى الفتح القدسى .
تحقيق محمد محمود صبح . ط . الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة . د . ت .

القلقشندى : (أبو العباس أحمد بن على) ت٨٢١ هـ/ ١٤١٨م .
- صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، القاهرة ١٩٦٣م .
- نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، القاهرة ١٩٥٩م .

المتنبى : (أبو الطيب أحمد بن الحسين الكوفى) ت٣٥٤ هـ/ ١٩٦٥م .
- ديوان المتنبى . تحقيق مصطفى السقا . ط الثانية ١٩٥٦م .

المقّرِىّ : (أحمد بن محمد التلمسانى) ت١٠٤١هـ/ ١٦٣١م .
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب .
تحقيق إحسان عباس . بيروت ١٩٦٨م .

المقريزى : (تقى الدين أحمد بن على) ت٨٤٥ هـ/ ١٤٤١م .

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا .

تحقيق جمال الدين الشيال . ط . دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٤٨م .

ط . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . القاهرة ١٩٩٧م .

- السلوك لمعرفة دول الملوك .

جـ١ ، جـ٢ تحقيق محمد مصطفى زيادة ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٧م .

جـ٣ ، جـ٤ تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ط . دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٢م .

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . ط . مكتبة الآداب ، القاهرة .

النعيمى : (عبد القادر بن محمد) ت ٩٢٧ هـ/ ١٥٢١م .

- الدارس فى تاريخ المدارس .

تحقيق جعفر الحسينى ، القاهرة ١٩٨٥م .

النويرى : (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ٧٣٣ هـ هـ/ ١٣٣٢م .

- نهاية الأرب فى فنون الأدب . ط . دار الكتب المصرية . ٣٣ جزء .

الهمدانى : (أبو محمد الحسن بن يعقوب بن يوسف بن داود) ٣٢٤ هـ/ ٩٦٤م .

- صفة جزيرة العرب . ط . مصر ١٩٥٣م .

ياقوت : (أبو عبد الله الحموى الرومى البغدادى) ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩م .

- معجم البلدان .

ط . طهران ١٩٦٥م ؛ ط . دار صادر ، بيروت ١٩٨٦م .

المراجع العربية والمعربة

إبراهيم مدكور :

فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه .

ط . مكتبة دار إحياء الكتب العربية ١٩٤٧م .

إسماعيل باشا البغدادى :

هدية العارفين بأسماء االمؤلفين وآثار المصنفين .

ط . القاهرة ١٩٨٤م .

التهانوى :

كشاف اصطلاحات الفنون .

حسين مؤنس :

نور الدين محمود .

درويش النخيلى :

السفن الإسلامية على حروف المعجم .

ط . الإسكندرية ١٩٧٩م .

رنسيمان ، ستيفن :

تاريخ الحروب الصليبيَة . ترجمة السيد الباز العرينى .

دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٨م .

زامباور :

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى .

أخرجه : زكى محمد حسن ، حسن أحمد محمود ، وآخرون .

ط . القاهرة ١٩٥١م .

الزركلى ، خير الدين :

الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين) .

ط . بيروت ١٩٦٩م .

سعيد عبد الفتاح عاشور :
العصر المماليكى فى مصر والشام .
مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٠م .

عبد اللطيف حمزة :
الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى .
دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٦٨م .

ماير :
الملابس المملوكية .
ترجمة صالح الشيتى . القاهرة ١٩٧٢م .

محمد جمال الدين سرور :
سياسة الفاطميين الخارجية .
دار الفكر العربى . القاهرة ١٩٧٦م .

محمد رمزى :
القاموس الجغرافى للبلاد المصرية .
الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٩٤م .

محمد كرد على :
خطط الشام .
دمشق ١٩٤٦م .

محمود التنوخى :
المعجم الذهبى . بيروت ١٩٨٠م .

مصطفى محمد مسعد :
الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى . القاهرة ١٩٦٠م .

نبيل عبد العزيز :
خزائن السلاح ومحتوياتها .
مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . المجلد ٢٣ لسنة ١٩٧٦م .

Dozy (R.): Supplément aux Dictionnaires Arabes. Paris, 1927.

★فهرست محتويات الجزء الأول من عقد الجمان (العصر الأيوبى)

٥٦٥ هـ - ٥٧٨ هـ

الموضوع الصفحة

★ هذا الفهرست طبقًا للعناوين الرئيسية والفرعية التى وضعها المؤلف .

الكشافات

المصادر والمراجع

تم بحمد الله الجزء الأول من القسم الخاص
من العصر الأيوبى
من كتاب عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان
لبدر الدين محمود العينى
ويليه إن شاء الله تعالى الجزء الثانى
ويبدأ بحوادث السنة التاسعة والسبعين بعد الخمسمائة